المملكـة العربيـة السعـوديـة
وزارة التعليم العالي
جامعة الرياض للبنات
كلية التربية الأقسام الأدبية

بحث مقدم إلى قسم اللغة العربية ضمن متطلبات الحصول على درجة
الماجستير / في تخصص الأدب القديم / جامعة الرياض للبنات

العتـــاب والشكـــــوى
في شعر أبي فراس الحمداني
(٣٢٠هـ - ٣٥٧)
دراسة موضوعية وفنية / تحليلية

Complaint and Reproach in the Poetry of Abu Firas Al-Hamdani (320-357AH): An Analytical and Technical Study

مقدم من :
الطالبة : إيمان بنت محميها بن علي الأسمري
المعيدة في جامعة تبوك (كلية التربية ـ الأقسام الأدبية) في قسم اللغة العربية

إشراف :
د . صابر أحمد عبد الحافظ إبراهيم
أستاذ الأدب المشارك بمركز التعليم عن بُعد بوزارة التعليم العالي

١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

فهــرس المحتويــات

الموضوع	رقم الصفحة

المقدمة ١

التمهيد: عصر الشاعر وملامح شخصيته الأدبية ١٦

* الفصل الأول : عوامل العتاب والشكوى في حياة الشاعر ٠

* المبحث الأول : نفسية الشاعر منذ نشأته ٠ ٢١

أولا: أهمية الدراسة النفسية ٠ ٢١

ثانيا : أبرز مكونات شخصية أبي فراس ٠ ٢٤

(١) – الاعتداد بالنفس ٢٤

(٢) – العبقرية ٠ ٥٤

(٣) ـ وسواس الخوف من الحساد ٠ ٥٩

* المبحث الثاني : صلته بسيف الدولة ٠ ٦٦

أولا : صلة الابن بأبيه ٠ ٦٦

ثانيا : اتحاد الهوى٠ ٧٠

أ- البطولة ٧٠

ب- الأدب ٠ ٧٢

* المبحث الثالث : أثر الأسر ٨٥

أولا: حقيقة الأسر في نظر الشاعر ٠ ٨٥

أ- الأسر قضاء ٠ ٨٦

ب- الإحساس بواقع القيد والأبواب المغلقة ٠ ٨٩

ثانيا : جوانب مظلمة في محنة الأسر : ٩٢

أ- شدة الكرب ٠ ٩٢

ب- مرارة الأسر بين يدي النصارى ٠ ٩٦

ج- الحسرة على أم الأسير ٠ ١٠٠
ثالثا : جوانب مضيئة في محنة الأسر ٠ ١٠٦
أ- الإحساس بأنه أسير الروم الأثير ٠ ١٠٦
ب- مقابلة الأسر بالرضا والصبر ٠ ١٠٩
*الفصل الثاني : العتاب والشكوى في شعر أبي فراس دراسة موضوعية
*المبحث الأول : امتزاج العتاب والشكوى في شعره ٠ ١١٢
أولا : طبيعة العتاب ٠ ١١٢
(١) – مزايا عتاب الشاعر ٠ ١١٥
(٢) – حذْق الشاعر في الإعتاب ٠ ١١٦
(٣) أبرز أنماط عتابه : ١٢١
أ- النمط المنطقي ٠ ١٢٢
ب- النمط الصامت ٠ ١٢٥
ج- النمط الخفي ٠ ١٢٦
د- النمط الفعلي (الفراق) ١٢٨
هـ- النمط الغاضب ٠ ١٢٩
ثانيا: طبيعة الشكوى ١٣٤
(١) جذور الشكوى في نفس الشاعر ٠ ١٣٨
(٢) أهم بواعث شكواه٠ ١٤٠
أ – العجز عن الكتمان ١٤٠
ب – التنفيس عن النفس ١٤٢
جـ- التظلم ٠ ١٤٥
د- الشكوى إلى الله (الدعاء) ٠ ١٤٧
ثالثاً : تمازج عتابه وشكواه ١٥٠
رابعاً : تماثل عتابه وشكواه من حيث الدرجة ١٥٤

أ- الضعف ٠ ١٥٤
ب- القوة ٠ ١٥٨
* المبحث الثاني : محاور العتاب والشكوى ١٦١
١- الأمير الفارس يعاني ذل الأسر ٠ ١٦١
٢- مرارة الغربة ٠ ١٨٦
٣- المرض ٠ ٢٠١
٤- الشوق والحنين ٠ ٢٠٩
٥- الخذلان ٠ ٢٣٨
الفصل الثالث: الخصائص الفنية لشعر العتاب والشكوى
* المبحث الأول : اللغة والأسلوب ٠ ٢٤٨
* المبحث الثاني : التجربة الشعرية ٠ ٢٦٧
* المبحث الثالث : الموسيقى الشعرية ٠ ٢٨١
* المبحث الرابع : الصورة الفنية ٠ ٢٩٥
* المبحث الخامس : الشاعر في ميزان النقد ٠ ٣٠٩
الخاتمة ٠ ٣١٩
فهرس المصادر والمراجع ٠ ٣٢٣
الكتب ٠ ٣٢٣
الدوريات٠ ٣٣٧
ملخص الرسالة باللغة العربية أ
ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية I

المقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة على أشرف الأنبياء والمرسلين ، نبينا محمد وعلى آله أجمعين أما بعد ...

فإنّ الأدب العربي وثيقة مهمة يُستدل بها على سمات أي عصر من العصور ، فهو يعكس كثيراً من حضارات الشعوب ، ويدل على سماتهم الفكرية والثقافية والاجتماعية ، و يُمثل الشعر أبرز فنون الأدب التي حظيت باهتمام بالغ عند أمة العرب ، فهو لسانهم إذا رغبوا و رهبوا ، و قد تباينت الآراء حول تحديد أغراض الشعر منذ القدم ؛ وذلك لكثرتها، و تشعب معانيها .

و من ضمن الأغراض الشعرية ، التي لم تنل حظاً وافراً من الدراسة . مقارنة بالأغراض الأخرى . العتاب والشكوى ، على الرغم من وجودهما في بعض تفريعات الأغراض عند النقاد ؛ وربما رجع هذا الأمر إلى صعوبة عزلهما عن الأغراض الأخرى ، مثل النسيب والمدح والفخر ...

و تأتي أهمية هذين الغرضين من صراحة صاحبهما وجرأته على المواجهة أياً كان نوعها ، و قدرته على نقل ما حمله على العتاب والشكوى .

وقبل الحديث عن هذين الغرضين ، لابد من وقفة لغوية ، توضح المقصود منهما :

فالعتاب من (العَتْبُ) : الموجدة ، و التَّعَتُّبُ : التَّجَنِّي ، و يُقال عَاتَبه مُعاتَبَةً وعِتاباً .

و الاسْتِعْتابُ : طلبك إلى المسيء الرجوع عن إساءته .

والإعْتابُ والعُتْبَى : رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتب ، و أعتبني فلان: أي ترك ما كنت أجد عليه من أجله [1]

و يُقال : إنّ العتَب بمعنى الموجدة ، أصله العطب ، الذي يدل على الشدة والإيذاء ، و من هنا قيل العَطَب هو الموجدة ، و يقال عطب عليه أي وجد عليه . و لقد تحولت الطاء على ألسنة بعض العرب إلى التاء مع احتفاظ الكلمة بمعناها [2] .

---

(١) . انظر : لسان العرب : ابن منظور ، (عتب) ، دار صادر ، ط٣ ، بيروت – لبنان ، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

(٢) . انظر : الأضداد في اللغة العربية : د . أحمد عبد التواب الفيومي ، ص ٢٦٦ ، ط ١ ،١٩٩١م .

و من الصعب الجزم بوجود فروق دقيقة بين العتاب ، و مُرادفاته من لوم وعذل و تأنيب ... وغيرها ؛ و ربما رجع ذلك إلى أنّ العتاب لا يكون على درجة واحدة من حيث القوة والضعف ، فهناك مثلاً العتاب القوي كالتقريع و التبكيت والتثريب[١] .

و من الجهود التي بذلها اللغويون في الفروق الدقيقة بين الكلمة و مرادفاتها ، ما ذكره الكفوي (١٠٩٤هـ) أنّ العذل و اللوم مما يحرض ، كما أنّ العذل مما يُغري ، و العتاب مما يزيد في الإعراض ، و التعنيف مما يحس المنهي عنه[٢]

و العتاب " هو الخطاب على تضييع حقوق المودة والصداقة في الإخلال بالزيارة وترك المعونة و ما يشاكل ذلك ، و لا يكون العتاب إلا ممن له مَوات يمت بها "[٣]

من الواضح في التعريفات السابقة ، أنّ العتاب لا يكون إلا بين أشخاص متوادين ، حدث بينهم نفور ووحشة ؛ فأصبح العتاب لغة التخاطب بينهم ؛ لأنه " وليد الشعور الغاضب ، ولكنه ليس غضب الحقد ، وإنما هو غضب الدالة"[٤]، و هو استدراك للأمور قبل أنْ تصير إلى ضغائن .

و هذا ما يُشير إلى أنّ العتاب رفيق الوداد ، و دليل صحة الصحبة ؛ لأنه يُمثّل الدواء

---

(١) . وقد وضع الثعالبي باباً بعنوان (في العتاب والشكوى والتثريب و البث والاستعطاف و ما أشبه ذلك) في المخطوط له . (انظر : الشكوى والعتاب وما وقع للخلان والأصحاب : لأبي منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي ، تحقيق : د . إلهام عبدالوهاب المفتي ، ص ٩ ، كلية التربية الأساسية ، قسم اللغة العربية ، ط١ ، الكويت ، ١٤٢١هـ. ٢٠٠٠م) .

و التقريع أن يقول الرجل في وجه الرجل عيبه ، فيقول : فعَلْتَ كذا وكذا ، والتبكيت قريب منه ، والتثريب الاستقصاء في اللوم ، وفي التنزيل العزيز (لا تثريب عليكم اليوم) سورة يوسف آية ٩٢ أُنظر : لسان العرب : (ثرب) .

(٢) . الكليات :لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ، (لوم) ، إعداد : د٠ عدنان درويش محمدالمصري، مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ، بيروت – لبنان ، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م

(٣) . الفروق اللغوية : أبو هلال العسكري ، تعليق : محمد باسل عيون السود ، ص ٦٥، دار الكتب العلمية، ط ٢ ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٣- ١٤٢٤هـ ٠

(٤) . العتاب في الشعر العباسي : د٠ محمد عثمان الملا ، مجلة الفيصل ، س ١٣ ، ع١٥٣، ربيع الأول ، تشرين الأول (أكتوبر) ، ص ١٠١ ٠

الذي يتجرعه المريض . ولو كان مُرّاً . ليصحّ بدنه ، وتذهب علته ، و " يُقال : إذا

تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب " [1] .

و العتاب من حيث موضوعيته له أُصوله في التراث العربي ، و قد ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية ، ففي سورة عبس نوع من العتاب الذي وجهه الله سبحانه وتعالى إلى نبيه الكريم ؛ حين كان قوم من أشراف مكة عنده صلى الله عليه وسلم وقد طمع في إسلامهم فأقبل عبد الله بن أم مكتوم ؛ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كراهية أن يقطع عليه كلامه ؛ فنزلت السورة .[2] قال تعالى: **"عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى"** [3]

وذُكر العتاب بمشتقاته المختلفة في أشعار العرب من العصر الجاهلي ، وما تلاه من عصور، وورد أيضاَ مضمونه في أشعارهم و اختلفت صور العتاب في الشعر العربي ، ما بين قصائد استقلت بالغرض ، وأجزاء من قصائد ، كما اختلفت الطرائق والأهداف .

ويدل شعر العتاب في كثير من الأحوال على طيب نوايا العاتب ، الذي يسعى لحفظ الوداد ، وإصلاح النفوس ، وطرد الشحناء قبل تمكنها من القلوب ؛ ولكنه يحتاج إلى نوع من الحيطة والحذر ؛ كي لا يحول عن غرضه الرئيس، فهو دليل الوداد و رسول الوفاء و حفظ الصحبة .

و لا يعني ذلك أنه محمود العواقب في جميع أحواله ؛ بل ذمه بعض الحكماء ، فقال : " العتاب رسول الفرقة وداعي القلى وسبب السلوان وباعث الهجران"[4] وخير الأمور

---

(١) . ديوان الأدب : أبو ابراهيم الفارابي ، ترتيب وتحقيق : عادل عبد الجبار الشاطي ، (عتب) ، مكتبة لبنان ، ط١ ، بيروت– لبنان ، ٢٠٠٣ م .

(٢) . انظر : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير : محمد بن علي الشوكاني،٣٨٢/٥ ، دار الفكر العربي، (ب ٠ ط) ، بيروت ، (ب٠ ت) ٠

(٣) . سورة عبس آية (١ ٠ ٢) .

(٤) . ديوان المعاني : تأليف : أبي هلال العسكري ، تحقيق : أحمد سليم غانم ، ١ / ٣٥٩ ، دار الغرب الإسلامي، ط ١ ، بيروت ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م ٠

أوسطها فـ"كثرة العتاب إلحاف ، وتركه استخفاف " [1] .

وخيرٌ للمرء أن يقل عتابه لأنه " إذا قلّ كان داعية الألفة ، وقيد الصحبة ، وإذا كثر خشن جانبه وثقل جانبه صاحبه" [٢].

وهناك من أدرك كنه الهدف الحقيقي من العتاب ، وعبّر عن ذلك في صورة جميلة ، تُبيّن أنّ العتاب وإن كان مُراً ؛ فإنه دليل الوداد الصادق .

لا تـــأنفنَّ مـــن العتـــابِ و قَرصِـــه ، فالمســكُ يُســحَقُ كــي يَزيــدَ فضــائِلا

مـــا حُـــرِّق العـــودُ الـــذي أشـــبهتَه خطـــأ ، و لاغُـــمَّ البَنَفســـجُ بـــاطِلا[٣]

فهذا دليل على بُعد نظر الشاعر ؛ فهو لم ينظر إلى حدة العتاب وشدته ؛ بل نظر إلى عاقبته المحمودة ، وقال بعض السلف : " ضربة الناصح خير لك من تحية الشاني ، ولا فضل للمرائي على مظهر الشنآن " [٤]

وهناك من دعا إلى التوسط في العتاب ؛ حتى لا يجد الإنسان نفسه بلا صاحب ؛ وخير له من ذلك أن يغض الطرف عن الهفوات ، ويستر الزلات ، و يُقيل العثرات ...

إذا كنـــتَ فـــي كـــلِّ الـــذُّنوبِ مُعاتِبـــاً صـــديقَكَ لـــم تَلـــقَ الـــذي لا تُعاتِبُـــهْ

فعِـــش واحـــداً أو صِـــلْ أخـــاك فإنّـــه مُفـــارِقُ ذَنـــبٍ مـــرةً وُمجانِبُـــهْ[٥]

و تنبع قوة العتاب و رقته من اختلاف منزلة المعاتب قرباً و بُعداً و حباً و بغضاً ، فإن كان نسياً _ مثلاً _ فما أحراه بالرقة ؛ وذلك لعدم الخوف من عواقبه ، ومن أجمل ما قيل في ذلك :

---

(١) . الصداقة والصديق : لأبي حيان التوحيدي ، شرح وتعليق : علي متولي صلاح ، ص ١١٨، مكتبة الآداب، (ب ٠ ط) ، (ب ٠ ت) .

(٢) . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني ، تحقيق : د٠ عبد الحميد هنداوي ، ١٧٩/٢ ، المكتبة العصرية ، ط١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

(٣) . ديوان السري الرفاء : تقديم وشرح : كرم البستاني ، ص ٣٩٤ ، دار صادر ، ط ٣ ، بيروت ، ١٩٩٥م .

(٤) . الصداقة والصديق : ص ١١٩

(٥) . ديوان بشار بن برد : قرأه و قدّم له : د . إحسان عباس ، ص ١٠٦ ، دار صادر ، ط ١ ، ٢٠٠٠م.

فيـــا حُسْـــنَها إذْ يَغْسِـــلُ الـــدَّمع كُحْلَهَـــا وَإذْ هِـــيَ تُـــذْرِي الـــدَّمْعَ مِنْهَـــا الأَنامِـــلُ

عَشِـيَّةَ قالـتْ فـي العتـاب : قَتَلْتَنِـي وَقَتْلـي بمَـا قَالَـتْ هُنَـاكَ تُحَـاوِلُ[1]

كما أنّ هناك من يود التفاعل في العتاب ؛ فيكون العتاب أخذاً وعطاء ، فهو يقبل أن يُعاتب ؛ ولكنّه لا يحب من عاتبه أن يشيح عنه ولا يُعتبه ، مثل قول الشاعر :

قَطعـتَ عُـرَى وُدِّي وخنـت أمـانتي وَأَبْـدَيْتَ لـي عَتبـاً ولـم تقبـل العتبـى

فَيَـا رُبَّ ليـلٍ لا يُرجَّـى صـباحه تحَّملـتُ فِيـه مـا كرِهْـتُ لمـا تهـوَى[2]

وقد يتجاوز الأمر ذلك ؛ ليُطلب من الدهر أن يُعتب بنيه ، الذين زادهم ترك الإعتاب عتاباً ، وذلك في قول الشاعر :

لَنـا عِنْـدَ هـذا الـدهرِ حَـقٌ يَلُطُّـهُ [3] **وقـد قَـلَّ إِعتـابٌ وطـالَ عِتـابُ**[4]

ومن الجدير بالذكر أنّ للعتاب طرائق كثيرة ، وللناس فيه ضروب مُختلفة، ومن الذين تنبهوا إلى ذلك ابن رشيق القيرواني (٣٩٠هـ – ٤٦٣ أو ٤٥٠هـ) ؛ فجعل منه ما يمازجه الاستعطاف والاستئلاف ، ومنه ما يُداخله الاحتجاج والانتصاف ، وقد يعرض في المن والإجحاف [5].

---

(١) . ديوان جميل بثينة : تحقيق : د٠ أميل بديع يعقوب ، ص ١٥٤ دار الكتاب العربي ، (ب ٠ ط) ، بيروت ، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤ م

(٢) . ديوان ابن المعتز : شرح : مجيد طراد ، ١/ ٤٤١ ، دار الكتاب العربي ، (ب ٠ط) ، بيروت، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م

(٣) . ُيقال : لط حقه عليه ، ولط عليه : جحده ٠(لسان العرب : (لطط))٠

(٤) . العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب : الشيخ ناصيف اليازجي، راجعه: د٠ يوسف فرج عاد، ٩١١/٢، دار الجيل ، (ب ٠ ط) ، بيروت ، (ب ٠ ت) ٠

(٥) . انظر العمدة : ١٧٩/٢

أما حين يكون الشاعر غاضباً ناقماً يُريد الانتقام ؛ فهو لايعدم العتاب حتى و إن كان الود بين العاتب و المعاتب مفقوداً ؛ و ذلك لأنّ العاتب يجد في عتابه ما ينقل إحساسه بالظلم و رغبته في التمرد على واقعه بشدة ، حتى وإن خرج إلى تقبيح صورة المعاتب ، و من ذلك قول أحد الشعراء المحدثين في قصيدة بعنوان (عتاب و وعيد) :

لمـــاذا تـــدوس حشـــاي الجـــريحَ ؛ و فيـــه الحنـــانُ الـــذي دللـــك

و دمعـــي ؛ و دمعـــي ســـقاك الرحيـــقَ أ تـــذكر " يانـــذل "كـــم أثملـــك ؟!

فمـــا كـــان أجهلنـــي بالمصـــير و أنـــت لـــك الويـــل مـــا أجهلـــك[1]

و امتزاج هذا النوع بالهجاء ، كامتزاج العتاب بالنسيب ، فالنسيب يزيد من رقة العتاب و عذوبته ، و الهجاء يزيد من خشونة العتاب و غلظته .

أما الشكوى ؛ فهي من شكَوْتُ أَشْكو شَكْوى وشكايَةً وشكيْة وشَكاةً ، إذا أخبرت عنه بسوء فعله بك ؛ فهو مَشْكُوٌّ ومِشْكِيٌّ والاسم الشَّكْوى [2]

ويدل الفعل (أشْكَيْتُ) على معنيين متضادين ، فيقال أشْكَيْتُ الرجل : إذا أتيت إليه ما يشكوني فيه ، و أشكيته : نزعت عنه شكايته [3] ، وفي الحديث : (**شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة في الرمضاء فلم يُشكنا** [4]" والمعنى أنهم شكوا إليه – صلى الله عليه وسلم – حرَّ الشمس وما يُصيب أقدامهم منه إذا خرجوا إلى صلاة الظهر،

---

(١) . ديوان البردوني : مج١ / ص ٣١٢ ، دار العودة ، (ب . ط) ، بيروت ، ١٩٨٦م .

(٢) . انظر : لسان العرب : (شكا)

(٣) .انظر : كتاب الأضداد : لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت ، حققه : محمد عودة سلامة أبو جري ، مراجعة : د . رمضان عبد التواب ، ص١٤٥، مكتبة الثقافة الدينية ، (ب . ط) ، بورسعيد ، (ب . ت) .

(٤) . صحيح مسلم : للإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، اعتنى به أبو صهيب الكرمي ، ص ٢٤٦ ، بيت الأفكار الدولية ، (ب . ط) ، عمان ، (ب ، ت) .

وسألوه تأخيرها قليلاً فلم يُشكهم أي لم يُجبهم إلى ذلك ولم يُزل شكواهم [1].

وقدر ورد فعل الشكوى في القرآن الكريم ، ومن ذلك حين بثّ يعقوب – عليه السلام– شكواه إلى ربه في قصة أبنائه ، في قوله تعالى " **قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بثّي وحُزنِي إلىَ اللهِ وَأَعْلَمُ مَن الله مَالاَ تعلمونَ** " [2]

و قد عبّر الشعراء عن رغباتهم و حاجاتهم عن طريق الشكوى ، كما نقلوا واقعهم وصوروا مجتمعهم ، و وصفوا سجالهم الدائم مع الحياة من خلال التعبير عن إحساسهم بالضيم ، و رغبتهم في رفعه عنهم ، أو ربما صدرت الشكوى للتخفيف عن النفس و إفراغ همومها و أوصابها ، و تُعد الشكوى وسيلة وصل بين طرفين أو أكثر ، و تختلف في طرقها من شخص لآخر ، أو ربما لدى الشخص نفسه من وقت لآخر تبعاً لظروف الزمان و المكان و الشخصيات ، كما تختلف طرق التعبير من صريح إلى ضمني ، وغالباً

ما يكون الحوار أداة للشكوى والعتاب معاً ؛ لأنه وسيلة للمكاشفة وقرع الحجج .

و لما كان خيل عنترة [3] لا يُجيد الحوار ؛ امتنع عن الشكوى التي ضمّنهاالشاعرعبرات خيله وتحمحمه ، فقال [4] :

---

(١) . انظر : لسان العرب : (شكا)

(٢) . سورة يوسف : آية ٨٦

(٣) . هو عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد بن مخزوم بن ربيعة ، لُقب بعنترة الفلحاء؛ لتشقق شفتيه ، وأمه أمة حبشية ، نفاه أبوه ذات مرةُ ثم اعترف به فأُلحق بنسبه ، وكان سبب ادعاء أبي عنترة إياه أن بعض أحياء العرب أغاروا على بني عبس ، فأصابوا منهم واستاقوا إبلاً ، فتبعهم العبسيون فلحقوهم و قاتلوهم ، و عنترة يومئذ فيهم ، فقال له أبوه : كُرّ يا عنترة ، فقال عنترة : العبد لا يحسن الكر ، إنما يحسن الحلاب و الصر ، فقال : كُرّ و أنت حر ، فكَرّ وقاتل يومئذ قتالاً حسناً ، فادعاه أبوه بعد ذلك و ألحق به نسبه .

انظر : الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين ، إعداد : مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي ، مج ٤ / ج ٨ / ص ٣٨٦ . ٣٨٧ ، ط ١ ، بيروت – لبنان ، (ب ٠ ت)

(٤) . ١ . شرح ديوان عنترة بن شداد : الخطيب التبريزي ، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه : مجيد طراد ، ص ١٨١، وما بعدها ، دار الكتاب العربي ، (ب٠ ط) ، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م .

٢ . شرح المعلقات السبع : لأبي عبدالله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني ، ص ١٤٠، دار الكتاب العربي ، ط ٦ ، بيروت ، ١٤٢٣ هـ . ٢٠٠٢ م .

لَمّـــا رأيـــتُ القـــومَ أَقْبـــلَ جَمْعُهُـــمْ يَتـــذامرونَ كَـــرَرْتُ غَيْـــرَ مُـــذَمَّمِ

يَـــدْعونَ عَنْتَـــرَ والرِّمـــاحُ كَأَنَّهـــا أَشْـــطانُ بِئْـــرٍ فـــي لَبـــانِ الأَدْهـــمِ

مـــا زِلْـــتُ أَرْمِـــيهِمْ بِثُغْـــرَةِ نَحْـــرِهِ وَلبانِـــهِ حَتَّـــى تَسَـــرْبَلَ بالـــدَّمِ

فَـــازْوَرَّ مِـــنْ وَقْـــعِ القَنـــا بِلَبَانِـــهِ وَشَـــكَا إلـــيَّ بِعَبْـــرةٍ وتَحَمْحُـــمِ

لَـوْ كَـانَ يَـدْرِي مـا المُحَـاوَرَةُ اشْـتَكَى ولكَـانَ لَـوْ عَلـم الكَـلامَ مُكَلِّمـي

فالخيل تريد أن تبث عنترة ؛ ليُشكيها بعد أن أضرَّ بها وأوردها المهالك ؛ ولكنها لا تستطيع الكلام لتحاور الشاعر ؛ و لكنه عرف لغة الشكوى من عبراتها التي عبّرت عن الألم .

و ربما طلب الشاعر الراحة في إخراج شكواه إلى من ينصفه ، فإنْ عدمه ؛ أخرجها دون أن يجد في ذلك حرجا ، ومن أرق ما قيل في ذلك :

سَـــأُحِبُّ أعـــدائي لأنـــك مـــنهُمُ ، يـــا مَـــنْ يُصِـــحّ ، بمُقْلتَيِـــه ، و يُســـقِمُ

أصـبحت تُسـخطني ، فأمنحـك الرّضـى مَحْضـــاً ، و تَظلِمُنـــي ، فَـــلا أتَظَلَّـــمُ

يَـــا مَـــنْ تـــآلف ليلُـــهُ و نهـــارُهُ ، فالحُســـنُ بينهمـــا مُضـــيءٌ ، مُظلِـــمُ

قـد كـان ، فـي شـكوى الصـبابة ، راحـةٌ ، لـوْ أننّـي أشـكو إلـى مَـنْ يَـرحَمُ[1]

و ترتبط الشكوى بالعتاب ارتباطاً وثيقاً ؛ لما لهما من علائق و سمات مشتركة ، و هما شريكان في كثير من الأمور التي جعلت من غير اليسير الفصل بينهما ، و قد مزج الشعراء ذلك في كثير من أشعارهم ، و من ذلك المزج اتضحت البواعث و المحاور التي اشتركوا فيها ، و من ذلك محاولة إخفاء العتاب و الشكوى لحاجة في النفس ، حتى و إن ظهر

---

(١) . ديوان ابن زيدون : شرح و تحقيق : كرم البستاني ، ص٦٢ ، دار صادر ، ط٣ ، بيروت ، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م .

ذلك جلياً على العاتب أو الشاكي ، و من ذلك قول المجنون [1]:

عفا الله عن ليلى و إنْ سفكتْ دمي فإنّي و إنْ لمْ تَحْزَني غيرُ عاتبِ

عليها و لا مُبْدٍ لليلى شِكايَة و قدْ يَشْتكي المُشْكَى إلى كلِّ صاحبِ

يقولون تُبْ عن ذِكْرِ ليلى و حُبِّها و ما خَلدي عنْ حُبِّ ليلى بتائب[2]

وعلى أي حال ؛ فإنّ الشكوى شريكة العتاب ، في إغفال كثير من النقاد لها ، و إفرادها بغرض مستقل بها ؛ لارتباطها الوثيق بكثير من الأغراض ؛ ولكن ذلك لا يكفي في دراستها ، فكما كان الرثاء — مثلاً – عند بعض النقاد يدخل في نطاق المدح؛ ولكنّه استقل بذاته ؛ فكذلك من الجدير بغرضي العتاب والشكوى أن يستقلا ؛ لينالا حظاً أوفر من الدراسة والتعمق ٠

ويسوغ الجمع بينهما في هذه الدراسة ، تشابههما من حيث المادة ، واتصالهما ببعض في شعر أبي فراس ، وتلاحم طرقهما ، وترابط محاورهما ، وتشابه بواعثهما، وقد جمع الثعالبي[3] بينهما في مخطوط نُسب إليه بعنوان : الشكوى و العتاب و ما وقع للخلان و

---

(١) . هو قيس بن الملوح بن مزاحم بن قيس ، ، اشتهر بحبه لليلى ، و شبب بها ، منعه أبوها من الزواج بها ، فهام في كل واد و تتبع الظباء و لم يأنس بالناس حتى أصبح ميتا ، في السبعين للهجرة . أنظر : الوافي بالوفيات : صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط ، تركي مصطفى ، ج ٢٤ / ص ٢٢٣ و مابعدها ، دار إحياء التراث العربي، ط١ ، بيروت ، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م ٠

(٢) . ديوان مجنون ليلى : شرح : د . يوسف فرحات ، ص ٣٨ ، دار الكتاب العربي ، (ب . ط) ، بيروت — لبنان ، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٧م .

(٣) . هو أبو منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري ، والثعالبي نسبة إلى خياطة جلود الثعالب وعملها ، قيل له ذلك لأنه كان فراء ،كانت ولادته سنة خمسين و ثلثمائة ، و توفي سنة تسع وعشرين و أربعمائة، له مؤلفات كثيرة ، من أشهرها (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر) ، و هو من أكبر كتبه و أحسنها و أجمعها، وله أيضاً فقه اللغة ، و سحر البلاغة ، و من غاب عنه المطرب ، و مؤنس الوحيد ، و شيء كثير جمع فيها أشعار الناس و رسائلهم وأخبارهم . (انظر : وفيات الأعيان وأنباء الزمان : لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، ت: د٠ إحسان عباس ، ٣ / ١٧٨ . ١٨٠ ، دار صادر ، (ب ٠ط) ، بيروت ، (ب . ت)) .

الأصحاب ، وكذلك جمع بينهما في يتيمة الدهر ضمن حديثه عن أبي فراس بعنوان: (الشكوى والعتاب سوى ما وقع في الروميات) .

– ومما دعاني لاختيار هذا الموضوع :

– ندرة تخصيص دراسة لغرضي العتاب والشكوى .

– يُمثل العصر العباسي مرحلة انشقاقات وفتن ، وفي الوقت ذاته يُعتبر مرحلة ازدهار ثقافي وعلمي ، وكلما ازداد تعقيد الحياة ، ازدادت حاجات النفس ورغباتها في التعبير عن حاجاتها والتنفيس عن رغباتها.

– الرغبة في الكشف عن العلاقة القوية التي تربط بين غرضي العتاب والشكوى ، ومعرفة أسباب تلاحمهما في شعر أبي فراس.

– ما حفل به هذين الغرضين من مساحة واسعة في ديوان الشاعر .

– اهتمام جُلّ الدراسات التي حظي الشاعر بها بمرحلة أسره ، وتعليق شعره عليها ، وإغفال أنّ أغراضه الشعرية لم تكن وليدة الأسر.

– ومن أهم أهداف البحث :

– الوقوف على معنى العتاب والشكوى ، والبواعث التي تُخرجهما من مكنون النفس إلى عالم الوجود.

– الكشف عن الأسباب التي دفعت الشاعر إلى العتاب والشكوى ، ودراسة العوامل التي ساعدت على ظهورهما .

– التعالق الوثيق بين شخصية الشاعر ، وروح النص في شعر العتاب والشكوى .

- منهج البحث :

- اعتمدت في دراسة العتاب والشكوى على ديوان أبي فراس بتحقيق سامي الدهان ، المعهد الفرنسي بدمشق ، ويقع الديوان في جزءين ، كلاهما مصدر بعبارة (الجزء الثاني) ؛ لذلك نقلتها كما هي في الشاهد المناسب .
- محاولة الاختصار قدر الإمكان ، وتجنب التكرار ، ومحاولة البعد عما أطال فيه الباحثون.
- اعتمدت في دراستي على منهج تحليلي ، متكامل .
- تضمن البحث تراجم للشخصيات البارزة ، عدا القليل الذي أشرت إلى عام مولده ووفاته ، ما أمكن ذلك .

ومن أهم الصعوبات التي واجهتني أثناء البحث :

لا أدعي قلة المراجع ؛ فالشاعر كغيره من الشعراء المشهورين ؛ ولكن كثرة التكرار ونقل المراجع من بعضها إلى درجة أن تصل أحياناً إلى أن ينقل الباحث ، دون أن يعزو لما نقل منه ؛ يتطلب نوعاً من الحذر والدقة أثناء القراءة ، وقراءة أكبر قدر ممكن ؛ ليتم الابتعاد عن التكرار ، والوصول إلى نتيجة تخدم البحث العلمي .

كما أنّ العتاب والشكوى غرضان لم ينالا حظاً وافراً من الدراسة ، مما يتطلب بذل الجهود ؛ للحصول على ما يخدم البحث .

أيضاَ شدة ارتباط الموضوع بمعطيات علم النفس ، يحتاج إلى وقت أكبر للقدرة على فهم تلك المعطيات وتوظيفها التوظيف الجيد ، الذي يبتعد عن الإغراق والخوض فيما لا طائل منه . وأخيراً صعوبة الحصول على ما تفتقر إليه تبوك من مصادر ومراجع ؛ مما يضطرني دائماً إلى التنقل .

الد ارسات السابقة :

– الشكوى و العتاب و ما وقع للخلان و الأصحاب ، لأبي منصور الثعالبي ، تحقيق : إلهام مفتي ، ويتضمن مجاميع شعرية ونثرية ، و كان للشكوى و العتاب باباً ، جمع فيه الثعالبي بعضاً من الأبيات المتفرقة ، و بعضاً من الحكم و أقوال البلغاء .

– الشكوى في ا لشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري : د .ظافر الشهري

– العتاب في الشعر العباسي ، مجلة الفيصل ، ع ١٥٣ ، س ١٣ ، ربيع الأول ١٤١٠هت ، تشرين الأول ، أكتوبر ٠

أما ما يتعلق بدراسة شعر أبي فراس ، فهناك العديد من الدراسات ، من أبرزها :

– شعر أبي فراس دلالته وخصائصه الفنية : د٠ عبد اللطيف عمران ٠

– أبو فراس الحمداني ، حياته وشعره : عبدالجليل حسن عبد المهدي٠

– شاعر بني حمدان : أحمد أحمد بدوي٠

– أبو فراس الحمداني الموقف والتشكيل الجمالي : د٠ النعمان القاضي ٠

– أبو فراس الحمداني دراسة في الشعر والتاريخ : جورج غريب ٠

– أبو فراس الحمداني فتوة رومنسية : خليل شرف الدين ٠

– الاتجاه الوجداني في روميات أبي فراس الحمداني : إلهام الغنام ٠

– أثر الاغتراب في شعر أبي فراس الحمداني ، مظاهره وسماته الفنية : الجوهرة عبد العزيز المعيوف٠

– وتتألف خطة البحث من :

مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة فصول ، وخاتمة ٠

المقدمة : تشمل التعريف بالعتاب والشكوى ، وأسباب اختيار الموضوع ، وأهدافه ، والدراسات السابقة ، والمنهج المتبع في دراسته ٠

التمهيد : يتناول من عصر الشاعر ، وملامح شخصيته الأدبية ٠

فصول البحث الثلاثة :

الفصل الأول : عوامل العتاب والشكوى في حياة الشاعر ، ويتكون من ثلاثة مباحث :

الأول : نفسية أبي فراس ، وتشتمل على أهمية الدراسة النفسية ، وأبرز مكونات شخصية الشاعر مثل : اعتداده بالنفس ، والعبقرية ، ووسواس الخوف من الحساد

الثاني : صلته بسيف الدولة ، و هي صلة ابن بأبيه ، وصلة أخرى قامت على اتحاد هواهما في البطولة ، و الأدب .

الثالث : أثر الأسر ، و يشتمل على حقيقة الأسر في نظر الشاعر : إيمانه أنّ الأسر قضاء ، بالإضافة إلى ماكان يعانيه من إحساس بواقع القيد والأبواب المغلقة .

و يشتمل هذا المبحث أيضاً على جوانب مظلمة في محنة الأسر ، مثل شدة الكرب ، و مرارة الأسر بين يدي النصارى ، والحسرة على أمه .

أما الجوانب المضيئة في محنة الأسر ؛ فتتمثل في إحساسه بأنه أسير الروم الأثير، وصبره ورضاه على تلك المحنة .

الفصل الثاني : العتاب والشكوى في شعر أبي فراس دراسة موضوعية ، ويتكون من مبحثين :

الأول : امتزاج العتاب والشكوى في شعر أبي فراس ، ويشتمل على طبيعة العتاب ، و مزاياه ، و حذق الشاعر في الإعتاب ، مثل ترك الإعتاب تقديراً و إجلالاً وثبات الشاعر على جفاء العاتب ، وحسن تدبير الشاعر للعفو ، الذي لا يصل إلى درجة تُغري به .

و يشتمل كذلك على أبرز أنماط عتابه ، وهي : النمط المنطقي ، والصامت ، و الخفي ، والفعلي (الفراق). و يشتمل على طبيعة الشكوى ، وجذورها في نفس الشاعر ، وأهم

بواعثها ، مثل العجز عن الكتمان ، و تبريح النفس ، والتظلم ، و الشكوى إلى الله

(الدعاء) . و يشتمل كذلك على تمازج عتابه وشكواه.
كما يُبرز تماثل عتابه وشكواه من حيث الدرجة (القوة ، والضعف) .
الثاني : محاور العتاب و الشكوى :
الأمير الفارس يعاني ذل الأسر ، و مرارة الغربة ، و المرض ، والشوق والحنين، و الخذلان.

الفصل الثالث : العتاب والشكوى في شعر أبي فراس دراسة موضوعية ، و يشتمل على خمسة مباحث : وهي اللغة والأسلوب ، التجربة الشعرية ، و الموسيقى الشعرية ، و الصورة الفنية ، و الشاعر في ميزان النقد .

الخاتمة : و فيها خلاصة البحث ، و أهم النتائج والمقترحات .

وأخيراً لا يسعني إلا أن أشكر الله الذي مكنني من إنجاز هذا العمل ، الذي يمثل ثمرة جهد بشري جُبل على الخطأ و النسيان ، و أتقدم بالشكر والعرفان إلى من ساندني في ذلك ، وأخص بالشكر من سار بي إلى رياض العلم ، حاملاً حقيبتي ، موثباً همتي ، أحسن الناس بشرا ، و ألطفهم قولاً ، و أرقهم جنانا... حفظ الله أبي ، و أجزل الله العطاء لقلب أمي المعطاء و شكر لها صبرها ، و ألزمني برها ...
كما أشكر مشرفي الدكتور صابر أحمد عبد الحافظ ؛ فلم أجده إلا صابرا على خطوات بحثي منذ البداية ...
و أشكر كل من بذل لي وقته ، ونصحه على إنجاز هذا العمل من أهل و أحبة .
كما أشكر عميدة كلية التربية بالرياض ، و وكيلة الكلية ، و وكيلة الكلية للدراسات العليا و قسم اللغة العربية و رئيسة قسمه ...

وأخيراً لا يسعني إلا أن أقول ، كما قال شاعرنا أبوفراس :

إنْ قصّرَ الجُهْدُ عَنْ إدراكِ غَايتِهِ فَأَعْذَرُ النَّاسِ مَنْ أَعْطَاكَ مَا وَجَدَا[1]

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين و الصلاة على أشرف الأنبياء والمرسلين .

(١) . ديوان أبي فراس الحمداني : عني بجمعه ونشره وتعليق حواشيه ووضع فهارسه : سامي الدهان ، ٢ / ٩٦المعهد الافرنسي بدمشق مجموعة النصوص الشرقية ، بيروت ، ١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م .

التمهيد : عصر الشاعر ، وملامح شخصيته الأدبية :

تميزت الخلافة العباسية بكثرة الصراعات والانقسامات الحزبية و السياسية ، و تدخل العناصر غير العربية في شؤون الملك ، مثل العنصر الفارسي الذي اعتمدت عليه في بادىء الأمر ، و العنصر التركي الذي أدخله المعتصم (٢١٨هـ . ٢٢٧هـ) ، و خصه بالنفوذ و قيادة الجيوش و جعل له مركزاً في السياسة ، إلى أنْ أصبحوا من أصحاب الحل و العقد ، بل أدى ذلك أيضاً إلى تدخلهم في شؤون الملك في اختيار الخلفاء و عزلهم أو النكال بهم [١] .

و نشأ عن ذلك اضطرابات و انقسامات أدت إلى استقلال دويلات عن الخلافة العباسية ، كما ظهرت أطماع البيزنطيين بعد أن وجدوا الوضع ملائماً للإغارة على الدولة التي دبَّ إليها الضعف ، وبدت عليها أمارات الهزيمة .

و حين كان نفوذ الخلافة في بغداد في أقل قوته ، و قوة الإخشيديين ثم الفاطميين في مصر و الشام في أضعف حالاته ، قامت الدولة الحمدانية في منطقة الموصل ثم في حلب ؛ لتسد فراغاً موجوداً بين قوتين بدا واضحاً عليهما عدم فعالية المشاركة بينهما في الدفاع عن ذلك الثغر الهام[٢] .

---

(١) . انظر : ١ـ الكامل في التاريخ : لعزالدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد المعروف بابن الأثير ، تحقيق : خليل مأمون شيما ، ج٥ / ص٤٢٦ ، دار المعرفة ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٢هـ. ٢٠٠٢م .

٢ . في التاريخ العباسي و الفاطمي : أ.د : أحمد مختار العبادي ، ص ٣٠ ، مؤسسة شباب الجامعة ، (ب . ط) ، الإسكندرية ، (ب . ت) .

٣ . العالم الإسلامي في العصر العباسي : د . حسن أحمد حمود ، د . أحمد إبراهيم الشريف ، ص ٣٢٠ . ٣٣٠ ، دار الفكر العربي ، (ب . ط) ، القاهرة ، (ب . ت) .

(٢) . انظر : فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين : د ٠ مصطفى الشكعة ، ص ٥ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، (ب ٠ ط) ، (ب ٠ ت) .

و كان ظهور الحمدانيين من ناحية أُخرى يُمثل انتعاش العنصر العربي الذي انزوى بعد تقدم العناصر التركية في العراق[1] .

وذلك ما جعل هذه الدولة تتميز عن غيرها ، فهي " من أرفع الدول عماداً ، وأثبتها أوتاداً ، وبيت أربابها من أنبه بيوت العرب ذكراً ، و أعلاها قدراً ، أما جرثومة النسب ، فتغلب ، و أما شعبه فربيعة ، جدهم الأقرب الذي ينسبون إليه هو الأمير مكابل المحل حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن راشد بن رافع بن مسعود بن دلهم بن مسعود بن عطيف بن سراقة بن جارية بن مالك بن غنم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب" [2].

و تميزت الدولة الحمدانية بصلتها القوية مع الخلافة العباسية ، ويرجع ذلك الأمر إلى أمور سياسية مشتركة بينهما ، فـ"قد كان العراق في الحقيقة يُمثل الجبهة الخلفية للحمدانيين في مواجهتهم للروم ، و لذلك كان يهمهم أن يبقى العراق قوياً، و أن تستقر أُموره ، كما كان الحمدانيون يُمثلون القوة التي تلجأ إليها الخلافة العباسية إذا ضاقت بها الأحوال في العراق "[3] ، و علاقة تقوم على المصالح المشتركة حرية أن توثق عُرى الصلة بينهما .

و يُعد الأمر الأهم الذي كفل للدولة الحمدانية الشهرة و الصيت ، هو جهادهم ضد الروم، الذين استغلوا ضعف الدولة العباسية و انشقاقاتها ، و الاقتتال داخلها ، ليُغيروا على بلاد المسلمين ؛ و لكن قوة شوكة الدولة الحمدانية مثلت للخلافة درعاً يقيهم هجمات الروم .

---

(١) . انظر : العالم الإسلامي في العصر العباسي : ص ٤٤٢

(٢) . أخبار الدول المنقطعة : الإمام جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور ظافر بن حسين الأزدي ، ت : د . عصام هزايمة ، و آخرين ، ج١ /ص ٤١ ، مؤسسة حمادة ودار الكندي للنشر ، ط١، إربد – الأردن ، ٩٩٩١م.

(٣) . العالم الإسلامي في العصر العباسي : ص ٤٤٤

و أبرز من تصدى لذلك سيف الدولة الحمداني[1] ، الذي شغله الجهاد عن أمور الحياة ،

وكثرت معاركه إلى حد " أتعب الإمبراطورية البيزنطية و سقاها كؤوس المر مترعة"[٢].

وفي تلك البيئة نشأ أبو فراس الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان بن حمدون الحمداني ابن عم ناصر الدولة وسيف الدولة ،كانت ولادته سنة عشرين وثلثمائة ، وقيل سنة إحدى وعشرين وثلثمائة[٣] ، قُتل أبوه على يد ناصر الدولة[٤] .

---

(١) . هو أبو الحسن علي بن عبدالله بن حمدان بن حمدون بن الحارث ... ،كانت وقائعه في عصاة العرب تكف بأسها وتفل أنيابها ، وتذل صعابها ، و تكفي الرعية سوء آدابها ، و غزواته تدرك من طاغية الروم الثأر ، و تحسم شرهم المثار، و تحسن في الإسلام الآثار ، و كان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر ، شديد الاهتزاز لما يُمدح به ،كانت ولادته سنة ثلاث و ثلاثمائة ، و قيل سنة إحدى و ثلاثمائة ، و توفي بحلب سنة ست و خمسين و ثلاثمائة ، و نُقل إلى ميافارقين ، و دُفن في تربة أمه، و كان قد جمع من نفض الغبار الذي يجتمع عليه في غزواته شيئاً و عمله لبنة بقدر الكف ، و أوصى أن يُوضع خده عليها في لحده ، فنفذت وصيته في ذلك .

أنظر : ١ . يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر : لأبي منصور عبدالملك الثغالبي ، شرح وتحقيق : د . مفيد محمد قميحة ، ١ / ٣٧ ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٠هـ. ٢٠٠٠م . ٢ . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .

(٢) . سيف الدولة الحمداني مملكة السيف و دولة الأقلام : د . مصطفى الشكعة ، ص ١٢٧ ، الدار المصرية اللبنانية ، ط٣ ، القاهرة ، ١٤٢٠ هـ. ٢٠٠٠م .

(٣) . انظر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .

(٤) . هو أبو محمد الحسن الملقب ناصر الدولة ابن أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان... ، ابن عم أبي فراس ،كان صاحب الموصل و ما والاها وتنقلت به الأحوال إلى أن ملك الموصل بعد أن كان نائباً بها عن أبيه ، ثم لقبه الخليفة المتقي بالله ناصر الدولة ، ، وكان سبب قتله لعمه ، أنّ ابن مقلة وزير الراضي بعث أبا العلاء . والد أبي فراس . ليوليه الموصل و أمره بالقبض على ناصر الدولة ، فلما قرب من الموصل خرج ناصر الدولة لتلقيه ، فخالفه سعيد ودخل البلد ، و نزل داره ، و قبض على خزائنه ، و بلغ الخبر ناصر الدولة ، فرجع عجلاً ، و دخل الدار ، و قبض على عمه فيها ، و أمر غلمانه بقتله .

و لم يزل ناصر الدولة مالكاً للموصل إلى أن قبض عليه ولده بعد أن شاخ وكبر ، و حمله إلى قلعة الموصل و اعتقله بها إلى أن مات سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة . انظر : ١ . أخبار الدول المنقطعة : ١ / ٤٦ ، ٥٤

٢ . و فيات الأعيان ٢ / ١١٤ ، ١١٦

و بعد قتل أبيه تنقلت به أمه في مواطن الحمدانيين آمد ، وميافارقين ، وماردين ، والرقة[1] ثم أخذه سيف الدولة بعد أن اقتطع لنفسه حمص وحلب ، ليعيش في بلاطه الذي ضمَّ العلماء والأدباء ، و "كان سيف الدولة يعجب جداً بمحاسن أبي فراس ، و يميزه على غيره بالإكرام عن سائر قومه ، و يصطنعه لنفسه ، و يصطحبه في غزواته ، و يستخلفه على أعماله ، و أبو فراس ينثر الدر الثمين في مكاتباته إياه ، و يوفيه حق سؤدده ، و يجمع بين أدبي السيف و القلم في خدمته" [2] ، و كان لهذه المنزلة العظيمة التي حظي الشاعر بها أثرها البالغ في تكوين شخصيته ، التي جمعت بين حب السيف و القلم ، و عشقت التميز و التفرد ، و آثرت أن تكون شامة في جبين بني حمدان ، و علماً من أعلام تغلب الذين لا تُلجمهم الحادثات ، و لا تُخضعهم النائبات .

ولما أدركت أبا فراس حرفة الأدب ، و أصابته عين الكمال ، أسرته الروم في بعض وقائعها ، و ذلك حين خرج ابن أعور في جيش من الروم يريد الغارة على نواحي منبج ، فوافق ذلك خروج أبي فراس في عدة يسيرة من غلمانه ، و كان العدو في ألف و ثلاثمائة فارس ، و قد استاقوا مواشي من ضيعة يقال لها يترك ، فهزمهم أبو فراس و استنقذ ما بأيديهم و تبعهم ثم انصرف عنهم ، و قد أجهد خيله و أعطشها ، فنزل أصحابه و تفرقوا يسقون ، فتبعه الروم و ركب أبو فراس و قصد البلد إدلالا بنفسه و فرسه ، و سلك غير طريق أصحابه ؛ فأسره الروم وهو جريح قد أصابه سهم بقي نصله في فخذه ، ونُقل إلى خرشنة ، ثم إلى القسطنطينية ، وفداه سيف الدولة سنة خمس وخمسين وثلاثمائة [3] .

وفي أثناء فترة أسره ، أطلق أشعاره مكاتبة لسيف الدولة في أمل فك أسره ، وهي ما تعرف بالأسريات أو الروميات ، وقد تميزت هذه الأشعار بـ" فرط الحنين إلى أهله وإخوانه وأحبابه ، والتبرم بحاله ومكانه ، عن صدر حرج ، وقلب شج ، تزداد رقة

---

(١) . انظر الديوان : ٢ / ت ١٠

(٢) . يتيمة الدهر : ١ / ٥٧

(٣) . انظر : ١ . أخبار الدول المنقطعة : ١ / ٧٥

٢ . وفيات الأعيان : ٦١/٢

٣ . يتيمة الدهر : ١ / ٨٥

ولطافة ، وتبكي سامعها ، وتعلق بالحفظ لسلامتها " [1] .

وهي على رقتها وعذوبتها إلا أنها لا تُمثل جُل شعر أبي فراس ؛ بل للشاعر أغراض أخرى برزت من قبل أن يعرف الأسر ، ومن ضمن هذه الأغراض ، العتاب والشكوى ، التي صدرت عن نفس ملتاعة متألمة، حزينة ، شكت القاصي و الداني ، و عاتبت الغريب و القريب ، و أوجدت قناطر توصلها لمقاصدها ، و اقترحت وسائل تبلغها أهدافها ، فأصابت مراميها حيناً ، و حادت حيناً آخر إلا أنها تعتبر مرآة مجلوة لحياته القصيرة ، التي قضت و هي في ريعان مناها.

و قامت حرب سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ، بين أبي فراس وبين أبي المعالي بن سيف الدولة ، واستظهر عليه أبو المعالي وقتله في الحرب وأخذ رأسه ، وبقيت جثته مطروحة إلى أن جاء بعض الأعراب فكفنه ودفنه[2]وهكذا انطوت صفحة حياة الشاعر وكان مدادها الآمال و الآلام ، التي سجلها بطريقته راغباً وراهباً ، خاضعاً و متمرداً ، مُصرّحاً و مُعرّضا.

---

(١) . يتيمة الدهر : ٨٥/١

(٢) . انظر : وفيات الأعيان : ٢ / ٦١

الفصل الأول :

عوامل العتاب والشكوى في حياة الشاعر

المبحث الأول : نفسية الشاعر.

المبحث الثاني : صلته بسيف الدولة.

المبحث الثالث : أثر الأسر.

المبحث الأول : نفسية الشاعر:

أولاً . أهمية الدراسة النفسية:

تُعتبر دراسة نفسية الفرد أمراً عسيراً ، ولا يُجزم بصحتها جزماً كليا ، وذلك لمشقة تتبع الظواهر النفسية ورصدها من فرد إلى آخر ، ومن موقف إلى موقف ، بل قد تنشطر النفس شطرين في الموقف الواحد ، وتختلف ردود الفعل فيه ؛ لذلك كان على الباحث أن يتوقع ورود الصواب والخطأ في تفسيره ؛ لأن ذلك يرجع إلى تعقيد دراسة النفس البشرية التي قد تعجز هي عن فهم كثير من ظواهرها ، و" لاشيء أصعب من سياسة الناس ؛ لأن الرجل عادة مركب من شخصيات شتى لا تظهر إلا في أحوال معينة ، وما هذا الثبات الذي نراه في شخصية كل واحد منا إلا شكل ظاهر لاغير ، تثبت هذه الشخصية بثبات أحوال معينة ، فإذا تغيرت هذه الأحوال تغيرت شخصية الرجل ، فالهادئ قد يصبح ثائراً، والرقيق قد يصبح قاسياً ، والفاضل قد تتناثر فضائله" [1].

ومما يزيد في تعقيد دراسة الشخصية ، عدم ثباتها على طابع معين يُسهّل عملية الاستدلال على تصرفاتها ، وقد تصعب التنبؤات بظواهر مختلفة من الشخصية ؛ لأن هناك حالات مستترة فيها ، قد تظهر في وقت متأخر وقد لا تظهر ، يقول سيد قطب – يرحمه الله : " لقد اعتدنا أن ننتظر من هذه الشخصية استجابات معينة للمؤثرات المتعددة ، تتفق مع هذا الطابع ، ولكن الملاحظة الدقيقة الشاملة لتصرفات كل شخصية تهدي إلى أن هذا الطابع ليس أبديا ، وليس جامداً. فهناك حالات كثيرة نسميها حالات شاذة في حياة هذه الشخصية . وهي في الواقع ليست شاذة ، إنما هي جزء من هذه الشخصية أصيل فيها

---

(١) . كتب وشخصيات : سيد قطب ، ص ٢٣١ ، دار الكتب العربية ، (ب.ط) ، بيروت ، (ب.ت) .

كالأجزاء التي نعدها طبيعية بالقياس إليها ، وكل ما هنالك أنها حالات كامنة لا تنكشف

إلا في مواعيدها. وقد تكون على نقيض الخصائص الشائعة عن شخصية معينة[1]"

والأدب طريق من طرق الكشف عن أسرار النفس البشرية ، فهو من حيث مصدره يعكس في طياته صور الشخصية التي أبدعته ، وملامح من البيئة الاجتماعية والفكرية التي يعيش فيها مبدعه ، وهو من حيث مادته يضع أمام قارئه أنماطاً من السلوك وطُرزاً من الأشخاص ، ونماذج من قضايا الصراع الداخلي الذي ينشب بين الرغبات والأهواء والقيم الإنسانية ، وهو من حيث نسجه وصياغته يضيف جديداً إلى الثروة الفنية التي تؤلف رافداً من روافد التراث الإنساني[2].

و يقوم دور الأدب في الحياة على الكشف عن مجموعة الحقائق التي تشكل علاقة الإنسان بها ، وهو في ذلك كعلم النفس وكغيره من العلوم التي تستهدف الهدف نفسه وإن اتخذت إلى ذلك منهجاً مغايراً للمنهج الأدبي ، و الأدب وعلم النفس منهجان متوازيان في ارتياد هذه الحقائق وليسا متداخلين[3].

وقد جاء احتكاك علم النفس بالأدب من علماء النفس ورجال البحث الأدبي ، فحين وجد رجال البحث الأدبي ثروة من المعلومات ونتائج من الدرس تحمل طابع العلم الصحيح قد وضعت بين أيديهم ، وجدوا أنهم أنفسهم لا يفتأون في تاريخهم الطويل يتكلمون عن مادتها مثل الخيال في تقليده واختراعه ، والعاطفة في صدقها وباطلها واضطرامها وهدوئها ، وعن الشخصية وظهورها أو عدم ظهورها في النص ، وعن الشخصية وصورتها في الأسلوب ، وعن القريحة و الحس ، و عن الشاعر و بيئته وعن

---

(١) . كتب وشخصيات : ص ٢٣٢.

(٢) . انظر : من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده : محمد خلف الله أحمد ، ص ٢١٩ ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ط٣ ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

(٣) . انظر : التفسير النفسي للأدب : د. عزالدين إسماعيل ، ص ١٨ ، مكتبة غريب ، ط ٤، (ب.ت) ، القاهرة.

أسباب إجادة هذا الشاعر في فن ما ، وذاك في فن آخر، وعن الأحوال والظروف التي مرَّ فيها الأديب وكان لها أثر عليه[1]...

وقد أفاد الأدب من نظريات علم النفس كثيراً ؛ فعلم النفس مفسر لكثير من غوامض الشعر ودلالاته المختلفة ، وهو يبحث في مكامن النفس البشرية للأديب ، ولم يكن هذا وليد العصر ، بل تعرّض لبعض ذلك بعض النقاد القُدامى حتى وإن لم تكن هناك نظريات خاصة كما هو الحال الآن .

وهذا الأمر يثير سؤالاً ، هل يُفسر الأدب القديم في ضوء المعارف الحديثة بزعم أنه لم يشهد هذه المعارف ، ولم يعاصرها؟!

في الحقيقة أنَّ الدكتور عزالدين إسماعيل رد على ذلك ، ووضّحه في أمور ، منها[2] :

- أنّ التفاعل بين عناصر الحياة لا شك فيه ، ومظاهر الحياة الإنسانية تكاد لا تختلف في أصلها أو تتغير ، وإنما الذي يتغير هو الزاوية التي تنظر منها إلى هذه المظاهر الحيوية.

- هناك ضرورة مُلّحة في تفهم الأدب القديم في ضوء التحليل النفسي ؛ كي نستضيء بالماضي في إدراك قيمة الحياة الحاضرة من جهة ، وكيما نحسن فهم الماضي في ضوء هذه الحقيقة من جهة أخرى .

- أنّ علم النفس قادر على تفسير بعض الجوانب التي ظلت غامضة في الماضي، ويُجنب كثيراً من المشكلات التي جرها منهج التقويم القديم .

---

(١) . انظر : من الوجهة النفسية : ص ٢٥

(٢) . انظر : التفسير النفسي للأدب : ص ١٤

ثانياً: أبرز مكونات شخصية أبي فراس:

١- : الاعتداد بالنفس:

يلفت الانتباه في شخصية أبي فراس ، اعتداد بنفسه ، وإبراز مآثره ، حتى ليخيل إليه أنه جمع فضائل الأولين والآخرين ، وأنَّ المجد معقود بناصيته ، وكان يدعو قومه للوثوب إلى المجد ، ثم ما يلبث أن يُحبطهم ، لأنهم مهما سعوا جاهدين ؛ فلن يحرزوا ما أحرزه ؛ لأن المجد مواهب ، ولأنه نال العلا غير جاهد.

و قد وصل غلو الشاعر في فخره بفضائله ، إلى درجة نزَّهته عن ارتكاب الدنايا ، وكأنه ما فعل قبيحاً قط ، وفي مواطن أخرى تحدث بكل جرأة عن ارتكابه القبيح[1] ، وكأن قبيحه جميل لايحمل أي وصمة عار!!

و يعد هذا الغلو في إعجابه بالذات أمراً مثيراً للانتباه ، و له دوافع نفسية و اجتماعية ، تتمثل الأولى في تكوينه النفسي ، و تتمثل الأخرى فيما اكتسبه من بيئته و ورثه من آبائه و أجداده .

---

(١) . تحدّث الدكتور عمر فروخ عن ذلك ، ومثّل على ذلك بالعفة ، وشرب الخمر. فهو يمتدح بالعفة كثيراً في شعر وجداني صادق ، ولكن هناك أشعاراً يستهتر فيها في طلب اللهو ، وبلغ في استهتاره في غزله بالمذكر مبلغاً عظيماً ، والتمس لذلك مخرجاً وهو أن غزل أبي فراس العفيف كان في ثنايا قصائده الطوال ، بينما غزله المستهتر يأتي في مقاطعه المستقلة مما يدل على أن غزله العفيف تقليدي ، وأن الاستهتار في اللهو أقرب إلى نفسه ، وأن العفة أحقُّ بالنسبة إليه إذا قيست بمجموع شعره ومجموع عناصر شخصيته ، وأن تمدحه باللهو لايعدو في الحقيقة أن يكون " مجاراة لفظية" لروح عصره . (انظر : أبوفراس فارس بني حمدان وشاعرهم : د.عمر فرُّوخ، ص ٦٦-٦٧-٦٩، دار لبنان للطباعة والنشر ، ، ط ٢ ، بيروت ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

ولكن الباحثة ترى أن ذلك المبرر غير كافٍ ، فدقة وصف الشاعر في تلك الأمور يغني عن الخبر ، وهو بلاشك يدل دلالة واضحة على تناقض واضح لمبادئ الشاعر في الحياة ، وهو يمثل طبيعة النفس الآثمة التي تلهو وتلبي رغبات النفس الأمارة بالسوء ؛ فإن بلغت مآربها رجعت تطلب الغفران... وهكذا ؛ لأن الغزل بالغلمان شذوذ ينفر أصحاب النفس السليمة منه ، وليس الحديث عنه حديثاً عابراً يمثل غي العصر ، فهل يُعقل من غير العاصي أن يجاهر بمعصية لم يرتكبها؟!

ومن أبرز طرق اعتداد الشاعر بنفسه :

أ- تكرار ذكر اسمه في شعره :

لاشك في أنَّ استخدام الشاعر لاسمه وكنيته في شعره دلالة واضحة على القوة والبطش وشدة الضراوة ، وهذا الأمر موجود بكثرة في بني حمدان مثل : أبو الفوارس ، أبو الهيجاء، الغضنفر، أبو المعالي ، أبو المكارم... فهذه الألقاب والكنى تناسب البيئة الحربية التي وجدوا أنفسهم فيها ، وميزتهم بالشدة عند البأس و الإقدام والشجاعة.

وفي ذكر الإنسان لاسمه في سياق حديثه لفت للانتباه ، وجذب السامع لأهمية ما يُقال ، وهو دليل على الفخر بالنفس والزهو بها ، وأبو فراس شاعر يُحب الفخر بنفسه ، وبأصله الزاكي ، يقول[1] :

أنا الحارث المختارُ منْ نسلِ "حارثٍ" إذا لم يَسُدْ في القومِ إلا الأَخايِرُ

فالشاعر استخدم ضمير المتكلم (أنا) قبل ذكر اسمه المحلى بـ (ال) ، وذلك غاية في الفخر والاعتزاز بالنفس.

وقال أيضاً في سياق حديثه عن شدة بطشه الذي لا يثنيه إلا المروءة ، بعد أن سمع نداء امرأة تناديه باسمه وتستنجده ؛ ليطلق أسيرها ، ويصفح عن الأموال[2] :

بـ "المرج" إذ "أم بَسّامٍ" تُنَاشِدُني: بَنَاتُ عَمِّك يا "حارِ بنَ حَمدانِ"

فمن الواضح أن الشاعر كان يطرب عند سماعٍ اسمه في مواقف تبرز فيها الرجولة ، فأم بسام امرأة مغلوبة على أمرها ، ليس لديها متسع من الوقت كي تنشئ اعتذاراً أو استعطافاً ، بل لجأت إلى ترخيم المنادى (حارث) وهو اسم الشاعر ، والترخيم تليين يستخدم في النداء بحذف أواخر الاسم ؛ ليُسهل النطق[3]. فالمرأة متعجلة و تريد أن تُلين

---

(١) . الديوان : ١٠٩/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٤٠٠/٢

(٣) . لسان العرب : (رخم) ، و الترخيم في اللغة ترقيق الصوت ، و في الاصطلاح : حذف أواخر الكلم في النداء . (أُنظر : شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : لبهاء الدين عبدالله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري ، ٢ / ٢٦٣ ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٤٢٣هـ. ٢٠٠٢م) .

قلب ذلك التغلبي ، وهو من قوم يُعدون من أغلظ الناس أكباداً ، ليرّق قلبه ؛ فينجدها ، وتفعل النساء في هذا المجال مالا يفعله الرجال ، والأمثلة على ذلك كثيرة[1]، فكم قد أطفأت المرأة نار حروب ، وكم أوقدتها!! ولذلك أطفأ الشاعر نار حربه ، فقال[2]:

فظلتُ أثني صُدُورَ الخيل ساهمةً بكُلّ مضطّغنٍ بالحقدِ مَلآنِ

ونحنُ قومٌ ، إذا عُدنا بسيئةٍ على العشيرة ، أعقبنا بإحسانِ

ونقل في موقف مشابه ، نداء نفسه التي طالبته بالرحمة حين هالها صراخ نساء بني كلاب ، حين ظفر بقومهنّ ، فاستجاب لذلك النداء المنبعث من مُثِله العليا ، فقال [3]:

فلما سمْعتُ ضجيج النسا ءِ ناديتُ : "حارِ" ألا فاقصِر

"أحارثُ" مَنْ صَافِحٌ، غافرٌ لهنّ ، إذا أنتَ لم تغْفر؟!

فلم تمهله صرخات النساء وضجيجهن إلى أن تتم له نشوة الانتصار ، بل ربما أطربه ضجيج النساء بسبب فعل سيفه فيهم ، فبادر إلى نفسه يحضها على الرحمة ، وربما وجد

---

(١) . والأمثلة على ذلك كثيرة مثل :

١- المرأة التي صاحت بـ "وامعتصماه " حين عذبها الروم ، فقال لها ملك الروم: لا يأتي المعتصم لخلاصك إلا على أبلق . فبلغ ذلك المعتصم ، فخرج في أربعة آلاف أبلق ، وأتى عمورية فحاصرها وخلّص المرأة. (انظر :صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، القلقشندي أحمد بن علي بن أحمد الضفراري ، تحقيق: عبدالقادر رزكار ، ٣/٢٨٧-٢٨٨ ، وزارة الثقافة ، (ب.ط) ، دمشق ، ١٩٨١م) .

٢- أم عمرو بن كلثوم حين صاحت بـ(وآذلاه ! يا لتغلب) لما أرادت أم عمرو بن هند استخدامها ، فوثب عمرو بن كلثوم إلى سيف عمرو بن هند وضرب به رأسه ، ثم أنشأ معلقته الشهيرة. (انظر : الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين ، مج٦ /ج١١/مج ٣٦ ، إعداد مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي ، (ب .ط)، بيروت- لبنان ، (ب . ت) .

٣- حرب البسوس الشهيرة ، قامت على صراخ البسوس خالة جساس : واذلاه ! وجاراه! (انظر : العقد الفريد : أبو عمر أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي ، تحقيق : د. محمد التونجي ، ٥/١٩٢دار صادر ، ط١ ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠١م .

(٢) . الديوان : ٢/٤٠٠

(٣) . المصدر نفسه : ٢/٢٠٠

في استغاثة النساء وهوانهنّ وهتافهن في الحرب مالا يجده في الانتصار من فخر ومكرمة تُضاف لأخلاقه الحربية ، فلا يقتصر على تراجعه عن غايته التي أبرمها ؛ ليكون ذلك إنكاراً منه لذاته ، وإيثاراً على نفسه ؛ بل وجد ذاته بكل معانيها في موقف لا يُرجى فيه – بعد الله – إلا هو. وفي تكرار النداء دلالة شديدة على محاسبته لنفسه ، وحضّها على فعل الجميل الذي توّج أفعالها. وفي اختلاف صيغتي النداء عندما ذكر المنادى مرخماً في البيت الأول ، ومكتملاً في الثاني دلالة على معرفة الشاعر للطرق التي يلج بها إلى مكامن نفسه ، فحين أثاره صراخ النساء من ثكل وأسر ، لجأ إلى الطرق التي يعلم أنها ستزلزل كيانه ، وتجعله يغمد سيفه ويعطل رمحه في موقف لايثنيه عن عزمه شيء ، ومن هذه الطرق ترجمة صرخات النساء إلى نداء يثني عزمه ، ولما كان هو المنادِي والمنادَى ، أكرم اسمه وأطاع مرؤته ، فكرر النداء لشدة الكر الذي يحتاج إلى قوة معنوية تثنيه.

ومن كان هذا شأنه من العسير أن يوصم في يوم من الأيام بالخمول أو ينكره أحد أو يتجاهله،بل عدّ ذلك خطباً عظيماً على نفسه التي ألفت الصدارة في كل شيء،يقول[1]:

---

(١) . الديوان : ٥٦/٢

ولعل أروع من نظم القريض في مثل هذا الموقف ، هو الفرزدق دفاعاً عن زين العابدين ، فحين حج هشام بن عبدالملك في أيام أبيه ، طاف بالبيت وجهد أن يصل إلى الحجر الأسود ليستلمه ، فنصب له كرسي وجلس عليه لينظر إلى الناس ، ومعه جماعة من أعيان الشام ، فبينما هو كذلك إذ أقبل الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، فطاف بالبيت ، فلما انتهى إلى الحجر تنحى له الناس حتى استلم الحجر ، فقال رجل من أهل الشام لهشامٍ: من هذا الذي هابه هذه الناس الهيبة ؟ فقال هشام: لا أعرفه ، مخافة أن يرغب أهل الشام فيه ، وكان الفرزدق حاضراً ، فأنشد قصيدته المشهورة التي عرّض فيها بهشام وكان منها:

هـــذا الـــذي تعـــرفُ البطحـــاءُ وطأتـــهُ، والبيـــــتُ يعرفـــــه والحِـــــلُّ والحَـــــرَمُ
هـــذا ابـــن خيـــر عبـــادِ اللهِ كُلّهِـــمُ، هـــذا التقـــيّ النقـــيّ الطـــاهرُ العلـــمُ
هـــذا ابـــن فاطمـــة إن كنـــت جاهلـــه، بجَـــدّه أنبيـــاءُ اللهِ قـــدْ خُتمـــوا
ولـــيس قولُـــكَ : مَـــنْ هـــذا؟ بضـــائِره ، العُـــرب تعـــرِف مـــن أنكـــرتَ والعجـــمُ

(انظر : ديوان الفرزدق :قدم له وشرحه : مجيد طراد ، ٢٣٨/٢ ، دار الكتاب العربي، (ب.ط) ، بيروت ، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م) .

٢_ وفيات الأعيان : ٩٥/٦

ومـــا هـــو إلاّ أنْ جَـــرَتْ بِفرَاقِنَـــا يَـدُ الـدّهْرِحَتّى قيـلَ:مَنْ هُـوَ حَـارِثُ؟

وقد نالت كنية الشاعر في أشعاره ما ناله اسمه ، فقد أطربه سماع تعويذات ودعوات ربات الحجال وهن يفاخرن بفارس ، قد أنكر العدو عليه تسمّيه[1] في ذلك الموضع ، فقال في سياق فخره بما نال هو وقومه من الدمستق والأحزاب التي تألبت على سيف الدولة[2]:

وعُـدتْ أجُـرُّ رُمْحـي عـن مقـامٍ تُحـدِّثُ عَنْـهُ ربّـاتُ الحِجَـالِ
فقائلـةٍ تقـولُ :"أبـا فـراسٍ"، أُعِيـذُ عَـلاكَ مِـنْ عَـيْنِ الكمـالِ
وقائلـةٍ تقـولُ : جُزيـتَ خَيْـراً لقـدْ حَاميْـتِ عـنْ حَـرِمِ المعَـالِي

فما أعذب ذلك الصوت الذي تَبِعَ الشاعر وهو آئب وسيفه يقطر دما ، وكم أشجاه ما تُردده النساء بعد أن ارتعدت فرائصهنّ ؛ خوفاً من بطش العدو.

ومن العجيب أنَّ الشاعر جعل كنيته تضيء ختام وصيته الأخيرة التي ورّثها ابنته قبل أن يلقى مصيره ، فقال[3] :

قُـولي إذا نـاديْتني ، وعَييـتُ عـنْ ردِّ الجـوَاب
زيْـنُ الشّـبابِ ، "أبـو فـراس" لـمْ يُمَتّـعْ بالشّـبابِ

فالمنادى الأب المتفجع عليه بصيغة (أبو فراس) فيه دعوة للندب على الطموح الذي واراه الثرى ، وفيه توريث للفخر والوصاية به لابنته من بعده ؛ لتحسن تأبينه ، وتجود رثاؤه ،

---

(١) . وذلك حين أسر ترنيق بعض أصحاب الشاعر ، وقال له :" اكتب إلى صاحبك وقل له :مثلك لا يتسمى في مثل ذلك اليوم ، ويعرف الناس نفسه " فقال أبوفراس :

يعيـبُ علـيّ إذ سمّيـتُ نفسـي، وقـد أخـذَ القِنـا مِـنهُمْ ومِنّـا
فقـل للعلـج : لـو لم أُسـمِ نفسـي لسـماني السِـنانُ لهـم ، وكـنّ
(الديوان : ٢/٤٠٦) .

(٢) . المصدر نفسه : ٢/٢٨٤

(٣) . المصدر نفسه :٢/٤٧

فلن يكون نعيها له نعي ابنة لأبيها فحسب ؛ بل نعياً لشباب أهدره الطموح.

أما لو كان المنادى بصيغة (يا أبي) فذلك أدعى لتبادل الحنان وحَثُّ العين على الهملان ، وهو أقرب للقلب وأدنى للبر ، كما أنه لغة الحنان بين الأب وابنته ، وعين الشفقة والرحمة على أب فني حنانه لما سكن جنانه ، كما أنّ ياء المتكلم في (يا أبي) تغني عن وصف ذلك الشعور الذي تشعر به البنت في مناداتها لأبيها ؛ فكأنها تملك بتلك الياء عز الدنيا في حياته، فلما قضى أصبحت تملك حزن الكون وحسرة الأولين والآخرين...

إذن اتضح العنصر الأهم في حياته والأقوى أثراً على نفسه ، وهو عنصر الفخر بالذات الذي ملك عليه نفسه ، ولعل ما يؤيد صحة ما ذكرتُ ، هو قلة حديثه عن أبنائه في شعره ، وإلا لأبرز الأسر أفنان تلك العاطفة ، ولكن الشاعر وجّه اهتمامه لما هو أحب لنفسه.

وأبو فراس رجل ملمات ، ومن دعا أبا فراس في شدته ، فهو يدعو فارساً عظيماً ، يغيث الملهوف ، ويدفع الهول ، ويرفع الضيم ، ويفك العاني ، ومثله لا يقصد إلا في عظائم الأمور ، وقد لام الشاعر أبا العشائر الحسين بن علي بن الحسين بن حمدان ، زوج أخته (ت:٣٥٢ هـ) أو (٣٥٣هـ) ، حينما ذهل عنه حين أُسر غيلة .

يقول[١] :

أخـــذوك فـــي كبـــدِ المضـــائق غيلـــةً مِثـــلَ النّســـاءِ ، تُربّـــبُ الرئْبـــالا[٢]

ألاّ دَعَـــوْت أَخَـــاكَ ، وَهْـــوَ مُصَـــاقِبٌ يَكْفـــي العَظـــيمَ ، ويَـــدْفَعُ الأهْـــوالا

ألاّ دَعوْتَ"أبـــــــــافِراسٍ" إنّـــــــــهُ مِمّـــــنْ إذَا طَلَـــبَ المُمنّـــعَ نَـــالاَ

فـ " أخاك " فيه دلالة على الحنان والترابط الأسري ، فهو كأخيه في المنزلة من يُدعى في وقت الضيق ؛ لقرب منزلته وصدق نجدته ، يُغيث بلامِنّة ، ويُقيل العثرة،ويستر الزلة ، وحين أعقبها بـ "أبا فراس" ؛ فقد أتم الأمر ، فالنجدة بالأخ عز ومنعة،وحين يكون الأخ

---

(١) . الديوان : ٣٠٤/٢

(٢) . الرئبالا : الرئبال من أسماء الأسد والذئب ، يهمز ولا يهمز . لسان العرب: (رأبل).

أبا فراس ، فالأمر يخرج من نطاق الأخوّة ليشمل النجدة بالمكارم والفضائل ومعاني المروءة والشيم الأصيلة.

وكان أبوفراس حريصاً على أن يجعل اسمه أو كنيته علماً على المكارم والفضائل ، ولا سبيل إلى ذلك إلا في الحفاظ على ما عُرف به ، والذود عن صيته بترك ما يُخلّ به. ومن ذلك أنه كان يكبح جماح نفسه إن أرادت أن تجاوز الجماعة وتتعدى مشورتهم ، ويرى في ذلك فخراً له ، فهو يشاور أصحابه حتى وإن خالفوا هواه ، لئلا يؤثر عنه أنه جائر في الحكم متعسف ، و هذا ما نقله الشاعر في هذا الموقف الذي قال فيه [1]:

يقـــولُ صَـــحابتي والليـــلُ داجٍ وقـــدْ هَبّـــت لنـــا رِيـــحُ الصّـــباحِ
لقـــدْ أخـــذَ السُّـــرى والليـــل منّـــا، فهـــلْ لَـــكَ أنْ تُـــريحَ بجـــوّ راحِ
فقُلـــتُ لهـــم عَلـــى كُـــرهٍ : أَريحُـــوا ! ففـــي الـــذّمَلان[2]،رَوْحِـــي وارتيـــاحي
إرادةَ أن يُقـــــالُ : "أبـــــوفراسٍ" ، علـــى الأصـــحاب مـــأمُونُ الجِمَـــاحِ

ب – ذكر مآثره والتمدح بأفعاله :

قد يُحجّر الشاعر واسعاً إن أحصى مكارمه ، فهي تغمر كل من ترى من ضيم عابر سبيل وعانٍ، وإن كانت النجوم لا تُحصى ؛ فمكارم الشاعر لا تُحصى !! وقد وجد في موقف حدث بينه وبين سيف الدولة مدخلاً للفخر بفضائله. قال ابن خالوية :"عُرضت على سيف الدولة خيوله ، وبنو أخيه ، وبنو عمه حضور ، فكل اختار منها وطلب حاجته ، وأمسك الأمير أبوفراس ، فعتب عليه الأمير سيف الدولة ، ووجد من ذلك ،

---

(١) . الديوان : ٢/٦٠-٦١

(٢) . الذملان : الذميل : ضرب من سير الإبل. لسان العرب : (ذمل)

و تكلّم ، فبلغ ذلك أبا فراس" ، فأنشأ قصيدة كان منها[1] :

ومكـــارمي عـــددُ النجُـــومِ ، ومَنزلـــي مـــأوى الكـــرام ومنـــزلُ الأضـــيافِ

لا أقْتنـــي لصُـــرُوفِ دَهْـــري عُـــدةً حتّـــى كـــأنّ صُـــرُوفَهُ أحْلافِـــي
شِـيمُ عُرفـتُ بِهِـنّ ، مُـذْ أنـا يـافعُ وَلقَـد عرفـتُ بمِثلِهـا أسْـلافي

ويتضح من ذلك أن الشاعر كان حاضر البديهة ، يتمتع بالحجة المقنعة ، والثقة بالنفس. وربما كان في امتناع الشاعر عن طلب خيل من الخيول التي تخطّفها بنو عمّه ؛ حباً للتميز والتفرد بالأفعال الغريبة التي تثير العجب وتدعو للدهشة، وما ينبغي لأحد أن يشابهه ، فهو الزاهد إذا رغب الناس ، والآمن إذا رهبوا ، لايقتني درعاً يقيه صروف الدهر وما ينبغي للخطوب أن تقرعه...

ومن أبرز مكارمه التي ذكرها كثيراً في شعره ما يلي[٢] :

*** الوفاء :**

اتخذ الوفاء في ديوان الشاعر عدة أضرب : يُعرف الأول من حديث الشاعر عن وفائه، والضرب الثاني يُعرض في صورة ذم الشاعر للغدر ، والضرْب الثالث يُستنتج من أفعاله وأقواله. وفي هذا التنويع قدرٌ من ذكاء الشاعر وسمة من سمات الشخصية المبدعة القادرة على تشكيل الأشياء وإعادة صياغة العلاقات الدقيقة ، وفهم الجزئيات ، والقدرة على الظهور والتخفي في الوقت المناسب ؛ ليكون الغائب الحاضر، والحاضر الغائب[٣].

فالضرب الأول نابع من شعوره بعظمة نفسه التي جعلته يستعذب مرارة الحياة للوصول إلى غاياته ، فالوفاء لا يحصل إلا بالمكابدة والمشقة ، ويحتاج إلى صبر وحلم ؛ ليطيق ضيم

---

(١) . الديوان : ٢/٢٥٦-٢٥٧

(٢) . استثنيت من ذلك بعض المآثر التي سيرد ذكرها – بإذن الله – فيما بعد ، مثل : الفروسية.

(٣) . أنظر : الإبداع والعبقرية : د. عادل الألوسي ، ص٨٩ ، دار الفكر العربي ، ط١، القاهرة ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

القريب والغريب ، وإذا مدح الشاعر نفسه بالوفاء ، فهو بلاشك يمتدح نفسه بتلك الفضائل ؛ ليكون الوفاء غمامة تظلله إذا حمي هجير الغدر ، وتراءى سراب الخداع ، ولن يجد العاتب

مسلكاً يعتب فيه على الشاعرعلى غدره ؛ لأن الوفاء صان الشاعر من مثلبة الغدر ، وسما به إلى الفضيلة ، يقول[1]:

فـــديتُكَ ، مـــا الغـــدرُ مِـــنْ شِـــيمتي قـــديماً ، ولا العجـــز مـــنْ مـــذهبي!

وأما الضرب الثاني ، فهو ما استنتج من أفعاله وأقواله ، وهذا النوع أدعى لقبول الناس؛ لأنه يخاطب عقولهم دون أن يعيبوا فيه غروراً أو فخراً ممقوتا ؛ لأن الشاعر عرض الموقف الذي برزت فيه سجية وفائه ، ويميل الناس بصفة عامة إلى أصحاب الخلال الكريمة والسجايا الأصيلة.

وأعظم شخص استحق وفاء الشاعر ، سيف الدولة _ ولي نعمته _ وقد كان الشاعر يؤثره على كل الأماني ، حتى وإن اضطره ذلك إلى البعد عن الوطن ، وعن الارتواء من عذب أنهاره والتفيء تحت وارف ظلاله ، في سبيل صفاء الود بينه وبين سيف الدولة ، يقول[2] :

فياليـــت شُـــربي مِـــنْ وِدَادِكَ صَـــافياً وشُـــربي مِـــنْ مـــاء الفُـــراتِ سَـــرَابُ

ويؤكد هذا الوفاء العظيم موقف الشاعر حين قابل خذلان أهله له ، بالوفاء ؛ لانتسابه إليهم ، فهو لا يخفر ذمتهم ، و يحفظهم في غيبتهم ، ويحفز هممهم أن أراد أحدٌ البغي عليهم ، لذلك حين عَلِمَ أبو فراس بخروج الدمستق إلى الشام ، سارع إلى توثيب قومه واستنهاض هممهم ، وحرّضهم على القتال واستئصال شأفة العدو ، وحمّسهم للنهوض إلى حرب تشفي الصدور وتروي الغليل ، ولا سيما أن العدو عدو دينهم ، فليغضبوا لدين الله و ليواجهوا ذلك الخصم بسيف الله ، الذي يضرب الأعناق المقلّدة بالصلبان ، وليُسقطوا

---

(١) . الديوان : ٥٣/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٢٥/٢

راية الكفر ، وليقاتلوهم دون أن تأخذهم الرحمة في ذلك العدو الذي لا يصده إلا الغضب والثورة ، وساق الشاعر جملة أحداث من التاريخ لتنهض بهم ، و لتقوي عزمهم ، وتشدُّ أزرهم ، يقول[1] :

"سيف الهدى "مِنْ حَدِّ سَيْفكَ يُرتجى يـــومٌ ، يُـــذِلُّ الكُفـــرَ للإيمـــانِ
هـذي الجيـوش تجـيشُ نحـو بلادكُـمْ محفوفـــةً بِـــالكُفْرِ والصُّـــلبانِ
البغـــيُ أكثـــرُ مـــا تُقِـــلُّ خُيُـــولُهمْ والبغـــيُ شـــرُّ مُصـــاحبِ الإنســـانِ
ليسُـوا يَنُـونَ ، فَـلا تَنُـوا فـي أمْـرِكُمْ لايـــنهضُ الـــواني لغَيْـــرِ الـــوَاني
غضـــباً لـــدين الله أنْ لا تغْضَـــبُوا لـــم يشـــتهرْ فـــي نَصـــرِهِ سَـــيفانِ
حتـــى كـــأنّ الـــوَحيَ فـــيكُمْ مُنْـــزَلٌ ولكُـــمْ تُخَـــصُّ فضـــائلُ القُـــرآنِ
قـــدْ أغضـــبُوكُم فاغضَـــبُوا وتـــأهّبُوا للحـــربِ أُهْبـــةَ ثـــائرٍ ، غضـــبانِ

و مثّل موقف آخر صورة من صور الوفاء ، و هو رثاء الشاعر لجابر بن ناصر الدولة، و هو موقف استحق أن يُحفظ له في وفائه ، لعدة أمور ، منها :

– أنّ المتوفى ابن قاتل أبيه ، والموقف حساس للغاية ، فمن غير المعقول أن الشاعر لم يتصور في ذهنه ناصر الدولة حين يسمع هذه المرثية ، وقد يجد فيها سلواناً يخفف عليه ذلك الحرمان ، الذي أذاقه أبو فراس في أبيه من قبل .

– أنّ الوفاء للميت أعظم من الوفاء للحي ، فالحي قد يكافأ على ذلك الوفاء ، بطرق كثيرة ، أدناها إمساك الأذى ، أما الميت فلا يسمع ولا يكافأ[٢].

---

(١) . الديوان : ٢/٤١٠-٤١١

(٢) . وربما تمنى الحي علم الميت بجزع الحيّ ، ولو علم الميت بذلك لبكاه ، وفي ذلك قال ديك الجن الحمصي (١٦١ هـ– ٢٣٥هـ أو ٢٣٦ هـ) :

لـــو كـــان يـــدري الميـــت مـــاذا بعـــده بـــالحيّ حـــلّ مكانـــه في قـــبره
غصـــصٌ تكـــاد تفـــيض منهـــا نفســـه وتكـــاد تُخـــرج قلبـــه مـــن صـــدره

(ديوان ديك الدجن: تحقيق : أنظوان محسن القوال : ص٧٨، دار الكتاب العربي ، ص٢ ، بيروت ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م .

– لم يحظ ديوان الشاعر بباب واسع من الرثاء ، وحين تُخصص مرثيات لجابر بن ناصر الدولة ؛ فذلك دليل على صدق الشاعر في مشاعره تجاه جابر المذكور – دون أن تطغى الثارات

التي بينهما ؛ ولكن ما استطاع الشاعر فعله ، هو أن يرثي ولا يُعزي ؛ لأن الرثاء وفاء ، والعزاء تخفيفٌ عن المصاب ، وأغلب الظن أنّ الشاعر لم يُرد إلا ذلك .

وكانت المرثية الأولى تُظهر شيئاً من حسرة الشاعر ، وتُظهر عهداً قطعه الشاعر على نفسه لذلك الميت ، فقد وعده بطيب الثناء ، وحسن الوفاء[١].

والأخرى : قصيدة تقطر حزناً وأسى على فقيد عاجلته المنية ، وهو يختال في ثوب الفضائل والعلا ، ويزهو بتاج المكارم وطيب السجايا ، وكان مما قاله فيه[٢] :

مـا للخُطـوبِ؟ ومـا لأحـداثِ النّـوى أعْجلـنَ "جـابرَ" غايَـةَ الإعْجـالِ؟
وفَجَعْـنَ بالـدُّرِ الثّمِـينِ ، المنتَقِـى ، وفَـتكْنَ بـالعِلْقِ النّفِـيسِ ، الغَـالي
لمّـا تَسـرْبلَ بالفضـائِلِ ، وارْتَـدى بُـردَ العُـلا ، واعْـتمّ بالإقبـالِ
وتَشَـاهَدتْ صِـيدُ الملـوكِ بِفَضْـلِهِ ، وأَرى المكـارمَ ، مِـنْ مكـانٍ عَـالِ

ثم جمع الشاعر فتيل ذلك الحزن ، وأذكى فتيل الوفاء ، ودعا بالسقيا لثراه الذي وارى الجود والفضل ... يقول[٣] :

أ " أبـا المرَجّـى"! غَيْـرُ حُزنـي دَارِسُ أبـداً عَليـكَ ، وغيـرُ قلبـيَ سـالِ
ولـئن هلكـتَ فمـا الوفـاءُ بهالـكٍ ، ولـئْن بَلِيـتَ ، فمـا الـوِدادُ ببـالِ
لازلـتَ مَغْـدوَّ الثـرى مَطْرُوقُـهُ ، بِسَـحَابَةٍ مَجْـرورةِ الأذْيَـالِ
وحُجِـبْنِ عَنْـكَ السـيئاتُ ولـم يَـزَلْ لَـكَ صـاحِبٌ مـن صَـالحِ الأعْمَـالِ

---

(١).قال فيه :

بقلـبي علـى جـابرٍ ، حسـرةٌ تـزولُ الجبـالُ ، وليسـتْ تَـزُولُ !
لَـهُ ، مـا بقيـتُ ، طويـلُ البكـاء وحُسـنُ الثنـاءِ ، وهـذا قليـلُ
(الديوان :٢ /٣٠٠)

(٢) . المصدر نفسه : ٢/ ٣٠١

(٣) . المصدر نفسه : ٢/٣٠١

(٣٤)

و رسم الشاعر موقفاً للوفاء في عزائه أيضاً لسيف الدولة في أخته ، ليؤكد أنّ حبل الوفاء لا يقطعه الجفاء ، فإنّ كان سيف الدولة أحد أسباب طول أمد الشاعر في الأسر ؛

فإنّ حق الصحبة ألزمه أن يواسي ابن عمه كما لو كان حاضراً في مجلسه ينشده تأبيناً يواسيه فيه ، ويُهوّن عليه من مصابه ، وكان مما أنشده[1] :

بـي مثـلُ مَابِـكَ مِـنْ حُـزنٍ ومِـن جَـزَعٍ وقَـدْ لجـأْتُ إلـى صَـبْرٍ فلـمْ أَجِـدِ
لـم ينتقصـني بُعـدي عَنْـكَ مِـنْ حـزُنٍ هـي المواسـاةُ فـي قـربٍ وفـي بُعُـدِ
لأَشْـركَنّكَ فـي الـلأْوَاء إنْ طَرَقَـتْ ، كمـا شَـرِكْتُكَ فـي النّعمـاءِ والرّغَـدِ

فسجية الوفاء في الشاعر ؛ صانت ذلك البعد ، وقرّبت تلك الأواصر ، وذكرّت بأيام الرغد التي مضت في عِزّ سيف الدولة ، وبيّنت أن الوفي يلزم صاحبه في العسر واليسر ، والقرب والبعد.

أما الضرب الثالث ، فما كان يُعرض فيه الوفاء تلميحاً ، لا تصريحاً ، وذلك عن طريق ذم الشاعر أفعال أهل زمانه ، وتبرمه من غدرهم ، والشكوى من جفائهم الذي حملهم على هدم صروح الوداد ، ليبقى صرح وفائه شامخاً لا يهزه غدر ولا يزلزله جفاء.

و يبرز صحة ذلك ، نعي الشاعرللوفاء فهو يُثْبت صحة ما ادعاه من فضل على غيره ؛ فلا تُقتل الخلال الكريمة مثل الصداقة والمروءة إلا على يد الغدر والخيانة بعد أن استفحل خطرهما ، وكثر أتباعهما ، وقلّ أتباع الوفاء ، فيا للوفاء!! يقول[2] :

كَثُـــرَ الغَـــدْرُ والخيانَـــةُ فـــي النّـــا سِ ، فَمـــا إنْ أَرى صَـــديقاً صَـــدُوقا
قَـــلّ أهـــلُ الوفـــاءِ ، واتّبـــعَ النّـــا سُ ، مِـــنَ الغَـــدْرِ والجفَـــاءِ طرِيقَـــا

فهذه ظاهرة خطيرة لا يرصدها إلا من ثبت على تلك المحنة ، وأحسن البلاء لنصرة الوفاء.

وقد خاض الشاعر حرباً ضروساً ضد الغدر والخيانة ، وعادة الحروب أن تكون ـــــــ

(١) . الديوان : ٢/٧٠

(٢) . المصدر نفسه : ٢/٢٦٨

سجالاً ، وهكذا خاضها الشاعر إلا أنّ خصمه لم يهزمه ؛ ولكنه اضطرب وأعاد النظر في خلاله الكريمة التي لم تعد تجد مأوى أمينا ، فاشتد على نفسه في التأنيب والتقريع ؛ لأنها طالبته بأمر تعلم حقيقته ، فهل يجد الظمآن في النار شربة ماء ؟! يقول[1]:

أبغـــي الوفـــاءَ بـــدهرٍ لا وفـــاءَ لـــهُ كـــأنّني جَاهِـــلٌ بالـــدّهْرِ والنّـــاسِ

والزمان الذي لا يُرجى فيه نفع الصديق جديرٌ أن ينشأ فيه جيل يرى الواجبات فضائلاً و يرى إمساك الشر من الصديق خيراً يُحمد عليه صاحبه. ومهما حاول الشاعر في إصلاح ما فسد من أمر الوفاء ، فقد كان عاجزاً عن تفسير أصل المشكلة ، فليست في الزمان وأهله فحسب!! وإنما هي فتنة أحرقت الأخضر واليابس ، أجابها الجاهل والعالِم ، يقول[٢] :

وصـــرنَا نـــرى : إنّ المُتـــاركَ محســـنٌ ؛ وأنّ صـــــديقاً لا يُضـــــرُّ خَليـــــلُ
ولـــيس زَمَـــاني غـــادرٌ بـــي وَحْـــدَهُ ، ولا صَـــاحِبي دُونَ الرجـــالِ ملـــولُ
تَصـــفّحتُ أقـــوالَ الرجـــالِ فلـــمْ يَكـــنْ إلى غيْرِشاكٍ في الزّمانِ وُصُولُ !
فَكُـــلُ خَليـــلٍ ، هَكَـــذا غيْـــر مُنْصِـــفٍ ! وكُـــلُّ زمـــانٍ بـــالكرامِ بَخِيـــلُ !
نعـــمْ دَعـــتِ الـــدُّنيا إلـــى الغَـــدْرِ دَعْـــوةً ، أَجـــابَ إليهـــا عَـــالمٌ وجَهُـــولُ

---

(١) . الديوان : ٢/٢٣٤ .

و في البيت دقة متناهية وحكمة بالغة لا يفطن لها إلا حكيم ؛ لأن الشاعر جعل الوفاء مشروطاً بألا يصاحبه ملول ، وقد قيل أنه " وجد في بعض كتب الهند ليس لكذوب مروءة ، ولا لضجور رياسة ، ولا لملول وفاء ، ولا لبخيل صديق". (المحاسن والأضداد لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري ، قدم له وشرحه ووضع فهارسه : د. صلاح الدين الهواري ، ص ٥٤ ، المكتبة العصرية ، ط١ ، صيدا – بيروت ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م)

(٢) . الديوان : ٢/٣١٤-٣١٥

(٣٦)

***أخلاقه الحربية:**

لم يصقل المسلم مكارمه في السلم فقط ؛ بل كانت له مواقف في الحروب سَمَتْ به إلى التميز ، لأن سيفه لا ينال الشيوخ والنساء والأطفال ، ومروءته تأبى عليه الغل والغدر، والتمثيل بالموتى ، وتعارفوا على ذلك وشيّع بعضهم بعضاً به في مغازيهم.

والشاعر لم يذكر شدته في الحرب فقط ، بل ذكر معها لينه، فإنْ خلع على نفسه الغلظة والضراوة ، التي كانت تجعله يظمأ للدماء ، ويشبع إذا شبع الذئب والنسر من صيده الثمين ؛ فإنّ له أخلاقاً يتحلى بها في حربه ؛ لأن الفاضل لا يدع فضله في سلمه وحربه ؛ ولكن لكل منهما سماته ، فلا يخلط بين هذا وذاك ، فمن سجاياه الحربية ، أنه لم يباغت عدوه بالغارة ؛ بل يرسل النذر ، ليتأهب العدو ويأخذ حيطته وحذره ، ويسل سيفه ، فهو لا يواجه أي عدو ، ثم لا يضير شاعرنا بعد ذلك إن حامت الحوائم على جثث ذلك العدو ، فإنما أنذر ، ليكون قد أعذرهم.

يقول[1] :

فَأظْمــأُ حتّــى تَرتَــوي البِــيضُ والقَنَــا وأَسْـغَبُ حَتّـى يَشْـبعَ الـذئبُ والنسـرُ

ولا أُصْــبحُ الحــيَّ الخلــوفَ بغَــارَةٍ ولا الجـيشَ مـالم تَأْتِـهِ ، قَبلـيَ النُّـذرُ

وربما قاده حماسه إلى مجاهرة العدو ، وعدم خُداعه بخطة حربية كان يبيّتها ؛ وفي هذا فخر بذاته وثقته بنفسه أكثر من شجاعته ، فهو يفخر بأنه لا يكلف نفسه أحياناً في وضع خطة حربية من خداع أو كمين ونحوهما ، يقول [2]:

إذا شِـئتُ جـاهرتُ العَـدوّ ولـم أَبِـتْ أُقلّـبُ فِكْـري فـي وجُـوهِ المكائِـدِ

ولعل في هذا القول –كما أسلفتُ – ثقة بالنفس ، جَعَلتُه يأنف من التفكير بمكيدة يحارب بها عدوه ، وفي هذا الكلام تجوّز ؛ لأن الخدعة تُحمد في الحرب ، وقد سمّى الرسول صلى الله عليه وسلم " الحرب خَدْعَة[3] "؛ فلا حرج حين يُعدّ الشاعر خطة

---

(١) . الديوان : ٢/٢١٢

(٢) . المصدر نفسه : ٢/٨٣

(٣) . صحيح البخاري: مج ٢/ ج ٤ /ص٢٤

يخفيها عن عدوه ويسير عليها ، وكم من خطة حكيمة ، أنقذت جيشاً ، وفتحت على أهلها ما استغلق عليهم ،كما أنّ الرأي قبل شجاعة الشجعان ، ولعل المتنبي – خصمه اللدود – قد انتصر عليه في ذلك ، في قوله[1] :

الــرأيُ قَبــلَ شــجاعةِ الشُــجعانِ هُــوَ أوّلٌ وهِــيَ المحَــلُّ الثــاني

فـــإذا هُمـــا اجتَمَعـــا لـــنفسٍ حُـــرّةٍ بَلَغـــتْ مـــنَ العليـــاءِ كُـــلَّ مكـــانِ
ولرُبَّمـــــا طَعـــــنَ الفَتـــــى أقرانَـــــهُ بـــــالرأْيِ قَبـــلَ تَطـــاعُنِ الأقـــرانِ

ولكن شاعرنا لم ينفها عن نفسه ؛ بل ألجأ أمرها إلى مشيئته ؛ إن شاء ؛ قدّر لحربه ، وإن شاء ؛ أعرض عن التدبير فسيّر الخيول وأمضى السيوف لتتدبر الأمر ، وهذه ثقة بالنفس عظيمة ، قد تعدل ثقته حين سمّى نفسه وسط هول المعركة دون خشية أو حذر.

وكان الشاعر يكرم نساء عدوه ؛ فيعفُّ عنهنَّ ، ويكرم نزلهنَّ ، ويمنحهنَّ من فضله وإحسانه ما يغمرهن من مال وعزة تقي حياءهن ، وتُذهب عنهنَّ بعض ما ثكلن في تلك الشعواء ...ومن ذلك برز كرم الشاعر وطيب خلقه ولينه في ساعة شدته ، دون أن يثنيه عن ذلك طمع في غنيمة مادية أو معنوية ، وما انتفاع الشاعر بالمال إنْ دنّس اللؤم عرضه، وإنّ شرف تسكين روع الضعفاء من شيوخ وولدان ونساء في تلك المحنة أعظم مما خلفته الحرب من عدة وعتاد ، وإنّ مواساة المرأة بعد أن ذهبت بها الظنون كل مذهب ؛ مروءة عظيمة ، وإن كانت لا تُنسيها مصابها من ثكل ونحوه ، يقول[٢] :

وحـــيٍّ رددتُ الخيـــل حـــين ملكتُـــهُ هَزيمـــاً وردّتنـــي البَراقِـــعُ والخُمْـــرُ
وســـاحبةِ الأذيـــالِ نحـــوي ، لَقِيتُهـــا فلـــم يَلْقَهـــا جَهْـــمُ اللقـــاءِ ،ولا وَعْـــرُ
وهبـــت لهـــا مـــا حـــازَهُ الجـــيش ، كُلّـــهُ ورُحْتُ ،ولم يُكشَفْ لأثوابها سترُ
ولاراحَ يُطغينـــــي بأثوابـــــهِ الغنـــــى ، ولا بـــات يثنينـــي عـــن الكـــرم الفَقْـــرُ

---

(١) . العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب : ٧٨٩/٢

(٢) . الديوان : ٢١٢/٢

(٣٨)

ومـــا حَـــاجتي بالمـــالِ أبغـــي وُفُـــورَهُ ، إذا لـــم أفِـــرْ عرضـــي فـــلا وَفـــرَ الـــوَفْرُ

ومن خلق الشاعر في الحرب ، بغضه للشماتة فيمن نالهم سيفه من العشائر المهزومة ، فحين انتصر على بني الضباب ، ورأى شماتة ابن عليان فيهم ؛ كفّ عنهم وعفَّ ، وردَّ عليهم جميع ما أخذه من الجيش تكرماً لهم ، وكان مما قاله[١] :

وأبـــــذُلُ عَـــــدْلي للأَضْـــــعفينَ ، وللشّـــــامخ الأَنْـــــف لا أَبْذُلُـــــهْ
وأَحْســـــنُ مـــــا كُنـــــتَ بُقْيـــــا إذا أَنَـــــا لنـــــيَ اللهُ مـــــا آمُلُـــــه
وقَـــدْ عَلِـــمَ الحـــيُّ حـــيّ الضِّـــباب ، وأَصْـــدَقُ قِيـــلِ الفَتـــى أَفْضَـــلُهْ
بـــأنّي كَفْفـــتُ ، وأنّـــي عَفَفْـــتُ وإنْ كَـــرهَ الجـــيشُ مـــا أَفْعلُـــهْ

*الحكمة والتجربة:

الحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، وأصل الحكمة حديدة في اللجام تكون على أنف الفرس وحنكهِ تمنعه من مخالفة راكبه ، ولما كانت الحكمة تأخذ بفم الدابة وكان الحنك متصلاً بالرأس جعلها تمنع من هي في رأسه كما تمنع الحكمة الدابة[٢].

وقالوا :" الحسب محتاج إلى الأدب ، والمعرفة محتاجة إلى التجربة[٣]".

والبصير من الناس هو الذي يبصر الحقائق ببصيرته وقلبه ، ويفيد من تجارب السابقين ، ويفكر قبل إقدامه ، وينظر في العواقب قبل نطقه ، والحاذق من يفطن للأمور قبل وقوعها؛ فإن عثر في يوم الأيام ؛ فلا بد ألا يعثر في مرة أخرى ، فعن أبي هريرة رضي الله النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يُلدغُ المؤمنُ من جُحرٍ مرتين[٤]"

---

(١) . الديوان : ٢٩٨/٢

(٢) . أنظر : لسان العرب : (حكم) .

(٣) . العقد الفريد : ٣٥٨/٢

(٤) . صحيح البخاري : مج ٤/ج٧/ص ١٠٣

والحكمة جنان وعقل ولسان ؛ فالجنان ؛ يُبيّت ، والعقل ؛ يدبر ، واللسان ؛ ينطق . ومن أحسن ما قيل في ذلك ، قول الحسن البصري (٢١ – ١١٠هـ) "لسان العاقل من وراء قلبه ، فإذا أراد الكلام تفكّر ، فإنْ كان له قال ، وإن كان عليه سكت ، وقلب الأحمق من وراء لسانه فإذا أراد أن يقول، قال[١]".

وقسّم بعضهم الحكمة على أعضاء معينة اختصت كل منها بفئة الناس ، فقد قيل: "إن الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الأرض : أدمغة اليونان، وأيدي أهل الصين ، وألسنة العرب[٢] ".

ومن المتعارف عليه ، أن الشيوخ هم أصحاب الحكمة والتجربة ، اكتسبوا ذلك من أيامهم الغابرة ، ومن لجب تجاربهم في الحياة ، فرأيهم رشيد ، ومشورتهم فعل سديد ، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : "رأي الشيخ أحبُّ إليّ من جلد الشاب "[٣]

ويبدو أن شاعرنا زاحم الكهول على تلك المنزلة ، فرأيه ؛ رأي الشيوخ ، وإقدامه ؛ إقدام الشباب ، يقول[٤] :

إنْ لـم تكُـنْ طَالَـتْ سِـنّي فـإنّ لـي رَأيَ الكُهُـولِ ونَجْـدةَ الشُّـبّانِ

والفتوة لا تكمل إلا برأي الشيوخ ، وإقدام الشباب ؛ لأن الشجاعة وحدها تهوّر[٥] ، ما لم يَقُدْ زمامها الرأي الحكيم ، والشباب من دون هاتين الصفتين ؛ شباب أجوف لاخير

---

(١) . العقد الفريد : ١٩٩/٢

(٢) . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : أحمد بن محمد المقري التلمساني ، تحقيق : د. إحسان عباس ، ٢٤٤/١، دار صادر ، (ب . ط) ، بيروت ، ١٣٨٨.

(٣) . البيان والتبيين : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق : د. درويش جويدي ،٢٢٤/٢ المكتبة العصرية ، صيدا _ بيروت ، ١٤٢٢هـ _ ٢٠٠١م .

(٤) . الديوان : ٤٠٩/٢.

(٥) . يقول المتنبي :

لولا العقولُ لكانَ أدنى ضيغمٍ أدنى إلى شرفٍ من الإنسان

(العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب : ٧٩٠/٢)

فيه ، يقول[١] :

ولا أرْضَـى الفَتَـى مَـالَمْ يُكِمّـلْ بـرأيِ الكَهْـلِ ، إقْـدَامَ الغُـلامِ

و ربما اختار الشاعر رأي الكهل ؛ لأن الكهل يعلم أن الحياة إقدام وإحجام ، فالإقدام له مواقفه الخاصة به ، والإحجام كذلك.

ولعل سرعة نزوح الشيب إلى رأسه ، هي التي أودعت فيه ذلك الشعور ، فالجامع بينه وبين الشيخ ، هو الشيب والحكمة .

يقول[٢] :

ومـــا اســـتمتعتُ مِـــنْ داعـــي التّصـــابي إلـــى أَنْ جَـــاءني داعـــي الوَقـــارِ

فيبدو أن يقين الشاعر بتمام بلوغ عقله وصل إلى درجة نضج الشيوخ وقد أسرع الوقار إليه دون أن يُوفّ الشاعر حقه من الصبا واللهو العبث ؛ لذلك فخر بوقاره الذي جعله يُميز الأمور ويخبر صدقها من كذبها ، يقول[٣] :

وقُـــورٌ وأحْـــداثُ الزمّـــانِ تَنُوشُـــني وللمـــوْتِ حَـــولي جيئـــةٌ وذَهَـــابُ

وألْحـــظُ أحـــوَالَ الزّمـــانِ بُمقلـــةٍ بهـا الصِـدقُ صِـدْقٌ والكِـذَابُ كِـذَاب

فمن الواضح أنّ الشاعر لم يجزع من خطب ألمّ به ، ولم يركن لدنيا تغرّه بالبقاء ، بل هو على ما عهد عليه نفسه به من سكينة ووقار وخبرة بأحوال الزمان ، فقد كان يتفرس أبناء زمانه ويعلم أفعالهم ، فلا يغره منهم ما أخفوه وما أسرّوه.

ومن الحكمة أن يعرف الإنسانُ الشرّ في الحياة ، ويعلم المسالك التي تؤدي إليه ، ويعرف دروبه ويميز أصحابه ومواطنه وسماته وأماراته ؛ للحذر منه وعدم الاغترار به ، وتوقي خداعه ، ومعرفة زيفه و وهمه ، وقد جهدَ شاعرنا في معرفته ، ولم يكن الوقت الذي

---

(١) . الديوان : ٣٧٣/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٢٢٥/٢

(٣) . المصدر نفسه ٢٢/٢

أمضاه في معرفته هَدَراً ؛ بل لتجنبه والاحتراز من الوقوع في مزالقه ، يقول[١]:

عَرَفْـــــتُ الشَـــــرَّ لا للشّـــــرِ لَكـــــــــنْ لتَوقِيـــــــــهِ[٢]

ومَـــــنْ لا يَعْـــــرفُ الشّـــــرّ مِـــنَ النّـــاسِ يَقـــعْ فِيـــهِ

وبلغ من ذكاء الشاعر في أحوال الناس ؛ أنه كان يتوغل في أعماق صاحبه ، فلم يكتفِ بسماته الخارجية ، التي يراها وكأنه امتلك قدراً من الفراسة التي جعلته يقرأ ما خفي مداده. يقول[٣] :

وإنـــي لغِـــرٌّ إنْ رَضـــيتُ بصَـــاحِبٍ يـــبَشٌّ وفِيـــهِ جَانِـــبٌ مُـــتَجَهِّمُ

وقد منحته حياته القصيرة خبرة خولته أن ينصح ويحذر ، ويدعو الناس للإفادة من تجاربه، وكان مما حذر منه مقاربة اللئام ، يقول [٤]:

احـــذرْ مقاربـــةَ اللئـــامِ فإنّـــهُ يُنْبِيـــكَ عَـــنهُمْ فـــي الأُمُـــورِ مُجَـــرّبُ

قـــومٌ إذا أيْســـرْتَ كـــانوا إخـــوةً وإذا ترْبـــتَ ، تَفَرّقُـــوا وتَجنبّـــوُا

اصـــبرْ عَلَـــى ريْـــبِ الزّمـــانِ فإنّـــهُ بالصّـــبْر تُـــدرِكُ كُـــلّ مـــا تَتَطلّـــبُ

فهو يقول إن شاهدت قوماً صفاتهم كيت وكيت ، فاعلم أنهم معشر لئام ، يخفرون الذمام ولا يصاحبون إلا ذوي اليسار ؛ فإن أملقوا ؛ تفرقوا ؛ وانكشف اللثام ، كما أنه أوصى بالصبر ؛ فكلما عَظُمَ الصبر ؛ طاب طعم الفرج.

---

(١) . الديوان : ٣٤١/٢

(٢) . ولعمر بن الخطاب رضي الله عنه – نظرة أثقب من ذلك ؛ فليس المهم معرفة الخير من الشر، بل الأهم معرفة خير الشرين ، يقول : " ليس العاقل من عرف الخير من الشر ، بل العاقل من عرف خير الشرين" . (العقد الفريد : ٢٠٤/٢)

(٣) . الديوان : ٣٨٧/٢

(٤) . المصدر نفسه : ٥١/٢

والحكمة عند الشاعر أن يستقبل المرء الحياة برزانة من لا يرى ثباتاً لسرور ولاحزن ولا نعيم ولا شقاء ، وخير معبر عن هذه النظرة قوله[١] :

الـــدّهرُ يومـــانِ : ذا ثَبْـــت وذَا زَلَـــلُ والعيشُ طعمانِ : ذا صابُ وذا عسلُ

كــذا الزَمــانُ ، فمــا فــي نعمــةٍ بَطَــرٌ للعــارفينَ ، ولا فــي نقْمــةٍ فشــلُ
ســعادةُ المــرْءِ فــي السّــراءِ إنْ رَجَحــتْ والعــدْلُ أنْ يَتســاوى الهَــمُّ والجِــذَلُ
ومــا الهُمــومُ وإنْ حَــاذرتَ ثابتــةٌ ومــا السُّــرُورُ ، وإنْ أمّلْــتِ يَتّصــلُ
فمــا الأَســى لهُمُــومٍ ، لا بقــاءَ لَهَــا ومــا السُّــرُور بنُعْمَــى، سَــوْفَ تَنْتَقِــلُ

منبع الاعتداد بالنفس :

أ – الثقة بالنفس :

تعتبر الثقة بالنفس عاملاً مؤثراً في الشخصية المبدعة ، وهي حالة إنسانية تقع بين الغرور والمبالغة في تقدير الذات ، وبين فقدان الثقة بالذات أو احتقارها ؛ لأن الثقة بالنفس ليست شاملة أو جامعة مانعة ؛ بل هي ثقة تتركز في جانب واحد أو ناحية أو قطاع معين من قطاعات الحياة[٢].

وتكون الثقة بالنفس محمودة ومذمومة ، فهي محمودة إنْ قادت صاحبها للإبداع والإنجاز، و أعطته دفعاً معنوياً للوثوب إلى تحقيق أهدافه.

أما إذا زادت الثقة بالنفس على حدها ؛ فهي ثقة مذمومة ، تصل بصاحبها إلى الغرور و تُورثه مقت الناس.

---

(١) . أنظر : ١- شاعر بني حمدان : ص ٤٣
٢- الديوان : ٢٩٩/٢

(٢) . أنظر : الإبداع والعبقرية :ص ٩١

ويرى آدلر[١] أن غريزة إعلاء النفس أوجب الظهور لها الشأن الأول في حياة الفرد ، وقد تتجاوز حدودها فينشأ عن ذلك الغرور والإعجاب بالنفس ، وتتكون في النفس عقدة الرفعة والعظمة ، وقد تنكمش وتتخاذل فينشأ عن ذلك ضعف الثقة بالنفس[٢].

ويلحظ المتأمل في ديوان الشاعر الثقة العجيبة التي مكنته منذ صغره من السمو بذاته وتحدي أهل زمانه بأن يأتوا بفتى يضاهيه وكأن النساء عقمن عن إنجاب ذلك الفتى ، يقول[٣] :

متى تُخْلِفُ الأيّامُ مثْلي لكُمْ فَتىً طَويلَ نِجادِ السّيْفِ رَحْبَ المُقَلّدِ

مَتَى تَلِدُ الأيّامُ مِثلي لَكُمْ فَتىً شَدِيداً على البأْساءِ غَيْرَ مُلَهّدِ

ففي تكرار الشطر الأول برمته أمر يثير العجب من شدة ثقة الشاعر التي جعلته يتحدى قومه الذين هم ذووه وأهله وأميره – مثله الأعلى – وعمومته ، دون مراعاة أدب الحديث مع الأمير وشيوخ القوم ؛ لأن ثقته حجبت عن ناظريه أي مقام ، فهو لا يعرف إلا نفسه في السماحة والشجاعة.

و تقوم النشأة بدور كبير في توجيه حياة الفرد ، إذ تساهم التربية والتعليم وظروف الأسرة في تكوين الشخصية ، فكل فرد ينشأ على اتباع نمط معين من السلوك والتفكير منذ طفولته ، وقد ذكر آدلر مجموعة عوامل تعمل على تكوين هذا الأسلوب ، وهي :

- طريقة معاملة الأسرة للطفل.
- منزلة الطفل في الأسرة ، كأن يكون وحيداً ، أو أصغر الأولاد ، أو أكبرهم سناً.

---

(١) . هو الفريد آدلر (١٨٧٠-١٩٣٧) أحد المعاصرين لسجموندفرويد (١٨٥٦-١٩٣٩) ، وظل واحداً من أتباعه بضع سنوات ، ثم خالفه فيما يتعلق بالأصل الجنسي للعُصاب. وانفصل عنه عام ١٩١١؛ لينهج نهجاً خاصاً به ، وتُعرف نظرياته وتطبيقاته باسم علم النفس الفردي . (انظر: قاموس علم النفس: يوسف ميخائيل أسعد ، ص ٧ ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع (ب.ط) ، القاهرة ، (ب.ت)) .

(٢) . انظر : دراسات في علم النفس الأدبي : حامد عبدالقادر ، ص ٢٤ ، المطبعة النموذجية ، (ب.ط) ، (ب.ت).

(٣) . الديوان : ٧٩/٢

- منزلة الطفل الاجتماعية والاقتصادية.
- نوع الطفل إن كان ذكراً أو أنثى.
- حالة الطفل الصحية العامة ، وحالة أعصابه بوجه خاص[١].

فجميع هذه العوامل تحمل الطفل على أن يتخذ له في الحياة طريقاً خاصاً ويسلك مسلكاً

معيناً ، وهو الذي يسمى نمط الإنسان أو أسلوبه في الحياة.

وفي نشأة أبي فراس ما أسس تلك الثقة ، وغرسها في نفسه منذ الصغر ، فقد نشأ يتيماً وحيد أمه ، أغدقت عليه كل حنانها ؛ لتعوّضه ما فقد من حنان أبيه ، وفي الجانب الآخر كان سيف الدولة ابن عمه – حريصاً على تربية ذلك اليتيم ؛ لئلا يخفر ذمة عمه الذي قطرت سيوفهم من دمه ، ولم يكن بوسع سيف الدولة أن يفقد المزيد من الرجال ، بل كان عليه أن يرعى ذلك اليتيم في الصغر ؛ كي يأمن بوائقه في الكبر، فلا ينازعهم ؛ بل يدين بالطاعة لهم ويكون سيفهم المنتضى ودرعهم الحصين ، وخَلفهم على أهلهم وديارهم إذا ما أرادوا ذلك.

وما خوله سيف الدولة لأبي فراس من كرامات ، وما قلده من مسئوليات ، كان حرياً أن يزرع الثقة العظيمة في نفسه ، إلى درجة جعلته أحياناً يقحم نفسه مع أميره ، ويخاطبه خطاب الند للند ، فتراه يتوعد ويُقرّع ويُعّرض. ومن الطريف في ذلك ، بُغض الشاعر لتلك الثقة التي كان يراها تلوح في شمم المتنبي ، إلى درجة جعلته ينضم إلى تلك الحاشية التي سعت لنسج مؤامرة طردت عنهم شبح المتنبي.

ب– الطموح وعلو الهمة:

علو الهمة غاية لا يسعى لها إلا من يؤْثر أهدافه على رغبات نفسه ، ويمتلك قدراً من الإرادة لأن " الإرادة قوة ؛ بل طاقة مضافة تعتمل في الإنسان ، وهي خاصية لا يملكها كل أحد ، ولا تتوزع على جميع الناس بالتساوي ؛ بل إن هناك أشخاصاً لديهم إرادة قوة

---

(١) . أنظر : دراسات في علم النفس الأدبي : ص ٢٤

بمقدار أكبر وبكيفية أقوى وأبدع أثراً من غيرهم. والمبدعون من هؤلاء ، الذين يمتلكون قوة الإرادة[١]".

ويلزم صاحب الهمة تمهيد الظروف المناسبة لغايته ، فلا يستسلم لمجتمع يحارب همته أو يقضي عليها ؛ بل يذلل الفجاج الوعرة التي تحول دون غايته ، ويحاول جاهداً ترويض ما جمح منها

، فهو لا يعيش في عالم مثالي من نسج خياله ، ولا يفضل أهل الفضائل إلا في مجتمع يشيع فيه ما يناقض صفاتهم.

وقد حاول أبوفراس جاهداً معالجة آفات كثيرة كانت منتشرة في مجتمعه ، واختلفت طرق علاجه ، فهو يعظ أحياناً ، ويُقبّح المثالب ويحذّر منها ، وأحياناً لا يجد إلا السيف ليقوّم ما اعوّج من أمر العشائر المارقة.

وعلى ذلك لم يكن سلبياً ، فلم يستسلم ولم يتواكل ؛ بل أثبت شخصيته التي لم تكن عبئاً ثقيلا على الحياة .

وهناك ارتباط وثيق بين دور الإنسان في بيئته وعلو همته ؛ فإن نجح في الأولى ، تيسّرت له الأخرى ، حتى وإن لم يصل إلى طموحه ؛ لأن في بُعد الآمال وسمو الأهداف ؛ إحساس بعظمة النفس وحضّها على فعل الجميل والرقي بالمجتمع مهما تشعبت الطرق.

و لم يُقعد شاعرنا عن مطلبه بعد المزار ولا مشقة المسلك ولا وعورة الطريق ؛ بل ملكت معالي الأمور عليه أقطارها ، وأخذته من كل جانب ووزعت نفسه بين مناوحها [٢]، ولعل أبلغ ما عبّر به الشاعر عن بُعد مناله ووعورة طريقه ، قوله[٣] :

خَليلـــيّ ، أغْراضِـــي بعيـــدٌ مَنالُهـــا فَهـلْ فيكُما عَـوْنٌ على مـا أُحـاولُ؟

خليلـــيّ ، شُـــدّا علـــى نَاقتيكُمـــا ! إذا مـا بَـدا شـيبٌ مـنَ العجـزِ ناصِـلُ

وخُوضَـا بنـا بحـرَ الّـدياجي ، تَعسُّـفاً ، إذا هَـــابَ عَنـــهُ العـــاجزُ المُتثاقِـــلُ

---

(١) . الإبداع والعبقرية : ص ٩١

(٢) . زين الشباب أو العبقرية المأسورة : مجلة الأزهر ، تصدرها مشيخة الأزهر ، محرم ، ١٣٦٥، مج ١٧/ ج١/ ص ٤١٠

(٣) . الديوان : ٢/٢٩٤-٢٩٥

فمثلـــي مَـــنْ نـــالَ المعـــالي بِســـيْفِهِ ، ورُبّتمـــا غالتـــهُ ، عنْهـــا الغَوَائِـــلُ

ومـــا كُـــلُّ طـــلاّبٍ مـــن النـــاسِ بـــالغٌ! ولا كُـلُّ سَـيّار إلـى المجـدِ، واصـلُ!

فاستخدام الشاعر لمرادفات المشقة والعنت ، توحي بمشقة تجربته التي أضنته ، وأثقلت كاهله ، ولها دلالة نفسية ربما وجد فيها الارتواء وهو يجري صادياً وراء غايته.
فالفعل "شُدَّا " فيه دلالة على شدة السير ومشقته ، كما أنّ لذلك دلالة معنوية تجعله يشد على نفسه ويجّد في السير.
و"خوضا بنا بحر " مشقة عظيمة على النفس ، فالعرب أمة لم تعتد ذلك وركوب البحر هول عظيم ومخاطرة جليلة ، ولما أردفها بـ "الدياجي" زادت غموض الغاية ووعورتها وامتدادها ، و"تعسفاً" فيها إفصاح عن السبب الذي ألجأ الشاعر لاقتحام هذا الأمر ، فغاياته عظيمة ، و هو عنيف على نفسه في سبيل تحقيقها .

ومن شدة حرص الشاعر على بلوغ المجد ، أنه بذل له من الأسباب ما جعله يسلك المضايق ، فلا يفتر ، ولا يهاب الصعوبات ولا يعبأ بالأخطار ؛ بل يمضي إلى حيث يُفقد الأمل في الحياة ، ولو كان المجد سماً ناقعاً ؛ لاحتساه ، و لو كان المجد محفوفاً بالمخاطر ، و كان يرى هلكته في بلوغه إياه ؛ لم يجد في ذلك حرجاً ، يقول[1] :

وأنّــى ينــامُ الليــل مَــنْ بَــاتَ هَمُّــهُ طِـلابُ المعـالي فـي شُـدُوقِ الأَرَاقِـمِ

ففي هذا دليل على أن الشاعر كان يُعدّ للأمر عدته قبل الإقدام بدليل سهره ، فهو في هم شديد إلى أن يدرك غايته ، و سهره أيضاً دليل على صعوبة غاياته ، فهو لا يطلب إلا عظائم الأمور ، ولو كان الأمر غير هذا ، ما بات ليله ساهراً مهتما ، فالشجاع قد اعتاد ركوب الأهوال ؛ ولكن الشاعر فيما يبدو كان يرجو أهدافاً غامضة ، ربما لا يعرفها إلا أبناء الملوك أو الأمراء ، وفي قول امرئ القيس ما قارب همة الشاعر ، وسبل أهدافه ،

---

(١) . الديوان : ٣٨٣/٢

(٤٧)

يقول[1] :

فَلَــو أنّ مــا أســعَى لأدنــى معيشــةٍ كفـاني ولـمْ أطْلُـبْ قلـيلاً مِـنَ المـال

ولكنني أسْعى لمجدٍ مُؤثلٍ وقد يُدرِكُ المجدَ المؤثّلَ أمثالي

وقال أيضاً في وعورة تلك المسالك التي يسلكها ذوو الهمم العالية [٢] :

بَكى صاحبي لمّا رأى الدّرْبَ دُونه وأيقنَ أنّا لاحقان بقيصَرَا

فقلتُ لَهُ : لاتبكِ عَينُكَ ، إنّما نُحاولُ مُلكاً أو نموتُ فنُعْذَرَا

ومن العجيب أنّ الشاعرين ماتا دون تحقيق غايتهما !!

ومهما يكن من أمر فإن الشاعر حدد في أول أمره غاياته ودرسها دراسة جيدة دون أن يتهور في خوض مجاهلها ، ثم حدد الطرق التي يسلكها ؛ ليوطّن نفسه على المهالك ، فإما أن ينالها بشرف ورفعة ، وإما أن يهلك دونها ، فمثله لا يعيش إلا عظيماً ، فهو لا يطلب إلا معالي الأمور ، و نفسه معقودة بالكواكب ، و لم يَعُدْ أديم الأرض مهاده ؛ بل إلى حيث ترى السماكين .

يقول[٣] :

ولَوْ رضِيتْ نفْسِي المُقامَ لَقَصَّرتْ ولكِنَّها مَعْقودَةٌ بالكَوَاكِبِ

و لا يُرى الإنسان إلا حيث يضع نفسه ، يقول[٤] :

ومَا المرءُ إلاّ حَيثُ يَجعلُ نَفْسَهُ وإنّي لَها فَوقَ السِّماكيْنِ[٥] جَاعِلُ

---

(١) . ديوان امرىء القيس : قدم له وشرحه ووضع فهارسه : د. صلاح الدين الهواري ، ص ١١١ ، دار ومكتبة الهلال ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٤م .

(٢) . الديوان : ص٧٢.

(٣) . المصدر نفسه : ٤٩/٢

(٤) . المصدر نفسه : ٢٩٥/٢

(٥) . السماكين : السماكان : نجمان نيران ، أحدهما السماك الأعزل ، الآخر السماك الرامح .
لسان العرب: (سمك) .

فإن لم يبلغ الشاعر مأربه بعد كل هذا العتاد المعنوي ، فلا تثريب عليه ؛ لأنه بذل الأسباب ؛ بل اشتط في وثوبه إلى المجد ، ولم يدخر وسعا إلا استنفده ؛ فإذا ما نبا السيف[1] ، وكبا الجواد ؛ فلكل منهما نبوة وكبوة ، يقول[2]:

عَلَـــيّ طِـــلابُ العِـــزّ مِـــنْ مُسْـــتَقرِهِ ولا ذَنْبَ لي إنْ حَارَبَتْني المطَالِبُ

وَعِنْـديَ صِـدْقُ الضَّـرْبِ فـي كُـلِّ مَعْـرَكٍ وَلـــيسَ علـــيَّ إنْ نَبـــوْنَ المضـــارِبُ

و قد صرّح الشاعر بغموض أهدافه ، وأبان أنه أخفى بعض غاياته ، فلا يبوح بها ، يقول[3] :

يُصَـــانُ مُهْـــري لأَمـــرٍ ،لا أَبـــوُحُ بِـــهِ والدرعُ والرمحُ والصّمْصَامةُ[4]الخذمُ[5]

فليس عجيباً أن يمسك الشاعر عن التصريح عن غايته ؛ ولكن العجيب أن يذكر أنه قد أعدّ العدة لغاية غامضة لن يصرّح بها ، وهذا أمر يدعو للتساؤل:

ألا يثير هذا التصريح – وهو أقرب للوعيد – دهشة القوم وغضبهم ونفورهم ؟!

---

(١) وفي ذلك يقول حافظ إبراهيم :

لاتلـــــم كفـــــي إذا الســـــيف نبـــــا صَـــــحّ مـــــني العـــــزم والـــــدهر أبى

رُب ســـــــاعٍ مُبصـــــــر في ســـــــعيه أخطـــــأ التوفيـــــق فيمـــــا طلبـــــا

(شرح ديوان حافظ إبراهيم : تهذيب تعليق : د. يحيي شامي ، ص٧٧،دار الفكر العربي ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٨-١٤١٩هـ)

(٢) . الديوان : ٣٢/٢

(٣) . المصدر نفسه : ٣٤٨/٢

(٤) . الصمصامة : السيف الصارم الذي لاينثني . (لسان العرب : صمم) .

(٥) . الخذم : سرعة القطع . (لسان العرب: خذم) .

وما دام الواضح أنَّ غرضه سياسي بحت ، فإنه لا يعمد إلا إلى جلب العيون إليه ؛ لترصد أفعاله المريبة ، وإن كان الغرض تهديداً فقط ؛ فذلك مدعاة إلى الاستهزاء والسخرية بوعيد لم ينضج بعد !!

وإن كان غرضه فخراً وزهواً بكثرة غاياته وامتداد مطالبه المتتالية ، والتي لا يجد وقتاً للإفصاح عنها ؛ فتلك نزوة من نزواته .

وربما خرج الأمر عن ذلك كله إلى عزم الشاعر على أن يُفَاجِئ قومه بما يسرهم ، ويتوجهم بالمجد دون أن يفصح لهم.

وقد أرجع ذلك د. أحمد بدوي إلى اتصال الشاعر الوثيق بسيف الدولة ، وهذا ما حمله على عدم الإفصاح ؛ حتى لا تظن الظنون به، ويرى أيضاً أنّ ماكان ينشده الشاعر من المجد الحربي في حياته كان يرمي من ورائه إلى أن يؤسس ملكاً لنفسه ، فإنّ الوسائل التي يتغنى بإعدادها لهذا الذي يخفيه ويضمره ، وسائل لنيل الملك في ذلك العصر ، وإلا فما الذي يدخر له الدرع والرمح والسيف[1] ؟!

ج – البيئة :

عاش الشاعر في بيئة عصامية تربي بنيها على صنع المجد بأنفسهم ، فلا تغمد سيوفهم ولا تفتر خيولهم ، ولا تنقضي فرسانهم ، فالفرد فيهم يسود القبيلة ، ويؤدي حقها كاملاً غير منقوص ، فهو يحميها من الأخطار المحدقة بها ، ويمتلك فتاهم رأي الشيوخ ويتصدر للشورى ، فإذا حمي الوطيس كان فارسهم المغوار ، وخباؤه علماً للطارقين من أضياف وأبناء سبيل ، يقول[2] :

إذَا كَـــانَ مِنّـــا واحِـــدٌ فـــي قَبِيلَـــةٍ عَلاَهَـــا ، وإنْ ضَـــاقَ الخِنـــاقُ حَمَاهَـــا

---

(١) . انظر : شاعر بني حمدان : ص٣١-٣٢.

(٢) . الديوان : ٤٢٥/٢

ومَـا اشْـتَوَرت إلاّ وأَصْـبحَ شَـيخُها ، وَلاَ أَحْربَـتْ إلاّ وكَـانَ فَتَاهَـا
ولاضُـرِبتْ بَـينَ القِبَـابِ قِبَابَـهُ ، وَأَصْـبحَ مَـأْوَى الطـارِقِينَ سِـوَاهَا

ومما تميزت به قبيلة الشاعر أيضاً ، تفرد كل منهم بالرأي ، وتنازعهم الرئاسة ، وفي هذا الأمر دلالة قوية على انفراد شخصية كل فرد منهم عن الآخر، و دلالة على قوة ثقتهم بأنفسهم ، وربما كان لكل منهم طموحه الذي يواريه عن غيره ، يقول أبو فراس[1] :

أَرَانـي وقَـوْمِي فَرّقَتْنـا مَـذَاهِبُ وإنْ جَمَعَتْنَـا فـي الأُصـولِ المَنَاسِـبُ

و يؤثر عامل البيئة على سلوك الفرد وصفاته الاجتماعية ،كما أنّ عامل الوراثة يفرض صفاتاً بيولوجية معينة[2] ، وقد عرف الشاعر كثيراً من الشيم من أسلافه ، وورثها منهم .
يقول[3] :

شِـيمٌ عُرِفْـتُ بِهِـنَّ مُـذْ أَنَـا يَـافِعٌ ، ولَقَـدْ عَرَفْـتُ بِمثْلِهـا أَسْـلاَفِي

و تُظهر هذه الشيم التي تلحظ غالباً في بني تغلب مثل : الغلظة والشدة ، النجدة والسماحة ، والكرم ، والمروءة ، وحب الرئاسة ، أنّ بطشهم أقرب من عدلهم.
وقوم الشاعر – على حد تعبيره – شكائم الدهر ، لا تهولهم الشدائد ، ولا تقرعهم الخطوب ، يصابرون ويجالدون ، ويهدهدون أبناءهم على صليل السيوف ، ولا يجدون غيرها تميمة لهم ، يقول[4] :

ونحـنُ أُنـاسٌ ، يعلـمُ اللهُ ، أنّنـا إذا جَمَـحَ الـدّهْرُ الغشُـومُ، شَـكائمُه[5]

---

(١) . الديوان : ٢٠/٢
(٢) . أنظر : النفس البشرية : ص ٧٩
(٣) . الديوان : ٢٥٧/٢
(٤) . المصدر نفسه : ٣٩٣/٢
(٥) . شكائمه : أصل الشكيمة : الحديدة المعترضة في الفم ، والشكيمة ، وفلان ذو شكيمة : أن يكون صارماً حازماً لا ينقاد . انظر لسان العرب: (شكم) .

إذَا وُلــدَ المولُــودُ منّــا ، فإنّمــا الــ أســنّةُ ، والبــيضُ الرقــاقُ تَمائِمُــهْ[1]

و هـم أركـان ذلـك المجد ودعائمـه ، ولم يبلغوا هـذا الشـرف إلا بصـبرهم ، ونَـدَاهم وعلاهـم، يقول في ذلك أبوفراس[2] :

إذا نــزلَ الخطــبُ الجليــلُ فإنّنَــا نُصــابِرُهُ حَتّــى تَضــيقَ حَيَازمُــهْ
وإنْ جَاءَنــا عَــافٍ فإنّــا مَعَاشِــرٌ نُشــاطِرُهُ أَمْوالَنَــا ونُقَاسِــمُهْ
بَنْينَــا مِــن العَلْيــاءِ مَجْــداً مُشَــيّداً ، و مـا شَـائدٌ مَجْـداً كَمـنْ هُـوَ هَادِمُـهْ!
سَــلِ المجــدَ عنّــا يعلــمُ المجْــدَ أنّنَــا بِنَــا أُطِــدَتْ أرْكَانُــهُ وَدَعَائِمُــهْ

بل يجاوز الأمر ذلك ، فلم يعد شرف قومه إلا فوق المجرة والسماك ، يقول[3] :

ولِقَــومِيَ الشــرَفُ المنيــعُ مَحَلُّــهُ فَــوْقَ المجــرّةِ[4] ، والسِــماكِ المــرْزَمِ
وَرَثُــوا الرّئاسَــةَ ،كــابراً عــن كــابرٍ ، مِـنْ عَهْـدِ "عَـادٍ" فـي الزمـانِ و"جُـرْهُمِ"
ظَفِــرُوا بهــا بالسّــيف ، أوّلَ مَــرّةٍ ، وبَقَاؤهــا بالسّــيْفِ أصــبَحَ فِــيهم

ولكـن الثقـة إن زادت عـن قـدرها ؛ فإنهـا تقلـبُ الأمـور ، والـنفس حـين تسـمو بنرجسيتها ؛ تهلك لا محالة و تعمى عن إبصار ما أمامها ، فهي لا تبصر إلا ذاتها ، وفي قوله : "كـابراً عن كابر" غاية في الكبرياء ، وغلوفي العظمة ، فكم في هذه العبارة من قبح تنفر الأسماع منه ، وغرور تمقته النفس .

---

(١) . تمائمه : التميمة عُوذة تُعلّق في أعناق الصبيان . انظر: المصدر نفسه : (تمم).

(٢) . الديوان : ٣٨٢/٢

(٣) . المصدر نفسه : ٣٧٧/٢

(٤) . المجرة : باب السماء وهي البياض المعترض في السماء ، والنسر من جانبيها . انظر: لسان العرب : (جرر)

ولو فكّر الشاعر بالعواقب ؛ لعلم أنَّ دوام الحال من المحال[1] ؛ ولكنها نشوة تطربه كلما ذكر المجد ، و تسمو به إلى عنق الثريا ؛ لتوطد دعائم مجد ، لا يصافحه إلا الفضاء ...يقول[2] :

لَنَــا بيــتٌ ، علــى عُنُــقِ الثُريّــا ، بَعيــدُ مَــذَاهِبِ الأطنــاب ، سَــامِ

تُظلّلُــــهُ الفَــــوارِسُ بــــالعوالي ، وتَفْرشُــــهُ الوَلائِــــدُ بالطّعــــامِ

وحين بلغه عن بعض الملوك ، أنه قال : ما أعظم ملك بني حمدان ، وأكبر شأنهم ، انطلق لسانه العضب الذي لاينبو إذا ما السيف نبا ، قائلاً[3] :

أَتَعَجْــبُ أَنْ مَلَكْنَــا الأرْضَ قَسْــراً ، وَأنْ تُمْسِــي وَسَــائدَنا الرِّقَــابُ ؟

وتُــرْبَطُ فــي مَجَالِسِــنَا المــذَاكِي وتَبْــرُكُ بَــيْنَ أَرْجُلِنَــا الركــابُ ؟

فَهــذَا الِعــزُّ أَثْبَتَــهُ العَــوَالي وَهَــذا المُلــكُ مَكنّــهُ الضِّــرابُ

فبيئة تملك بالقهر ، والسفك ؛ حرية أن تُنشّئ قوماً شامخي الأنوف ، يتيهون زهواً في أمقت خيلاء ، ولا يميزون بين وسائد حشوها الليف أو وسائد من جثث ما فعلت سيوفهم ، هذا ما دعا الشاعر إلى مثل قوله[4] :

سَــبَقْتُ وَقَــومِي بالمكَــارِمِ والعُــلاَ وإنْ رُغَمَــتْ مِــنْ آخــرينَ المعَــاطِسُ

---

(١) . و من أروع من ذكر أمثلة واقعية تصور أبعاد الملك الحقيقية أبو البقاء الرندي رحمه الله ، فقال :

أيــن الملــوك ذوو التيجــان مــن يمــن وأيــن مــنهم أكاليــل وتيجــان

وأيــن مــا شــاده شــداد في إرم وأيــن ماساســه في الفــرس ساســان

وأيــن ماحــازه قــارون مــن ذهــب وأيــن عــاد وشــداد وقحطــان

أتــى علــى الكــل أمــر لا مــرد لــه حــتى قضــوا فكــأن القــوم مــا كــانوا

وصــار مــن كــان مــن مُلــك ومــن مَلــك كمــا حكــى عــن خيــال الطيــف وســنان

(نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : ٤٨٧/٤) .

(٢) . الديوان : ٣٦٤/٢-٣٦٥

(٣) . المصدر نفسه : ٥١/٢

(٤) . المصدر نفسه : ٢٣٥/٢

ولذلك كان عليه أن يحفظ عهد أجداده ، وأن يحفظ ذمتهم التي قُلدت في عنقه ، وأن يلبي نداء سيفه ورمحه .

يقول[1] :

تُطَـــالِبُني بِـــيضُ الصّـــوَارِمِ والقَنَـــا بمـــا وعـــدت جَـــدّيّ فـــي المخَايـــلُ

٢- العبقرية :

العبقر : موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن ، ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من حذقه أو جودة صنعته وقوته. ومن ثم فإن العرب كلما رأوا شيئاً فائقاً غريباً ، أو شيئاً عظيماً في نفسه نسبوا إليه ، فقالوا: عبقري[2].

و تبدأ حركة العبقري من حدوث صدع في الـ " نحن " ، ويحدث هذا الصدع توتراً عاماً في الشخصية ، فهو يعمل على دفعها دائماً ، وهو يحاول تغيير الحواجز دون أن يحطمها[3] كما تنشأ العبقرية من الصراع الذي تتعرض له الشخصية بين أهدافها الخاصة والهدف المشترك للجماعة ، كما أنه يمكن أن يكون منشأ الجنون ، أو منشأ أي ظاهرة تدل على سوء التكيف[4].

وتجد العبقرية نفسها في شخصية أبي فراس ، حين أرسل طموحه ؛ ليجتاح النجد والسهل، واليابس والبحر ، دون أن يقول لآماله: صه !! وحين جرت رياحه بما لاتشتهيه سفنه ؛ أرسل مجاديف عبقريته ، لتحرك سفنه ، التي لم تركد مذ شبَّ على الحياة ، فكان ــــــــ

(١) . الديوان : ٢٩١/٢

(٢) . انظر : لسان العرب : (عبقر).

(٣) . انظر : من الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة : د. مصطفى السويف ، ص ١٣٠ ، دار المعارف، ط٣ ، مصر ، (ب.ت).

(٤) . انظر : المصدر نفسه : ص ١٢٦

صراعه قائماً بين ما تصبو إليه الـ (أنا[1]) ، وبين الـ (أنا الأعلى[2]) هذا من طرف ، ومن طرف آخر ، كان عليه أن يواجه المجتمع الذي كان يرى في صدعه صدعاً يصدّع كيانه ، فعانى من سوء التكيف في تحقيق أهدافه وإشباع دوافعه ؛ لأن ذلك كان يتعارض مع بعض القيم والعادات الموجودة في بيئته، فأدى ذلك الأمر إلى صراع[3] عنيف في
داخله ، وحالات من الخوف والتوتر والقلق ، جعلته يُبرز فنوناً شجية خطتها أنامل عبقريته .
أليس من الأقرب لشخصية أبي فراس أن تُحطّم الحواجز دون تغييرها؟
من الواضح أن أبا فراس لم يسلك مسلكاً واحداً لرأب الصدع بينه وبين الـ(نحن) ؛ بل كان يحتاج أولاً إلى وأد الخوف وإحياء الأمن ؛ ليعيش في مجتمعه حتى وإن لحقه منهم ضيم ؛ وذلك لأن الشعور بالأمان في وسط الجماعة ، ييسر عملية التفاعل الاجتماعي ، ولأن حاجة الفرد إلى الانتماء والتقدير والحب والنجاح تقوي التفاعل بين أفراد الجماعة بعضهم ببعض[4].
وفي ظل حاجة الشاعر للأمن ؛ كان يغضي عن بعض أفعال قومه وأقوالهم ، فيعفو مع قدرته على البطش ، ويمسك عن جدالهم مع وجود الحجة ، ويحجم عن المخاصمة خشية التباغض ، وكان يقبل ظاهر الناس وهو يعلم فساد باطنهم ، وحسب الشاعر صبراً احتماله على ماهو عليه وهو يمشي على الأرض ومطلبه الثريا ، وكل هذا بلا شك أمر عسير عليه ؛ ولكن رغبته في العيش العزيز جعلته يذلل العسير.

---

(١) . الـ (أنا) : يستخدم عادة ليدل على الشخصية كلها ، أو على الذات الشعورية. (انظر: قاموس علم النفس:ص٤١) .

(٢) . الـ (أنا الأعلى) : هو " ذلك الجزء من أولئك الممسكين بزمام السلطة. ومما تضطلع به الأنا الأعلى لا شعوري إلى حد كبير . وعندما نكون على وعي بذلك ، فإننا نطلق على الأنا اسم الضمير". (قاموس علم النفس : ص١٤٤) .

(٣) . انظر : التوافق الشخصي والاجتماعي : د. مصطفى فهمي ، ص ٦٦ ، مكتبة الخانجي ، ط١، القاهرة ، ١٩٧٩م

(٤) . انظر :المصدر نفسه : ص ٦٦

يقول د. عبداللطيف عمران : " وتظهر عبقرية أبي فراس حينما شعر أنَّ خلل العلاقة العضوية بين الطرفين يقوم على أساس من المفارقة والاختلاف ، فكم تتألم الـ (أنا) عندما تجد الآخرين غير معنيين بالتزاماتها تجاههم ، متجاهلين ما قدمته لهم ، فـ (أنا) – هنا – تبذل نفسها رخيصة في سبيل أن تحيا الـ (نحن) حرة كريمة ، لكن (نحن) بهذا الأمر[1]".

و لا تنفي محاولة الشاعرللم الشعث الذي بينه وبين قومه خروجه عليهم في كثير من الأحيان ، وقد صوّرت عبقريته ذلك الخروج الذي عبّر عنه بوسائل مختلفة جعلته يتكيف بمرونة عالية ، والمرونة سمة من سمات الشخصية المبدعة ، التي تجيد تشكيل الأشياء، و لديها القدرة على الظهور و التخفي [2].

وقد تخفّى الشاعر عن بني حمدان كثيراً وذلك حين أضمر بعض أحقاده على عمومته ، وكذلك حينما أخفى مطامعه التي كان يرنو إليها ، ولكنه كان بصورة الغائب الحاضر ، فكلما سنحت الفرصة لإفراغ ما كان يخفيه ، لم يتردد في عرض الموقف بالطريقة التي كان يراها تناسبه ، فمثلاً حين عرّض بعمه ناصر الدولة لما فرّ هارباً إلى أخيه من معز الدولة(٣٥٦هـ) الذي أخرجه من دياره ؛ فتوسط سيف الدولة بينهما وحمل عنه الأموال، رأى في ذلك فرصة لمدح سيف الدولة ، مثله الأعلى ، والمتفضّل على ناصر الدولة ، وكذلك رآها فرصة للنقمة على ناصر الدولة ، والتلويح بأطماع الملك بصورة خفية، يقول أبوفراس[3] :

لمثلِها يَسْتَعِدُّ البَأْسُ والكَرَمُ وفي نَظَائِرِهَا تُسْتنفدُ النّعَمُ
هي الرئاسةُ لا تُفنى جَوَاهِرهَا حتّى يُخاضَ إليها الموْتُ والعَدَمُ
تَقَاعَسَ النّاسُ عَنْهَا فانتَدبْتَ لها كالسّيفِ ، لا نكَلٌ فيه ولا سَأمُ

---

(١) . شعر أبي فراس الحمداني دلالته وخصائصه الفنية : عبد اللطيف عمران ، ص ١٢٩ ، دار الينابيع ، ط ١ ، دمشق ، ١٩٩٩ .

(٢) . و هذا ما ذُكر سابقاً ص ٣١من الرسالة .

(٣) . الديوان : ٣٦٦/٢

مازَالَ يجْحَدُها قومٌ ، ويُنكِرُهَا حَتّى أقرُّوا ، وفي آنافِهِمْ رَغَمُ

فمدحه سيف الدولة ، يعكس إشارة خفية إلى موقفه من الملك الذي لا يُبذل إلا بشدة البطش ، وسفك الدماء ، والعزة التي تبلغ إلى التعالي والجبروت ، وإرغام الـ (نحن) على الخضوع لما يمثله الـ (أنا).

وربما كان منظر الانقياد والخضوع ، منظراً يشفي الغليل ، ويقر العيون ، وما يكون ذلك إلا ممن تنازعه نفسه لإحراز الملك .

يقول[1] :

شُكراً ! فَقد وَفتِ الأيّامُ مَا وَعَدَتْ ، أقَــرَّ مُمتَنــعٌ وانْقَــادَ مُعْتصِــمُ !

ومــا الرئاســةُ إلاّ مَــا تُقــرُّ بــه شَـمْسُ الملُـوكِ ، وتعنُـو تَحتـهُ الأمَـمُ

مغــارمُ المُلْــكِ يَعتــدُّ الملــوكُ بهــا مَغانمـاً فـي العُـلا ، فـي طَيّهَـا نِعَـمُ

ولعل البعد الذي بين المغارم والمغانم هو الذي أورده مشقة الدروب ، أو وعورة المسالك ؛ لأن البون الحقيقي بينهما عظيم ؛ ولكنّ الشاعر لا يرى ما يباعد بينهما ، فربما كان طريقاً ممتدا.

وهنا " تبرز أهمية الحواجز، فقد تكون من الصلابة بحيث تتحطم أمامها مواهب ظلت في حيز الإمكان ، وربما كانت فترات الانقلاب الاجتماعي أشد الفترات استعداداً لظهور العباقرة[2]"

ومهما يكن من أمر ، فإن الشاعر لا يُقدّم الشخص على الموقف ؛ فناصر الدولة أحد الذين فاخر الشاعر بهم في معرض مَدْحِه لقومه ، فلم يتجاهله حين امتدح بني حمدان ؛ بل مدحه ، وفاخر به ؛ ليقدّم الموقف على الشخص ، فالموقف يستدعي ذِكرَ المزيد من أبطال قومه ؛ لأن " نزعات الشاعر الداخلية ستلقى عنتاً إذا ناقضت ذاتها مع الواقع المحيط بها ؛ لذلك كان على المبدع أن يستثمر إبداعه للخروج من الذات قليلاً والتصالح مع ذوات الآخرين[1]" وتمضي ديناميات العبقرية نحو إدماج الـ (أنا) مع الآخرين في بناء مجتمع متكامل هو الـ (نحن) ؛ لأنها وظيفة معينة في المجال النفسي الاجتماعي[2]، فقال في سيف الدولة

(١) . الديوان : ٣٦٧/٢

(٢) . الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة : ص ٣٤١

وناصر الدولة ، عندما أجَارا المتقي بعد أن هزم البريديون محمد بن رائق، وفتحوا بغداد ونهبوا دار الخلافة ؛ فخرج المتقي ومحمد بن رائق والوزير ابن مقلة هاربين ، فتلقاهم سيف الدولة بالتكريم وحمل إلى جميعهم ما عمهم من الأموال وغير ذلك ، وسار بهم إلى أخيه ناصر الدولة ، فأجاراه وأقاما بنصره[٣] :

فَفِينـــا لـــدين الله عِـــزٌ ومنعـــةٌ ، وفِينَـا لـدين الله "سـيفٌ" و"نَاصِـرُ"

هُمـــا ، وأميـــرُ المـــؤمنينَ مُشَـــرَّدٌ[٤] أجَـاراهُ ، لمّـا لـمْ يَجِـدْ مَـنْ يُجـاوِرُ

ورَدّاه ، حتّـــى مَلّكـــاه سَـــرِيَرهُ ، بعشـرينَ ألفـاً ، بينهـا المـوتُ سَـافِرُ

وسَاسَـــا أُمُـــورَ المســـلمينَ سياســـةً لهـا اللهُ ، والإسـلامُ ،والـدينُ ، شَـاكِرُ

وقال فيهما أيضا[٥]:

ومِنّـا اللـذانِ اسْـتَنْقَذا المُلـك بالقنـا ، وقَـــدْ فُللـــتْ أنيابُـــهُ ، والأَظـــافِرُ

هُمَـــا عَمّـــرا " بـــالمتقي" دَارَ مُلكِـــهِ وللضّـــربِ وقـــتٌ بالحَمَـــاحِمِ عَـــامِرُ

لقَـدْ أنَجـدَاهُ حـينَ لـمْ يبـقَ مُنجـدٌ ، لقَـــدْ آزراهُ حـــينَ قـــلّ المُـــؤَازِرُ

ولاغَـرْوَ إنْ ذَادَا عـنِ الملـكِ مَـنْ طَغَـى لأنّهُمـا للمُلـكِ "سـيفٌ" و"ناصـرُ"

فعبقريته التي جعلته يجمع بين سيف الدولة ، وناصر الدولة ، على ما بينهما من بعد المنزلة، هي نفسها التي جمعت بينهما في مقام آخر يناقض هذا المقام ، وذلك في قوله[٦]:

---

(١) . الإبداع والعبقرية : ص٨٨

(٢) . انظر : الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة : ص ٣٤١

(٣) . الديوان : ١١٤/٢، ١٣٧

(٤) . قد لا يليق وصف الخليفة بصفة "مشرد" ؛ فهي صفة لا تناسب أصحاب المقام الرفيع ، و لاسيما أنّ الشاعر نعته بأمير المؤمنين قبل ذلك .

(٥) . الديوان : ١٥٨/٢

(٦) . المصدر نفسه : ٣٦٧/٢ ، الأبيات تتمة للقصيدة السابقة التي ذكرتُها ؛ ولكني فصلت بينهما، لتتضح سمة المرونة التي كانت تعطيه القدرة على إعادة تشكيل الأشياء .

(٥٨)

شَـيخُوخَةٌ سَـبَقتْ ، لا فَضْـلَ يتْبَعُهـا ولـيسَ يَفْضُـلُ فِينَـا الفَاضِـلُ الهـرِمُ

لا تُنكـرُوا ، يـا بَنيـهِ ، مـا أقُـولُ فَلَـنْ تُنْسَـى الـتِ َراتُ ، و لا إنْ حَـالَ
كَـادَتْ مَخَازِيـهِ تُرديـهِ فَأنْقَـذَهُ مِنهـا بحُسْـنِ ، دِفَـاعِ عَنْـهُ ، عَمُّكُـمُ

فحين جرّد الشاعرُ ناصر الدولة من الفضائل التي كساه إياها مع أخيه سيف الدولة ؛ كان واضحاً أنه أعطى نفسه حقها في التعبير عن الرغبات التي كانت تعمل في الخفاء دون أن تندثر ، ولكنها تحتال للظهور على نحو يمكن أن يسمح به العقل الواعي[1] فخرجت بصورة تُرضي نفسه قليلاً ، وذلك يكفيه ، فهو لايحتاج إلى صَهْرِ جُلّ ما في اللاشعور في سلوكه؛لأنه محتاج إلى الأمن الذي يظلله من وهج اضطرابه وقلقه .

٣- وسواس الخوف من الحساد[2]:

من العسير الحكم على شخصية أبي فراس بأنها مصابة بوسواس الخوف من الحسد ؛ ولكن لعل ما اضطرني إلى الوصول إلى ذلك ، كثرة حديثه عن الحساد ، ووصف الحسد ، كثرة مبالغاً فيها إلى درجة جعلته يعمم هذه الظاهرة وجعلها تشمل الكون بأجمعه.

ولما كان الحسد فكراً متسلطاً لا يغادر فكر الشاعر في أحوال حياته المختلفة ؛ كان الأقرب إلى الصواب – والله أعلم – أنّ ما لازمه من خوفه من الحساد كان وسواساً استحوذ عليه ولم يستطع مقاومته.

---

(١) . انظر : التفسير النفسي للأدب : ص١٤١

(٢) . الوسواس: أصل الوسواس الصوت الخفي من الريح ، أو صوت الحلي ، وفي اللغة يعني : حديث النفس ، وأما في علم النفس ؛ فهو الفكر المتسلط. والحسد : أن يرى الرجل لأخيه نعمة فيتمنى أن تزول عنه وتكون له دونه. انظر:
١- لسان العرب : مادتي (وسس) و (حسد)
٢- الصحة النفسية والعلاج النفسي : د٠ حامد عبد السلام زهران ، ص٥٠٩ ، عالم الكتب ، ط٣ ، ١٩٩٧

و قد سيطرت فكرة الخوف من الحسد على الشاعر لعدة أمور ، لعل من أبرزها ، كثرة تفشي الحسد في بيئته ، وهذا ما يجعل الدارس يلتمس العذر له ، وأقرب ما دلّ على ذلك ، الدسائس والمؤامرات التي كانت بين أبناء العمومة في بني حمدان ، وبين الشعراء من جهة أخرى ، فكان موقف الشاعر من ذلك ، أنه رأى في نفسه ما هو جدير بالحسد دون غيره ؛ لأنه فتى بني حمدان وفارسهم وشاعرهم وكهلهم في المشورة ، فليس غريباً إن رمقته العيون ، وحسدته الكواكب[1]، ومن شدة ما رأى الشاعر من حساده ، تمنى أن يرحل عنهم على ظهر فرسه العدوي ، ولعل في ذلك ما يخفف عنه وعنهم ؛ فنفسه تحتاج إلى جو آمن تنبثق منه الطمأنينة ، لاتخشى فيه عين حاسد ، ولا يخشى خيانة صاحب،وربما وجد في رحيله ذلك متنفساً يتلاءم مع جوه النفسي الذي أضرّ به سموم بني حمدان ، لينقل نفسه إلى جو تزينه أنسام الغربة والبعد عن الحساد .

يقول[2] :

"أبَـــا المنصُـــورِ" خَـــانَتْني ثِقَـــاتي فَمَهِّـــدْ لـــي عَلَـــى العَـــدَويّ سَـــرْجي

"بَنُوحَمْـــدانَ" حُسّـــادي ، جَميعـــاً ، فمـــالي لا أَزُورُ "بنـــي طُغْـــجِ" ؟!

فلعل في ابتعاده عنهم وسيلة كان يريد أن يدفع الحسد بها عن نفسه ، ويُخلي الجو لهم من ذلك الفتى الذي زاحم بفضله شبانهم وشيبهم ، فلم يكن أمامه إلا أن يطلب من غلامه منصور أن يُعد المركب له ؛ نأياً بنفسه عن بيئة تعج بالخيانة والحسد بعد أن ثارت ثورة الغضب وأشعلت وقودها في جسمه ؛ لتحرك سكون النفس ، وتهبّ بصاحبها للوثوب إلى امتطاء صهوة الجواد ؛ عزة ومنعة لنفسه التي لم تحتمل المزيد من الضيم .

و لعل في الحث على إعداد المركب أمر يشفي صدر صاحبه ؛ ليوثب همته إلى الغاية التي يرجوها ، فيتولد لديه الشعور أنّه على مشارف الغاية ، و ما بينه و بينها إلا أنْ يغذ السير

---

(١) . وفي ذلك يقول :

رمتـــني عيـــونُ النـــاس حـــتى أظُنهـــا ستحْسُـــدني،في الحاســـدينَ الكواكـــبُ

الديوان:١/٣١

(٢) . المصدر نفسه : ٢/٥٧

إليها ، على ظهرفرسه[1].

و قد ذمّ الشاعر قومه مذمة لا قبول للتأويل فيها ، فقد خصص (بنو حمدان) بحسده في قوله : (حسادي) ، وفي الكلمتين دلالة قاطعة على أضغان شديدة ملأت قلبه ، ففاضت دون مداراة .

وفي هذا أمر يثير التساؤل: ما موقف قومه بعد سماع ما قاله عنهم؟

يكون رد الفعل الطبيعي إما بالسكوت احتقاراً أو إقراراً ، وإما أن يكون الرد بالفعل لا بالقول ، فإن كان بالفعل ، فهذا ما قد يؤلب الأحزاب ضد الشاعر ؛ لنقمتهم على جرأته وغروره ، وتربص سماع ما يسؤوه ، وربما أدرك الشاعر ذلك ؛ فكان يتوقع شماتتهم به في أدنى خطب يواجهه .

وعلي أي حال ، لا يمكن إنكار وجود حساده ، ولا يمكن إنكار دور الشاعر في وجودهم، ليس لفضائله فحسب !! بل لأقواله وأفعاله التي تجذبهم للتصدي له ، وتنفرهم

---

(١) . وفي خبر الحارث بن عباد ما يثبت ذلك ، وذلك أنَّه اعتزل الحرب التي كانت بين بكر و تغلب في حرب البسوس الشهيرة ، فلما أراد أن يُصلح بين الحيين أرسل ابنه أو ابن أخيه إلى المهلهل قائد حرب البسوس ؛ ليكف عن القتال أو يُدرك به ثأر أخيه كليب ، الذي قتله جساس بن مرة ، فقتله المهلهل ، فلما بلغ الحارث ذلك ، قال: نعم القتيل أصلح بين ابني وائل ، وظن أنّ مهلهلاً قد أدرك به ثأر كليب وجعله كفئاً له؛ولكنه حين علم أنَّ مهلهلاً جعله بشسع نعل كليب ؛ غضب و ثار، وكانت له فرس يقال له النعامة ، فقال:

قربا مربط النعامة مني ... لقحت حرب وائل عن حيالي
لا بجيرٍ أغنى قتيلا ولا رهط ... كليب تزاجروا عن ضلال
لم أكن من جناتها ، علم الله ، وإني لجمرها اليوم صالي
قربا مربط النعامة مني ... إن قتل الغلام بالشسع غالي

فالحارث كان يطلب المركب و هو خير وسيلة يعبر فيها عن رد فعله ، فظلّ يُكرر(قربا مربط النعامة مني) في نحو خمسين بيتاً ، لما كانت الحاجة إلى تكرارها ماسة والضرورة إليه داعية ؛ وذلك لعظم الخطب،وشدة موقع الفجيعة.

انظر :

١- خزانة الأدب ولب لسان العرب: عبدالقادر بن عمر البغدادي ، تحقيق محمد نبيل طريفي ،إميل بديع يعقوب ، ٤٥/١ ، دار الكتب العلمية ، (ب.ط) ، بيروت ، ١٩٩٨م .

٢- الصناعتين : لأبي هلال حسن بن عبدالله بن هلال العسكري ، حققه وضبط نصه : د.مفيد قميحة، ص ٢١٣ ، دار الكتب العلمية ، ط٢ ، بيروت- لبنان ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م .

٣_ العقد الفريد : ١٩٩/٥-٢٠٠

في الوقت نفسه من تعاليه عليهم ، وإحساسه بأنه فريد عصره ووحيد زمانه ، وهذا الإحساس هو الذي قاده إلى تحقير أفعالهم بجانب أفعاله ، وتضعيف رأيهم ، بجانب رأيه[1].
وربما كان هذا الأمر "وسيلة رائعة تفضح على نحو مخيف عجرفة المرء ، تقوم على إدراك أن التصرفات السلبية المنسوبة إلى الآخرين مبعثها الشخص نفسه وموقفه منهم ، فتصبح إذاك مقولة :" إنها غلطة الآخر" إنها تصرفاتي التي ولدت مواقف الآخرين هذه ، فشكلت كلها ما يشبه كرة الثلج من خلال لعبة " الفعل ورد الفعل" ذلك يتيح أيضاً إظهار عدد هائل من أوهام المرء حول نفسه ، تلك الأوهام التي يصونها بعناية خوفاً من اكتشاف حقائقه الممكنة "[2].

ومن أسباب سيطرة فكر الحسد لديه ، ارتباط الشاعر الوثيق بسيف الدولة ، فذلك الارتباط جعله يخشى على نفسه أن يفقد مكانته ، أو يقل شأنه عنده ، فكان يكثر من الوسائل التي يقيس بها تلك المودة ؛ للاطمئنان على منزلته في حضوره وغيابه ، فكان يكثر من الشكوى من الحساد ويعتب عليهم بشدة ، ربما ليحط من شأنهم أمام سيف الدولة ، وكانت هذه الوسائل تجعله كثير الظنون بمن حوله على الحقيقة أو الوهم ، وكان عليه أن ينبه ابن عمه لما قد يحصل ، فبلاط الملوك والأمراء طينة خصبة لزرع الوشايات وإيجاد المشاحنات وذلك كفيل بالوحشة والنفور ، فلما فطن أبو فراس للتنبؤ بوجود مثل هذه الأمور ؛ كان عليه أن يَحْذرَ منها ويُحذّر ؛ ليضمن بذلك دوام الصحبة وصفاء المودة.
ومن الأسباب أيضاً ، إعجابه الشديد بشخصيته الطموحة التي نجحت فيما أخفق كثير من الناس فيه ؛ لأنه يعلم أن قدرات الناس تختلف ، باختلاف مواهبهم ، و" أن من الخير

---

(١) . وفي ذلك يقول :

أما أنا أعلى من تَعُدُّون همة؟ وإن كنت أدنى من تعدون مولدا

(الديوان : ٢/٨٥)

(٢) . من السجون إلى الحرية : بييرداكو ، ترجمة : سامي علام ، ص ٦٢ ، دار الغربال ، ط١ ، دمشق ١٩٩٢م

للإنسان أن يرضى بذلك القدر من الإمكانات التي زود بها"[1]، وقد وصف ذلك بوصف أقرب لإحباطهم من إقناعهم فقال[2] :

ويرجُـــونَ إحـــرازَ العُـــلا بنفُوسِـــهِمْ ولـــم يعلَمُـــوا أنّ المعَـــالي مَواهِـــبُ

وكان في هم شديد من إقناع الناس بذلك ؛ ولكنه إقناع مزعج ، لا يزيدهم إلا النفور والإصرار ، فلسان حاله يقول : ابتعدوا عن العلا وتنحوا عنه ؛ لأنه جِبّلة توجتني دون تكلف ، يقول[٣] :

أيا جَاهِداً ، في نَيْلِ ما نِلتُ من عُلاً ، رُوَيْـدكَ ! إنّـي نِلْتُهـا غَيْـرَ جَاهِـدِ!

لعمـرُكَ ، مـا طُـرقُ المعـالي خَفيّـةٌ ولكـنّ بعـضَ السّـيْرِ لَـيْسَ بقَاصِـدِ

وربما وجد الشاعر بعض المتعة في وجود حساده وكثرتهم – على الحقيقة والوهم – لأن الحاسد لا يرصد إلا مبرزاً ، ولا ينال إلا من هو أعلى منه في المنزلة ، و "لما في ذلك من إرضاء لنفسه المتعالية ، التي ترى في كثرة الحاسدين دلالة على مقدار الفضل وعلو المكانة، فما حسدهم إلا بسبب ما يتمتع به[٤]"

وقد سلك مع حساده طرقاً عديدة ، من أهمها محاولة تأديبهم بما يغيظ صدورهم ، متجاهلاً في تلك الوسائل عواقب الأمور ؛ ليصل إلى ما يريده ، حتى وإن كان الجسر أعناقهم ، وأقحم الحساد بينه وبين سيف الدولة حتى في معاتبتهما الخاصة ؛ ففي الحين الذي كان يشكر صنيع سيف الدولة ؛ كان يضع من شأن الحساد وينال منهم ؛ ليغيظهم، ويُخيّب ظنهم في قدرتهم على تغيير سيف الدولة عليه ، يقول[٥] :

---

(١) . مقدمة في الصحة النفسية : د. عبد السلام عبد الغفار ، ص ٢١٦ ، دار النهضة العربية ، (ب.ط) ، (ب.ت).

(٢) . الديوان : ٣١/٢

(٣) . المصدر نفسه : ٨٢/٢

(٤) . أثر الاغتراب في شعر أبي فراس الحمداني مظاهره وسماته الفنية : ص ١٧٧

(٥) . الديوان : ٨٠/٢

وأنـــت الـــذِي بَلّغْتَنـــي كُـــلّ رُتْبـــةٍ ، مَشَـيْتُ إليهـا فَـوقَ أعنـاقِ حُسّـدِي

يبدو أن الشاعر قد ارتقى مُرتقىً صعباً ، إذ كيف تُمكنه جرأته من أن يطأ بقدميه فوق أعناق حساده – وهو يرى أن بني حمدان حساده جميعاً – ليبلغ المرتبة التي أعدها سيف الدولة له ، وهو لا يجهل طبع قومه التغلبي الأنف الذي لا ينقاد ولايُضام ، فلماذا تجاهل ذلك ، هل قادته نشوته إلى مالا يفطن له ، أم أنه أراد حربه ضد الحساد أن تستمر وتبقى؟!

و كان الشاعر يرى في فضائله ما يُنّغص على الحاسد حياته ويُعّكر صفوه ، ويجعله يكابد كتمان آلامه ، ويطردها إلى حيز اللاشعور ، يقول[1] :

أشــكُو ، وهــل أشــكُو جنايــةَ مُــنْعِم غَــيْظُ العــدُوّ بِــهِ وكَبْــتُ الحاسِــدِ ؟

فالكبت : " إبعاد الدوافع والأفكار المؤلمة أو المخزية أو المخيفة أو الخطيرة المؤدية إلى القلق، من حيز الشعور إلى حيز اللاشعور حتى تنسى. وهو وسيلة توقي إدراك الدوافع التي يفضل الفرد إنكارها ، وكأنه يهذب ذاته خشية الشعور بالإثم والندم وعذاب الضمير، وإيلام الذات[2] " ، ففي هذا دليل على وعي الشاعر بالتفاصيل الداخلية التي تحصل للحاسد ؛ فعَبّر عنها بـ (الكبت) في وقت لم تُقعّد فيه أصول علم النفس ؛ ولكن تَعمّق فكر الشاعر في نفسية الحاسد ، يجعل المتبصر يفطن إلى زاوية منعكسة تثبت أن الشاعر قد مارس دور الحاسد ، وأحس بإحساسه ؛ لذلك كان يسقطه على حاسده ، فإنْ كُبتَ حاسده ؛ فقد كُبت الشاعر ؛ غيظاً ممن حسدهم سابقاً، وإن شمخ بأنفه على حساده ؛ فقد استعلى عليه مَنْ كان يحسدهم ، والمتنبي خير دليل على ذلك .

ووصف الشاعرمشهداً آخر للحساد ، بوصف حسي نفسي ، لا يخبره إلا مجرب أحرقته

---

(١) . الديوان : ٢/٧٣

(٢) . الصحة النفسية والعلاج النفسي : ص ٤٣.

الكآبة ، وظللته غمائم الغموم !! في قوله[1] :

فــلا بَرِحَــتْ بالحاســدينَ كآبــةٌ ، ولا هَجعَــتْ للشّــامِتِينَ عيُــوُنُ

و يدل على أنّ حرص الشاعر على مراقبتهم لا يقل عن حرصهم على مُراقبته و التربص به!

ومن الطريف أنّ الشاعر كان يشفق على أولئك الحساد ، فكان يعظهم أن يكونوا من الجاهلين ؛ لأنّ فرحتهم لا تدوم ... قال وهو أسير ينتظر إحسان ابن عمه، ناظراً من خلف البحار إلى زمرة الحادسين والشامتين[٢] :

سأصبرُ إمّا واجداً ما أُريدُهُ ، بفضلِ "ابن عبدالله " أو غَيْرَ واجِدِ

وإنْ تكُنِ الأُخرى فلستُ بخالدٍ ولا الشّامتُ المغرورُ أيضاً بخالدِ

فكم قدْ جلا عَنّي غُبَارَ مُلِمّةٍ تَطَاوَلَ مِنها حاسِدي وحَوَاسِدِي ؟

و لكنّ شفقته عليهم لا تُغير من واقعه شيئاً ؛ لأنه بالقدر الذي يسخر به منهم ، كان يهابهم به و يرفع من قدرهم دون أن يشعر .

---

(١) . الديوان : ٣٩٦/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٨٥/٢

المبحث الثاني :صلته بسيف الدولة:

أولاً : صلة الابن بأبيه :

لم يشأ الله لذلك اليتيم أن يتجرع بؤس اليتم ، ولم يوغل في مرارة الحرمان ؛ لأنّ اليد الغادرة التي امتدت لأبيه ، قابلتها يد حانية من ابن عمه سيف الدولة ، فرباه في كنفه ، و أولاه اهتمامه ، و أغدق عليه من بحر فضله ، ونشّأه في أعظم معهد علمي في ذلك العصر، وغرس هوى السيف والقلم في أعماقه.

ولم يتحدث أبو فراس عن يُتمه كثيراً و"كان قليل الحديث عن والده ، ولم يُطل في الحديث عنه إلا وهو يسجل مفاخره في القصيدة الرائية الطويلة ، وفيما عداها لا يذكر أباه إلا ليتحدث عن فضل سيف الدولة عليه ، وأنه رعاه بعد فقد أبيه[1] ".

وقد أشار إلى ذلك في قوله[2] :

لَقدْ فقدتُ أبي ، طِفلاً ،فكانَ أَبي ، من الرّجَالِ ،كريمُ العُودِ نَاضِرُهُ

فهو ابنُ عمّي دنيا حِينَ أَنْسُبهُ لكنّهُ لي مَوْلى لا أُناكِرُهُ

ولكني أرى في ذلك أسباباً خفية أُخرى ؛ فهو لم يذكر أباه كثيراً بشكل صريح ؛ ولكن عقله الباطن يحتوي على تلك الحوادث المريرة ، التي أثّرت على بعض أنماط سلوكه وحركت بعض أطماعه ، وملأت نفسه خوفاً من غدر قومه وخيانتهم ؛ ولكنه لم يستطع إلا أن يُظهر القبول ، ويشكر فضل أهل الفضل ، ويعيش آمناً ؛ ليحقق أهدافه .

ومن أبرز ما قوّى تلك الصلة ، أنّ أبافراس لقي من حنان ابن عمه ما عوضه عن حنان أبيه الذي فقده[3] ؛ لذلك كان يرى الشاعر أنّ لسيف الدولة حقوقاً هي في

(١) . شاعر بني حمدان : أحمد أحمد بدوي ، ص ٢٢ ، مكتبة الأنجلو ، ط٢ ، ١٩٥٢م .

(٢) . الديوان : ١٨٤/٢.

(٣) . ومما ساعده على ذلك أن فارق العمر بينهما حوالي سبعة عشر عاماً.

حقيقتها حقوق الأب على ابنه ، من طاعة وبرٍ تمثلت في خفض الجناح ، ولين الجانب فإن رأى الابن في أبيه قسوة ؛ صبر واحتسب ، وازداد براً وعطفاً ؛ لأن حنان الأب ليس رخاءً محضاً ؛ بل إنّ الحنان يشمل الحزم والشدة ، كما أن الحب يشمل القسوة و بعض الغلظة !! يقول[1] :

فصـــبرتُ كالولـــدِ التّقـــيّ ؛ لبـــرّهِ أَغْضَـــى علـــى أَلـــمٍ لضـــربِ الوَالِـــدِ

وكان الشاعر يرى في ابن عمه ما يراه الابن في أبيه ، فالابن منذ نشأته وهو يحاول محاكاة أبيه في كل شيء ، تعجبه أفعال أبيه ؛ فيحاول تقليدها ، ويُحب أن يكون مثل أبيه يتقلد المسؤليات ، ويحمل الأعباء ، وأن تكون له كلمة مطاعة ... وهكذا كان إعجاب الشاعر بسيف الدولة ، يراه النجم الهادي ، والقدوة الحسنة ، التي يسير على سننها ، يقول[٢] :

وإنّـكَ للمـولى الّـذي بِـكَ أَقْتـدي ، وإنّـكَ للـنّجمُ ، الـذي بـك أَهْتـدِي

ومن صور بره بسيف الدولة ، الاعتراف بفضله ، وعزو كل فعل جميل يُصنع إلى يد سيف الدولة ؛ فهي التي غرست ؛ فإن قام الزرع واستوى على ساقه ؛ فالفضل لغارسه ، وإن أصاب السهم مرماه ؛ فلا يُحمد إلا راميه... يقول[٣] :

صـــنائعُ فـــاقَ صَـــانِعها ، ففَاقَـــتْ ، وغَـــرسٌ طَـــابَ غارسُـــهُ ، فَطَابَـــا

وكنّـــا كالســـــهامِ إذا أَصَـــــابَتْ مَرَاميَهَـــــا فراميَهَـــــا أَصَـــــابَا

فهذا غاية في حفظ الجميل والاعتراف بالفضل ، فلا فضل للأبناء على الآباء مهما كان برهم ، وما بلغ الشاعر مجده إلا لأن سيف الدولة شيّده ؛ فهو يد أبي فراس التي تحمل سيفه ، وتثخن في الأرض ، وتبلي البلاء الحسن .

---

(١) . الديوان : ٢/٧٣

(٢) . المصدر نفسه : ٢/٨٠

(٣) . المصدر نفسه : ٢/١٣

يقول[١] :

فَضَـــرْبي مِـــنْ قِتالِـــكَ لا قِتَـــالي وَخَوْضِـــي مِـــنْ فعالِـــكَ لافِعـــالي

و" كان أبوفراس يرى أن ما يقوم به من أعمال تصدر بشكل لا إرادي عن رغبة سيف الدولة حتى كأن وحدة الإرادة والفعل جمعت بينهما ووحدت بين رغبتهما[٢] "

و رأى الشاعر أنّ البر بسيف الدولة هو حقيقته رد فعل له ؛ فالفضل له ، فهو الذي تنوعت سجاياه ، وأينعت شمائله ، فأي الرجال يكون ؟ أب ؟! أم مولى ؟! أم ابن عم ؟! في الواقع كان رجلاً لم تلبسه الإمارة ثياب التنكر للأهل ، ولم تُصْلت سيفه لقطيعة الرحم ؛ بل كفل الصغير ، وغمر الكبير بفضله ، وأعان على نوائب الدهر ، يقول[٣] :

إذَا بَقِـــيَ "الأميـــرُ" قَريـــرَ عَـــيْنٍ فَـــديناهُ ، اختيـــاراً ،لااضْـــطرارا

أبٌ بـــرٌ ، ومَـــوْلًى ، وابـــنُ عَـــمٍّ ومُســـتَنَدٌ ، إذا مـــا الخطـــبُ جَـــارَا

يَمُـــدُّ عَلَـــى أكابرِنَـــا جَنَاحـــا، ويَكفُـــلُ ، فـــي مَواطِنَنَـــا، الصِّـــغارَا

إذن استحق سيف الدولة أن يفديه الصغير والكبير ؛ لأنه لم يعش لنفسه فقط ؛ بل عاش معهم في سرائهم وضرائهم ؛ فاستحق أن يُكلأ بهذه الرعاية.

وكان أبو فراس يحب صحبة ابن عمه ، ومرافقته في كل غزوة يغزوها ، ويعتبر أنّ بعده عنه حرمان يقصيه عن أمانيه ؛ فملازمته هي الحياة ... وهذا ما دعاه إلى التوسل إلى سيف الدولة ليصطحبه في إحدى غاراته بدلاً من استخلافه حتى إن كان ذلك استخلاصاً له ؛ فلعل قلبه يرق لذلك الذي يرى حياة قلبه في قربه منه ، و كان مما قاله[٤] :

---

(١) . الديوان : ٢/٢٨٣

(٢) . شعر أبي فراس الحمداني دلالته وخصائصه الفنية :ص ٧٧

(٣) . الديوان : ٢/١٨٩

(٤) . المصدر نفسه : ٢/٣٥٩

لاَ يَحرِمَنّـــي "ســـيفُ الـــدينِ" صُـــحْبَتَهُ فهـــيَ الحيـــاةُ التـــي تَّحْيـــا بهـــا النّسَـــمُ

و كانت تربط الشاعر بابن عمه صلة حميمة ، و لعلها هي التي كبحت جماحه وأمسكت بزمام غضبه ، حينما اشتد عتاب سيف الدولة عليه ، و هذه الصلة هي التي جعلته يحفظ له منزلته في حضوره وغيابه ، وفي عدله وجوره ، يقول [1] :

فقُــلْ مــا شــئتَ فــيَّ فلــي لســانٌ مَلــــيءٌ بالثنـــاءِ عَليـــكَ رَطْـــبُ

وعـــــاملني بإنصـــــافٍ وظُلـــــمٍ تجــدني فــي الجميــعِ كمــا تُحــبُّ

و تشبه حاله هذه حال الابن الذي تضيق نفسه إذا غاضبه أبوه ، ويظنّ أن ذلك آخر ما بينهما ؛ ولكنه سرعان ما يهدأ وتسكن نفسه ، ليرتمي بين يدي أبيه ليغمره من عطفه وحنانه، ولسان حاله يقول : أغضبني ما شئت ؛ فلن تجدني إلا ذلك الحليم الحدب...

وفي ذلك بُعد آخر وهو أنّ الشاعر استطاع أن ينتصر بلينه ورفقه على شدة سيف الدولة وغلظته ، وهذا ما يدعو سيف الدولة إلى إبقاء الود.

و تدل أشعار أبي فراس على أنّه كان يتمتع بثقة ابن عمه ، و ذلك دليل على محبة سيف الدولة له ، وقد تمتع الشاعر بقدر كبير من الأمن – حتى وإن كان خائفاً في نفسه – بدليل أنه كان ينال من أمراء بني حمدان بالطريقة التي كان يريدها ؛ بل كان أحياناً يعاتب سيف الدولة عتاب الند للند ، متجاهلاً ما قد أخذه عهداً على نفسه من بره ، كما كان يجرأ على بني حمدان فيذمهم ، ويُقبّح أفعالهم!!

وقد يكون سبب تلك الجرأة والثقة سيف الدولة نفسه ، إذ مكنّه من ذلك في حسن ثقته به منذ وقت مبكر من حياته ، حين استصحبه في غزواته ، و قلده ولاية منبج وهو صغير السن ، لم يجاوز السادسة عشرة من عمره.

---

(١) . الديوان : ٢/٢٩

ثانياً : اتحاد الهوى :

أ- البطولة :

ظهر سيف الدولة في وقت ضعف الدولة العباسية ، وتشتت شملها ، وتفرق وحدتها، وتكالب الأعداء عليها من كل صوب ، وكان لذلك دوره البارز في ظهور شأنه ، وعلو مكانته ؛ لأنه أضحى سيفاً للدولة العباسية ضد أعدائهم الروم ، وكان درعاً لصد الخطر الذي كان يحدق بالدولة ، ولم يجعل جُلّ اهتمامه توسيع رقعة الدولة الحمدانية ؛ بل قصد من ذلك تحطيم قوة الروم المادية والمعنوية ، حتى لا يقووا على الهجوم[1] ، واحتلت حروبه أهمية كبيرة ؛ لأنها كانت إبان ضعف الخلافة العباسية حين تفرقت كلمة العرب ، وتعددت أهواؤهم وغدت سيوفهم حداداً بينهم ، ولذا بدت كأنها شهاب في ليل دامس[2].

والحديث عن معارك سيف الدولة ضد الروم ، وأيامه التي خاضها لتأديب القبائل الطامعة والمارقة حديث ذو شجون ؛ لأنه مثّل واسطة عقد بني حمدان تميزاً وتفرداً، وقد قال في ذلك الثعالبي: "كان بنو حمدان ملوكاً وأمراء أوجههم للصباحة ، وألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم للرجاحة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم ، وواسطة قلادتهم ، وكان رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مأواه غرة الزمان ، عماد الإسلام ، ومن به سداد الثغور ، وسداد الأمور[3]".

---

(١) . انظر : شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ : د. نصرت عبدالرحمن ، ص ٢٤٧ ، مكتبة الأقصى ، (ب.ط)، عمان ، (ب.ت).

(٢) . المصدر نفسه : ص ٢٤٨

(٣) . يتيمة الدهر : ٣٧/١

ودلت وصيته قبل موته على شرف حياته التي أمضاها ، فقد "كان قد جمع من نفض الغبار الذي يجتمع عليه في غزواته شيئاً عمل لبنة بقدر الكف ، وأوصى أن يوضع خده عليها في لحده . فنفذت وصيته في ذلك[1]".

وقد تمتع سيف الدولة بقدر كبير من الجرأة والثقة بقدراته الحربية ، التي مكنته من خوض المعارك ، وإيقاد نار الحروب ، فمن الأمورالتي تلفت النظر إلى سيف الدولة القائد المحارب، جرأته التي دفعته إلى أن يغزو الإمبراطورية البيزنطية أكثر من مرة وكان لايزال في الخامسة والعشرين من عمره ، و من هذه الجرأة أيضاً ما قام به من غزو في أرض الروم ولم يكد يمضي على الغزوة السابقة سنتان ، وما كان من توغله في أراضي الإمبراطورية ووصوله إلى مواضع لم تطأها قدما قائد مسلم من قبل [٢].

وكان أبو فراس معجباً غاية الإعجاب ببطولة سيف الدولة ، وكان يمتدح شجاعته واستماتته في القتال ؛ لأن البطولة شجاعة في الضرب والرأي ،ولا يدركها إلا بطل خاض غمارها ، وتمرّغ في نقعها ، وطرب من صليل سيوفها ، ووقع سنابكها...
ولذلك فـ " إن تقدير أبي فراس لبطولة سيف الدولة ، والبطل تعجبه البطولة في الآخر هي التي تجعل أبا فراس يمعن في مدح ابن عمه ؛ لأنه كان يدرك أن سيف الدولة سر عظمة بني حمدان في عصره على ما لهم من مآثر في القديم والحديث[٣]"
وقد قاده ذلك الإعجاب إلى الوثوب إلى الحروب ، وأعطاه المزيد من الثقة التي قادته إلى إحراز الانتصارات العظيمة ، وهو لم يجاوز العشرين بعد ، و قد "كان سيف الدولة يعجب جداً بمحاسن أبي فراس ، ويميزه بالإكرام عن سائر قومه ، ويصطنعه لنفسه ، ويصطحبه في غزواته ، ويستخلفه على أعماله[٤] ".

---

(١) . وفيات الأعيان : ٤٠٥/٣

(٢) . انظر : سيف الدولة الحمداني مملكة السيف ودولة الأقلام : ص١٠٩

(٣) . خواطر ذاتية في أبي فراس وشعره : د. إحسان عباس ، دورة "أبو فراس الحمداني" : ص ١٠ ، الدورة السابعة ، الجزائر – أكتوبر ٢٠٠٠م .

(٤) . يتيمة الدهر : ٥٧/١

ب – الأدب :

وصف أبو بكر الخوارزمي بلاط سيف الدولة في سياق حديثه عن قوم رآهم في أصفهان بعد أن كان يجمعهم بلاط سيف الدولة ، و ذلك في إحدى رسائله ، فقال : " ... وقد رأيت بهذه الحضرة أقواماً كنت شاهدتهم على باب سيف الدولة ومنهل الصبا عذب ، وعود الشباب رطب ، وذكرت بهم مآرب هنالك وأياماً سلبتها ، ونزعت من يدي غصبا ، ودهراً كأني كنت أقطعه وثباً ... [1]:

فكأنه يستحضر تلك الذكرى ليسكب عليها من عبراته التي ألهبها رؤية أولئك القوم الذين عجّ بهم بلاط سيف الدولة سابقاً ، فكأنه بهم بين منشدٍ و منصت و ناقد وحاقد ... يتوسطهم سيف الدولة ؛ يُعجب بشعر ذا ، وينتقد ذاك ، ويجزل العطاء لمن أجزل القول ، ويمنح الهدايا والخلع ؛ بل قد ينشد ويستنشد ، ويرضى ويَغضب ، ويُدني ويُقصي ... هذا في الواقع بلاط سيف الدولة الذي يتبادر إلى الأذهان كلما ذكره من عاصر ذلك البلاط ، فهو أشبه بمؤسسة تعليمية – إن صح التعبير – تحوي جميع التخصصات ؛ يُعطى الطالب فيها حرية الرأي ، فهو يناقش ويحلل وينقد ، ويُدّعَم مادياً ومعنويا .

و تحدث الثعالبي عن مجلس سيف الدولة ، فقال : " وحضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ، ومحط الرجال ، وموسم الأدباء ، وحلبة الشعراء ، ويقال إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ، وإنما السلطان سوق يُجلب إليها ما يُنفق لديها"[2]

---

(١) . رسائل أبي بكر الخوارزمي : أبوبكر الخوارزمي ، ص ٢١٨ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، (ب.ط) ، بيروت ، ١٩٧٠م

(٢) . يتيمة الدهر : ٣٧/١

ولعل من أسباب اهتمام سيف الدولة بالأدب و الأدباء ، حسه الفني ، وتذوقه الأدبي ، فهو يحفظ الشعر ، وينتقد على الشعراء ، ويطرب ، ويغضب ، و"كان مجلسه ممتازاً فقد مُنح

ذوقاُ وقدرة على فهم الأدب وإدارة الحديث في المجالس ، واستخراج أفضل ما عند العلماء والأدباء بالعطاء والتنافس[١] ".

و تُعتبر شخصية سيف الدولة سبباً رئيساً في جذب قدر من الشعراء من كافة الأمصار؛ و ذلك لجوده و مروءته و تقديره للعلم و أهله ، " فما إن قضى الأمير نحبه حتى تفرّق هذا الجمع ، وانفرط هذا العقد ، وانتشر هؤلاء وهؤلاء يضربون في بقع الأرض مشرقاً ومغرباً ، وقد أصاب منهم الفاقة والإعسار[٢]".

وكان قد خصص دنانير للصلات في كل دينار منها عشرة مثاقيل ، وعليه اسمه وصورته[٣]، ولا شك أن كثرة الإغداق على الشعراء وإغراقهم بالهدايا والخُلع ؛ له جانبه السلبي ، كما له جانبه الإيجابي إذ قد يؤثر على خزينة الدولة ، ومآل آل حمدان ، وربما كان لهذا الجود أبعاد سياسية ، ترمي إلى شغل العامة عن أمور السياسة ، واكتساب حب الناس.

والجدير بالذكر أنّ مجلساً مثل هذا ، وافق هوىً في نفس أبي فراس ، و" المسألة الأساسية التي تجمع بينهما في هذا المجال هي الالتقاء عند نقطة الإبداع ، فأبو فراس رجل مبدع ، وسيف الدولة محب للإبداع [٤]" ، والنفس مجبولة على حب من أحسن إليها ، وكلما أُعجب سيف الدولة بشاعرية أبي فراس وفطنته ، وسرعة رده ؛ ازداد ثقة وغروراً ، وسما

---

(١) . ظهر الإسلام : أحمد أمين ، ١٨٠/١ ، دار الكتاب العربي ، ط٥ ، بيروت –لبنان ، (ب.ت).

(٢) . سيف الدولة الحمداني مملكة السيف ودولة الأقلام : ص٢١٧ –٢١٨

(٣) . انظر : يتيمة الدهر : ٤٢/١

(٤) . شعر أبي فراس الحمداني دلالته وخصائصه الفنية : ص٧٢

بشعره ؛ لأنه يعلم أن المتلقي متذوق بصير ، يميز جيد الشعر من رديئه ؛ بل يُنشد الشعر ، ويطلب إجازته.

وهذا الأمر قاد الشاعر إلى مديح سيف الدولة ، والفخر بمآثر بني حمدان ، وهذا بدوره يُطرب الأمير و "كلاهما جعل للشعر مهمة في توطيد العلاقات الاجتماعية[1]".

و كان الشاعر يُرسل في أشعاره كثيراً من الدلال ، الذي رُبِّي عليه ، وكأنّ الشعر أداة قياس لما خفي من أمر العلاقة بينهما ، وقد اختاره لعلمه بتذوق سيف الدولة له ، والأديب يُقدّر رد فعل من كان مثله ، و قد يكون التعبير بالقول أذكى من التعبير بالفعل؛ لأنّ القول أدق وأفصح عن المطلوب ، وكأن الشاعر يجول به إلى أعماق نفسه ؛ ليصور ماخفي عن أميره وكثيراً ما أُعجب سيف الدولة بفصاحة الشاعر ، وبراعة قوله ، وحُسن نظمه ، وكان يستجيد قوله ، مما جعل الشاعر يندفع بدعم سيف الدولة إلى الإبحار في الشعر، وكان يرى أن الفضل في ذلك يرجع لأميره سيف الدولة[2].

ومهما يكن من أمر ؛ فإنّ أبا فراس شاعر سيف الدولة الأول إلى أن جاء المتنبي البلاط، فهل غيّر شيئاً من الود بينهما؟

في الواقع إنّ حياة المتنبي في ظل سيف الدولة ، مثلّت جُلّ حياة الشاعر وأهمها ، فقبل اتصاله بسيف الدولة كان "يمدح القريب و الغريب ويصطاد ما بين الكركي ـــــــ

(١) .شعر أبي فراس الحمداني دلالته و خصائصه الفنية : ص ٧٤

(٢) . وقال في ذلك بعد أن استجاده سيف الدولة:

مـــــن بحـــــرِ شِـــــعرِكَ أغـــــترفْ وبفضـــــــل علمـــــــكَ أعْـــــــتَرِف

أنشـــــــــــدتَني ، فكأنمـــــــــــا شـــــــقّقت عـــــــن دُرٍّ صـــــــدفَ

(الديوان : ٢/٢٥٥)

والعندليب[1]" ، وأما بعد خروجه من بلاط سيف الدولة ، فيُذكر أنه لما عوتب في آخر أيامه على تراجع شعره ، قال : " قد تجوزت قولي ، وأعفيت طبعي ، واغتنمت الراحة مذ فارقت آل حمدان [2]"

ولعل في سر قدومه إلى بلاط سيف الدولة ما يُعلل أسباب العلاقة بينهما ، فمن أهم الأسباب التي دفعته إلى ذلك:

– إعجابه الشديد بسيف الدولة ، فقد وجد فيه المثل الأعلى للأمير العربي الذي كان يفتقده في غيره من الأمراء الأعاجم الذين اتصل بهم قبل مدحهم[٣].

– أنّ جهاد سيف الدولة المتواصل ضد الروم ، وحمايته للعرب ، وافق هوىً في نفس الشاعر ، وكان المتنبي متعصباً يشعر بعروبته شعوراً عميقاً فاندفع إلى تلك الديار التي كانت تمجد العروبة .

– نشأ المتنبي "ثائراً يريد للعرب دولتهم المفقودة وحمل السيف وسلّه ، ولم يكتب النجاح لثورته ، غير أن نفسه ظلت تموج بالثورة ومنازلة الأعداء [٤]"

– اهتمام سيف الدولة بشأن الأدب ، وتذوقه للشعر ؛ جذب المتنبي وأغراه بالمكوث ، وإنشاد أروع القصائد...

وكان من نتاج ذلك أن برزت منزلته ، وعلا شأنه ، و طار صيته ، و اشتعل غروره و أشعل أحقاد الحاشية ، و حرك عدوانهم عليه .

وقدكان له مذهب في المدح تفرّد به واستكثر من سلوكه ، اقتداراً منه ، وتبحراً في الألفاظ والمعاني ، ورفعاً لنفسه عن درجة الشعراء وتدرجاً إلى مماثلة الملوك ، وهو : مخاطبة الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب والصديق مع الإحسان والإبداع[٥] ، واستشهد

---

(١) . يتيمة الدهر : ١/١٤٥

(٢) . المصدر نفسه : ١/١١٥

(٣) . انظر : في الشعر العباسي نحو منهج جديد : د. يوسف خليف ، ص ١٣١ ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، (ب.ط) ، القاهرة (ب.ت).

(٤) . الفن ومذاهبه : د. شوقي ضيف ، ص ٣٤٧ ، دار المعارف ، ط١٢، القاهرة ، (ب . ت) .

(٥) . انظر : يتيمة الدهر : ١/٢٣٧

على ذلك الثعالبي في قول أبي الطيب :

ما لي أكتم حُباً قد برى جسدي وتدّعي حُبَّ سيفِ الدولةِ الأُمَمُ

إنْ كـــانَ يَجمعُنـــا حُـــبٌّ لِغُرتِـــهِ فليـــتَ أنّـــا بَقَـــدْرِ الحُـــبّ نَقْتسِـــمُ

يـــا أعـــدلَ النـــاسِ إلا فـــي مُعـــامَلتي فيـكَ الخصـامُ وأنـتَ الخصـمُ والحكـمُ

فهي كما يقول الثعالبي على براعتها واستقلال أكثر أبياتها بأنفسها ، تكاد تدخل في باب إساءة الأدب بالأدب[1].

وكان من تلك التجاوزات أيضاً ، وقوع المتنبي في إساءة الأدب بالأدب ، و ذلك في مثل رثائه أخت سيف الدولة في قوله :

وهـــل سَـــمعتِ ســـلاماً لـــي ألـــمّ بِهـــا فقـــد أطلـــتُ ومـــا سَـــلّمتُ عـــن كَثَـــبِ

يقول الثعالبي: وماله يسلم على حرم الملوك ، ويذكر منهن ما يذكره المتغزل في قوله :

يَعْلمـنَ حـين تحيـيّ[2] حُسـنَ مبَسِـمِها ولـــــيس يعلـــــمُ إلا الله بالشـــــنبِ

وكان أبوبكر الخوارزمي يقول : لو عزاني إنسان على حرمة لي بمثل هذا لألحقته بها ، وضربت عنقه على قبرها[3].

ولعل هذه الثقة هي التي قادته إلى الغرور الذي جعله يستطيل وينال من حاشية الملك ، ويُعرّض بهم ، ويتعالى أمامهم ... هذا باختصار ما كان منه ، أما ما كان منهم ؛ فلن أجد وصفاً أبلغ من وصف د. طه حسين ، إذ يقول عنه : " دخل القصر على أصحاب سيف الدولة غازياً لا ضيفاً ، اتصل بحاشية الأمير مخاصماً لا مسالماً[4]".

---

(١) . انظر :يتيمة الدهر : ٢٣٧/١ إلى ٢٣٩، وهناك ثمانية أبيات ساقطة بين البيت الثاني والثالث كما وردت في ديوانه : (العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: ٢/ ٦٣٨، و مابعدها) .

(٢) . في ديوانه : (تُحيَّا) .

(٣) . انظر يتيمة الدهر :٢٠٨/١-٢٠٩ ، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب:٨٢٥/٢-٨٢٧

(٤) . من تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني (القرن الرابع الهجري) : د.طه حسين ، ٢٤٥/٣، دار العلم للملايين ، (ب . ط) ، بيروت ، (ب . ت) .

وقد جرت الوحشة بين الفريقين وانتهت بأنْ ترك المتنبي لهم أميرهم وخرج مغضباً من عندهم ، وكان " من الطبيعي ألا ترتاح هذه الحاشية لشاعر يُعلن منذ البداية احتقاره لهم وازدراءه ، ومن الطبيعي أن تضيق به وتبغضه ، وأن يأخذ الحسد طريقه إلى نفوسها حين ترى سيف

الدولة يُعجب به ويؤثره أشد الإيثار ويجزل له العطايا والهبات ، ويرفعه إلى مكانة لم يرفع إليها أحداً غيره[1]"

أما موقف أبي فراس من المتنبي ؛ فإنه لا يشذ عن رد الفعل الطبيعي ، على شاعر اقتحم عليهم مجلسهم ، وأسَر لُبّ أميرهم سيف الدولة ، ومَدح منهم من شاء ، وأغضى عمن شاء ، وعرّض بمن شاء من الحاشية.

وكانت صلة أبي فراس بسيف الدولة تجعله يخشى على أميره من أن تأسر رياح المتنبي قلبه وتستحوذ على فكره ، ولا عجب أن يملأ المتنبي – مالىء الدنيا وشاغل الناس – على سيف الدولة حياته ، والموقف بين الشاعرين كان يمثل موقف الضرائر، أو بالأحرى موقف أخوين مال الأب لأحدهما دون الآخر ؛ فوجد ذلك في نفسه على أخيه ، فأخذ يجمع السقطات والهفوات ، ويُعظمها في عين أبيه ، ويدس الدسائس التي من شأنها إفساد العلاقة ، وزعزعة الثقة والوداد ، وغرس الأحقاد.

ولا عجب أن يكون أبو فراس على غرار ما ذُكر ؛ لأنّ سيف الدولة كان يمثل الأب الروحي له ، والصديق القريب ، وكان يحظى عنده بدرجة رفيعة ، ومنزلة مكينة إلى أن جاءهم ذلك الغريب ، الذي أكْسَد عليهم سوقهم ، فاستطاع الشاعر أن يجد قنطرة يصل بها إلى سيف الدولة ؛ ليوغر صدره ضد ذلك الخصم ، وكان له ما أراد .

وقد اجتمع على بغض المتنبي ، أبو العشائر ، وابن خالويه (٣٧٠هـ) ، العالم النحوي ، فالأول هوالذي قرب المتنبي من سيف الدولة ، وكان له الفضل في شهرته في بلاط سيف الدولة ، والآخر أصله غير عربي ، ولم يغتفر للمتنبي احتقاره لغير العرب ، وربما كان ذلك

---

(١) . في الشعر العباسي نحو منهج جديد : ص ١٣٢.

سبباً من أسباب حنق أبي فراس عليه ؛ لأن أمه غير عربية ، وكان يفتخر بأخواله في شعره، أما الأسباب الأخرى ، فهي مشتركة بين الشاعرين ، فلا يُدان أحدهما، ويُبرّأ الآخر !!

ومهما يكن من أمر فإن العلاقة بين المتنبي وأبي فراس لها أبعادها في تأثيرها على سيف الدولة ، وما تعمدّتُ من ذكر المتنبي في هذا المبحث إلا لعلي أوفق في قراءة تلك الأمارات التي أبانت عن أمور خفية تفسر بعض الغموض الذي اكتنف أمر العلاقة بين سيف الدولة وأبي فراس ، ولعل من أبرزها:

١- ما ذكره د. عبداللطيف عمران ، من أنّ علاقة سيف الدولة بالمتنبي لم تُغيّر شيئاً بين الأميرين ؛ ولكنها غيّرت في المنزلةِ الشعرية[١]. وهذا صحيح ؛ ولكنها أبانت ما في نفس أبي فراس ؛ لأنها كانت تضطرم غيرةً من تلك العلاقة ، والنفس الملأى بالغيرة توشك أن ترسل حماقة الحب بدافع الغيرة دون مبالاة ، وبذلك يبدو صدق الشاعر في حبه لسيف الدولة ، ولم تبلغ الغيرة في نفسه من شخص آخر كان يُدنيه سيف الدولة ، مثلما بلغت من المتنبي ، ربما لأن الشاعر وجد في أفعاله ما يضارع أفعال المتنبي من ثقة ودلال وغرور وشاعرية ... أو بحسب ما زيّنت نفسه له ، فأراد أن تستمر حظوته عند ابن عمه، الذي ربّاه وأدناه واصطفاه ، وكان قد اعتاد أنْ يغرد بشعره ؛ فصدع له سيف الدولة إلى أن جاء يوم وجد الشاعر فيه شخصاً آخر صدح بشعره ؛ فصدع له سيف الدولة ، وبلغ منزلة فوق منزلة الطرب ، فكشف الموقف عن شدة حساسية أبي فراس النفسية ، التي بددت تفكيره ، وأبانت قدر حبه لسيف الدولة.

٢-" إنْ استخرج سيف الدولة من المتنبي مديحاً رائعاً ؛ فقد استخرج من أبي فراس أسىً رائعاً "[٢]

---

(١) . انظر : شعر أبي فراس الحمداني دلالته وخصائصه الفنية :ص ٧٨

(٢) . ظهر الإسلام : ١٨٣/١

فالمديح في أغلب ظنّ يَغْلبُ عليه ، يكون صادراً عن رضا ، وليس بالضرورة قياس مقدار الود الذي يكلله ، أما الأسى فأمره راجع إلى وجود حزازات في نفس صاحبه ، يدفعه إلى أقوال وأفعال تطبع عدم رضاه وتقوده إلى اتجاه إيجابي أو سلبي، فالإيجابي يتمثل في العتاب والشكوى ، والسلبي يتمثل في التعريض أو الهجاء.

وأبو فراس شاعر أحب سيف الدولة حباً عظيماً ملك عليه نفسه ، وكثيراً ما كان يجعله يتألم إذا وجد ميلاً من سيف الدولة إلى شاعر يستميله بمدح ، ويجرؤ عليه بعتاب جاوز حده إلى منزلة لا يُخاطب بها الملوك.

أما سيف الدولة ، فكان يميل إلى المتنبي ميلاً عظيماً جعله يُخرج أفضل ما في جعبته من مديح نثره بين يدي سيف الدولة ، وربما كان هذا الميل هو الذي غيّر في منزلة أبي فراس الشعرية عند سيف الدولة ؛ ولكن ذلك لا يعني نهاية المطاف ؛ فالأعمال بخواتيمها ، والحرب بنهايتها ، وهذا ما جعل الشاعر ينتصر على المتنبي ؛ لأنه نجح فيما كان يسعى إليه ، فكانت النتيجة خروج المتنبي من بلاط سيف الدولة غاضباً دون عودة إليه ، وهذا إن دل على شيء ، فهو يدل على ارتياح سيف الدولة لأبي فراس ــ ومن انضمّ له في زمرته ــ ارتياحاً مكنّه من النزول عند رغبتهم ، والتأثر بهم ، وفيه دليل على أنّ أبا فراس حسم حربه دون قتال ، في الساعة التي غادرهم المتنبي فيها وجرحه يثعب دماً دون أن ينتصر سيف الدولة له ، أو أن ينصفه على خصمه.

ومن ذلك يُخْلصُ إلى أنّ سيف الدولة كان يميل إلى أبي فراس ، ويأنس به ، ويلين معه، ولكن ذلك كان يعقبه حزم إن استدعى الأمر ذلك ، فكانت الشدة تشوب لينه ، وقد لا يعجبه دلال أبي فراس وإفراطه الزائد في جذب انتباهه ، وذلك يرجع إلى اختلاف طبع كل منهما وتكوينه النفسي ، فأبو فراس فتى حساس ، كثير التأولات ، كان ينزعج من أدنى موقف يتبين فيه انشغال سيف الدولة عنه ، أو من موقف يتضح فيه اهتمام سيف الدولة بآخرين أكثر من اهتمامه بشأنه ، وكان يُحب أن ينزل جميع المنازل الحميمة من

سيف الدولة ، فهو يحب أن يكون منه بمنزلة الابن ، والأخ ، والصديق ، وربما الخصم ، وهذا يتطلب منه أن يخاطبه بمقامات مختلفة ابتداءً من إظهار الضعف والذلة إلى درجة تصل إلى خطاب الند للند ، وقد تربو إلى أن تصل إلى الجرأة المذمومة التي استقبحها منه أميره.

أما طبع سيف الدولة ففيه بعض الغموض ، وقد ورد في أخبار الدول المنقطعة بعض وصفه أنه "كان شيخاً كريماً شجاعاً معجباً بآرائه محباً للفخر والبذخ ، مفرطاً في السخاء والكرم ، شديد الاحتمال لمناظريه والعجب بآرائه ، سعيداً مظفراً في حروبه ، جائراً على رعيته ، اشتد بكاء الناس عليه ومنه[1]"

ففي قوله اشتد بكاء الناس عليه ومنه ، ما يوحي أنه كان يجرح ويأسو ، ولا يستقر على نمط معين في حياته ، فقد كان يحمل الخير والشر ، وفي خبر بذخه على العلماء ، ما يدل على الإحسان إلى أهل العلم ، في مقابل الإساءة إلى خزينة الدولة ، التي ربما نفدت في يوم من الأيام ، والأخبار في عطاياه كثيرة ولا مجال لعرضها هنا.

و يدل تباطؤ سيف الدولة في فداء الشاعر على غموض الشخصية ، فهو لم يثبت سبباً مقنعاً لذلك ، وقد كان اجتهاد الباحثين في تفسير ذلك اجتهاداً عظيماً دخل في كوامن نفس سيف الدولة ، وخرج إلى سدة قصره ، معرجاً على أطماع ذلك الأسير ؛ ولكن الحقيقة الثابتة تبقى كما هي ، فالشاعر أمضى فترة في الأسر ليست قصيرة ، ولم يَرِدْهُ خلالها جواب من سيف الدولة ليشد أزره ، أو يأسو جرحه ، أو أي تهنئة بمناسبة عيد ونحوه ، والأهم من ذلك كله أنه لم يصله سبب يتعلل به الشاعر ؛ بل كانت تصله معاتبات غليظة أثقلت كاهله ، وحطمّت صبره ، وهذا أمر غير متوقع من أمير وابن عم كان يرى الشاعر فيه عوضاً عن أبيه ، ومصدراً ثراً للحنان الذي كاد اليُتم أن يبدد معالمه ويطمس آثاره ، ولكن ابن عمه سرعان ما سارع إلى ذلك اليتيم ؛ فأحسن تربيته وتنشئته وتعليمه ، ومن ثم اصطفاه لنفسه واصطنعه لأعماله واستصحبه في غزواته إلى أن بلغت ثقة

---

(١) . أخبار الدول المنقطعة : ٧٩/١

الصبي بأميره أبلغ مذهب ، فإذا الحال غير الحال حينما أقصاه الأسر، وتنكرّ له الأهل!!

وكان من المفترض أن يعتبر الشاعر من مآل المتنبي بعد دنو منزلته من سيف الدولة، فبعد أن أمسك بناصية البيان في البلاط ، وأغدق عليه أميره ما لم يُغدق على غيره ، وأدناه دنواً ما ظفر به أحد في الحضرة ، قد انتهى الأمر به إلى أن خرج غاضباً من مجلسه دون أن ينتصر له

أميره بأدنى كلمة ، ولم يبذل له ما يُصلح أمر الوداد ، وهو الذي لم يغتنم الراحة إلا مّذ فارق بلاط بني حمدان ، ولم يُجزل في الديوان لأحد مثلما أجزله لبني حمدان ؛ ولكنّ ثقة أبي فراس بسيف الدولة تجاوزت حد الاعتبار ؛ لأنه ربما رأى في نفسه ما لم يكن في المتنبي ، أو أن المتنبي جاوز حدوداً لم يجرؤ عليها الشاعر ؛ لذلك أمن العواقب ولم يخش موقفاً يزعجه من جهة سيف الدولة ، ولم يخطر هاجس يخوّفه عثرة من عثرات الطريق بينه وبين ابن عمه ؛ لذلك كان سقوطه مؤلماً للغاية .

وهناك ما أثار التساؤل كثيراً ، وهو عدم رثاء الشاعر سيف الدولة ، فهل يعني ذلك أنّ المتنبي كان أكثر وفاءً من صاحبه؟!

في الواقع أنّ المتنبي مات قبل وفاة سيف الدولة ، ولو مُتّع في عمره إلى أن يأتيه نعي سيف الدولة ؛ لرثاه وتفجّع عليه بدليل أنه خرج غاضباً ، ولكنه لم ينس إحسان سيف الدولة ، ولم يُخرجه غضبه عن قطع حبل الوداد ، بل أرسل في مديحه ، وشاركه في حزنه حينما رثا أخته ، وكان لا يرى عطايا الأمراء له بعد عطايا سيف الدولة شيئاً ؛ بل كان يراها منهم تكلفا ، ومنه طبعاً.

أما أن يسكت شاعر مثل أبي فراس ، فذلك أمر مثير للغرابة !! فأين القائل :

فليتـــكَ تَحلُـــو والحيـــاةُ مريـــرةٌ ... وليتـــكَ تَرضَـــى والأنـــامُ غِضـــابُ

وليـــتَ الـــذي بينـــي وبينـــكَ عـــامرٌ ... وبينـــي وبـــينَ العـــالمينَ خـــرابُ

إذا نلـــتُ منـــكَ الـــوُدّ فالكُـــلُّ هَـــيِّنٌ ... وكُـــلُّ الـــذي فَـــوقَ التُّـــرابِ تُـــرابُ (١)

---

(١) . الديوان : ٢/٢٤

فإن كانت الحياة المريرة تخطّفت من كان يرجو دوامه ؛ لتحلو الحياة له به ، وأبقت له العالمين ، وأصبح ما بين الشاعر وممدوحه (التراب) ، فأين الحسرة والفجيعة على من جعله يزهد في العالمين وفي الحياة ؟!

هل كان عظم الرزية مُلجماً عن أي حديث ؟! أم أنّ رثاء الملوك وسكب العبرات عليهم ضرب من التحرّج مثل قول : " هذا السيف أمضى من العصا[1] " ؟! أم أنّ قيد الأسر كان لم يزل يطوق عنقه؟!

في الواقع إنّ لهذا الأمر أهمية كبيرة في قياس مقدار الود ؛ لأن الود معقود بالوفاء ، والرثاء ثمرة من ثمار الوفاء ، وسكوت الشاعر عنه أمر مثير للجدل ، فهناك من يرى أن ذلك رد لسيف الدولة على تباطئه في الفداء[2] ، وهناك من رأى ذلك وأضاف عليه أمراً آخر ، فقال : " لعل سبب ذلك يعود إلى شغل أبي فراس بتحقيق المطامع التي تأججت في صدره بعد وفاة سيف الدولة ، تلك المطامع التي شغلته حتى عن تقدير مركزه التقدير الصحيح ، فغامر وانتهت مغامرته بالإخفاق على أنه مما لاشك فيه عندي أن أبا فراس قد تغير في أعماق قلبه من ناحية ابن عمه لطول إهماله إياه في الأسر ، ويدلنا على ذلك أنه لم يشكر سيف الدولة بعد خلاصه ولم يمدحه[3]"

ربما لا يمكن نفي المطامع التي في نفس أبي فراس ؛ ولكن لا يمكن أيضاً إثباتها إلا لما لمح تلميحاً دون أن يُصرّح ، في مثل قوله:

---

(١) . قال أبودرهم البندنيجي :

متى ما أقل مولاي أفضل منهم ... أكن للذي فضّلته متنقصا

ألم ترَ أنّ السيف يزري به الفتى ... إذا قال هذا السيفُ أمضى من العصا

(يتيمة الدهر : ٢٩٩/٥)

(٢) . انظر : أبو فراس الحمداني شاعر الفروسية والوجدان : د٠ محمد محمود ، ص١٠٣،دار الفكراللبناني ، ط ١، بيروت ، ١٩٩٤

(٣) . انظر : شاعر بني حمدان : ص ١٢٨

يُصَانُ مُهري لأمرٍ ، لا أَبُوحُ بِهِ ، ... والدرعُ والرُّمحُ والصّمصامةُ الخَذِمُ[1]

وفي مواضع أخرى ، سُتذكر – بإذن الله – في موضعها ، ولكن إذا كان الانشغال بالمطامع يُسكت الشاعر عن الرثاء ؛ فذلك مبرر غير كاف ، فالطمع سلوك يُظهر شراهة صاحبه ؛ ولكنه لا يطمس سجاياه ، وخصوصا إنْ كان الوفاء راسخاً فيها!!

أما فكرة تغير الشاعر على سيف الدولة بعد فك أسره ، لظهور ما ترسّب في نفسه من حنقه عليه لإهماله إياه في الأسر ؛ فإنّ الشاعر قد تغيّرت نفسيته ليس على سيف الدولة فحسب ، بل ذُكر أنه أَكْثَر من ظلمه للرعية بعد فك أسره[٢] ، وهذا أمر سرّه مدفون مع الشاعر ؛ لأنّ أمر النفسيات أمر بالغ التعقيد والغرابة.

و يشفع للشاعر عند الرأي الذي يرأى السبب في ظهور أطماع الشاعر ، أنّه كان لايحب الصدع وتفرّق الكلمة والخروج من وحدة الصف ، وذلك أمر تناوله في شعره عند استنكاره على تمرد العشائر المارقة ، ويمكن استنباطه أيضاً من حقنه دماء الأسرة على مضض ، حين ترك ثأر أبيه ؛ لئلا تتشعب صدوع الخلاف بينهم.

و يُعتبر الشاعر مُقلٌّ في باب الرثاء ، فمرثياته لم تتجاوز العشرة ما بين قصائد ومقطعات ، و يُستخلص من ذلك ، أنّ الشاعر لم يمل بطبعه إلى الرثاء ، مثل ميله إلى أبواب الشعر الأخرى ، لأنّ سيف الدولة لم يكن الوحيد من المقربين الذين تعداهم رثاء الشاعر ؛ بل إنه ترك رثاء أبي زهير ، وهو أحد المقربين إليه ، وله منزلة عظيمة في نفسه ، ومساحة شاسعة في أرق معاتباته ، فمن العجيب أن " غاب أبو زهير قبل أن يتجاوز أبو فراس العشرين من عمره ، ومع ذلك لانجد في ديوانه قصيدة في رثاء أبي زهير[٣]".

---

(١) . الديوان : ٣٤٨/٢

(٢) . انظر : أخبار الدول المنقطعة : ١ /٩٠

(٣) . خواطر ذاتية في أبي فراس وشعره : ص ٧.

إذن فالأمر لا يقتصر على شخص سيف الدولة ، بل هو أمر نفسي بحت ، فربما كان

وجومه أشد على نفسه من الثكل ذاته ، وقد يجد المرء أحياناً منطقه في سكوته ؛ فإنْ تكلم ؛ عبث في أحاسيسه وأجحفها حقها .

ولا يُنسى أنّ الشاعر قد ذكر أنّ الخير والشر ، والسعادة الشقاء سيّان ، وكثيراً ما كان يصوغ ذلك في حِكَمهِ وتجاربه ، وحديثه عن صروف الدهر.

وقد عاش الشاعر بعد فك أسره بمعية الحزن والكدر ؛ فإنْ مات سيف الدولة ؛ فقد ماتت أم الأسير بكمدها وحزنها ، وهي بلاشك أعز عليه من سيف الدولة ، و يدل تفجعه عليها في رثائه على شعوره أنّ كل حزن بعدها يتبدد ، و كل مُصاب بعد مُصابه فيها ؛ يهون ، و كل ناعية بعد نعيها ستسكت .

و الجدير بالذكر أنّ الحديث عن أثر العلاقة بين الشاعر وسيف الدولة في تكوين عامل من عوامل عتابه وشكواه ، لا يقتصر على تراخي سيف الدولة في افتداء ابن عمه كما يظن كثيرون ؛ وإنما كشفت هذه الصلة عن أبعاد تشير إلى أن الحظوة عامل كبير في تشكيل قوالب مبدعة من العتاب والشكوى ؛ لأنها تجعل النفس قلقة تخشى هبوب أدنى رياح تُدني وتُقصي ، وأنّ الرفاهية والدلال أنامل خطت أرق قريظ العتاب و الشكوى و أغلظه وأعذبه وأقساه .

وثمة أمر يشير إلى أنّ جرح الثقة أو تزعزعها أعظم من عدم وجودها ؛ لأن الجرح لا يؤلم إلا من كان حيا!!

المبحث الثالث : أثر الأسر:

أولاً: حقيقة الأسر في نظر الشاعر :

يقال في اللغة : أَسَرَ قتبه أي شدّه ، والإسار : القيد ويكون حبل الكتاف ، ومنه سُمّي الأسير ، وكانوا يشدّونه بالقِدَّ فسمي كُلُّ أخيذ أسيراً ، وإن لم يُشدّ به[1].

أما الشاعر ، فيرى أن أسره لم يكن خطباً عظيماً تَهونُ المصائبُ من بعده ، ولم يكن أعظم فاجعة مرّت عليه في حياته ؛ بل الأمر أهون على نفسه من ذلك ، فقال[2] :

وما الأسرُ مما ضقتُ ذرعاً بحَمْلِهِ وما الخطبُ مما أنْ أقولُ لهُ : قَدِ

و لا يعني نفيُ الشاعر عِظَم الخطْب عن نفسه إثبات أنّه أمر يسير ؛ بل هو أحلى المرير، يقول[3] :

وقالَ أُصيْحابي : "الفِرارُ أوِ الرّدى؟" فقلتُ : "هُما أمرانِ ؛ أحلاهما مُرُّ"

فقد عاش الشاعر في أسره بين هذين الأمرين ، فكما أنّ اليأس والأمل ، والخوف والأمن؛ يجتمعان ، فكذلك الأسر ؛ فقد جمع للشاعر بعض مفارقات الحياة التي جمعت له بين الأمور وأضدادها.

وأول أمر هوّن الأسر عليه ، أنه فضلّ الأسر مضطراً ولم يجد سواه حلاً ، واضطراره لا يعني ضعفه أو استسلامه ، وإنما قراره في ساعة اجتماع متناقضين ، **فالأول** : يمثل الحياة . بما تحويه من خيل وسيف ورغد عيش كما يحب وفي كنف من يحب ، و**الثاني** : الحرمان من أعظم ما في حياته. والخضوع لمستقبل مجهول المصير.

وقد عرض الشاعر تفاصيل الموقف الذي سبق أسره ، ففي تلك الجلبة صاح به صحبه:

---

(١) . انظر : لسان العرب: (أسر).

(٢) . الديوان : ٧٨/٢

(٣) . المصدر نفسه : ٢١٣/١

النجاة النجاة !! ولكن مثل أبي فراس ، لا يغريه أي إغراء بحياة ذليلة ؛ فأعلن دون أدنى

تردد : أنّ حياة يُمنّي الفرار بها حرّية أن تكون حياة خزي وعار ، لاخير فيها ولا في مناديها ؛ إنما الحياة في الثبات والإقدام ، والهجرة إلى ما هاجرإليه . و" لايقلل من أمر فروسيته أنه وقع أسيراً في يد عدوه ، بل إن رضاه بالأسر يدل على تلك الصفة ويؤكدها، فقد فضّل الأسر على أن يلوذ بأذيال الفرار[١]".

وإنّ العصر الذي تسوده مبادىء الفروسية أو الإنسانية يهيء للسجين موقفاً لا تنهار فيه رجولته[٢].

وقد مثل الشاعر أبعاد معنى أسره في حقيقتين :

أ – الأسر قضاء :

لم يشأ الشاعر أن يجمع بين أمرين : تأنيب النفس ، وجراح الأسر ، بل هوّن على نفسه وأقنعها بأن ما حصل كان قضاءً لا مرّد له ، وقدراً لا ملاذ منه.

ولم يكن اختياره للأسر حيلة عاجز ، بل هو أمرٌ مدروس قدّم له الأسباب ؛ ولكن (حُمّ القضاء) ونزل البلاء ... ولم يُغنِ الحَذَرَ عن الحَذِر.

وربما كان ذلك التسليم نابعاً من إيمان الشاعر وتوكله على ربه وأخذه بالأسباب ، و القضاء والقدر خير ما تطمئن به النفس وتقرُّ به العين و " يجد الشاعر السجين في القدر علاجاً روحياً يستريح إليه من قلقه ومن حساب التوقعات الخطيرة[٣] وقد جعل الشاعر مشهد الأسر ماثلاً أمامنا تاركاً الحكم للمتلقي .

يقول [٤]:

أُسرتُ وما صحبي بعزلٍ ، لدى الوَغَى ، ولا فَرَسي مُهْرٌ ولارَبَّهُ غَمْرُ !

(١) . شاعر بني حمدان : ص ٣٥-٣٦

(٢) . انظر : الأسر والسجن في شعر العرب (تاريخ ودراسة) : د. أحمد مختار البرزة ، ص ٥٢٨ مؤسسة علوم القرآن ، ط١ ، دمشق – بيروت ، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م

(٣) . المصدر نفسه : ص ٤٦٦

(٤) . الديوان : ٢/٢١٣

ولكنْ إذا حُمّ القضاءُ على امْرىءٍ فَليسَ لهُ برٌ يقيه ، ولا بحرُ

وقـال أُصـيحابي: " الفـرارُ أو الـرَّدى ؟" فقلـتُ : "همـا أمـرانِ ؛ أحلاهُمـا مُـرُّ

ثم برزت نتيجة الصراع السريع الذي دار أثناء معركة غير متكافئة الأطرف ، فحزم أمره و نفذه دون أدنى تردد في موضع لا يثبت فيه إلا القليل ، يقول [1] :

ولكنّنـــي أمْضـــي ، لمـــا لا يَعيبُنـــي وحسـبكُ مِـنْ أمـرينِ خيرُهُمـا الأسْـرُ

يقولـون لـي :"بِعـتَ السَّـلامةَ بـالرَّدى" فقلـتُ :"أمَـا واللهِ ، مـا نَـالني خُسـرُ"

وهـل يَتجـافى عنّـي المـوتُ سـاعةً ، إذا مـا تجـافى عنّـي الأسـرُ والضُّـرُ

هـو المـوتُ ؛ فـاخترْ مـاعَلا لـكَ ذِكـرُهُ فلـمْ يَمُـتِ الإنسـانُ مـاحَيِيَ الـذِّكْرُ

ولم يعلل الشاعر أسره بالقضاء إلا بعد أن عرَضَ أبطال المسرح من فرسان مسلحين، وفرس جواد ، وقائد محنك كان يتمثل في شخصه.

ثم عرض وزيره الخفي الذي شد أزره وهو : اليقين الجازم الذي لم يدع فيه لنفسه قدر أنملة من لوم أو عتب ، بأن ما أصابه لم يكن يُخطئه ، وما أخطأه لم يكن يُصيبه.

وقد برزت تجليات شجاعته في ثباته في هذا الموقف في نفاذ بصيرته حين تضعضع من حوله ، وقدرته على إدراك أبعاد الموقف الحقيقية.

وإذا لم يشأ الله أن يُمضي نفاذ السيوف ، وحماية التروس ، وكرّ الخيول ، فليس للعبد أن يجبرها على شيء يأباه الله ، وإنما هي أسباب مبذولة ، وهذا ما كان يُدركه الشاعر ، ويردده ؛ ليهون على نفسه ، ويلزمها الإيمان بالقضاء ، فقال[2] :

إذا اللهُ لـــم يحرُسْـــكَ ممـــا تخافُـــهُ فـلا الـدرعُ منّـاعٌ ولا السـيفُ قَاضِـبُ

ولا ســـابقٌ ممـــا تخيّلـــتَ ســـابِقٌ ولا صـاحِبٌ ممـا تخيّـرتَ صـاحِبُ

وقد أحاط الله بأرزاق العباد وآجالهم وأقدارهم ، ولا راد لقضائه ولا مهرب من قدره

---

(١) . الديوان : ٢ / ٢١٣

(٢) . المصدر نفسه : ٢/ ٣١ – ٣٢

و حين تسعى النفس في مناكب الأرض ، تذلل كل عصيب ، وتجري خلف مقاصد قد تدركها أو لا تدركها ، فأما المقاصد العظام فلا يسعى لها إلا عظيم ، يبذل نفسه لها ، فإذا كبا الجواد ، ونبا السيف ، وزلت القدم ؛ رفع البطل عن نفسه الحرج ، ونأى بنفسه عن حمل العتب ، وهذا ما جعل الشاعر يرفع الحرج عن نفسه ؛ لأنه مؤمن بقضاء الله ، وموقن أنّ غاياته العظيمة محفوفة بالمكاره ؛ فإنْ ناله ضر وهو ساع إليها ، فلا حرج عليه ، يقول[1] :

وهل يدفعُ الإنسانُ ما هو واقعٌ ... وهل يعلمُ الإنسانُ ماهو كاسبُ[2]
وهل لقضاءِ اللهِ في الخلقِ غالبٌ ... وهل لقضاءِ الله في الخلق هاربُ ؟
عليّ طِلابُ العِزِّ مِنْ مُسْتقرِّهِ ... ولا ذَنبَ لي إنْ حاربتني المطالبُ
وهل يُرتجى للأَمْرِ إلا رِجَالُهُ ... ويأتي بصَوْبِ المُزنِ إلا السحائبُ !؟
وعندي صِدْقُ الضَّرْبِ في كُلِّ مَعْرِكٍ ... وليس عليّ إنْ نبونَ المَضَارِبُ

و برزت صورة أخرى من صور إيمان الشاعر بقضاء أسره ، حينما خنقته العبرة بعد رحيل أمه عن الحياة ، فهي التي كانت لا تفتر في دعائها له ، ومَنْ غيرها يذكره في السراء والضراء ؟! يقول[3] :

إذا ابنُكِ سارَ في برٍّ وبحرٍ ... فمنْ يدعُو لَهُ ، أو يَستجيرُ؟

---

(١) . الديوان : ٢ / ٣١ – ٣٢

(٢) . في البيت اقتباس من قوله تعالى في سورة لقمان (**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيّ أَرْضٍ تَمُوتُ** ... (**٣٤**)) وللإمام الشافعي – يرحمه الله – أبيات شهيرة قريبة المعنى من الأبيات السابقة يقول :

ومن نزلتْ بساحته المنايا ... فلا أرضٌ تقيه ولا سماءُ
وأرضُ الله واسعةٌ ولكنْ ... إذا نزلَ القضَا ضاقَ الفضاءُ
دعِ الأيامَ تغدرُ كلَّ حينٍ ... فما يُغني عن الموت الدواءُ

(ديوان الإمام الشافعي ، جمع وتحقيق وشرح.: اميل بديع يعقوب ، ص ٤٠–٤١ ،دار الكتاب العربي ، ط١ بيروت، (١٤١١هـ–١٩٩١م)

(٣) . الديوان : ٢١٧/١

ويظهر موقف الشاعر في إيمانه بالقضاء بشكل أوضح ، حينما كان يستدفع القضاء بالدعاء ، فهو يرجو دعاء أمه في كبد المضايق ، وفي قلب العسر وغاية الضر ...
فكم فتح دعاؤها ما استغلق من حياته !! يقول[1] :

بـــأي دُعـــاءِ داعيـــةٍ أُوَقَّـــى ؟ بـــأي ضِـــياءِ وجـــهٍ أســـتنيرُ ؟
بَمـــنْ يُســـتدفعُ القـــدرُ المُـــوَقّى؟ بِمَـــنْ يُســـتفتحُ الأمـــرُ العســـيرُ ؟

ب– الإحساس بواقع القيد والأبواب المُغلقة :

على الرغم من تَميّزُ الشاعر عن بقية الأسرى في المعاملة إلا أن الإحساس بواقع الأسر وما يعانيه من انقطاع عن الحياة السابقة ؛ أثقلت كاهله وقيدت روحه.
والباب الذي يحول بينه وبين مراتع الصبا ، ونضارة الحياة وطيب العيش وأنسام الأهل والخلان ، باب قاس مهما كانت الحياة في داخله ونمط المعيشة فيها.
وقد سيطر ضيم القيد على الشاعر حسياً ومعنوياً ؛ لشعوره بمذلة الموقف الذي جسّد أميراً منعّماً مترفا ، كبّلته القيود ، وقيّدت شجاعته ... كما مثّل قيده برزخاً بينه وبين أحبته.
أما أمر المكان فذلك أمر عظيم على الشاعر ؛ لأنه أثار أشجاناً ما كان لها أن تتحرك إلا حين وطئها أسيراً ، بعد أن كان يطؤها غازياً مجاهدا ...
إنه واقع أليم حين تُقيّد الضراغم في عرين كانت تعرفه جيداً ، وأمام مَنْ كان يَفْرقُ منها فزعاً خشية بطشها ، إنه واقع يستحق أن يُندب ، يقول:[2]

يـــا مَـــنْ رأى لـــي بحصـــن "خرشـــنةٍ" أُســـدَ شـــرًى ، فـــي القُيـــودِ أَرْجُلُهَـــا !
يـــا مـــن رأى لـــي الـــدروب شـــامخةً دُونَ لقـــــاءِ الحبيـــــبِ أَطْوَلُهـــــا

---

(١) . الديوان : ٢١٨/١
(٢) . المصدر نفسه : ٣٣١/٢

يـــا مَـــنْ رأى لـــي القُيـــودَ ، مُوثَقَـــةً ، عَلَـــى حَبيـــبِ الفُـــؤادِ أَثْقَلُهَـــا !

والمقارنة بين ذل الأسر ودعة العيش التي ودّعها ؛ مفارقة عظيمة ، تفت الأحشاء والكبد، ولاسيما حين يكون الأسير عزيز قومٍ ذلّه الزمان.

فالمسكن والملبس والمركب ... ضروريات حياة يشترك فيها الأسير والطليق ؛ ولكن الفرق شاسع ، والبون واضح بين من يرتع كما يشاء ، وبين من يقبع خلف القضبان.

فعجباً لسيف الدولة كيف يستلذ بحلاوة العيش ، والحياة هنالك ملح أجاج !!

يقول[1] :

يـا واسـعَ الـدَّارِ ، كيـفَ تُوسـعُهَا ؟ ونحـنُ فـي صَـخرةٍ نُزلزلُهـا
يـا نـاعمَ الثـوبِ ! كيـفَ تُبدلُـهُ؟ ثِيابُنـا الصـوفُ مـا نُبـدِّلُها
يـا راكـبَ الخيـلِ ! لـو بصـرتَ بِنَـا ، نَحْمِـلُ أقْيادنـا ، ونَنَقُلَهـا !
رأيـتَ فـي الضُـرِّ ، أَوْجُهـاً كَرُمـتْ فَـارقَ فِيـكَ الجمـالَ أجْمَلُهَـا !
قَـدْ أَثَّـرَ الـدَّهرُ فـي مَحَاسِـنِهَا تَعْرِفُهـا ، تَـارةً، وتجْهلُهـا
فَـلا تَكِلنـا فيهـا إلـى أحـدٍ مُعِلُّهـا مُحسـنٌ يُعَلِّلُهـا
لا يَفـتحُ النَّـاسُ بـابَ مَكرُمـةٍ صَاحِبُهاالمُسـتغَاثُ يُقفِلُهـا
أ ينبـري ، دُونـكَ، الكـرامُ لهـا وأَنـتَ قِمقَامُهَـا[2]، وأَحْمَلُهَـا!

وبئست الحياة ، حياة الأسر حين جعلت ذلك الأمير المترف مستجديا ، يستجدي الفداء بكل وسيلة ممكنة ، فتارة بإظهار الضعف وقلة الحيلة ، وتارة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتذكير سيف الدولة بوشائج القربى ، فالأقربون أولى بالمعروف ، وفريضة الفداء مقدّمة على نوافل المكارم ، يقول[3] :

يـا مُنفِـقَ المـالِ ، لا يُريـدُ بِـهِ إلا المعـالي التـي يُؤّثِلُهـا ،

(١) . الديوان : ص ٣٣٣

(٢) . قمقامها : القمقام من الرجال السيد الكثير الخير ، الواسع الفضل . (لسان العرب : قمم)

(٣) . الديوان : ٢ / ٣٣٤

أصـبحتَ تَشْـري مكارمـاً فُضُـلاً فِـداؤُنا ، قـد عَلِمْـتَ ، أفضَـلُها !

لا يقبـــلُ اللهَ ، قبـــل فَرضِـــكَ ذا ، نافلـــــةً عنـــــدَهُ تُنَفَّلُهَـــــا !

ومن طبيعة النفس البشرية أن تقرّ عينها بالخلان ، فبهم تسكن النفس ، وتنجلي أكدار الحياة ، وتنداح الهموم ... وقد أكبر العربي الخل الوفي منذ القدم ، وجعله أحد المستحيلات الثلاثة .

ومما يهوّن خطوب الدهر ، أنْ ترى النفس من يواكب أحوالها ، فتأنس بالمحزون إن كانت حزينة ، و لاسيما حين تتحد مادة الحزن نفسها[1]، وقد طابت نفس الشاعر بين خلانه حين جمعهم القدر في الأسر ، بل في ذلك ما هوّن عليها الخطب ؛ ولكن الوجوه التي عرفها لم تعد كما هي ، فقد شاهت ، وعلتها مسحة الذل ، وغبار المهانة ، فاستثار ذلك المنظر عواطف الشاعر ، فصورها تصويراً يظهر ضعفه وعجْزه تجاه هؤلاء الخلان من ناحية، ومن ناحية أخرى أظهر حنقه على هذه القيود التي لم يسلم منها حتى الصديق ، يقول[2]:

أُقلِّـــبُ طَرْفـــي بـــينَ خِـــلٍّ مُكَبِّـــلٍ وبَـــينَ صَـــفِيٍّ بالحديـــدِ مُصَـــفَّدِ

دعوتُـــك ، والأَبـــوابُ تُـــرْتَجُ دُونَنَـــا ؛ فكُـــنْ خَيـــرَ مَـــدْعوٍ وأكـــرمَ مُنجِـــدِ

---

(١) . لم يعرف الأدب العربي بكاءة أشد وجداً على أخيها من الخنساء ،فكانت تسلي نفسها –وليست بسالية – بمرزؤات أصبنْ بما أُصيبت ، فلعل ذلك يُهوّن عليها ، وإن كنّ لايبكين فقيداً يماثل فقيدها ، قالت في إحدى مرثياتها في صخر:

ولـــــولا كثـــــرةُ البـــــاكين حـــــولي على إخـــــوانهم لقتلـــــتُ نفســـــي

ولكـــــــنْ لا أزال أرى عَجُـــــــولاً وباكيـــــةً تنـــــوحُ ليـــــومِ نَحْـــــسِ

أراهـــــا والهـــــاً تبكـــــي أخاهـــــا عشـــــيةَ رُزئـــــهِ أو غِـــــب أمـــــسِ

ومـــــا يبكـــــون مثـــــل أخـــــي ولكـــــنْ أُعـــــزِّي الـــــنفسَ عنـــــهُ بالتأسِّـــــي

(شرح ديوان الخنساء ، شرح وتحقيق : عبدالسلام الحوفي ، ص ٦٢ دار الكتب العلمية ، ط١ بيروت – لبنان ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م .

(٢) . الديوان : ٢/٧٨

ثانياً : جوانب مظلمة في محنة الأسر:

شدة الكرب:

الكرب : هو الحزن والغم الذي يأخذ بالنفس ، وقيدٌ مكروب إذا ضُيّق ، وكَربْتُ القيد إذا ضَيقّتَه على المقَيّد[١] .

والكُربة أشد من الحزن والغم ، ويقال : هي الحزن الذي يُذيب القلب أي : يُحيرّه ويخرجه عن أعمال الأعضاء ، وربما أهلك النفس[٢].

والفرق بينها وبين الحزن والغم ، أنّ الهم يغلظ النفس ، والحزن يقبضها و(الكربة أشد الحزن والغم ، ويقال : الكربة حزن يذيب القلب ، أي يحيره ويخرجه عن أعمال الأعضاء[٣]).

وقد ورد ذكر الكرب في القرآن الكريم ، واقترن ذكره بفعل النجاة التي تحل مع نزوله[٤].

و ورد ذكره أيضاً في السنة النبوية المطهرة حين نعت فاطمة بنت الحبيب أباها صلى الله عليه وسلم ، فقالت : " واكرب أباه " فقال لها : "ليس على أبيك كرب بعد اليوم" ، فلما مات قالت : " يا أبتاه أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه ، فلما دُفن ، قالت فاطمة عليها السلام : يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – التراب؟ ![٥]"

---

(١) . انظر لسان العرب : (كرب)

(٢) . الكليات : (كرب)

(٣) . المصدر نفسه : ص ٩٦٠-٩٦١

(٤) . مثل مهالك ظلمة البر والبحر ومخاوفها قال تعالى (قل الله ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه لئن أنجانا من هذه لنكون من الشاكرين * قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون) ٦٤ الأنعام .

وكذلك الخوف من العدو في قوله تعالى (ولقد مننا على موسى وهارون * ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم)١١٤ الصافات.

(٥) . صحيح البخاري : مج ٣/ج٥/ص١٤٤ .

وما أحاط بالشاعر في أسره أعظم من أن يكون حزناً يُبث أو هماً يوصف ، وإنما كان كرباً مقيماً أرسى أصوله القريب قبل الغريب.

وقد وصفه الشاعر من قبل أنه عثرة الدهر التي تجافى عنها المقيل ، وذهل عنه فيها الحميم .

ولعل اختيار " الكرب " في هذا المبحث أنسب في التعبير من غيره من سائر الألفاظ التي تعبر عن الحزن ، وذلك لأنها وردت صريحة من الشاعر في أحلك الأوقات التي مرت به في الأسر، والأمر الآخر لأنه أشد من الحزن والغم ، وهو وضع يلائم حالة الشاعر النفسية في تلك الفترة.

و يُعتبر الليل أبرز وقت تظهر فيه الكروب وتتداعى على صاحبها ، وقد اختلف شأن الليل مع الشعراء ، فحيناً يكون ملاذهم الآمن من رقابة البشر ، وحيناً يكون خليلهم الذي لا يمل الإنصات لشكواهم ، وحيناً يكون ذلك الثقيل الذي يزول كل همّ إلا هو[1].

ويلعب القلق دوراً في موقف الشاعر إزاء الارتياح لكل من الليل والنهار ، فللزمن دلالات في حياة المبدع ؛ لأن أجزاء اليوم الواحد الموزعة على النهار والليل و الصباح والمساء والسحر والفجر ،كلها تشمل لدى المبدع استدلالاً لحالة مستنبطة يعبر عنها بلفظه خاصة[2].

وقد اختلف شأن الليل عن النهار لدى الشاعر ، وصرّح باختلافها ، لأنّ في النهار انشغال عن الهموم بأحداث الحياة ، والسعي في مناكب الأسر.

أما الليل فهو خلوة النفس ، ومرفأ خواطرها ، وبوح مستودعها ، فبه يتبدد جلد النهار ، وتنهار قوى القلب.

---

(١) . هناك دراسات متخصصة في هذا المجال ، ولعل من أبرزها : الليل في الشعر الجاهلي : نوال مصطفى أحمد إبراهيم ، وهي رسالة ماجستير من كلية الآداب – جامعة اليرموك ، وقد درست الباحثة في الفصل الثاني : ألوان الليل : " ليل العاشق ، ليل المهموم ، ليل الساري ، ليل الصعلوك" ولست بصدد هذه التقسيمات الآن ، لأنني سأقتصر في دراستي هذه على أرق الشاعر كعامل مؤثر عليه في أسره.

(٢) . انظر : النفس والعبقرية :د . عادل الألوسي ، ص ١٠٠ ، دار الفكر العربي ، ط١ ، القاهرة ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م .

وحين يكون صاحب تلك الروح أسيراً ، يتحول الليل إلى لون آخر ؛ لعظم الخطب وفداحة الأمر. وربما كان ذلك لأن الأسير يبيت بين نارين : نار الأسر ونار الهم .

و تسمح السكينة في الليل " للذات الداخلية أن تستيقظ ولكوامن المشاعر أن تبرز ، فتتنبه الآلام وتنشط نشاطاً ظاهراً ، ويبيت السجين تحت هجمتين من عذاب الجسد وأحزان القلب معاً ، وتدل كثرة الشكوى على هذا التعايش الدائم[1] " .

و يُمكن أن يحدث الأرق نتيجة أُمور نفسية تلازم صاحبها ، مثل: الاضطراب الانفعالي ، والتوتر وعدم الاستقرار ، وكثرة الهموم ، والاكتئاب وعدم الشعور بالأمن[٢].

و يُعتبر الأرق من أعظم ما بُلي الشاعر به في ليالي أسره ؛ لأنه ترك أثره على الروح والجسد ، فهو يُقرّح الجفن ، ويوهن القوى ، ويُهزل الجسد ؛ فجأر الشاعر بشكواه إلى سيف الدولة ؛ لعله يُحدق في تلك الأجفان ، ففيها ما يغني عن الخبر.
و أمسك الأرق بزمام آلام الأسر ؛ لأن الأسير يهرب من هم النهار إلى راحة الليل ليهنأ في سكونه ؛ لذلك كان أول ما بعث الشاعر به إلى سيف الدولة من الأسر داليته الشهيرة، التي استهلها بشكوى الأرق وقلة النوم ، فقال[٣] :

دعوتُكُ للجفنِ القريحِ المُسهَّدِ لديّ وللنومِ القليلِ المُشرَّدِ

---

(١) . انظر : الأسر والسجن في شعر العرب ، ص ٤٧١

(٢) . انظر : الصحة النفسية والعلاج النفسي : ص ٤٢٨
وقد عبّر الله سبحانه وتعالى عن اضطرابات الأحوال البشرية ، مثل نفي النوم عن الخائف فذكر عباده الصالحين حين تتجافى جنوبهم عن مضاجعهم خوفاً منه ورغبة له تعالى ، في قوله عز وجل من سورة السجدة : " تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون"١٦ وحالة أخرى حين أنزل النوم أمنة على فريق من المؤمنين يوم أحد في موطن يُستحال النوم فيه ، وهو حال الخوف ولمعان السيوف وتلاطم المنايا ، فذكرهم الله عز وجل – بالنوم امتناناً منه في سورة آل عمران : " ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم ..." ١٥٤

(٣) . الديوان : ٢/٧٨

(٩٤)

وقام هَمُّ الشاعر في الأسر معه وقعد ، فإن بات الكون دجىً ؛ باتت همومه تقلبّه وتقض مضجعه ، وتنال منه منال السهام ، وذلك غاية الكرب ، الذي لايبرح مع تنفس الفجر ، ولا يهجع مع سكون الليل ، وهذا نبأٌ ثقيل على أحبته في الشام ، يقول[١]:

يَعُزُّ على الأحبَّةِ بـ"الشآمِ" حبيبٌ ، باتَ ممنوعَ المنامِ
تبيتُ هُمُومُهُ والليلُ داجٍ ، تُقَلِّبُهُ على وخْزِ السهامِ
يَؤولُ به الصباحُ إلى صباحٍ ويُسْلِمُهُ الظَّلامُ إلى ظلامِ

وكان الشاعر يُقدّر أن لليوم ليلاً طويلاً ، وليلاً آخر قصيرا ، ويحكم ذلك سنة إلهية لا يجهلها أحد ؛ ولكن الكرب الناتج عن الأسر يوحي بأنه لايوجد ليل قصير على الإطلاق، و لا حقيقة لطول الليل على الدوام ؛ ولكنها أحاسيس تنبعث من الداخل ، منشؤها الضجر ، وشدة الكرب الذي دَحرَ الآمال ، ونَشرَ اليأس ، وأعقب الهم تلو الهم .

فإذا كانت العين ترى النجم الذي في الليل يلوح لها في وضح النهار دون أن يزول ذلك الليل ؛ فإنها بلا شك تعكس ظلام نفسها الذي تراه ماثلاً أمامها حتى في رابعة النهار، يقول[٢] :

وأسـرٌ أُقاسِـيهِ وليـلٌ نُجومُـهُ أرى كُـلَّ شـيءٍ غيـرهُنَّ يـزولُ

تطـولُ بـيَ الساعاتُ ، وهـي قصـيرةٌ ؛ وفـي كُـلِّ دهـرٍ لا يَسـرُّكُ طُـولُ !

يدعو هذا الأمر إلى الإحساس بما كان الشاعر يُكابده من كربات تشتد عليه كما تشتد الحمى على صاحبها في الليل ، فإذا كان الليل استرجاعاً لهمِّ النهار و وصبه ، فإنّه بلا شك ليل لا يعقبه انبلاج فجر حتى وإن دنا ؛ ذلك لأن النفس التي خُلقت من عجل ، تعجل الفرج و تتهالك دونه ، ولو لم يبق عليه إلا اليسير ، وإلا فكم خلود الإنسان في هذه الدنيا !؟

---

(١) . الديوان : ٣٧١/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٣١٤/٢

ب– مرارة الأسر بين يدي النصارى[١] :

تجاوزت مرارة الأسر حدود البعد والغربة ، إلى التفكير في ذلك الحاضر الشقي بين أُناس لا ينتمي إليهم بدين ، والتفكير في المستقبل المشؤوم ، الذي يَهُوله منه الموت بين يدي النصارى وفي ديارهم ، فأي أيدٍ ستتولى أمر تجهيزه وتشييعه !!

فهذا أمر قد رفضه دينه وعقله ، وأبت نفسه عليه إلا أن تخاطب سيف الدولة وتذكرّه بعظم ذلك الأمر عليهما ؛ لأن في الأمر مساس بالدين ، إذ كيف لا يسارع سيف الدولة لإخراج ابن عمه من ذل النصارى قبل أن يدرك رمقه الأخير بينهم ؛ وذلك ما جعل الشاعر يشتد على ابن عمه في التذكير بمغبة ذلك الأمر الذي كان يمثل حُلماً مزعجاً يعاوده من حين إلى حين ، فقال[٢] :

وتَـــأبى وآبـــى أنْ أمـــوتَ مُوسَّـــداً بأيدي النصارى ، موتَ أكمدَ أكْبدِ

ولم يحرص الشاعر على الحياة ، ولم يرعه في الأسر هاجس قَتْلِهِ ؛ ولو كان الأمر كذلك ، ما أغمد الشاعر سيفه في صدور أعدائه ، وما فلّل حده في نحورهم ، وما عرّض نفسه للموت في منازلتهم ؛ ولكنه كان يلتمس الفداء من سيف الدولة ؛ لئلا يموت غريباً بين ظهراني النصارى ، فإنْ لم يحرك هذا الأمر مشاعر ابن عمه الدينية التي تقوده إلى الغضب للدين ، فلا يُشمت به الأعداء وليظهر اهتمامه به والسؤال عنه ، يقول[٣] :

أُناديـــكَ لا أنّـــي أخـــافُ مـــن الـــرَّدى ولا أرتجـــي تـــأخيرَ يـــومٍ إلـــى غـــدِ

---

(١) . تعمدت اختيار كلمة "النصارى" على كلمة "الروم" أو "العدو" لأن الشاعر أوردها بذلك اللفظ وفيها دلالة على أنّ الشكوى لم تعد بين أسير يشكو أسره و غربته ، إنما وضّحت ما يعانيه أسرى المسلمين من ضيق يتمثل في عدة أمور ، مثل : الحرمان من أداء الشعائر الدينية ، أو التضييق عليهم في أدائها ، أو الاستهزاء من قبل أعداء الدين بما يمس عقيدة المسلم ، أو الاستهزاء ببعض مقدساتهم أو امتهان كرامتهم ، أو معاملتهم بما لا يليق ، وقد جرت بين الشاعر وبينهم بعض المناظرات .

(٢) . الديوان : ٧٨/٢

(٣) . المصدر نفسه : ٧٩/٢

وقـد حُطّـم الخطّـيُّ[١] واختـرمَ العِـدى وفُلّـلّ حَـــدُّ المشـــرَفيّ المُهنّـــدِ

ولكـــنْ أنفـــتُ المـــوتَ فـــي دارِ غربـــةٍ بأيـدي النّصـارى الغُلْـفِ[٢] مِيتـةَ أكَمـدِ

فـــلا تتـــرُكِ الأعـــداءَ حـــولي ليفْرحُـــوا ولا تقْطـــعِ التســـآلَ عنِّـــي وتَقْعُـــدِ

وقد نقل الشاعر شيئاً من معاناته مع أولئك النصارى ، فمن الواضح أنهم كانوا يثيرون حفيظته ، ويعرّضون بدينه ، فأظهر حنقه عليهم ، وقد جرت مناظرة بينه وبين الدمستق ؛

فوصفهم بأقذع الألفاظ ، وكال لهم أنواع السب والشتيمة ، وكأنه يغرف من بحار غضبه التي كانت تضطرب في نفسه من أولئك النصارى ، فاستهزأ بهم استهزاء الغاضب الذي يبتسم من العجب ، وقلبه يشتعل من الغضب ، فكان مما قاله فيهم[٣] :

أمـا مِـنْ أعجـبِ الأشـياءِ عِلـجٌ [٤] يُعرّفُنـي الحـلالَ مـن الحـرَامِ
وتَكْنُفُـهُ بطارقـةٌ[٥] تيـوسٌ ، تُبـاري بالعَثَـانِين[٦] الضّخَامِ
لهُـمْ خُلـقُ الحميـرِ فلسـتَ تَلْقَـى فَتـىً مـنهم يسـيرُ بَـلا حـزامِ
يُريغـونَ[٧] العيـوبَ وأعجـزتهُمْ وأيُّ العيـبُ يوجـدُ فـي الحُسـامِ؟!

و بلغت ثورة الغضب مبلغها من الشاعر ، ووصل اضطرابه إلى ذروته حين تذّكر منزلته

---

(١) . الخطي : الرمح المنسوب إلى الخط . (انظر : لسان العرب : (خطط)) .

(٢) . الغلف : واحده أغلف ،كأنه غشي بغلاف فهو لا يعي شيئاً ، وفي التنزيل العزيز (وقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ) سورة البقرة آية ٨٨ (أُنظر : المصدر نفسه :(غلف)) .

(٣) . الديوان : ٣٧٣/٢

(٤) . علج : العلج الرجل من كفار العجم ، ويقال للرجل القوي الضخم من الكفار علج.
(انظر :لسان العرب : (علج)) .

(٥) . البطارقة : البطريق بلغة أهل الشام والروم هو القائد معرّب ، وجمعه بطارقة. وفي حديث هرقل: فدخلنا عليه وعنده بطارقته من الروم ، هو جمع بطريق وهو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم وهو ذو منصب وتقدم عندهم . (انظر: المصدر نفسه (بطرق)) .

(٦) . العثانين : العثنون من اللحية : ما نبت على الذقن وتحته سفلاً ، وقيل : هو كل مافضل من اللحية بعد العارضين من باطنهما . (المصدر نفسه : (عثن)) .

(٧) . يريغون : أراغ وارتاغ : بمعنى طلب وأراد . (المصدر نفسه : (روغ)) .

الرفيعة التي لا يليق بها أن تماري مثل هؤلاء القوم ؛ فقال[١] :

وأصـعبُ خُطّـةٍ[٢] وأجَـلُّ أمْـرٍ مُجَالَسَـةُ اللئـامِ علـى الكِـرَامِ
أُنـاجِي كُـلَّ طَبْـلٍ هَرْثمـيٍ[٣] عـريضِ الـذَّقْنِ ، بَـزّاق الكـلامِ

ولم يكتف هؤلاء النصارى بتفقيه الشاعر في أمور دينه ، بل احتالوا من طريق آخر – مؤلم كسابقه – فنالوا من شجاعته ، وشجاعة قومه ، وأرجفوا الأقاويل في بأسهم، وخبراتهم

الحربية. وذات يوم " أحفظَ أبو فراس الدمستق في مناظرة جرت بينهما فقال له الدمستق : "إنما أنتم كُتّابٌ أصحاب أقلام ، ولستم بأصحاب سيوف ، ومن أين تعرفون الحروب؟ فقال له أبو فراس : " نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام ؟[٤]"

فثار الشاعر عليه ثورة عارمة ، ولم يدع فيها شاردة ولا واردة خطرت بباله تلك الساعة، إلا وانهال بها عليه بمقطوعة ارتجلها وهو حاضر ، فقال[٥] :

أتــزعمُ يــا ضــخمَ اللغاديــدِ[٦] ، أننَّــا ونحـنُ أُسـودُ الحربِ،لانعـرفُ الحَربـا ؟!
فويلـكَ ، مَـنْ للحـربِ إنْ لـمْ نكُـن لهـا؟ ومَن ذا الذي يُمْسي و يُضحي لها تِرْبَا
ومَــنْ ذا يَلُــفُّ الجــيشَ ِمــنْ جَنبَاتِــهِ؟ وَمـنْ ذا يقُـودُ الشُّـمَّ أوْ يَصْـدِمُ القَلْبَـا ؟

ثم لجأ الشاعر إلى نقل الدمستق إلى أرض الواقع ، ودلّ على كلامه بأدلة عقلية ، وذكرّه بما كان يتجاهله من أمر بني حمدان فلم يمض زمن يُنسي أولئك النصارى ، ما فعله المسلمون بهم ، فقال في ذلك[٧] :

---

(١) . الديوان : ٣٧٣/٢

(٢) . خُطّة : الحال والأمر والخطب. (لسان العرب : (خطط)) .

(٣) . هرثمي : هرثمة من أسماء الأسد ، وبه سُمي الرجل هرثمة . (أُنظر :المصدر نفسه : (هرثم)) .

(٤) . يتيمة الدهر : ١٠٦/١

(٥) . الديوان : ٣٦/٢

(٦) . اللغاديد : جمع لغدود ، وهي اللحمات التي بين الحنك وصفحة العنق .(أنظر : لسان العرب : (لغد)).

(٧) . الديوان : ٣٦/٢.

وويلــكَ مَــنْ أردى أخــاكَ "بِمَــرْعشٍ[١]" وجَلّــلَ ضَــرْباً وجــهَ والــدِكَ العَضْــبَا؟[٢]
وويلــكَ مَــنْ خَلّــى ابــنَ أُختِــكَ مُوثَقَــاً ؟ وَخَــلّاك "باللّقــانِ[٣]" تبتــدرُ[٤]الشِــعْبَا[٥]
أَتُوعِــــدُنا بــــالحربِ حَتَّــــى كأَنَّنــــا وإيــاكَ لــم يُعْصَــبْ[٦]بهــا قلبُنَــا عَصْــبا

والحكم الحقيقي ساحة المعارك التي شهدت ما كان منهما ، وعلمتْ آساد الحرب مِن كلابها، يقول[٧] :

لقــدْ جمعتنَــا الحــربُ مِــنْ قبــلِ هــذه فكُنّــا بهــا أُسْــداً ، وكُنــتَ بهــا كَلْبَــا

ومضى في سياق الأدلة والبراهين إلى أن جعل الدمستق يحكم بنفسه أبِا لسيف غُلبوا أم بالأقلام؟ يقول[٨] :

بأقلامِنَــــا أُجحــــرتَ[٩] أمْ بِسُــــيوفَنَا؟ وأُسْــدَ الشَّــرى قُــدْنا إليــكَ أم الكُتْبَــا؟

---

(١) . مرعش : مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم ، لها سوران ، وخندق وفي وسطهما حصن عليه سور يُعرف بــالمرواني ، بنــاه مــروان بــن محمــد الشــهير بمــروان الحمــار ، ثم أحــدث الرشــيد بعــده ســائر المدينــة. (معجم البلدان : ياقوت الحموي ، تحقيق : فريد عبد العزيز الجندي ، ٥/ ١٢٦ دار الكتب العلمية ، (ب٠ ط) ، بيروت ، (ب ٠ ت)) .

(٢) . العضب السيف القاطع ، وسيف عضب قاطع وصف بالمصدر.(لسان العرب : (عضب)) .

(٣) . لُقان : بالضم ثم بالتخفيف وآخره نون : بلد بالروم وراء خرشنة بيومين ، غزاه سيف الدولة .
(معجم البلدان : ٤/٥)

(٤) . تبتدر : بدرت إلى الشيء أبْدراً : أسرعت وكذلك بادرت إليه وتبادر القوم أسرعوا. ويقال : ابتدر القوم أمراً وتبادروه أي بادر بعضهم بعضاً إليه أيهم يسبق إليه فيغلب عليه ، وبادر فلانٌ فلاناً مولياً ذاهباً في قراره
(انظر : لسان العرب : (بدر).

(٥) . الشّعب : ماانفرج بين جبلين ، والشعب مسيل الماء في بطن الأرض ، له حرفان مشرفان ، وعرضه بطحة رجُل إذا انبطح ، وقد يكون بين سندي جبلين . (لسان العرب : (شعب)) .

(٦) . يُعْصَــب : العَصْــب : الطــي الشــديد وعَصَــب الشــيء يَعْصِــبُه عَصْــباً : طــواه ولــواه وقيــل :شــده. لسان العرب : (عصب).

(٧) . الديوان : ٣٦/٢

(٨) . المصدر نفسه : ٣٧/٢ ، ٣٨

(٩) . أُجحرت: أجحرته أي ألجأته إلى أن دخل جحره ،وأجحره إلى كذا : ألجأه . (أنظر :لسان العرب (جحر))

تركنــاكَ فــي بطــنِ الفــلاةِ[١] تجوبُهَــا كمــا انتفــقَ[٢]اليربُــوعُ[٣] يلتــثمُ التُربَــا

رعــــى اللهُ أوفانــــا إذا قــــالَ ذِمّــــةً وأَنْفــــذنَا طَعْنــــاً ، وأَثْبتَنَــــا قَلْبَــــا

وجــدتُ أبــاك العِلــجُ لمّــا خَبَرْتُــهُ أَقَلَّكُــمُ خُبْــراً ، وأَكْثــرَكُمْ عُجْبــا

وهكذا كان الروم خصمه المحارب ، وعدوه الديني ، مصدراً من مصادر اضطرابه و قلقه... وأقاويلهم مردودة عليهم .. والموت في أرضهم هاجسه الذي كان يُمسي ويصبح عليه .

ج- الحسرة على أم الأسير:

صوّر الشاعر الثقل النفسي الذي كانت أمه تعاني من وطأته عليها ، حين كان ابنها في قبضة الأسر ، فهو بحسرة عظيمة لا يطيق تحملها ،ولم يعد أثر ذلك الألم على نفسها فحسب ! بل فاض أثره على جسدها ، فاعتلت لذلك علة أضرمت الذكريات نارها ، فهي في مرض وقلقٍ واضطراب وانفراد ووحشة حرّقت حشاها وألهبت مدامعها.

ذكر ابن خالوية ، أنه " لما طال الأمر على والدته ، خرجت من "منبج" إلى "حلب" ، وراسلت سيف الدولة ؛ ووافق ذلك أن البطارقة قُيدوا بـ"حلب" ، فقُيد "أبوفراس" ؛ ورأت الأمر قد عظُم ؛ فاعتلت من الحسرة ؛ فبلغ ذلك " أبا فراس " فكتب إلى "سيف الدولة بهذا[٤] :

ياحسرةً ما أكادُ أحَمْلِهُا آخرُها مُزْعجٌ ، وأوَّلُها
عليلةٌ ، بالشَّآمِ مُفردةٌ ، باتَ بأيدي العِدَا ، مُعَلِّلُهَا

---

(١) . الفلاة : القفر من الأرض لأنها فليت عن كل خير أي فُطمت وعزلت. (لسان العرب (نفق)).

(٢) . انتفق : نفق اليربوع تنفيقاً ونافق أي دخل في نافقائه. (لسان العرب (نفق)) .

(٣) . اليربوع : دويبة فوق الجرذ ، الذكر والأنثى فيه سواء ، وقيل : نوع من الفار. (لسان العرب:(ربع)).

(٤) . الديوان : ٣٣٠/٢

تُمْسِكُ أَحْشاءهَا ، على حُرَقٍ تُطْفِئُها ، والهُمومُ تُشْعِلُها !
إذا اطمأنتْ – وأَينْ؟ – أو هَدأتْ عنَّتْ لها ذِكرى تُقَلْقِلُهَا

ينعكس في الأبيات قلق الشاعر و اضطرابه من خلال تخيله لصورة أمه التي لاتفارقه ، فالعلة والوحدة و القلق و الهم والإحساس بالغربة ، أمور لم تتفرد الأم بها فحسب ! بل هي أمور مشتركة بين الابن و أمه و يدل على ذلك نفيه الاطمئنان عن أمه و زواله سريعا عنها ؛ فالهم يسلب الراحة والاطمئنان ويطرد الصبر ، و يُوقد نيران الحزن ، فكلما سلى القلب ؛ أشعل الهم فتيل اليأس ، و هذه الأمور لا يُحسن وصفها إلا مُجرب اكتوى بنيرانها ، و اعتراض

الشاعر بأداة الاستفهام (أين) دليل نفسي على قلقه و اضطرابه و شدة حسرته على نفسه ، و على أُمه .

وربما كان أشد ما على الشاعر في ذلك الموقف ، وقفتها وهي ترجو أدنى أمل يربطها بابنها ، ولعل ذلك الأمل ألجأها إلى أن تقف على مشارف المدينة ؛ فربما وجدت راكباً يجيبها عن سؤال يُطفئ لهيب شوقها ، ويشفي ما اعتل من بدنها وجسدها... يقول :

تســـألُ عنّـــا الركبـــانَ ، جَاهِـــدةً بـــأَدْمُعٍ مـــا تَكـــادُ تُمْهِلُهـــا[1]

فبحث الشاعر عن الراكب الذي يُبلّغ أمه نجوى يطمئنها فيها ، ويعظها بأن الزمان لا يقر على قرار ؛ فإن نال الإنسان من خير الدنيا وصفوها ؛ فهو لا يأمن ضرها وكدرها يقول[2] :

يـــا أيُّهـــا الرَّاكبـــانِ ، هـــلْ لكُمَـــا ، في حملِ نجوى ، يَخِفُّ محملُهَا ؟!

قُـــولا لهـــا ، إنْ وَعَـــتْ مَقَالكُمَـــا ، وإنَّ ذِكـــري لهـــا ليُـــذْهِلُها :

" يـــا أُمَّتـــا ، هـــذه منازِلُنـــا نَتْرُكُهَـــا تـــارةً وننزلُهـــا ! "

" يـــا أُمتـــا ، هـــذه مَوارِدُنَـــا نَعُلُّهـــا تـــارةً ، وننهلُهَـــا "

ولم يدع الشاعر سيف الدولة من التقريع على فعلته وتنكره للقربى ، وكأنه يحمله الذنب فيما حصل ، وإنه لعار عظيم عليه أن ترجع أم الأسير تُقفلها خيبة الرجاء أمام أعين ترصد

---

(١) .الديوان : ٣٣١/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٣٣١/٢

ذلك ، إنها بلا شك ستعود حسيرة قد خاب ظنها وانقطع حبل رجائها ، يقول[1] :

بـــأيّ عُـــذْرٍ ، رددتَ والهـــةً ، عليـــكَ دُونَ الـــورى مُعَوَّلُهَـــا ؟

جاءتـــكَ تمتـــاحُ رَدَّ واحِـــدَها ، ينتظـــرُ النـــاسُ كيـــفَ تُقْفِلُهَـــا !

إنه شر إقفال وأسوأ حال إذ كيف يُحال بين امرأة ضعيفة وعائلها الوحيد مخذول من قومه، مضيّع من أقربيه !!

وكان الشاعر يُكثر من ذكر تعليل طلبه الفداء ؛ فقد كان يطلبه لأجل تلك الأم التي أوهنتها السنون ، وأفرقت قلبها الحنون ، إنه يستجدى الفداء ويريق دم الكبرياء ، فأي أنفة يدخرها

الشاعر ، وأمه تغذُّ السير لاتفتأ تطلب الفداء ، وتسأل الركبان ، وتغتلي نفسها ويحترق قلبها كمداً وجزعاً ؛ فلم يرَ الشاعر براً بأمه أعظم من طلبه الفداء لنفسه ؛ لتقر عنيها ولا تحزن ، فربما كان في الأنفة عن السؤال عقوق تجاوز قول : "أف " ، يقول[٢]:

لـــــولا العجـــــوزُ بـــــ"منبجٍ" مـــا خِفْـــتُ أســـبابَ المنيَّـــه
ولكـــانَ لـــي ، عمَّـــا سأَلْـــ تُ مِـــنَ الفِـــدَا ، نفـــسٌ أبيَّـــه
لكـــــنْ أردتُ مُرادهَـــــا ، ولـــو انجـــذبتُ إلـــى الدَّنيـــة
وأرى مُحَامـــــــاتي عَليْـــــــ هـــا أنْ تُضـــامَ مـــنَ الحَميَّـــه
أَمْسَـــــتْ بـــــ"منبجَ" حـــــرّةٌ بـــالحُزنِ مِـــنْ بعـــدي حَرَّيـــه

ومما بذله الشاعر لأمه من التخفيف عليها في محنتها تلك ، إرشادها إلى التكيف مع الظروف الجديدة ، فحملها على الصبر برقة ولين ، وأمرها ألا تدع للجزع في نفسها مسلكاً ؛ لأنه لا يورث إلا الضيق وشدة الضنك ، وربط الصبر بالجانب الديني ، ففيه حسن ظن بالله ، وانتظار الفرج وفسحة العيش ؛ لأن الجزع قد يُحبط صالح أعمالها ، وأمرها بالتأسي بأمهات صابرات ربطن جأشهن في مواقف عظام.

يقول :

---

(١) . الديوان : ٣٣٢/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٤٣٣/٢-٤٣٤

يقول[١] :

أَمَالـكِ فـي "ذاتِ النطـاقينِ[٢]" أسـوةٌ ، بـــ"مَكَّةَ" والحـــرْبُ العـــوانُ تَجُـــول؟
أرادَ ابنُهـا أَخْـذَ الأمـانِ[٣] فلـمْ تُجِـبْ وَتعلـــمُ عِلمـــاً أنَّـــه لقتيـــلُ!

---

(١) . الديوان : ٣١٦/٢

(٢) . هي أسماء بنت أبي بكر الصديق عبدالله بن أبي قحافة عثمان بن عامر من قريش ، آخر المهاجرات وفاة ، وهي أُخت عائشة لأبيها ، عاشت مئة سنة وهي محتفظة بعقلها ، سُميت بذات النطاقين ؛ لأنها صنعت للنبي صلى الله عليه وسلم – طعاماً حين هاجر إلى المدينة ، فلم تجد ما تشده به ، فشقت نطاقها وشدت به الطعام، توفيت سنة ٧٣هـ (

أنظر : ١- الأعلام : خير الدين الزركلي ، ٣٠٥/١ ، دار العلم للملايين، ط ١٥ ، بيروت – لبنان، أيار – مايو ، ٢٠٠٢م

٢- وفيات الأعلام : ٦٩/٣) .

(٣) . فيه إشارة إلى خبر أسماء مع ابنها عبدالله بن الزبير – رضي الله عنه – في حصار مكة ، والحوار الشهير الذي دار بينهما قبل مقتله. وكان مما قال لها : " يا أماه قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ، فلم يبق معي إلا اليسير وممن ليس عنده أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك؟ قالت : أنت والله يا بني أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو ، فامض له فقد قُتل عليه أصحابك ، ولا تمكنن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا ، فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قُتل معك ، وإن قلت : (كنت على حق ، فلما وهن أصحابي ضعفت) فهذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين !! كم خلودك في الدنيا؟! القتل أحسن. فقال : يا أماه ، أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني ، قالت : يا بني إنّ الشاة لا تتألم بالسلخ ، فامض على بصيرتك واستعن بالله.

فقبّل رأسها ، وقال : هذا رأيي والذي خرجت به دائباً إلى يومي هذا ، ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله وأن تُستحل حرماته ، ولكني أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتني بصيرة ، فانظري يا أماه فإني مقتول في يومي هذا ، فلا يشتد حزنك وسلمي الأمر إلى الله فإن ابنك لم يتعهد إيثار منكر ..." ثم طلبها أن تدعو له فكان مما قالته : " اللهم ارحم طول ذاك القيام في الليل الطويل ، وذلك النحيب ، والظمأ في هواجر مكة والمدينة ، وبره بأبيه وبي ، اللهم قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت فأثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين"

فخرج وهو يقول :

إني إذا أعـــــرف يـــــومي أصـــــبر وإنمـــــا يعـــــرف يومـــــه الحـــــر

إذ بعضهم يعرف ثم ينكر

فسمعته فقالت : تصبر _ إن شاء الله _ أبواك أبوبكر والزبير ، وأمك صفية بنت عبدالمطلب . (أنظر : الكامل في التاريخ : ٤١/٤ ، و مابعدها) .

(١٠٣)

تَأسّـــي ! كفـــاكِ اللهُ مـــا تحذرينـــهُ ، فقـدْ غَـالَ هـذا النَّـاسَ ، قَبْلـكِ غُـولُ!

وكُـوني كَمَـا كَانـتْ بـ"أُحدٍ" "صـفيَّةٌ"[١] ولـم يُشْـفَ منهـا بالبكـاءِ غَليـلُ!

ولـو ردَّ يومـاً "حمـزةَ الخيـرِ"[٢] حُزْنَهـا إذاً مـا عَلتْهـا رنَّـةٌ وعَويـلُ[٣]

ولكنّ أمه ماتت بصبرها بعد أن فتكت الحسرة بقلبها وعاش أسيرها بحسرته وألمه ، وقد

---

(١) . هي صفية بنت عبدالمطلب بن هشام ، عمة النبي –صلى الله عليه وسلم– أسلمت قبل الهجرة ، وهاجرت إلى المدينة ، و هي شاعرة باسلة وتوفيت سنة ٥٠هـ .(انظر : الأعلام ٢٠٦/٣) .

(٢) . هو حمزة بن عبدالمطلب بن هاشم من قريش عم الرسول – صلى الله عليه وسلم – أحد صناديد قريش وسادتهم في الجاهلية والإسلام ولد سنة ٥٤ق هـ ، ونشأ بمكة وكان أعز قريش وأشدها شكيمة ، قُتل يوم أُحد سنة ٣هـ . (انظر : المصدر نفسه :٢/٢٧٨).

(٣) . إشارة إلى موقفها في استشهاد شقيقها حمزة حين قتله وحشي بحربته ، وقد حكى وحشي للرسول صلى الله عليه وسلم – نبأه مع حمزة يقول : " إني والله لأنظر إلى حمزة وهو يهذ الناس بسيفه هذاً ، وما يلقى شيئاً يمر به إلا قتله ، وقتل سباع بن عبدالعزى . قال : فهززت حربتي ، ودفعتها عليه ، فوقعت في ثنته حتى خرجت من بين رجليه ، وأقبل نحوي فغلب فوقع ، فأمهلته حتى مات ، جئت فأخذت حربتي ، ثم تنحيت إلى العسكر" ، يقول وحشي فلما فرغت من حديثي قال الرسول صلى الله عليه وسلم :" ويحك غيّب عني وجهك فلا أرينك " ! يقول: "فكنت أتنكب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – حيث كان لئلا يراني حتى قبضه الله – صلى الله عليه وسلم " ، وقد لاكت كبد حمزة – رضي الله عنه – هند بنت عتبة ، فلم تستطع أن تسيغها ؛ فلفظتها.

و أقبلت شقيقته صفية لتنظر إليه ، فقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم – لابنها الزبير القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها. فقال لها : يا أمه ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم – يأمرك أن ترجعي. قالت :ولم ؟ وقد بلغني أن مُثلّ بأخي ، وذلك في الله. فما أرضانا بما كان من ذلك ! لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله – ! فلما جاء الزبير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم – فأخبره بذلك قال : خل سبيلها . فأتته فنظرت إليه واسترجعت واستغفرت له.

ولما رأى المسلمون حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيظه على من فعل بعمه ما فعل فقد وجد في بطن الوادي قد بُقر بطنه عن كبده ومُثّل به ، فجدع أنفه وأذناه قالوا : " والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مُثلة لم يمثلها أحد من العرب .

فأنزل الله في قول الرسول الله صلى الله عليه وسلم وقول أصحابه : " وإنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بمثلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ ولَئِنَ صَبْرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابِرِينَ(١٢٦) و اصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلا باللهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ في ضَيْقٍ ممّا يَمْكُرُونَ(١٢٧)". سورة النحل

انظر :١- الكامل في التاريخ : ٢/١٤٠

٢- تهذيب سيرة ابن هشام : عبد السلام هارون : ص ١٨١ ، و ما بعدها ، دار إحياء التراث العربي ، (ب ٠ط) ، بيروت – لبنان ، (ب ٠ ت)

تفجّع عليها تفجعاً لم يلحظ في مرثياته – وهي قُلّ – ولم يملك من أمره شيئاً إلا أن يدعو بالسحائب أن تجود على قبرها ؛ ليصبح جدثاً رياناً من ماء المزن ، أما الركبان ؛ فلن يجدوا بعد هلاكها من يرصدهم ويناشدهم ويرقب البشير ، يقول[١] :

أيـــا أُمَّ الأســـيرِ، سَـــقَاكِ غَيْـــثٌ ، بِكـــرْهٍ مِنـــكِ مـــا لقـــيَ الأســـيرُ !

أيـــا أُمَّ الأَســـيرِ ، سَـــقاكِ غيـــثٌ ، تحيّـــرَ لا يُقـــيمُ ولا يَســـيرُ!

أيـــا أُم الأســـير ، ســـقاك غيـــثٌ ، إلـــى مَـــن بالفِـــدا يـــأتي البشـــيرُ؟

ولما ضاقت على الشاعر الدنيا بما رحبت ؛ آثر أن يحرم نفسه من كل طيبات الدنيا ومباهجها ، فنفسه عافت ذلك بعد أن نزل الموت بأمه وهي وحيدة مفردة ، يقول[٢] :

حـــرامٌ أنْ يبيـــتَ قريـــرَ عـــينٍ ! ولـــؤم أنْ يُلـــمّ بـــه الســـرورُ
وقـــد ذُقـــتِ المنايـــا والرَّزايـــا ، ولا ولـــدٌ لـــديكِ ، ولا عَشِـــيرُ
وغـــابَ حبيـــبُ قلبـــكِ عـــن مكـــانٍ ملائكـــةُ الســـماءِ بـــه حُضـــورُ

واستبكى الشاعر لأجلها الأيام والمساكين وأبناء السبيل وكل مظهر كان يمثل تقاها في الدنيا ، فليبك عليها ، فهي جديرة بذلك ، يقول[٣] :

ليبكـــكِ كُـــلُّ يـــومٍ صُـــمتِ فيـــه مُصـــابرةً وقـــد حَمـــيَ الهجيـــرُ !
ليبكـــكِ كُـــلُّ ليـــلٍ قُمـــتِ فيـــه ، إلـــى أَنْ يبتـــدي الفجـــرُ المنيـــرُ!
ليبكـــكِ كُـــلُّ مُضـــطهدٍ مخـــوفٍ أَجرْتيـــهِ ، وقَـــدْ قَـــلَّ المجيـــرُ !
ليبكـــكِ كُـــلُّ مســـكينٍ فَقيـــرٍ أغثتيـــهِ ، ومـــا فـــي العَظْـــمِ زِيـــرُ

وقد ماتت تلك الروح الطاهرة ، وهي مثقلة بهموم طويلة لم تُبّث ، وأسرار مصونة لم تبرح سويداء قلبها ، وآمال تتنفس كما يتنفس كل فجر ، إلا أنها لا تغرب مع غروب الشمس.

أما ابنها فأي هم سيشكيه ، وقد مات مُشكيه !!

---

(١) . الديوان : ٢/٢١٧

(٢) . المصدر نفسه : ٢/٢١٧

(٣) . المصدر نفسه : ٢/٢١٧

يقول[١] :

أيـــا أُمـــاهُ ، كَـــمْ هَـــمٍّ طَويـــلٍ مَضـى بِـكِ لـم يكـن مِنـهُ نصـيرُ ؟!
أيـــا أُمـــاهُ ، كـــمْ سِـــرٍّ مَصُـــونٍ بقلبـكِ ، مـاتَ لـيسَ لَـهُ ظُهـورُ ؟!
أَيـــا أُمـــاهُ ، كَـــمْ بُشـــرى بقُربـــي أتتـكِ ، ودُونهـا الأجـلُ القصـيرُ ؟!
إلـــى مَـــنْ أَشـــتكي ؟ ولمـــنْ أُنـــاجي ، إذا ضَـــاقت بمـــا فيهـــا الصـــدورُ؟

فما أعظم ذلك المصاب في دار قلّ فيها المواسي ، وعزّ فيها الصديق ، وجفل عنها الرفيق ...

ثالثاً : جوانب مضيئة في محنة الأسر:

أ–إحساس الشاعر بأنه أسير الروم الأثير:

وجد الروم صيدهم الثمين حينما وقع أبو فراس في قبضتهم ، وقادهم الأمر إلى الإحسان إليه ، وجَعْلِه أسيرهم الأثير ، وقد أكبروا بطولته وصراحته ونفسه العربية ، فأكرموه إكراماً لم ينله أسير قبله ، وأعطاه ملكهم " دار البلاط الامبراطوري" ، وهو قصر كبير على البحر ، وخصص له خادماً يقوم بأمره ، وخلى له الثياب والسلاح ، وكم بُذل له الفداء مفرداً ؛ فأبى إلا أن يكون ذلك مع الأسرى كافة[٢].

ولم تغيّر هذه المزايا في بادىء الأمر واقع الأسر ، ولم يقتنع بذلك ، بل اعتبرها مِنّة مرفوضة ، وإحساناً قبيحاً ؛ لذلك لم يشكر فضلهم ؛ بل جادلهم جدالاً مريرا ، فإن أبقوا له سلاحه وثيابه ،فما تلون ثوبه إلا من دمائهم ، يقول [٣] :

يَمُنُّـــونَ أَنْ خَلّـــوا ثِيَـــابي ؛ وإنَّمـــا علـيّ ثيـابٌ ، مِـنْ دِمـائهُمُ ، حُمْـرُ

---

(١) . الديوان : ٢/٢١٧-٢١٨

(٢) . المصدر نفسه : ٢/ت١٣

(٣) . المصدر نفسه : ١/٢١٣

فلما مضت الأيام ، وتقلبت الأمور ، وظهر له الخير والشر ، وقاس الأمور بمقياس الحقيقة، وجد الخير في قلب الشر ، فإنْ قاسى لجة الأسر ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ؛ فقد وجد من أحبته ما هو أدهى وأمّر ؛ لأنه لم ينتظر من العدو إلا الشر ولا يخال منه شيمة ولا يطلب سجية ، أما أحبته فقبيح أفعالهم أعظم على نفسه من شؤم عدوه ؛ بل تعدى أثر ذلك إلى أن وصل إلى أن وضع (مفاضلة) وازن فيها بين العدو والصديق!!

يقول[١] :

أقمـــتُ بـــأرضِ الـــرومِ ، عـــامينِ لا أَرى مِـــنَ النـــاسِ مَحزونـــاً ولا مُتصـــنعَا

إذا خِفــتُ مِــنْ أَخــواليَ الــرومِ خُطَّــةً تخوّفــتُ مــن أعمــامي العُــربِ أَرْبَعَــا
وإنْ أوجعتنـــي مـــنْ أعـــاديّ شِـــيمةٌ لقيــتُ مــن الأَحبــابِ أَدْهَــى وأَوْجَعَــا

وبعد أن نظر في عواقب المكاره ، علم يقيناً أنّ المكاره لاتحّفُ إلا المكارم ، وأنّ الأزمات مصنع الرجولات ، وكانت النتيجة الحقيقية لأسره ، كما قال[٢] :

ولله عِنـــدي فـــي الإســـارِ وغَيْـــرِهِ مواهِبُ ، لم يُخْصَصْ بها أحدٌ قبلي !
حللــتُ عُقــوداً ، أَعجــزَ النَّــاسَ حَلُّهَــا ، ومـــازالَ عَقْـــدِي لايُـــذَمُّ ولا حَلّـــي

ويبدو أنّه رجع لنفسه وتذكر قول المولى عزّ شأنه : (ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَومٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ للتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[٣]).

فإن ذم الروم في جانب ، فلهم جانب آخر حفظه الشاعر لهم فاح فيه شذى الوفاء في موطن لايُرجى الوفاء فيه ، وانسابت شمائله التي مثلّت شيمة العربي المسلم .

يقول[٤] :

---

(١) . الديوان : ٢/ ٢٤٧
(٢) . المصدر نفسه: ٣٢٤/٢
(٣) . سورة المائدة ، آية ٨
(٤) . الديوان : ٣٢٤/٢

(١٠٧)

إذا عــاينتني الــرومُ كَفّــرَ[١] صِــيدُهَا[٢] كــأنّهُمُ أَسْــرى لَــديَّ وفــي كَبْلــي
و أُوسَـــعُ أيّـــاً ماحللـــتُ كرامـــةً ، كَــأنّي مــنْ أهلــي نُقلــتُ إلــى أهلــي
فقــلْ لبنــي عَمّــي ، وأبْلــغْ بنــي أبــي : بــأنّي فــي نَعْمَــاءَ يَشْــكُرُها مِثْلــي
ومــا شَــاءَ ربــي غيــرَ نَشْــرِ مَحَاسِــني وأَنْ يَعْرِفوا ماقد عرفتُ مِن الفضلِ

وربما تغيّرت نظرة الشاعر للأسر لأسباب عديدة أهمها:

– أنّ ما ذكره من سوء حاله في الأسر كان وسيلة للشكوى ، وإظهار الضعف ، ليرقَّ قلب الأحبة ، ويتنبه الغافلون ، ولكن عندما وزن الأمورلم ينطق إلا من منطق المسلم العربي الذي يفي ولا يغدر ، ويذكر ولا ينكر.

– إن شكا الشاعر من الصخرة التي كان يزلزلها ، والثياب الصوف التي لم يبدلها ؛فتلك صفحة مضت من ذكريات أسرياته في خرشنة ، ثم انتقل بعدها إلى القسطنطينية، وهناك اختلفت المعاملة عن أسره في خرشنة ، ومن ثم وضع الشاعر خرشنة في كفة والقسطنطينية في كفة ، فرجح لديه ما وجد في الثانية من إحسان ونعيم .

– وأخيراً الأسر فترة مضت عليه ، فما عليه أنْ يذكر محاسنها ، وقد نجا من الخوف الذي كان يحدق به وهو هاجس الموت بين يدي النصارى .
ومن ناحية أخرى انقطع عنه أجلّ آماله التي كان يؤملها ، وهو موت أمه التي رحلت ورحلت الأماني معها ... وما عليه إنْ عاش بعدها أسيراً وقد أخذ عهداً على نفسه أنْ يحرّم ملذات الدنيا بعدها ، وهولم يستجد الفداء إلا لأجلها !!

---

(١) . كفّر : التكفير لأهل الكتاب أن يُطأطىء أحدهم رأسه تعظيماً لصاحبه ، كالتسليم عندنا . (انظر : لسان العرب (كفر)) .

(٢) . صيدها : الأصيد ، الذي يرفع رأسه كبراً ، ومنه قيل : للملك الأصيد ؛ لأنه لا يلتفت يميناً و لا شمالاً . (انظر : المصدر نفسه : (صيد)) .

ب – مقابلة الأسر بالرضا والصبر:

يعتبر صمود الشاعر في مواجهته محنة الأسر منقبة عظيمة تضاف إلى مناقبه ، وسجية عظيمة عرضت صموده على خطب عظيم واجهه باختياره ، وصَبرَ على عقباته من ذلة ،

وفقد أحبة ، ولم يكن ذلك الصبر ضعفاً واستكانة ؛ بل كان صبراً على أمور يعجز الصبر عنها ، دون أن يذله الخطب ، أو يؤثر عليه البأس ، وكأنه يُعمّي على الناس حقيقة ما هو فيه ، أهو في سراء أم ضراء ؛ لأنه شاكرٌ صابر ، في جميع حالاته ، وهو القائل[1] :

وأَصْبرُ، ما لم يُحْسَبِ الصبرُ ذِلَّةً ، وألبسُ للمذموم ، حُلَّةَ حَامِدِ

وربما أدرك الشاعر أنه بلغ من الصبر غايته ؛ لأنه عاهد نفسه عليه ، ووطنها على المكاره حتى وإن كانت هلكته فيه .

يقول[2] :

صبورٌ ولو لم تبقَ مِنّي بَقيَّةٌ قؤولٌ ولو أَنَّ السيوفَ جَوابُ

وقد كاد يصل اعتداده بصبره إلى إحساسه بأنه أصبر الناس ، وأنه لا يوجد أحد يُطيق مثل ما أطاق ، فمن كان يحتمل الأسر بروح معنوية عالية ، حريٌ أن يُضرب المثل به في الصبر، فمَنْ أصبر من أبي فراس ؟!

وكان مما كتبه إلى غلاميه فاتك ومنصور قوله[3] :

قناتي على ما تعلمانِ شديدةٌ وعُودي ، على ما تعلمانِ ، صَليبُ
صبورٌ على طيِّ الزمانِ ونَشْرِهِ ، وإنْ ظَهرَتْ للدَّهرِ فيّ نُدُوبُ
وإنَّ فتى لم يكسرِ الأَسرُ قَلْبَهُ وخَوْضُ المنايَا جِدَّهُ لنَجِيبُ

فاستخدام الشاعر لصيغة المبالغة (صبور) في أكثر من مرة ، دليل على عظم بلواه التي كان

---

(١) . الديوان : ٨٢/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٢٢/٢

(٣) . المصدر نفسه : ٤٨/٢

يُتابعها بصبر تلو صبر ، ومن الواضح أنّ الشاعر كان راضيا عن نفسه ؛ لأنه لم يكن فريسة الخطوب ؛ بل بذل لها أكثر ما بوسعه أن يبذله ، فالصبور مَنْ تحمّل الألم والجراح والأسر مثله... فأي قلب يطيق ذا ؟ !! إنه بلاشك رجل شدائد ، ولا يفل الحديد إلا الحديد ، يقول[1] :

مُغْـــرَمٌ ، مُـــؤلَمٌ ، جَـــريحٌ ، أَســـيرٌ إِنَّ قلبـــاً يُطيـــقُ ذا ، لصـــبورُ
وكثيـــرٌ مِـــنَ الرِجَـــالِ حَديـــدٌ وكثيـــرٌ مـــن القُلـــوبِ صُـــخُورُ

ولكن ذلك الصبور ، الذي كان يجاهد نفسه ليخفف من وطأة الأسر ، لم يخرج عن نطاق البشر ، وطاقته البشرية محدودة ؛ فإن كان "صبوراً " في ظاهره ؛ فإنه "مجزاع" في باطنه ، وهذا لايقلل من شأن صبره ؛ بل يُثبت أنّ نفسه مهما أُوتيت من قوة تحمّل ؛ فهي تخاف وتجزع ، وتألم وتحزن ؛ ولكنه لبس للخطوب دروعاً من الصبر لا تفنى حتى يفنى عزمها.

واتضح هذا الأمر حين كتب الشاعر إلى أبي الهيجاء[٢] يعذله على عظيم ما لحقه عند أسره من الجزع ، فكان مما قاله[٣] :

أتـــاني مَـــعَ الرَّكبـــانِ أَنّـــك جـــازعٌ وغَيـــرُك يخْفَـــى عَنْـــهُ للهِ واجـــبُ
ومـــا أنـــتَ ممـــن يُســـخطُ الله فِعلُـــهُ وإنْ أَخـذتْ مِنـكَ الخُطـوبُ السَّـوالِبُ
وإنّـــي لمِجـــزاعٌ خَـــلا أَنَّ عَزْمـــةً تُـــدافِعُ عَنّـــي حَســـرةً وتُغالِـــبُ

كما أنه كان يكشف الصورة الداخلية لتلك النفس ، فكما تبدو صامدة ثابتة لا تنوشها الخطوب ، فهي نفس بشرية ، تحب الحياة وتتشبث بآمال نسجتها في مهب الريح ، فإذا ما عصفت بها الأماني ، تذبذبت مع تبدل الأقاويل ، ومن ذلك ما وصَفَ به حاله التي

---

(١) . الديوان : ٢٠٥/٢

(٢) . أبو الهيجاء هو حرب بن سعيد بن حمدان التغلبي ، أخو أبو فراس ، اشتهر بالكرم والشجاعة ، توفي سنة ٣٨٢هـ . (الأعلام : ج ١٧٣/٢) .

(٣) . المصدر نفسه : ٣٣/٢

أضحت ضحية الأسقام نتيجة ما مُنّي به من حياة ، يقول[١] :

ومَـــا أنَـــا إلا بـــينَ أَمْـــرٍ وضِـــدِّهِ يُجَـدَّدُ لـي ، فـي كُـلِّ يـومٍ ، مجـدَّدِ
فمِـنْ حُسـنِ صَـبْرٍ بالسـلامةِ ، واعِـدِي ومِـنْ رَيْـبِ دَهْـرٍ بـالرَّدى مُتَوعِـدِي

ومن الطرق التي كان الشاعر يتّبعها مع نفسه لحضّها على الصبر ، وتشجعيها على ذلك ، تذكيرها بأن الجزع عيب عظيم ، ومثلبة تسم صاحبها وتغري عدوه للشماتة به، يقول[٢]:

ومَـــــا هـــــذهِ أَدْمُعـــــي ، ولا ذَا الـــــذي أُضْـــــمِرُ
ولكـــــنْ أُداري الـــــدُّمُوعَ وأَسْـــــتُرُ مَـــــا أَسْـــــتُرُ
مخافَـــــةَ قـــــولِ الوشَـــــا ة : مِثلُـــــكَ لا يَصْـــــبِرُ

والتفكير في الحياة في لجة البحر ؛ شَغْلٌ عن التفكير في الغرق ، والتفكر في منح الله التي أبقى بها على عبده المصاب ؛ شغْل عن التفكر في الخطوب ، يقول[٣] :

مـــالي جَزِعْـــتُ مِـــنَ الخُطُـــوبِ وإنّمـــا أخـــذَ المهـــيمنُ بعـــضَ مـــا أَعْطَـــاني
ولقـــد ســـررتُ كَمَـــا غَممـــتُ عَشـــائِري زمنـــاً وهَنَّـــاني الـــذي عَزَّانـــي

يتضح أنّ الشاعر تألم و رضي ، و جزع و أمن ، و جاهد نفسه على أن يرضى بهذا القضاء ، و تفكر ملياً بقسمته ، فإنْ حُرم ؛ فقد أُعطي الكثير ...

---

(١) .الديوان : ٧٨/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٢٠٦/٢-٢٠٧

(٣) . المصدر نفسه : ٤٠٨/٢

الفصل الثاني

العتاب والشكوى في شعر أبي فراس

دراسة موضوعية

المبحث الأول : امتزاج العتاب والشكوى في شعره

المبحث الثاني : محاور العتاب والشكوى:

١. الأمير الفارس يعاني ذل الأسر.

٢. مرارة الغربة.

٣. المرض.

٤. الشوق والحنين.

٥. الخذلان

المبحث الأول : امتزاج العتاب بالشكوى في شعره

أولاً: طبيعة العتاب:

ينبعث العتاب من نفس العاتب عند شعوره أنّ خللا ما حدث في علاقته بالمعاتب- بصرف النظر عن صدق تلك الجناية وكذبها وحجمها – و يتحدد العتاب من منزلة المعَاتب وقدره لدى العاتب ، و لا يمكن أن يخضع العتاب إلى مقياس ثابت محدد ، فقد يكون الذنب الواحد هفوة يسيرة و جريرة عظيمة ، والعلاقة القائمة بين الطرفين هي التي تخلع على صاحبها ما يستحقه.

وتحدد فلسفة الشاعر الخاصة به موقفه من العتاب فالزمان والمكان والقرب والبعد ، تُعظّم الحقائر ، وتُحقر العظائم ويحكم في ذلك أيضاً تقلبات النفس التي لا تستقر على وتيرة واحدة ، وقبل ذلك كله لم يتعدَ ما فرضه خُلقه عليه في أمر العتاب ، فقد كان فضله يغمر المسيء وإحسانه يعقب جناية الخليل ، لأنّ الشاعر صاحب مروءة ألزمته الترفع عن الدنايا وتتبع الخطايا ، فلئن زل الحبيب و عثر ، فلكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة.

وقد يُجرح الوداد ، لكن الجرح لا يبرأ إلا في السليم ، والسقيم من دام جرحه ، ومن كان يعرف أبا فراس ، لم يجهل شمائله التي أغرت به أصحابه ، يقول[1] :

ما كُنْتُ مُذ كُنتُ إلا طَوعَ خُلاّني ... لَيْستَ مُؤاخَذةُ الإخوانِ من شَاني

يَجني الخليلُ فأستحلي جِنَايَتَهُ ... حتّى أدُلَّ على عَفوي وإحساني

ويُتبِعُ الذّنبَ ذَنباً حينَ يَعرفُني ... عَمداً ، وَأُتبِعُ غُفراناً بغُفران

يَجني عَلَيّ وأحنو، صَافحاً أبَداً، ... لا شيءَ أحسنُ منْ حانٍ على جانِ

---

(١) . الديوان : ٢/٤٠٥

وهنا يأتي التساؤل :

يحتل العتاب على الخلان نصيباً كبيراً ، وحظاً وافراً في ديوانه ، فأين الصفح والعفو الذي ادعاه في الأبيات السابقة؟

يتضح من ديوان الشاعر أنَّ عتابه منزلة سبقت صفحه ، فهو يعتب ويعتب ، ثم لا يجد في نفسه غضاضة على خلانه ، فعتابه أشبه بنسمة باردة ، تنبه الوسنان ، ولا تطرد النوم عنه ، والأبيات السابقة بررت الغرض من عتابه وهو حفظ الوداد.

و أكثر الشاعر من قرن عتابه بالوداد ، فلا يجتمعان سوياً إلا إذا كان هناك تضحيات من أحدهما ، ودائماً تكون هذه التضحيات من نصيب الشاعر لأنه وفا إذ غدر الخلان ، ووصل إذ قطعوا ، وأقبل إذ أجفلوا ، يقول[1] :

ولما تخيرتُ الأخلاءَ لم أجدْ صَبُوراً على حفظِ المودةِ والعهدِ
سليماً على طيِّ الزمانِ ونَشرِهِ أمِيناً على النجوى صحيحاً على البُعدِ
ولما أساءَ الظنَّ بي مَنْ جَعلتُهُ وإيَّايَ مثْلَ الكفِّ نِيطَتْ إلى الزَّندِ[2]
حَملتُ إلى ضَنّي بِهِ سُوءَ ظنّهِ وأَيقنتُ أنّي بالوَفا أُمةٌ وَحدِي
وَأنَّي علَى الحَالينِ في الَعتْبِ والرِّضَى مُقيمٌ على ما كانَ يَعرِفُ مِن وُدي

و كان يجد في العتاب أحياناً تنفيساً عن نفسه ومشاطرة المعَاتب للعاتب هموم الدنيا و أوصابها ، ولا تعيب تباريح النفس العتاب في أمر ما!! بل هي دليل الوداد المحض ، ولولا الثقة وحسن الظن في المعَاتب ، ما تجرأ العَاتِب على إفشاء ما يجده في نفسه من ألم وقهر تمنى زوالهما ، لأن كتمانهما كان يوّلد الضغائن ، ويسيء الظن في كل من الطرفين.

---

(١) . الديوان : ٢/٩٢- ٩٣

(٢) . الزند : موصل طرف الذراع في الكف . (لسان العرب (زند)) .

و تُعتبر المكاشفة وإيضاح الحال وإطلاع العاتب على أثر جفوته في الفؤاد ، أمر يثلم حد العتاب ، و هذا ما فعله الشاعر حين قرعه سيف الدولة فكان مما أجابه :

تَنكّرَ "سيفُ الدينِ" لمَّا عَتَبْتُهُ وَعرَّضَ بي ، تَحتَ الكَلامِ ، وقرّعَا
فقُولا لهُ: مِنْ أصْدَقِ الوُدّ أنّني جَعَلتُكَ مِمّا رابني، الدّهرَ مفْزَعَا

وَلــوْ أننّــي أكْنَنتُــه فــي جَــوَانِحي لأوْرقَ مــا بــيْنَ الضُّــلُوعِ وفَرّعــا[1]

ومن دواعي عتابه أيضا الاستمتاع في عتاب خليله عتاباً جائراً عن عتابه الحقيقي بصبغته المتعسفة والمتعنتة ؛ لما يجده العاتب من لذة في إطراق مُعَاتبه له ، ولمعرفة قدر الوداد ومدى التقدير والإجلال الذي كان عاتبه يكنه له.

يقول:

ومُغــضٍ للمهابــةِ عــنْ جَــوابي! وإنّ لِســانهُ العَضــب[2]الصّــقيلُ

أَطلْــتُ عِتابَــهُ عَنَتــاً وظُلمــاً فُجَمجَـم ، ثـمّ قـال: "كمـا تقـولُ[3]

و يشبه ذلك ما كتبه إلى سيف الدولة بعد أن عتب عليه ثم رضي:

و لــي مــوْلىً أســأتُ إليــهِ جُهــدي فحمّــلَ حِلمــهُ مَــارَابَ مِنّــي

وأَكْثَــرَ فــي العتــابِ علــى ذُنُــوبي فَيطلُــبُ عِلــةً للّصــفح عنّــي

وَأبطــلَ كُــلَّ ظــنٍّ بــي قبــيحٍ لحُسَّــادي وحقّــقَ حُســنَ ظَنــيّ

فــإنْ أُحْوَجْــتُ عَتْبــاً، بعــد هــذا ، فــلا خُلّصَـتُ مـن عَتْـبِ التجنّـي ! [4]

---

(١) . الديوان : ٢٤٨/٢.

(٢) . العضب : لسان عَضبٌ : ذليق . لسان العرب: (عضب) .

(٣) . الديوان : ٣١١/٢

(٤) . المصدرنفسه : ٤٢١/٢

(١) مزايا عتاب الشاعر:

في حين أنَّ أبا فراس يرى في العتاب حفظ الوداد ، ودوام الألفة ، وتجديد الصحبة، فإنَّ له رؤية خاصة تغرز دعائمه وتحفظ أهدافه وتبقي عهد المودة..

وأبرز ما يلزم ذلك ، لزوم أدبه ، فعتاب الشاعر ، ودٌ ما بقي سراً مصوناً ، وحديثاً مكتما ، فإنْ خرج عن ذلك ، فهو توبيخ وتقريع ، والنفس تملُّ فرط النقد ، وتنفر من اللوم أمام الناس ؛ لأنَّ أدب العتاب أشبه ما يكون بأدب النصح الذي أشار إليه الإمام الشافعي يرحمه الله في قوله:

تعمدني بنُصحِكَ في انْفِرَادِي وجَنِّبني النصيحةَ في الجماعهْ
فإنَّ النُّصْحَ بينَ النَّاسِ نوعٌ من التَّوبيخِ لا أَرضَى اسْتِمَاعَهْ
وإنْ خَالَفْتَني وعَصِيتَ قَوْلي فلا تجزعْ إذا لم تُعطَ طاعهْ (١)

و يحسن الحاذق الفطن الذوق في العتاب ؛ لأنه يلزم أدبه في حُسن اختيار الزمان والمكان المناسبين له.

و كان أبو فراس يتجنب العتاب أمام أعين الناس ؛ فالعتاب أمامهم يهيئ تربة خصبة لبذر أقاويل الوشاة ؛ لذا كان يغيب عنهم مشهد العتاب ، فإذا ما ظهر لهم فلا يُرينّهم إلا الثناء على المعاتَبِ وإبراز فضائله.

يقول في ذلك(٢) :

وأكرهُ إعلامَ الوُشَاةِ بهجرِهِ فَأَعْتبُهُ سِراً ، وأشكُرهُ جَهْرا ،

و ذكر أيضا في موطن آخر (معادلة) العتاب الطبيعية التي أعدها ، وهي الموجدة قصيرة

---

(١) . ديوان الإمام الشافعي : ص٩٦

(٢) . الديوان ١٩٣/٢

الأمد التي لا تلبث إلى أن تتحول إلى عتاب خفي ، فإذا ما انجلى ذلك الليل ، آل العتاب إلى قصيد مدح وثناء على ذلك الصديق ، يقول(١) :

وإذا وجدتُ على الصديقِ شكوتهُ سِرَّاً إليهِ وفي المحافِلِ أَشْكُرُ

(٢) حَذق الشاعر في الإعتاب:

يعتبر إعتاب الشاعر رد فعل قوي ، عزز عتابه وقواه ، وصدّق صحة ما ادعاه في غرضه من العتاب ، ولكن الإعتاب يحتاج إلى حذق في اختيار أقرب وسيلة تقرب بين الطرفين ، وتوصل المقصود بأدب ولطف أو ما تقتضيه الضرورة.

ومن أبرز سمات إعتابه :

- التفاعل الكبير مع العاتب :

لم يكن الشاعر يسمع إلا من منصف ولم يأخذ إلا عن ثقة؟ وتحري الدقة في هذه الأمور هو الذي يحدد التأثر بالعتاب ، يقول[٢] :

ولولا اجتنابي العَتْبَ مِنْ غَيْرِ مُنْصفٍ لما عزّني قولٌ ، ولا خَانَ خَاطِرُ !

- مجاراة العاتب في الرأي :

وفيها يحاول الشاعر أن يرفع تهمة العاتب التي وجهها إليه ، وإن لم تتضح الحقيقة للعاتب؛ فإن الشاعر يعتذر عن جرم برئت نفسه منه ، تنازلاً وكرامة ،كما فعل حين نفى عن نفسه مثلبة الغدر التي برئت شمائله من التدنس بها ، فإن قبل العاتب بذلك ، فبها ونعمت وإن كان غير ذلك ، فالأولى به أن يقبل اعتذاره ، يقول[٣] :

فديتُكَ ، ما الغْدرُ مِنْ شِيَمتي قَديماً ، ولا العَجزُ مِنْ مَذْهبي !

---

(١) .الديوان : ٢/٢٣٠

(٢) . المصدر نفسه : ٢/١٢٣

(٣) . المصدر نفسه : ٢/٥٣

وَهَبْني كَما تدّعي مُذْنباً! أَمَا تقبلُ العُذرَ مِنْ مُذنبِ ؟

- تَرْكُ الإعتاب ، تقديراً وإجلالاً:

لم تغب عن شاعرناالحجج المقنعة ، ولم ينقصه الرد الحاضر وسرعة البديهة ؛ ولكن مقام العاتب أحياناً يفرض على الشاعر الإطراق والخضوع بين يدي عاتبه ؛ لأنه يحفظ المعروف ويقر بالجميل ، ويظل الموقف حكم الإعتاب ، فمثلاً سيف الدولة له أرفع مقام وأجلُّ احترام ، ولكن الشاعر كان يعتب عليه بعنف ويُعتبه بغلظة أحياناً وأحياناً أُخرى، لا يكون سوى ذلك الابن (الذي أغضى على ألم لضرب الوالد)[1] ومن ذلك ما كتبه إلى سيف الدولة [2] :

أيا عاتباً ، لا أحْمِلُ ، الدهرَ ،عَتْبهُ علـيّ ولا عنـدي لأنعُمـهِ جَحْـدُ

سأسكتُ إجلالاً لعلِمك أنّني إذا لم تكُنْ خَصمي لي الحُجُجُ اللّدُّ[3]

والفرق بين هذه وما سبقها ، أنَّ الشاعر في الأولى يُعتب بلطف ثم ينزل عند رغبة العاتب، ليرغمه بأدب على الانصياع والقبول ، لأن الشاعر أثبت أنه صاحب فضل وكرامة ، و دعّم الموقف و قوّاه احترامه للعاتب .

وأما الأخرى ، فهي قوة وإن كانت صمتاً ، فالشاعر لم يصمت عندما عوتب ؛ ليوهم أنه صاحب حجة داحضة ، بل أخبر العاتب أنه سيصمت تأدباً للعاتب على رغم ما عُرف عنه من شدة الخصومة ، وما ملكه من غلبة الجدال .

وفي الأمرين تظهر نجابة الشاعر ، وشدة ذكائه في اختيار الطرق التي تحفظ الوداد وتديم المحبة ، وتصل إلى قلب العاتب بألطف الحِيَل ، قال مجيباً لعتاب أبي زهير[4] :ـ

---

(١) . وفي ذلك يقول : فصبرت كالولد التقي لبره أغضى على ألم لضرب الوالد

(الديوان٢/٧٣) .

(٢) . نفسه : ٢/٩٧

(٣) . اللد : يقال رجل ألد : بيّن اللدد شديد الخصومة ، ولددت فلاناً ألده إذا جادلته، فغلبته .

(أنظر : لسان العرب (لدد)) .

(٤) . الديوان : ٢/٢٥٧

أيا ظالماً ، أمسى يُعاتبُ منصفا! أتُلزمُني ذنبَ المسيءِ تعجْرُفا؟

بدأتَ بتنميقِ العِتَابِ ، مَخَافةَ الـ عِتابِ ، وذكِري بالجفَا ، خشَيةَ الجفَا !

أُوافي ، على عِلاَّت عَتْبِكَ ، صابراً وأُلفَى ، على حالاتِ ظُلمِكَ مُنْصِفَا

ولكن ذلك لا يخرجه عن سجيته التي عرفها به القاصي والداني ، فما زال يحلم عن غير جهل ولم يعفُ إلا عن مقدرة ، ولا يضر عفوه وإحسانه أن يستل منه ما يبدي للعاتب أنه غير غافل عن حِيلِهِ ، ولكن من كرم الأخلاق أن تعالج الأمور بحكمة وأن تقابل الإساءة بالإحسان، ليدوم الوئام ويُحفظ الوداد ،يقول[1]:

وكُنتُ ، إذا صافيتُ خِلاً منحتُهُ ... بهجرانهِ وَصْلاً ، ومِنْ غَدْرِهِ وَفَا

فهيّجَ بي هَذا الكتابُ صبابةً ، ... وجَدّدَ لي هذا العِتابُ تأسُّفا

فإنْ أَدْنَتِ الأيامُ داراً بعيدةً ... شَفَى القلبَ مظلومٌ مِنَ العَتْبِ واشتَفَى!

فإنْ كُنْتُهُ أقْررت بالذَّنبِ ، تائِباً ... وإنْ لم أكُنْ أمسكْتُ عَنْهُ ، تَأَلّفَا!

- إظهار السرور بالعتاب لأنه دليل الوصال:

العتاب رسول الألفة بين المتحابين ، ودليل الوداد مهما حمل بين دفتيه من شدة وغلظة ، فهو لاينذر بشؤم في حقيقة أمره.

و تسبق الفرحة بوصول الكتاب مرحلة القراءة ، ولا يدخر الشاعر تلك المشاعر، ولا يخفي الفرحة بل يُشعر العاتب بتلك السعادة ، ومن الذين فرح الشاعر بعتابهم ابن ورقاء[2] فقد كان عتابه على الشاعر أنقى من الماء القراح ، وأرق من النسيم ، يقول في ذلك[3]:

---

(١) . الديوان : ٢٥٨/٢

(٢) . هو أبو أحمد عبدالله بن ورقاء الشيباني ، من رؤوساء عرب الشام وقوادها ، والمختصين بسيف الدولة ، أديب شاعر جواد ممدح . (أُنظر: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر : ١٢٢/١) .

(٣) . الديوان : ٦١/٢-٦٢

أتاني مِنْ "بنَي وَرْقَاءَ" قَوْلٌ ... أَلَذُّ جَنىً مِنَ الماءِ القَرَاحِ

وأَطْيَبُ مِنْ نَسيمِ الرَّوضِ حَفَّتْ ... بِهِ اللَّذَاتُ مِنْ روحٍ وراح

وتبكِي في نَوَاحِيهِ الغَوَادِي ... بأَدْمُعِهَا ، وتَبْسِمُ عَنْ أَقَاحِ[1]

فهذا إشعار بالظاهر ، ونقل حي لمظاهر السعادة والامتنان على الوصال ، ثم انتقل الشاعر إلى الباطن وهو المحتوى الأليم الذي لم يُنذَر به جرم سابق ولم يُسبق بخطيئة ، فما الذي استوجب العتاب؟

لا يخرج ذلك العتاب عن كونه أحد أمرين: الأول : ظن ، والآخر : هزل.

فإن كان الأمر الأول ، فحسبه : " إنّ بَعْضَ الظّنِ إثمٌ"[٢]

وإن كان الآخر: فرب جدّ جره مزاح[٣]، يقول[٤] :

عِتَابُكَ يابنَ عَمٍّ بِغَيْرِ جُرْمٍ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ وَخْزِ الرِّمَاحِ

ومَا أَرْضَى انْتِصَافاً مِنْ سِوَاكُمْ وأُغْضِي مِنْكَ عَنْ ظُلْمٍ صُرَاحِ

أَظَنَاً ، إنَّ بَعْضَ الظّنِ إثمٌ! ومَزْحاً ؟ رُبَّ جِدٍ في مُزَاحِ !

- جفاء العاتب لا يغير شيئاً من شيم الشاعر:

لايعتب العاتب حين يعتب وهو ناو الفراق ، وهي حقيقة لا تخفى على المعَاتَب ؛ بل يحاول الآخر جاهداً في إعتابه ، أن يطيّب نفس العاتب ويشعره أنَّ الوداد باق ، لا

---

(١) . أقاح : جمع أقحوان: وهو من نبات الربيع مُفَرَّض الورق ، دقيق العيدان له نور أبيض (انظر : لسان العرب : (قحا)) .

(٢) . سورة الحجرات ، بعض آية ١٢.

(٣) . يقول أبو العتاهية في أرجوزته الشهيرة:

إنّ الفسادَ ضِدّهُ الصّلاحُ ؛ ورُب جِدٍّ جَرّهُ المُزاحُ . (ديوان أبي العتاهية : قدم له وشرحه : مجيد طراد ، ص٤٤٤ ، دار الكتاب العربي ، ط٣ ، بيروت – لبنان ، ١٤٢٠هـ –١٩٩٩م) .

(٤) . الديوان : ٦٢/٢

يغيّره جفاء ، ولا يزعزعه جور قول أو طيش فعل ، وإلا فما فضل الكريم على اللئيم؟!وشاعرنا تعظه سجاياه أن يكون من الجاهلين ، وتأبى عليه شيمه وأخلاقه أن يحيد

ولو في الضيق . وأثبت ذلك مواقف عظيمة شهدت له ، منها ما حصل حين عُرضت على سيف الدولة خيوله وبنو أخيه وبنو عمه حضور ، وكلٌ اختار منها وطلب حاجته ، وأمسك هو ، فعتب عليه سيف الدولة ، ووجد من ذلك وتكلم ، فبلغ أبا فراس ذلك ، فأجاب[1] :

غَيــــري يُغيّــــره الفَعَــــالُ الجَــــافِي ويَحُــولُ عــن شــيمِ الكَــرِيمِ الــوافي

لا أرْتَضــي وُدّاً ، إذَا هُــوَ لَــم يــدُمْ عنــد الجفــاءِ وقِلَّــةِ الإنْصَــافَ

ثم شرع في سياق الحجج المقنعة والأدلة الواضحة التي تؤيد فعلته ، وبقية القصيدة تلفظ بالثقة بالنفس وحضور الرد.

و كان يعظم على الشاعر جفاء الأحبة وصدودهم ، ولكن حكمته غلبت الموقف، وعالجته بلطف خفي ، يُظهر شدة ألمه من تلك الجفوة ويسارع بالصفح والغفران. يقول[2]:

قُــل لأَحْبَابِنَــا الجُفــاةِ: رُوَيــداً! دَرِّجونَــا علــى احتمــال المَــلالِ !

إنّ ذاكَ الصــدُودَ مــن غيــرِ جُــرمٍ لــم يــدعْ فــيَّ مطْمعــاً بالوصــالَ

أحســنوا فــي فِعَــالَكُم أو أســيُئوا ! – لا عَــدِمْناكُمُ علــى كُــلِّ حَــالِ! –

وهذه طريقة رائعة في العتاب ، إذ تجعل المعَاتَب مرغماً على الوصال ، لأن العاتب أعطى النتيجة النهائية لذلك الصدود ، ولم يخفق أدنى إخفاق فيها.

ودفع الإساءة بالإحسان يُلزم الجفاة الحياء من العاتب ، لأنه الأفضل ولا ينازعه في ذلك منازع.

---

(١) . الديوان : ٢/٢٥٦

(٢) . المصدر نفسه ٢/٣١٠

– عفو الشاعر لا يصل إلى حد الإغراء به:

لئلا يُفسر العفو بالضعف ، والتسامح بالجبن ، والحلم بالعجز وقلة الحيلة ، لابد من إيجاد طريقة يميز فيها العاتب حقائق الأمور من أشباهها وهذه حنكة لا تنقص أبا فراس الذي ،كان يدرس نفسية العاتب وحقيقة عتابه.

فإن كان العاتب ممن يرى أن الهجوم خير وسيلة للدفاع ، فالشاعر يميّز ذلك ، ويحاسب عاتبه حساباً يسيراً ، يحفظ حق كل منهما.

وإنصاف المعتوب عليه لنفسه من كيد العاتب قوة تدحر اللئيم ، فلا يطعمنّ بعفوه، كما أنها تدني الكريم ، فلا ينقض الوداد ، ولسان حاله يقول :"إني لست بخَبٍ ، و الخِب لا يخدعني[1]".

(٣). أبرز أنماط عتابه:

يُولد فرط المحبة وطول الصحبة أحياناً العتاب واللوم لسبب بسيط وهو أن كلا الطرفين يرصد للآخر زلاته ، ويُكثر من امتحانه على صدق وداده وتمكّن إخلاصه ، "فنجد المحتاجين إذا تكافيا في المحبة وتأكدت بينهما تأكداً شديداً ، كثر عتابهما بغير معنى، وتضادهما في القول تعمداً ، وخروج بعضهما على بعض في كل يسير من الأمور ، وتتبع كل منهما لفظة تقع من صاحبه وتأولها على غير معناها، كل هذه تجربة ليبدو ما يعتقده كل واحد منهما في صاحبه"[2].

فتدل كثرة التأويلات على شدة العناية و الاهتمام والإنصات بلهفة لما يُقال ومن ثم يبدأ التأويل و محاولة إيجاد ما يُثير الانتباه من دلال و عتاب ...

---

(١) . نُسبت لإياس بن معاوية و نُسبت لابن سيرين . انظر : البيان والتبيين : ١ /٧١ ، لسان العرب : (خبب)

(٢) . طوق الحمامة في الألفة و الأُلاف : لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الأندلسي ، جمع وتحقيق و شرح : د . عفيف نايف حاطوم ، ص ٢٦، دار صادر ، ط١ ، بيروت ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

ولا يسير العتاب على نهج واحد يُلتزم به ، بل يجري في طرائق مختلفة والمنبع واحد فـ "للعتاب طرائق كثيرة ، وللناس فيه ضروب مختلفة ، فمنه ما يمازجه الاستعطاف والاستئلاف ، ومنه ما يدخله الاحتجاج والانتصاف، وقد يعرض فيه المن والإجحاف مثل ما يشركه الاعتذار والاعتراف"[1]

فهذا بلا شك دليل على مرونة العتاب وصعوبة الدقة في تصنيفه و تحديد طرقه و أهدافه...

ولا يتم اختيار طرق العتاب بشكل عشوائي ، بل لا يفطن إلى حسن الاختيار إلا الحاذق ، ولا يعلم بمسالكه الوعرة إلا اللبيب ، وذلك لئلا يضل العتاب طريقه أو يحيد عن هدفه ، ومن دراسة ديوان أبي فراس ، تتضح بعض معالم صور عتابه ، ولعلي أوفق في استعراض أهمها:

١- النمط المنطقي :

يركز هذا الضرب من العتاب الاهتمام على مخاطبة العقل أكثر من مخاطبة الوجدان، ومخاطبة العقل والوجدان مطلب ضروري في العتاب ، ولكن لكل منهما موقف يستدعيه إذا اقتضت الحاجة.

وقد يفلح الشاعر في مخاطبة الوجدان وتحريك المشاعر عن طريق سياق الأدلة والبراهين ، التي تؤيد سبب العتاب ، وتؤنب المعاتب وتقرّه بصحة ما ادعاه العاتب.

وقد أطرق الشاعر ملياً للكتب التي كانت ترده من سيف الدولة حياءً وإجلالاً؛ ولكن قسوة الموقف أحياناً كانت تُلزمه بمحاسبة أميره على القليل و الكثير الفتيل والقطمير ، والمحاسبة الدقيقة تحتاج إلى أدلة عقلية ، وخير شاهد على ذلك الأذى الذي ناله الشاعر في أسره من أميره ، إما بخذلان أوبغلظة قول وسوء ظن .

يقول ابن خالويه : " تأخرت كتب سيف الدولة عن أبي فراس وهو في الأسر وذلك أنه بلغه أن بعض الأسرى قال : "إنْ ثَقُلَ هذا المال على الأمير كاتبنا فيه صاحب ــــــــ

(١) . العمدة : ١٧٩/٢

خراسان وغيره من الملوك وخفف علينا الأسر" وذكر أنهم قرروا مع الروم إطلاق أُسراء المسلمين بما يحملونه ، فاتهم سيف الدولة أبا فراس بهذا القول لضمانه المال للروم ، وقال : " من أين يعرفه أهل خراسان؟"[١]

فأجابه أبو فراس بمنطق قوي ، خاطب به عقل أميره الذي جار عليه بلا سبب ، وجفاه في ساعة محنة وشدة ، حتى أضحت كتب سيف الدولة نقمة لا نعمة ، ونكبة على نكبة.

يقول[٢] :

أَ سَـيْفَ الهُـدى ، وقريـعَ[٣] العَـرَبْ عَــلامَ الجفَــاءُ وفِــيمَ الغَضَــبْ؟!
ومــا بــالُ كُتبَــكَ قــد أصْــبحَتْ تُنكّبُنــي مــع هــذا النّكــبْ

ومن العجيب أن يكون هذا حال سيف الدولة ، صاحب السجايا التي لا ينافسه عليها منافس ، ومن كان مثل سيف الدولة في المروءة ، فحلمه – بلا شك – يحول بينه وبين الغضب الذي أُسس على زور وباطل.

يقول[٤]:

وأنــتَ الكــريمُ ، وأنــتَ الحلــيمُ ، وأنــتَ العطـوفُ ، وأنــتَ الحَـدِبْ[٥]
ومــا زِلْــتَ تَسْــبقُني بالجميــلِ وتُنزلُنــي بالجنــابِ الخَصِــبْ
وتــدفعُ عــن حَــوْزتيَّ الخطــوبَ وتَكْشِــفُ عــنْ نَــاظِريَّ الكُــرَبْ

ثم وقف على أبرز ما آلمه من سيف الدولة ، وهو التعريض بالخمول وناقش ذلك بتأنٍ وتؤده ، فلئن كان الشاعر خاملاً يجهله أهل خراسان ، فإن الشاعر وأميره من دم واحد وتربة واحدة.

---

(١) . الديوان : ٢/٢٥-٢٦

(٢) . المصدر نفسه : ٢/٢٦

(٣) . قريع : القريع : السيد والرئيس . (انظر: لسان العرب: (قرع)) .

(٤) . الديوان : ٢/٢٦

(٥) . حَدِب: الحَدَبْ : العطف والحنان . (انظر: لسان العرب: (حدب)) .

إذن فالخمول يتعدى الشاعر ويشمل أميره معه ، وإن كان الخمول لا يَعمُ إلا الشاعر ، فالسبب فيمن أخمل ذكره.

يقول[١] :

فَفــــيمَ يُعرّضُــــني بــــالخمُو لِ مَــولًى بــه نِلــتُ أَعْلَــى الرُّتــبْ ؟
وكــانَ عتيــداً لــديَّ الجــوابُ وَلكــنْ لهَ ِيبتــهِ لــم أُجِــبْ
أتُنكــرُ أنــيّ شــكوتُ الزمــانَ وأنّــي عَتَبْتُــكَ فــيْمَنْ عَتَــبْ !

فهـــــلا رَجَعْـــــتَ فـــــأَعْتَبْتَنِي وصـــيّرتَ لـــي ولقَـــوَمي الغَلَـــبْ !
فَـــلا تنســـبنّ إلـــيّ الخُمـــولَ أقمـــتُ عليـــكَ فلـــم أغتـــربْ
وأصـــبحتُ منـــكَ ففضـــلٌ يكـــونُ وإنْ كـــانَ نقـــصٌ فأنـــتَ السّـــببْ

ذلك باعتبار الأشخاص وأما باعتبار المكان ، فهل حلب تجهل أبا فراس كما تجهله خراسان – على حد زعم ابن عمه – ؟! وهل طبيعة ذلك الإنكار خمول نسب الأسرة الحمدانية العريقة ذات الأمجاد التليدة ؟!

وهناك أمر آخر ، وهو المصاهرة بين الاثنين ، فهذه بتلك والحجة واضحة لمن ادعى.

يقول[٢]:

وإنّ "خُرَاسَـــــانَ" إنْ أنكـــــرتْ عُـــلايَ فَقَـــدْ عَرَفَتْهَـــا "حَلَـــبْ"
ومِـــنْ أيـــنَ يُنْكِرُنـــي الأبعـــدُونَ أ َمِـنْ نَقْـصِ جَـدٍّ أمِـنْ نقـصِ أبّ؟!
أ لســـتُ وإيّـــاكَ مِـــن أُســـرةٍ وبينـــي وبينـــكَ قُـــربُ النّســـبْ!
ودارٍ تَنَاسَـــبُ فيهـــا الكِـــرامُ وتَربيـــةٍ ومَحَـــلٍّ أشِـــبْ !

والإنصاف عين القصد ، وبه يُحسم الخصوم ، وتتم الأمور ، ولا ضير في الخطأ ، بل العدول عن الظلم إن اتضحت الحجة مكرمة عظيمة تُضاف إلى مكارم سيف الدولة، ومن

(١) . الديوان : ٢/٢٦-٢٧

(٢) . المصدر نفسه : ٢/٢٧

الظلم أن يغمر الأب ابنه بحنانه في حضوره ، ويتخلى عنه في مغيبه ، وأما إنْ كان صديقاً فالصديق قريبٌ ، حاضراً كان أو غائباً .

يقول[١]:

وأنصـــــفْ فتـــــاكَ فإنصـــــافُهُ مِـــنَ الفضـــلِ والشّـــرفِ المُكتَسَـــبْ
وكُنـــتَ الحبيـــبَ ، وكُنـــتَ القريـــبَ لِيـــاليَ أدْعُـــوكَ مِـــنْ عَـــنْ كَثَـــبْ
فلمّـــا بَعُـــدتُ بَـــدَتْ جَفـــوةٌ ولاحَ مِـــنَ الأمـــرِ مـــالا أُحـــبْ
فلـــو لـــم أكُـــنْ بِـــكَ ذا خِبـــرَةٍ لقُلـــتُ : صَـــدِيقُكَ مَـــنْ لـــم يَغِـــبْ

والكلام المنطقي دائماً أقرب إلى القبول من الكلام المتعصب والمتحيز ، لأن شدة الانفعال والغضب تخرج النفس عن الصواب ، وقد يورث منكر القول وزوره.
أما إصابة الهدف فلا تتحقق إلا بتعقل وروية ، وخطاب العقل بما يقره ويقبله.

٢- النمط الصامت :

يفتقر بعض الناس إلى الذكاء الاجتماعي ، الذي تستدل به على تصرفات الآخرين، فلا يعلم خفايا الصدور وخائنة الأعين إلا الذي أودع الروح في الجسد.

و حين تطلب النفس الكمال بمقاييس البشر ، لا تطلب إلا النقص ، فمثلاً الساكت في نظر العامة ؛ عاجز أبكم ، لا جدّ له في الحياة ، والمقوال ؛ مهذار ثرثار يهرف بما يعرف وما لا يعرف.
والفصل في هذا أنْ يميز الشخص ما يقوي موقفه وما يوهنه من كلام أو صمت. و قد يكون الصمت بذاته في مواطن كثيرة رداً قوياً يفعل مالا يفعله الكلام.

---

(١) . الديوان : ٢/٢٧

و سما مقام شاعرنا عن مطاولة خصمه ، وقدره أرفع من مواجهة سفاسف الأمور ، ولم يكن يجهل تأويل قومه لصمته ، ولكن الجهل الحقيقي هو الرد عليهم ، ولا يضير أبا فراس جهل قومه له ؛ لأن الرد على اللئيم ، قُبح لا يفعله الكريم ، يقول[١] :-

تَغابيتُ عَن قَومي فظنُّوا غباوةً بمفرقِ أغْبَانَا حَصَىً وتُرابُ
ولَو عَرَفُوني ، حَقَّ مَعْرفَتِي بِهِمْ ، إذاً عَلِمُوا أَنِّي شَهِدتُ وَغابُوا
وَمَا كُلُّ فعّالٍ يُجازى بفِعْلِهِ ولا كُلُّ قوّالٍ لَدَىّ يُجابُ
ورُبَّ كَلامٍ مرَّ فوقَ مسامِعي كَمَا طَنَّ في لُوحِ الهَجِيرِ ذُبَابُ

٣- النمط الخفي :

و فيه يُخفى العتاب فيه ، ويُوارى في ثنايا القصيدة ، ولا يُذكر مباشرة ، بل يُلّمح له تلميحاً وكأنه يشير بذلك التلميح الخفي إلى آلامه الخفية التي يحتبسها في صدره ولا تكاد تُعرف إلا من ملامحه.

وقد وجد الشاعر الفرصة السانحة في عزاء سيف الدولة في أخته ، ليعرّض بجفاء ابن العم الذي نسي أمر ذلك الأسير ، ولم يمكنه من حقوقه الدينية و واجباته الاجتماعية ، من عزاء و نحوه ، فأبدى الشاعر في بداية الأسر تفجعه على ذلك المصاب العظيم ، الذي لاحظّ للجلد فيه ، يقول[٢] :

أوُصيكَ بالحُزنِ ، لا أُوصيكَ بالجلدِ، جلّ المصابُ عن التعنيفِ والفَنَدِ
إنيّ أُجِلُّكَ أنْ تُكْفَى بتَعْزِيَةٍ عَنْ خَيْرِ مُفتقَدٍ ، ياخيرَ مُفتقِدِ
هي الرزيةُ إنْ ضنّت بما مَلَكَتْ منها الجُفُونُ فما تَسْخُو على أحدِ

---

(١) . الديوان : ٢/ ٢٢ ، ٢٣

(٢) . المصدر نفسه : ٢/٧٠

ثم نقل لسيف الدولة صورة من صور الأسر وضحت معاناته في الحرمان من الأهل و البعد عنهم و تنحيه عن مشاركته لهم في أفراحهم و أتراحهم ، و ما أقبح البُعد الذي حرم شاعرنا من مشاركة ابن عمه في لأوائه كما كانت سابقاً في سرائه ، يقول[١] :

بي مثلُ مابكَ من حُزنٍ ومن جَزعٍ وقد لجأتُ إلى صبرٍ، فلم أجدِ
لم ينتقصني بُعدي عنكَ من حُزنٍ هي المواسَاةُ في قُربٍ وفي بُعُدِ
لأَشْرَكَنّكَ في الّلأواءِ[٢] إنْ طَرَقَتْ ، كَما شَرِكْتُكَ في النَّعماءِ والرّغدِ

وما حيلة الأسير؟! لا يملك أن يؤدي من حق العزاء إلا الحزن و البكاء و الأرق والسهاد ، وهي أمور شديدة عليه فقد كان أداؤها من خلف دروب طويلة حكت مسافتها طول همه ، و عظم حرمانه .

ومن صور إخلاصه ألا يمتع نفسه ببهجة من مباهج الدنيا وألا تفتر عيناه من البكاء ولا تلتذ بنوم أبداً ، فلعل ذلك يؤدي غرض العزاء ، ويُشعر ابن عمه بالمشاركة الوجدانية التي حرمه الأسر منها ، يقول[٣] :

أبكي بدمعٍ ، لهُ من حسرتي مَدَدٌ وأستريحُ إلى صبر بلا مَدَدِ
ولا أُسّوِّغُ نَفْسي فرحةً أَبداً وقد عرفتُ الذي تلقاهُ مِنْ كَمَدِ
وأمنعُ النومَ عَيْني أنْ يُلِمَّ بها عِلْماً بأَنَّكَ مَوْقُوفٌ عَلى السُّهُدِ

أخيراً .. أفصح عن غايته ، وخطا بجرأة خفية واراها من قبل في ثنايا القصيدة ، إذ عرض حيلته وهو الضعيف الأسير الذي بكى لبكاء أميره حين ذهل عنه المواسي ، فقال[٤]:

يا مُفرداً ، بات يبكي ، لامُعينَ لهُ ، أعانَكَ اللهُ بالتَّسليمِ والجلَدِ
هذا الأسيرُ المُبقَّى لافِدَاءَ لهُ ، يَفْديكَ بالنفسِ ، والأَهْلينَ ، والوَلَدِ

---

(١) . الديوان : ٢/٧٠

(٢) . اللأواء : الشدة وضيق العيش . (لسان العرب : (لأي)) .

(٣) . الديوان : ٢/٧٠

(٤) . المصدر نفسه : ٢/٧١

فهل هذا سيُخجل سيف الدولة ، ليطرق النظر في أمر أسر ابن عمه ، الذي لا يفتأ يفديه بالنفس والأهلين والولد؟!

ويشبه ذلك أبياته التي شرّقت وغرّبت في سيف الدولة ، ممدوحه أو معاتبه كلاهما سيّان... فإنْ كان ممدوحاً ، فقد تفانى الشاعر لأجله تفانياً عجيباً ، فلا شيء في الدنيا يقابل رضاه . وإن كان مُعاتباً ، فقد طغى الانجراف العاطفي من شاعرنا على بره ، ونحى نفسه عن كل من فوق الثرى ، فلا يرى على البسيطة من أحدٍ إلا ابن عمه وحسب .

يقول[1] :

فليتـــكَ تحلُـــو والحيـــاةُ مريـــرةٌ وليتـــكَ تَرْضَـــى والأنـــامُ غِضَـــابُ

وليـــت الـــذي بَيْنـــي وبَيْنَـــكَ عـــامِرٌ وبينـــي وبـــينَ العـــالمينَ خَـــرَابُ

إذا نِلْـــتُ مِنْـــكَ الـــوُدَّ ،فالكُـــلُّ هـــيّنٌ وكُـــلُّ الـــذي فـــوقَ التُّـــرابِ تُـــرابُ

فهل قدّر سيف الدولة جنون شاعر ، وحنين ابن عم ، وشوق نسيب ، وتظلّم ربيب وغربة صديق ؟!

فإن لم يكن كذلك ، فالشاعر على ما كان عليه من وداد ، ولربما حرّك هذا الإخلاص ما تجمد من مشاعر مُعاتبه!!

٤- النمط الفعلي (الفراق) :

يُعتبر الفراق رد فعل طبيعي ، ردّ الشاعر به على من بادره الهجران ، ولا يكون ذلك إلا بعد توخي الحذر ، والعلم بأسباب الجفاء الحقيقية ، فإذا كانت عن تقصير حصل من المعاتَب ؛ سارع الشاعر في إصلاحه ، وأما إن كان ملالاً ونكراناً ، عاتبه الشاعر عتاباً

---

(١) .الديوان : ٢/٢٤

فعلياً لا حوار فيه ولا جدال[1]

يقول[2] :-

إذا الخِـــلُّ لـــم يهْجُـــرْكَ إلا مَلالـــةً فلـــيسَ لـــهُ إلا الفِـــراقَ عِتـــابُ

إذا لـــم أجـــدْ مـــن بلـــدةٍ مـــا أُريـــدُهُ فَعنـــدي لأُخـــرى عزمـــةٌ وركـــابُ[3]

ولـيس فِـراقٌ مـا اسـتطعتُ فـإنْ يكـنْ فِـــراقٌ علـــى حَـــالٍ فلـــيس إيـــابُ

وللفراق الجميل وقع عظيم في نفس المذنب ، لأمور من أبرزها عدم توقع حصول ذلك الهجر ، لاستبعاده من المفارِق ، وأمر آخر هو الإحساس بالذنب ومحاسبة النفس والندم على

التفريط ، لأنّ الفترة الزمنية الحاصلة في الهجر الجميل كفيلة أن تضع النقاط على الحروف فتفك الغموض ، وتعرّف المبهم المنكور.

٥- النمط الغاضب:

وهو أجرأ أنواع العتاب ، وأشده ضرراً على العاتب ، لأنّ قصائد هذا النوع تلفظ حالة الاستياء وتخرج الكبت المزمن في صورة حمم متوهجة ، لأن ثورة الغضب تنسي العاتب منزلة مُعاتبه.

(١) . رحم الله الإمام الشافعي الذي جعل مقياساً دقيقاً ، يقاس به صفو الوداد ، يقول :

إذا المـــــرءُ لا يرعـــــاكَ إلا تَكَلُّفـــــاً ... فدَعْـــهُ ولا تُكْثِـــرْ عليـــه التأسُّـــفَا

ففـــي النَّـــاسِ أبـــدالٌ وفي الـــتَّرْكِ راحـــةٌ ... وفي القلـــبِ صـــبرٌ للحبيـــبِ ولوجَفَـــا

فمـــا كُـــلُّ مَـــنْ تهـــواهُ يهـــواكَ قلبُـــهُ ... ولا كُـــلُّ مَـــنْ صَـــافيتَهُ لـــكَ قـــد صَـــفَا

إذا لم يكُـــنْ صَـــفْوُ الـــوِدادِ طبيعـــةً ... فـــلا خَـــيرَ في خِـــلٍّ يجـــيءُ تَكَلُّفَـــا

ولا خـــيرَ في خِـــلٍّ يخـــونُ خليلَـــهُ ... ويلقـــاهُ مِـــنْ بعـــدِ المـــودَّةِ بالجَفَـــا

(ديوان الإمام الشافعي :ص ١٠٠)

(٢) . الديوان : ٢٢/٢

(٣) . ركاب : اسم جماعة للإبل التي تحمل القوم . (أنظر لسان العرب : (ركب)).

والغضب حالة اضطراب تعتري الحليم كما تعتري الغضوب ، وقد يكون غضب الحليم أقوى على النفس و أوقع أثراً فيها من غضب الغضوب .

ولا يخرج غضب الحليم إلا إذا بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين[1] وإذا كان الأمر كذلك ، فالعتاب يصدر من جميع أصناف الناس ، ولا غرابة أن ترى ذلك العاتب الهادىء الذي يزن الألفاظ ، ويختبر المعاني ، ويتحين ساعة العتاب الرقيقة ، يتحول إلى عاتب غاضب ، يصارح مُعاتبه بكل جرأة وقوة.

وأبو فراس ، شاعرٌ له من عتاب الحليم نصيب ، ومن عتاب الغاضب نصيب آخر ، وربما تذكر في ثورته العارمة منزلة مُخاطبه ، فهدأ من حدّته ، وشرع في تذكير المعاتب بصلة القرابة، أو أمر الصداقة أو غيرها.

وتمثل أول قصيدة في الأسر ثورة غضب عظيمة ، خرجت مباشرة من مطلع القصيدة و من دون أدنى مقدمة ، فإذا به : "يهدم الحواجز بينه وبين الأمير فيتجرأ عليه حين يخاطبه"[٢]

و يُعيد الشاعر في ذلك إلى الأذهان بلاط سيف الدولة ، والمتنبي قائم في أحد جنباته ينشد أميره ، والعتاب ملء فيه .

وقد علق ابن رشيق على ذلك بقول : " وأما أبو الطيب فكان في طبعه غلظة وفي عتابه شدة ، وكان كثير التحامل ظاهر الكبر والأنفة ، وما ظنك بمن يقول لسيف الدولة :

يـا أعـدلَ النـاسِ إلاَّ فـي مُعـامَلَتي ... فيكَ الخِصامُ وأنتَ الخَصْمُ والحَكَمُ

أُعِيـذُها نَظَـراتٍ منـكَ صـادقةً ... أنْ تَحْسَبَ الشحمَ فيمن شحمهُ وَرَمُ

---

(١) . كتب عثمان بن عفان إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنهما في محنته التي قُتل فيها : أما بعد بلغ السيل الزُبى ، وجاوز الحزم الطبيين وطمع فيّ من لا يدفع عن نفسه :

فـإنْ كنـتُ مـأكولاً فكُـنْ خـير آكـلٍ ... وإلا فـادْرِكْني ولَمَّـا أُمـزَّقِ

انظر : جمهرة الأمثال : لأبي هلال العسكري : ج١/ص ١٩١ ، المكتبة العصرية ، ط١ ، صيدا ، بيروت. ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

(٢) . شعر أبي فراس الحمداني دلالته وخصائصه الفنية : ص ٧٠

ومـا انتفـاعُ أخـي الـدُنيا بنـاظِرِهِ ... إذا اسـتَوَتْ عِنـدَهُ الأنـوارُ والظُلَـمُ[١]

أنـا الـذي نظـرَ الأعمـى إلـى أدبـي ... وأسَـمعَتْ كَلِمـاتي مَـن بِـهِ صَـمَمُ

أنـامُ مِـلْءَ جُفُـوني عـن شـوارِدِها ... ويَسْـهرُ النـاس[٢] جَرَّاهـا ويَختصـمُ

وجاهـلٍ مـدَّهُ فـي جَهلِـهِ ضَـحِكِي ... حَتَّـى أَتَتْـهُ يَـدٌ فرّاسـةٌ وفَـمُ

إذا رأيـت نيـوب الليـث بـارزةً ... فـلا تظـنن أنّ الليـثَ يبتسـم[٣]

ومن ذلك البلاط إلى بلاد الروم ، حيث أعلن أبو فراس تألب الأحزاب عليه ، وتكاتف أميره مع الخطوب ، حتى نسي منزلة من يخاطب ، فقدم احتياجات نفسه أولاً من غضب

وألم وعتب ، على حسن الأدب مع الأمير ، الذي أضحى خطباً من الخطوب التي توالت على الشاعر في حين أن الخطوب إذا ذُكرت ، ذكر سيف الدولة الذي كاد فضله أن يغمر العالمين ، يقول[٤] :-

زمَـــاني كُلُّـــه غَضَـــبٌ وعَتْـــبُ وأنـــتَ علـــيّ والأيَّـــامُ إلْـــبُ
وعـــيشُ العـــالمينَ لـــديك ســـهْلٌ وعيشـــي وَحْـــدَهُ بفِنَـــاكَ صَـــعبُ
وأنـتَ – وأنـتَ دافـعُ كُـلِّ خطـبٍ – مـع الخطـبِ الملّـم علـيّ خَطْـبُ

ولم يكن هناك أمر يستوجب عتاب سيف الدولة على الشاعر ، واعتذار الشاعر لأميره اعتذار لا أساس له ، ولكن القسوة والجفاء تفعل في النفس ما يُرغم على قبول الواقع، وواقع الشاعر مرير في الشام وأليم في الأسر ، والحمل على ذلك القلب ، إجهازُ عليه ـــــــ

(١) . يلي هذا البيت في الديوان :

سيعلمُ الجَمْعُ مِمَّن ضَمَّ مَجْلِسُنا بأَنَّني خَيرُ مَن تَسْعَى بِهِ قَدَمُ .

(العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: ٢/٦٤٠)

(٢) . وردت في ديوانه: الخلق . (المصدر نفسه : ٢/٦٤٠)

(٣) . يقول ابن رشيق : "هذا الكلام في نهاية الجودة غير أنه من جهة الواجب والسياسة غاية في القبح والرداءة ، وإنما عرّض بقوم كانوا ينتقصونه عند سيف الدولة ويعارضونه في أشعاره ، والإشارة كلها إلى سيف الدولة".

أنظر : ١- العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: ٢/٦٤٠ ، ٦٤١

٢- العمدة : ٢/١٨٣

(٤) . الديوان : ٢/٢٨

(١٣١)

يقول[١] :

إلـــى كـــم ذا العتـــابُ ولـــيس جُـــرمٌ وكَـــمْ ذا الاعتـــذارُ ولـــيسَ ذَنْـــبُ؟
فـــلا بالشّـــامَ لـــذّ بِفـــيّ شُـــربٌ ولا فـــي الأَسْـــرِ رَقَّ عَلَـــيَّ قلـــبُ
فـــلا تحمِـــلْ علـــى قَلْـــبٍ جـــريحٍ بِـــه لحـــوادثِ الأَيّـــامِ نَـــدْبُ

ويُذّكرُ الشاعر أميره بمنزلة كل منهما ، فالأول : صادق ، أمين ، وفيّ ، شجاع في القول والفعل ، والثاني : قريب حاضر ، قد امتحن تلك الشمائل ، وعلم صدقها ، وكلا الأميرين يعلم أصله جيداً ، من تربة واحدة وشرف واحد ، وبطولات وفضائل امتدت من أصلهما و

زاد الشاعر على ذلك ببسالة أخواله .. وأي فضل بعد ذلك يجهله سيف الدولة وهو أصل له ، والشاعر فرع ينتمي لذلك الأصل .

يقول [٢] :

أ مثلـــي تُقبـــلُ الأقـــوالُ فيـــه؟ ومِثلُـــكَ يَسْـــتَمِرُّ عليـــه كِـــذْبُ ؟
جنـــاني مـــا عَلِمْـــتَ ، ولـــي لســـانٌ يقُـــدُّ الـــدِّرعَ والإنســـانَ ، عضْـــبُ
وزَنْـدِي[٣]، وهـو زَنْـدُكَ ، ليسَ يَكْبُـو[٤] ونَـاري ، وهْـيَ نَـارُكَ ، لـيْسَ تخبـو
وفَرْعِـــي فَرْعُـــكَ الزَّاكـــي المُعَلَّـــى وأَصْـــلي أصْـــلُكَ السَّـــامي وحَسْـــبُ
وفضـــلي تعجـــزُ الفضـــلاءُ عنـــه لأنّـــك أصـــلُهُ والمجـــدُ تِـــربُ
" لإســـماعيل "بـــي و بَنيـــه فَخْـــرٌ و فـي "إسـحاق " بـي و بنيـه عُجْـبُ
و أعمـــامي " ربيعـــةُ " و هـــي صِـــيدٌ و أخْـوالي " بَلَصْـفَرُ " و هْـيَ غُلْـبُ

ثم استدرك الشاعر منزلة مخاطبه ، فافتداه بنفسه ، ولكنه لم يكتمه خبر مساورة الشكوك نفسه في حقيقة ذلك الوداد الذي صلح أمره في الحضور ، وفسد في المغيب !!

---

(١) . الديوان : ٢٨/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٢٨/٢

(٣) . زندي : الزّند العود الأعلى الذي يقتدح به النار . (لسان العرب : (زند)) .

(٤) . يكبو : كبا الزّند فهو يكبو إذا لم يُخرج ناره . (لسان العرب : (كبا)) .

(١٣٢)

يقول[١] :

فَـــدَتْ نفســـي الأميرَ،كـــأنَّ حَظِّـــي وقُربـــي عَنْـــدهُ مـــادامَ قُـــربُ

فـ "هل ذلك الاستدراك شعور نابع من العقل الباطن "الأنا الأعلى " ينبهه كلما استسلم لرغباته الذاتية في التعالي والكبر وغير ذلك ؟ " [٢]

واستعظم الشاعر في أميره أمر المودة المعقودة بالقرب المكاني إلى درجة قد تصل إلى اليقين، وإذا كان الأمر كذلك ، فهل يسوغ ذلك للأمير العظيم أن ينتهك حرمة ابن عمه في مغيبه ، لينال منه بالغيبة وسوء القول والظن؟!

يقول[٣]:

فلمّـــا حَالَـــتْ الأعـــداءُ دُونـــي وأصـــبحَ بيننـــا بحـــرٌ و" دربُ "

ظللـــتَ تُبـــدِّلُ الأقـــوالَ بَعْـــدِي ويَبْلُغُنـــي اغْتيابُـــكَ مـــا يُغِـــبُّ[٤]

وتكاد هذه الجرأة أن تعيد للأذهان المتنبي الذي جعل سيف الدولة خصمه وحكمه ، إلا أن شاعرنا ركز كل الاهتمام على أميره ، الذي غيرته الأيام فبدل الأقوال وقلب الأفعال!!

وتحتاج مصارحة الأمير بكل جرأة ، إلى حذق يخلصها مما هي فيه لتكسر حدة الغضب ، وتعيد الثقة به إلى نفس أميره ، وقد " اختار خط التماس ليحدث التوازن بين ما يريد ابن عمه وما يمكن أن يحفظ عليه اعتذاره وكرامته"[٥].

فقضى الشاعر الأمر بالحسنى ، وطمأن ابن عمه أنه مازال على شيمه الأصيلة وقيمه الرفيعة التي لا يبدلها حيف ، ولا تغيرها جفوة.

فاختار خاتمة انتصر على خصمه فيها وربما أخجلت أميره ، ودعته لمحاسبة نفسه.

---

(١) . الديوان : ٢٨/٢

(٢) . أثر الاغتراب في شعر أبي فراس الحمداني مظاهره وسماته الفنية ، ص ١٨٧

(٣) . الديوان : ٢٩/٢

(٤) . يُغِّب: غبّ جاء يوما وترك يوماً . (لسان العرب : (غبب)) .

(٥) . أبوفراس الحمداني وبطولة الشعر ، أحمد سويلم ، مجلة الفيصل ، ع ١٩٠ ، ربيع الثاني ، أكتوبر ، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م ، ص ٥٥

يقول[١] :

فَقُـــل مـــا شـــئتَ فـــيَّ فلـــي لســـانٌ ملـــيٌ بالثنـــاءِ عليـــكَ رَطـــبُ

وعَـــامِلْني بإنصـــافٍ وَظُلـــمٍ تَجِـــدْني فـــي الجميـــعِ كَمَـــا تُحِـــبُّ

"وأبو فراس كما هو واضح يجعل بينه وبين ابن عمه شعرة معاوية ، فتراه يشتد وأخرى يرق ويلين ليستميل قلب الأمير إليه ، كما نرى لسانه يلهج بالثناء عليه مظهراً حبه الشديد للأمير سواء أنصفه أو ظلمه ، فلا يجده إلا محباً"[٢].

ثانياً: طبيعة الشكوى :

الشكوى صرخة تعبير عن العواطف المحرومة ، ومظهر للاضطراب النفسي والتشاؤم الذاتي ، كما أن لها رغبات غير معلنة تكمن في أنها قد تعمل على تجاوز الواقع السيئ وإعلان رفضه ، والتمرد عليه لتحقيق الذات والعدل ، والمساواة[٣]

وهذه الصرخة المسموعة أمر طبيعي في البشر يختلف باختلاف قدرة التحمل ، وطبيعة النفس ، وهي في كثير من الأحيان تكون "حاجة نفسية ملحة ، فعن طريقها يتخفف المرء من أثقال همومه ودفين آلامه بما يطلقه من صيحات التشكي ، وصرخات الألم ، وعن طريقها تتجلى ذات الإنسان ، فيكشف عن معاناته ، وينفث ما في صدره من آلام لم يعد في وسعه أن يتحملها وأن يصبر عليها " [٤].

---

(١) . الديوان : ٢٩/٢

(٢) . شعر أبي فراس الحمداني دراسة فنية : ماجدولين وجيه بسيسو ، ص ١٢٦ جامعة الملك سعود ، ط١ ، الرياض ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .

(٣) . انظر : الشكوى في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري : د. ظافر بن عبد الله الشهري ، ص ١١، مطابع الحسيني الحديثة ، ط١ ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .

(٤) . المصدر نفسه : ص ١٩

وممن تلظى نار الشكوى وقاسى حرها ، أبو إسحاق الصابي[١] فلو أنَّ وجدانه أرسل فيحاً من ناره على جسده الذي لم يجد دثاراً ، لما شكا برد الشتاء. ولكنَّ الأمر أعظم من ذلك ، فقال مستلذاً بشكاته[٢] :

أتــاني شــتاءٌ لــيس عنــدي دثــارُهُ سوى لوعةٍ في الصدرِ مشبوبة الوقْد

فلـو أن بـرد الجلـد عـاد إلـى الحشـا وفـار الحشـا الحـران منـي علـى الجلـد

أزيحــت لنفســي علّتاهــا فأعرضــتْ عن البثّ والشكوى إلى الشكروالحمد

وداويــتُ داءَيَّ النقيضــين ذا بــذا أعــدّل إفراطــاً مــن الضِّــد بالضــد

ولكننــي أســتبطن الحــرّ كربــةً وأســتظهر الضــرَّ الشــديد مــن البــرد

فكم تعمقت هذه الأبيات في نفس الشاعر ، فقد غاص بها إلى الداخل ليغليها الوجدان ، فتفور وتبعث حمماً ، لو أصابت جلده البارد ؛ زالت علته و ذهب قره ؛ و لكنه عدل عن ذلك ليجعل ما في الوجدان خفياً يضطرم بكربه و همومه ، و يجعل ضر الشتاء ظاهراً ، يشكوبأسه ، ولو مكنت جذوة من نار وجدان أبي إسحاق ، لتلهب جسده ، لكفت ووفت!! لكن الجسد يواري الجنان ، ولا قيمة للجنان إن أخمدت ناره وخبا فتيله ، و لا طعم للحياة بلا ألم !!

فـ" الألم قمة عالية وجهد كل إنسان في أن يرقاها ، والذين لا يعرفونها هم أشقياء لا يدركون معنى ألمهم ، وشقي من يتألم ومن لا يعرف أن يتألم ، هو لا يعرف ثمن الفرح الصافي للحياة وللسعادة بل هو يجهل نفسه إن لم يتألم ولا يعرف عن الآخرين شيئاً إذا لم

---

(١) . هو إبراهيم بن هلال بن هارون الصابي الحراني ، أوحد العراق في البلاغة ، ومن به تثنى الخناصر في الكتابة ، ويحكى أن الخلفاء والملوك و الوزراء أرادوه كثيراً على الإسلام ، حتى إن عزالدولة بختيار عرض عليه الوزارة إن أسلم ، فلم يهده الله تعالى للإسلام ، وكان يعاشر المسلمين أحسن عشرة ، توفي سنة ٣٨٤هـ ببغداد ، وله من العمر إحدى وسبعون سنة. انظر : ١- يتيمة الدهر : ٢/٢٨٧-٢٨٨

٢- وفيات الأعيان : ١/٥٣

(٢) . يتيمة الدهر : ٢/٣٥٠

يحس بآلام الآخرين تعصف في نفسه ... والنفس لا تنضج ، والإرادة لا تقوى ، والروح لا تتسع والوجه لا يمسحه الجمال الناطق المعبر إلا عند من تألموا"[١] .

والشعور بضيق النفس وضيق الدنيا معها ، هو أحد صور ألم النفس الذي يستحكم على الإنسان في حالة شعوره بالهم والحزن و الندم ، وقد صور المولى عز وجل أحد تلك المشاعر التي تمتلك البشر فتزهدهم في الحياة ، حين ذكر حال العذاب النفسي الذي أدركه الثلاثة الذين خُلفوا من ندم و حسرة ، آلت إلى ضيق شديد و كرب جعل الدنيا كلها تضيق بهم ، لفرط ندمهم على ما بدر منهم ، ولصدق توبتهم ، فقال عز وجل : **"وعلى الثلاثة الذين خُلفوا حتىّ إذا ضاقتْ عَليهمُ الأرضُ بما رَحُبتْ وضَاقتْ عَلَيهمْ أنفُسُهُمْ وظَنُّوا أن لا ملْجأ مِنْ الله إلّا إليه ثمّ تَابَ عَليهِمْ ليتَوبُوا إنّ الله هُو التّوابُ الرّحيمُ"**[٢].

ويظل الألم ذلك المستحيل الذي لا مفاضلة فيه بين البشر بمقياس البشر ، حتى الأفلاك لا تحمل ما يطيقه البشر ، و أبرز من صور ذلك تصويراً يبرز عظم ما يحمل الإنسان ابن لكنك البصري[٣] ، فما يحمله الإنسان من هموم تعجز عن حمله هذه الأجرام السماوية العظيمة ، يقول [٤] :

لـو أنّ علـى الأفـلاكِ مـا فـي نفوسِـنا تهافتــت الأفــلاك مــن كُــلِّ جانــبِ

---

(١) . الشاعر العربي أبو فراس الحمداني : الأستاذ خليل هنداوي ، محاضرات الموسم الثقافي ، ١٥٧/٤ ، عام ١٩٦١-١٩٦٢م ، وزارة الثقافة و الإرشاد القومي ، مطبعة الوزارة – دمشق ١٩٦٢م .

(٢) . سورة التوبة آية ١١٨

(٣) . هو أبو الحسن محمد محمد بن جعفر ، فرد البصرة وصدر أدبائها وظرفائها في زمانه ، جُلّ شعره في شكوى الزمان وأهله ، وهجاء شعراء أهل عصره ، وغالبية شعره لا يجاوز البيتين والثلاثة ، وهو من النحاة الفضلاء .

انظر : ١- يتيمة الدهر : ٤٠٧/٢

٢ – معجم الأدباء : ياقوت الحموي الرومي ، تحقيق : د٠ إحسان عباس ، ٢٦١٩/٦ دار الغرب الإسلامي ، ط١ ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٣

٣- الوافي بالوفيات : ١٣٤/١

(٤) . يتيمة الدهر : ٤٠٨/٢

أما شاعرنا ، فقد رأى النجوم علامات هداية ، ولكنها في تيه وضلال وكأنّ ما بها من حيرة يشبه ما به من أطوار بشرية : ألم للمتألم ، يأس لليائس ، تيه للتائه ، بل قد يربو الشاعر على ما بها ، لأنها أمست حزينة ترق عليه .

يقول[1] :

مـــا لنُجـــومِ السّـــماءِ حَـــائرةً! أ حالُهـــا، فـــي بُرُوجِهـــا ، حَـــالي ؟
أبيـــتُ حتَّـــى الصـــبَّاحِ أَرْقُبُهَـــا مُهتـــدِيَاتٍ ، فـــي حَـــالِ ضُـــلاّلِ
أمـــا تَرَاهـــا عَلـــيّ ، عاطفـــةً تكـــادُ ، مِـــنْ رقّـــةٍ ، تُبكّـــى لـــي ؟!

أما حمامته النائحةالتي تكاد تحلق في كل سماء مع كل زمان فلم تُبق مُتَرّدماً للحديث عنها[2] ، و ربما وجد الشاكي أنينه في هديل كل حمامة تهيم على وجهها هرباً من ألمها ، حتى وإن كانت ترى الأرض غير أرضها ، و الفضاء غير فضائها ، فما بين جوانحها يُطلق جناحيها ...

و يبدو أنّ الحمامة أثارت فضول الشاعر ، ليلج إلى عالمها الخاص و يجد أسباباً تُقنعه بأسباب شجنها ، و هذا مادعاه لعقد مقارنة ، وصل في نهايتها إلى دهشة جعلت نفسه تُحدثه بلومها ، فقال [3]:

أ يضـــحكُ مأســـورٌ وتَبْكِـــي طليقَـــةٌ ، ويســـكتُ محـــزونٌ وينـــدُبُ ســـالِ؟
لقـد كُنـتُ أولـى مِنـكِ بالـدّمع مُقلـةً ؛ ولكـنَّ دَمْعـي فـي الحـوادثِ غَـالِ !

فالشاعر أحرى الكائنات بالبكاء ، وأخلق الحزانى بالحزن ما دام الليل والنهار ، ولكنّ الدمع غال!!

---

(١) . الديوان : ٣١٢/٢

(٢) . و هي قصيدة قال في مطلعها :

أقـــولُ ، وقـــد نَاحـــتْ بقـــربي حمامـــةٌ : أيـــا جارتـــا ، هـــل بـــاتَ حالُـــكِ حَـــالِي؟

(الديوان : ٣٢٥/٢) .

(٣) . المصدر نفسه : ٣٢٥/٢.

(١) . جذور الشكوى في نفس الشاعر :

لو أكنّ الشاعر شكواه بين ضلوعه " لأروق ما بين الضلوع وفرعا"[1] وكأنَّ الشاعر أنصف نفسه بذكر الأوراق والفروع ، ليشير إلى أن هناك جذوراً عميقة للشكوى منشؤها بذرة واحدة.

وهذا يؤكد على أن تربة خرشنة ليست البذرة التي أنبتت الساق والغصون والأوراق !! ولم يكن للأسر نصيب الأسد في بواعث الشكوى ، لذا وجب الوقوف عند هذه المسألة التي لم تنصف تمام الإنصاف .

فمن حيث قلة الشكوى قبل الأسر ، وكثرتها بعد الأسر ، يرى بعض الباحثين[2] أن قلة دواعي الشكوى قبل الأسر ، سبب لقلتها على خلاف ما كان عليه بعد الأسر.

أما من حيث الموضوع ، فينفي بعضهم[3] دواعي شكوى الشاعر قبل الأسر ، مستثنياً ما كان بين الشاعر وبعض أبناء أسرته ، وما لاقاه من أصدقائه من غدر ونكث للعهود، وما لفقه عليه حساده وأعداؤه.

ومنهم من يقف موقفاً وسطاً[4] فيرى أنّ حادثة الأسر ذاتها لم تكن خالقاً لهذا اللون في شعره ، وإنما أبرزته كغرض شعري أساسي من أغراضه الشعرية ، و أثارت الشاعر من جوانب عدة ليصدح صوته بها .

---

(١) . وهذه صورة رسمها الشاعر للتعبير عن وجدانه الذي لا يطيق الكتمان .

يقول : ولو أنني أكننته في جوانحي لأورق ما بين الضلوع وفرعا.

(الديوان ٢/٢٤٨٨)

(٢) . انظر الاتجاه الوجداني في روميات أبي فراس الحمداني : إلهام بنت عبد العزيز الغنام ، ص٦٩ ، جامعة الملك فيصل .

(٣) . انظر : شاعر بني حمدان : ص ١٢٧.

(٤) . انظر : أثر الاغتراب في شعر أبي فراس الحمداني مظاهره وسماته الفنية، ص ١٦٤.

في حقيقة الأمر ، أنّ القلة والكثرة ليست مقياسا للحكم على الشكوى وحصرها في الأسر لكثرة دواعيها ! فالمحب شاكٍ ، والمتألم ؛ شاكٍ ، والعاتب ؛ شاكٍ.

إذن جذور الشكوى عميقة في نفس الشاعر من قبل الأسر ، فلما أُسر ، قامت الشكوى على ساقها ونمت وترعرعت ، والدليل على ذلك ، أنّ ما صرح الشاعر به من شكوى في الأسر، كان لها مثيل قبل الأسر ؛ فإن شكا- مثلاً – من التخاذل في أمر فدائه ، فقد شكا سابقا من قلة الوفاء ، وندرة الخلان في أهل زمانه[1] ، وأنه غريب فيهم وكاد أن يكون أمة في الوفاء.[2]

والارتباط وثيق بين الخيانة والخذلان ، لأنهما من منبع واحد ، ولا عجب من تراخي قومه في فدائه ، لأن الشاعر قيّم أهل زمانه ، فكان عليه أن يعلم أنه لن يجني من الشوك العنب.

وهناك ارتباط أيضا بين شكواه ممن ضعّف رأيه ، وقلّل من شأنه حين اختار الأسر ، وبين شكواه من الحساد من قبل أسره ، لأن الحاسد لا يفتأ ينقب عن الثغور ليلج فيها بأراجيفه ليشفي بها صدره ، ويغيظ صدر عدوه.

و لا يوزن المعيار الحقيقي لعتاب الشاعر وشكواه بالقلة والكثرة ، لأن الشاعر عمم مثيرات العتاب والشكوى على حياته كلها[3]، وأن الأسر مثير من جملة مثيرات ، ولم يُعدم الشاعر الشكوى حاضراً بين أهله أو غائباً بين عدوه[4].

---

(١) . يقول :كذلكَ حَظّي مِنْ زَمَاني وأَهْلِهِ يُصَارِمُني الخِلُّ الذي لا أُصَارِمُهْ
(الديوان : ٣٩٣/٢) .

(٢) . يقول : ولما أساءَ الظنَّ بي مَنْ جعلتُهُ وإيَّاي مِثْلَ الكفِّ نيطتْ إلى الزّنْدِ
حَملتُ إلى ضَنّي به ، سُوءَ ظَنِّهِ وأيقنتُ أنّي بالوَفَا أمةٌ وَحْدِي
(المصدر نفسه : ٢/ ٩٢) .

(٣) . يقول : زماني كُلّهُ غضبٌ وعَتْبُ وأنتَ عليّ والأيامُ إلبُ
(المصدر نفسه : ٢/ ٢٨) .

(٤) . يقول : فلا بالشَّامِ لذ بفيَّ شُرْبٌ ولا في الأَسْرِ رَقَّ عليّ قَلْبُ
(المصدر نفسه : ٢/ ٢٨) .

(٢)- أهم بواعث شكواه:

أ- العجز عن الكتمان:

الكتمان خُلق الأبيّ الصبور ، يظل يطلبه حثيثاً في كل حال تعتريه ، فهو الملجأ الآمن ، والصديق المعين على نوائب الدهر في كل زمان ومكان...

وقد اتسمت شخصية أبي فراس بالصبر والشدة ، فلم يشغله نعيم الإمارة عن تتبع مواضع المروءة في كل زمان و مكان ، يقول[1] :-

الحُـرُّ يَصْـبِرُ ، مـا أطـاقَ تَصـبُّراً فـي كُـلِّ آونـةٍ وكُـلّ زمـانِ

ويـرى مُسـاعدةَ الكـرَامِ مُـرُوءةً ، مـا سَـالَمتْهُ نوائِـبُ الحَـدَثَانِ

ولكنّ هزال جسده و قروح أجفانه نذيرا شؤم في فلسفة كتمانه ؛ لأن كتمانه قد أصابه الهزال أيضاً ، إلى أن انصهر في شكوى مريرة ؛ لذلك لم يجد شيئاً يشفع له عند نفسه الحرة إلا بشريتها التي تشكو وتبكي ، يقول في وصف حال النفس[2]:

ويـذوبُ بالكتمـانِ إلاّ أنّـهُ أَحوالُـهُ تُنْبِـي عَـن الكِتْمَـانِ

فـإذا تَكَشَّـفَ ، واضْـمَحَلَّتْ حَالُـهُ ألفَيْتَـهُ يَشْـكُو بكُـلِّ لِسَـانِ

(مـا كُلِّـفَ الإنسَـانُ إلاّ وُسْـعَهُ) واللهُ نـصَّ بِـذاكَ فـي "القُـرآنِ"

والفراق أحد متلازمات الحب ، فلا يكاد يَعْذُب الأول إلا ويُكدّر الآخر صفوه ، فإن شكت النفس من ألم الفراق ، فهي تبتلي صبرها ، وتبوح بمحنتها ، وتُشعل عناء النفس التي جمح كتمانها والتهبت أشجانها .

وقد وصف الشاعر أحد مواقف وداعه قائلا[3]:

أو مـا رأيـتَ ، غـداةَ مَحْنيـةِ اللِّـوى مَـا بـي مـن البُرَحَـاءِ[4] والأَشْـجانِ؟

---

(١) . الديوان : ٤٠٤/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٤٠٤/٢

(٣) . المصدر نفسه : ٤١٤/٢

(٤) . البرحاء : الشدة والمشقة . (لسان العرب : (برح)) .

ألوى اللِّوى بجَميلِ صَبْري في الهَوى ودَعَـا حَنينـي أَبـرَقُ الحنّـانِ

ثم شكا حالة ضُرّ مسته حين أنشد الديار الخاوية ، وأنس بالوحوش الضارية ، فحزن على نفسه التي لم تُصَبْ بمس ولا ببأس ، ولكن لحاجة في نفسه ، يقول[1] :

ولقد سألتُ الرّبعَ عَنْ سُكَّانهِ لَوْ كَانَ يُخبِرُني عَنِ السُّكانِ
وسُؤالُ مالا يستطيعُ إجابةً لمُسائلٍ ، ضَرْبٌ من الهذيانِ

وأخيراً وصف المعركة القائمة بين الكتمان والشكوى ، الأول قائده الإباء والأنفة والطرف الآخر لا قائد له ، فالتحم الاثنان في سجال عنيف ثبتت فيه الشكوى ، وزلت قدم الكتمان بعد ثبوتها... يقول[2]:

ما بُحتُ بالكتمانِ حتى عَزّني فيضُ الدُّمُوعِ ، فبُحتُ بالكِتْمَانِ
فعَلامَ أكتُمُ ،أو أُسِرُّ صبابَتي؟ وعَلَيَّ مِنْ عَيْنَيَّ لي عينانِ

و لما كان البكاء دليل الحزن و ترجمان النفس في أغلب الأحوال ، كان الشاعر يكره أحياناً أن يُريق ماء عينيه ، ليس جلداً و غلظة ؛ بل كان يتطير من البكاء و يتشاءم منه . و الطيرة رمزٌ للشؤم ولا يتطير إلا موصوم بالجهل ، وكان شاعرنا العالم الأديب يهرب إليها أحياناً ، ليفسر بها جلده وجمود عينيه ؛ ولكن قلبه يفضح ذلك التطير ، ويبدي حقيقة تشاؤمه ، و نقلت إحدى المواقف حزن الشاعر الشديد على أبي العشائرحين وقع في الأسر ؛ فظلَّ يطلبه ، و وصل إلى مرعش[3] في أثره .

---

(١) . الديوان : ٤١٤/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٤١٤/٢

(٣) . مرْعش: (مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم ، لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور يُعرف بالمرواني بناه مران بن محمد الشهير بمروان الحمار ، ثم أحدث الرشيد بعده سائر المدينة :. معجم البلدان : ٥/ ١٤٦

يقول[1] :

وأتركُ أنْ أبكي عليكَ ، تَطَيُّراً [2]، وقَلْبِي يَبْكِي ، والجَوانحُ تلْطِمُ

ولا عَبْـــرةٌ إلّا ودَمْعـــيَ فَوْقَهَـــا ، ولاحُـــزْنَ إلا مِنْـــهُ حُزْنـــيَ أَعْظَـــمُ

وإنّ جُفُـــوني ، إنْ وَنَـــتْ للئيمـــةٌ ، وإنَّ فُـــــوادي إنْ ســـــلَوْتُ لأَلأَمُ

كره الشاعر هنا البكاء على أبي العشائر ؛ كراهة أن يُصيبه أدنى أذى ، وقد بلغ من حب الشاعر له إلى درجة التطير من البكاء عليه ، حتى و إن كان عنيفاً على قلبه و جوانحه التي لم تفتر من النياحة و اللطم ، وبالرغم من تطير الشاعر من البكاء إلا أنّ الموقف جعله يؤنب جفونه إنْ ونت عن البكاء ، ويلوم قلبه إن سلا عن الحزن ، و هذا ماجعل الجفون والقلب في حيرة شديدة من هذا الشاعر الذي ترك البكاء تطيراً ، و عذله إن قصّر ؟!

فهل تُمثّل هذه الحالة حالة ذهول و فقدان وعي و عدم قدرة على التصرف ؛ لعِظم الخطب و هول المصاب ؟!

و ذكر الشاعر شيئاً آخر شفع له ، و هو اعترافه بأنَّ كتمانه رياءً أمام العدو ؛ لإظهار الجلد ، وحقيقة الأمر مكنونة في الصدور ، لا يعلمها إلا الذي يعلم ما تكن الصدور ، يقول[٣]:

وأُظْهِـــرُ للأَعْـــدَاءِ فِيـــكَ جَـــلاَدةً ، وأَكْـــتُمُ مَـــا أَلْقَـــاهُ واللهُ يَعْلَـــمُ

سَـأَبْكيكَ ، مـا أَبْقَـى لِـيَ الـدَّهرُ مُقْلَـةً فـــإِنْ عَزَّنـــي دَمْـــعٌ فَمَـــا عَزَّنـــي دَمُ

ب– التنفيس عن النفس :

تأنس النفس الأنس بالمحبوب و تطمئن للقرين القريب إلى الروح ، الذي ــــــــ

(١) . الديوان : ٢/٣٨٥-٣٨٦

(٢) . تطيرا : الاسم منها الطيّرة ضد الفأل وهو ما يتشاءم به وأصله فيما يقال التطيرُ بالسوانح والبوارح من الظباء والطير وغيرهما ، من أفعال الجاهلية وكان يصدهم عن مقاصدهم فنفاه الشرع ، وأبطله ونهى عنه.

(انظر : لسان العرب : (طير)) .

(٣) . الديوان : ٢/٣٨٦

يشاطرها الهموم ويطيب خاطرها إذا اشتد الزمان ، ونبا الخلان...وربما لم يعد البدر المفقود في الليلة الظلماء حصراً على أبي فراس في شأنه مع قومه!

فالقرين المفقود يشكل بدراً مرتقباً في الليلة الظلماء التي يخلو منها الصديق الصدوق .

وقد أنس شاعرنا بقرب قرين له ، ثم غاب عنه ، فحلّت الكَآبة وسقمت النفس من أثر السهاد وذاب كمدا .

يقول[1]:

مــنْ غــابَ عنــه قــرينٌ كَــانَ يألَفُــهُ وعَــاشَ ، عَــاشَ كئيبــاً وَالِهــاً كَمِــدَا

يَرْعَـى النُّجُـومَ وَمَـا يَنْفَـكُّ فـي فِكَـرٍ تَنْفـي الرُّقَـادَ ، وتُـدْنِي الهـمَّ والسَّـهدَا

و أجدر الناس بالمشاركة الوجدانية القربى ، فهم المرفأ الآمن من أوصاب الدنيا وأكدارها، ولعل الأخ أرقهم جناناً وأحفظهم للقربى[2] وهو الساعد الأيمن والسلاح في الهيجاء... وكذا كان أبو الهيجاء لأخيه أبي فراس ، وقد أدرك الأخير ما لحق أخاه من جزع شديد على الأسر الذي حال بينهما ، وقد صور تلك الفاجعة العظيمة التي جعلت نفسه تضيق برحب الأرض وما اتسع من الفضاء ، وجعلته لايفتر يُسائل الركبان ، ولم ــــــــ

(١) . الديوان : ٢/٩٧

(٢) . وفي خبر الخنساء مع أخيها صخر ما يثبت ذلك ، وذلك حين مرض مرضاً شديداً فأتاه عائد يعوده وامرأته سلمى على باب الخباء فقال لها : كيف أصبح صخر الغداة ؟ قالت : بشر حال ، لاحيٌّ فيرجى ولا ميتٌ فيُنعى ولقد لقينا منه الأمرَّين، فسمعها صخر فاشتد ذلك عليه و كان يجد فيها وجداًشديداً فلما دخلت عليه قال لها : كيف قلت للعائد ؟ قالت : أو ليس قد صدقت ؟ فازداد غضباً و قال في نفسه : لئن سلمت لأفعلنّ و لأفعلنَّ . ثم أتى عائد يوماً آخر يعوده و أم صخر (الخنساء) على باب الخباء ، فقال لها العائد : كيف أصبح صخر الغداة و كيف بات البارحة ؟ قالت : بأحسن حال ، أرجو له مناً من يومنا ولانزال بخير ما رأينا سواده فينا ، فسمعها صخر فقال :

أرى أم صخر لاتمل عيادتي وملّت سُليمى مضجعي ومكاني

إلى أن قال : وللموت خيرٌ من حياة كأنها محلة يعسوب برأس سنان

وأي امريٍ ساوى بأمٍّ حليلةً فلا عاش إلا في شقاً وهوان

(انظر : شرح ديوان الخنساء :ص ١٨-١٩) .

تفتر عينه من الهملان ، فكان الشاعر يُفكر في حال أخيه هل ذاق طعم الكرى ؟ و هل سيجد سلوى ؟ و إلى أي مدى بلغ الصبر ؟

يقول[1]:

أَ أَبْقَـى أَخِـي دَمْعـاً ، أَذاقَ أَخِـي كَـرى؟ أ آبَ أَخِـي بَعْـدي ، مِـنَ الصَّـبرِ آئِـبُ؟

سَــقَى اللهُ أَرْضَ"الموْصِــلِ"المُزنَ إنَّهــا لِمَـنْ حَلَّهـا فَـرْضٌ لَـهُ الحُـبُّ واجِـبُ

بِنَفْسِي وإنْ لم أَرضَ نَفْسِي لراكِبٍ يُسائلُ عنّي كُلّما لاحَ راكبُ
فما ذاقَ بَعدي لذّةَ العَيْشِ ساعةً ولانَابَ جَفْنَيْهِ مِنَ النّومِ نائِبُ
قَرِيحُ مَجارِي الدَّمْعِ مُستَلَبُ الكَرَى يُقَلْقِلُهُ[٢] هَمٌّ مِنَ الشَّوقِ ناصِبُ

و لم تبلغ تلك الشكوى هذه الدرجة إلا لأن أخيه بلغ منزلة عظيمة من نفسه ، فقد تجاوزت العلاقة حد القربى ، فمن يضاهي منزلة أخيه ؟! يقول[٣] :

أخي لا يُذْقني اللهُ فِقدَانَ مِثْلِهِ! وأَيْنَ لهُ مِثلٌ ، وأَيْنَ المُقَارِبُ؟
تَجَاوَزَتِ القُرْبَى المَوَدَّةُ بَيْنَنَا فَأَصْبَحَ أدنى ما يُعدُّ المُنَاسِبُ

ولو كان بوسع بني البشر حمل هموم بعض ، لكان أولى الناس بذلك الشاعر ، ليبقى أخوه خالياً من الهموم يقول[٤] :

ألا ليْتنَي حُمّلتُ هَمّي وهَمّهُ وأنَّ أخي نَاءٍ عنِ الهَمِّ عَازِبُ
فمَنْ لم يَجُدْ بالنَّفسِ دُونَ حبيبِهِ فما هُوَ إلا ماذقٌ[٥] الوُدِّ كَاذِبُ

---

(١) . الديوان : ٣٣/٢

(٢) . يقلقله : القلقلة : شدة اضطراب الشيء وتحركه . (لسان العرب: (قلل)) .

(٣) . الديوان : ٣٣/٢

(٤) . المصدر نفسه : ٣٣/٢

(٥) . ماذق : مذَق الود : لم يخلصه . (لسان العرب : (مذق)) .

(١٤٤)

وقال في مفارقة أخيه الأكبر بعد أن كان الصديق الصدوق والأخ الحنون والصدر الرحيب، الذي يسع هموم الشاعر[١] :

مازال مُعْتَلَجَ[٢] الهُمُومِ بِصَدْرِهِ حَتَّى أَبَاحكَ ما طَوَى مِنْ سِرِّهِ
أضمرتُ حُبُّكَ ، والدُّمُوعُ تُذيعُهُ ، وطوَيْتُ وُجْدَكَ، والهَوى في نَشْرِه
تَرِدُ الدُّمُوعُ ، لما تُجِنُّ ضُلُوعُهُ تَتْرَى[٣] إلى وَجنَاتِهِ أَوْ نَحْرِهِ

يتضح من هذه الأبيات أنَّ الشاعر خاض في الأمور الوجدانية ، و رسمها بصورة تعكس مافي داخله من لهيب و حُرقة ظهرتا واضحة جلية ، و هي صورة لا يقدر على رسمها إلا من اكتوى بنارها ، وتلظى من سموم همومها ، و قد نقل صوراً تُسمعنا أزيز صدره و أنين قلبه ، حتى وإن نقلها عن أخيه ، و تظهر هذه الإزاحة بلونها الخاص ، و طابعها الوجداني البحت في صورة تبث عِظم الشكوى ، وتمكّن البلوى .

جـ- التظلّم:

تنبع شكوى الشاعر ممن ظلمه من الإحساس بالظلم والقهر ؛ وذلك بدافع طلب الإنصاف من ظالمه ، وقد يكون ذلك الظالم على سبيل الحقيقة أو غيرها . و قد يشكو الشاعر ذلك الظالم للتشهير بظلمه ، ومن أطرف صور الظلم التي دارت بين الظالم والمظلوم ، تلك التي تدور بين المحبين ، ومنها ما نقله الشاعر عن خصمه الذي بات يُشهِّر بالظالم ويُقبِّح ظلمه ويحاول الانتقام منه ؛ فقال واصفاً حال تلك المرأة التي آلمها أن ترى الشاعر يمر دون أن يُعرّج [٤] :

قَامَـــــتْ إلـــــى جَارَتِهَـــــا تَشـــــكُو ، بِـــــذُلٍّ وشَـــــجَا

---

(١) . الديوان : ١٩٥/٢ – ١٩٦.

(٢) . معتلج : اعتلج الهم في صدره : التطم على سبيل مثال اعتلاج الموج إلى التطامه . (لسان العرب : (علج))

(٣) . تترى : متقطعة ، أو جاءت متواترة بينها فترة . (انظر لسان العرب : (وتر)) .

(٤) . الديوان : ٥٩/٢

أَمَـــــا تـــــرينَ ، ذا الفَتَـــــى؟ مَـــــرّ بِنَـــــا مَـــــا عَرَّجَـــــا

إنْ كـــــانَ مـــــا ذَاقَ الهـــــوَى ، فَـــــلا نَجَـــــوْتُ إنْ نَجَـــــا

وقد جمع الشاعر في بيت واحد شكوى البشر وغيرهم من ظالم واحد ، ففي إحدى وقائع سيف الدولة ، هربت بنو كلاب عن دلوك خوفاً من سيف الدولة ، فقال الشاعر مصوراً ذلك المشهد[١] :

قدْ ضجَّ جيشُكَ منْ طولِ القِتَالِ بِهِ ، وَقَـد شَـكتْكَ إلينـا الخيـلُ والإبـلُ !

فالواضح أنَّ خيل سيف الدولة أحست بالرهق والظلم ، فما كان منها إلا أن شكت ذلك الألم لأحدٍ من الصنفين:

- مَنْ يدحر الظلم عنها.
- منْ تنقل له ذلك الإحساس دون انتظار رد فعله.

فإن كان الأمر الأول ، فهو أمر لا يجرؤ عليه أحد ، لأن مهابة فارسها تُلجم كل من همّ بالشكوى.

وإن كان الآخر فأحسب – والله أعلم – أن الشاعر غير موفق في ذلك ، لأنّ من يشكو لينقل الأحاسيس ، لا يشكو إلا لمن يألم لذلك الإحساس ، والشاعر بالطبع لا يقل أمر فروسيته عن أمر فروسية المشكو منه - سيف الدولة – فهل تشكو الفرس من فارسها إلى فارس؟!

أما إذا شكا الفرس إلى فارسه ، فالأمر مستساغ لأنّ العلاقة بين الخيل وصاحبها علاقة عظيمة ، فقد يربو حب الخيل عند صاحبها على حب الولد والأهل ، فإن كان أحدُهُ يعطف على الخيل ، فالأولى أن يكون صاحبها.

---

(١) . الديوان : ٢٩٧/٢

د– الشكوى إلى الله (الدعاء):

الالتجاء إلى الله ملجأ القوي والضعيف ، وهو أمر لا غنى في حياة المسلم عنه في كل عظيم وحقير.

وأكثر ما تشكو النفس بلواها إلى الله في ساعة الاختلاء بالنفس ، والابتعاد عن أعين البشر فتفضي بأسرارها ، وتبوح بما وارته عن أعين الخلق.

والشكوى إلى الله من قهر الأقارب ، وجورهم شاهد في كل مكان وزمان والحرب الدؤوب أشد من وقع السهام وضرب السيوف ، وقد صور ذلك المشهد الرجل الذي شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحالة التي بينه وبين قرابته ، والحديث بتمامه ، عن أبي هريرة ، أنّ رجلاً قال : يا رسول الله : إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئون إلي ، وأحلم عنهم ويجهلون علي ، فقال : " لئن كنت كما قلت، فكأنما تُسفُّهم[1] الملّ ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ، مادمت على ذلك[2].

وقد شكا الشاعر في ساعة قهر ما وجده من بعض عشيرته الذين تنكروا له ، وقلبوا له ظهر المجن[3] ، بعد أن كان مجنهم ، فقال بعد أن بلغه أنَّ قوماً من أهله كرهوا خلاصه من الأسر ، يقول[4]:

إلى الله أشكُو عُصْبةً مِنْ عَشِيرَتي يُسيئونَ لي في القَوْلِ ، غَيْباً ومَشْهَدَا
وإنْ حَارَبُوا كُنْتُ المجنَّ أَمَامَهُمْ وإنْ ضاربُوا كُنتُ المُهنَّدَ واليَدَا
وإنْ نابَ خَطْبٌ أَوْ أَلَمَّتْ مُلِمَّةٌ جَعْلتُ لهُمْ نَفْسِي ، وَمَا مَلَكَتْ فِدَا

---

(١) . تسفهم الملّ : أي تجعل وجوههم كلون الرماد ، وقيل هو من سففت الدواء ، أي أخذته غير معجون . أنظر: لسان العرب : (سفف)

(٢) . صحيح مسلم : ص١٠٣٣

(٣) . أي انقلب عما كان عليه من وده ، والمجن : الترس . (جمهرة الأمثال ١٠٥/٢)

(٤) . الديوان : ٨٥/٢

وتأديب القبائل المتمردة أمر عظيم ، قد يفوق غزو الروم ، فغزو الروم جهاد ، أما تأديب العشائر ، فهو أمر مؤلم ، لأنه يحتاج إلى حلم وحزم ، وبطش وصفح ، فكان على الشاعر أن يبرأ لله مما فعلته"بنو كلاب[1] ونمير[2]"

يقول [3]:

إلـى اللهِ ، أَشْـكُو مَـا أَرَى مِـنْ عَشَـائِرٍ إذا مَـــا دَنَوْنَـــا زَادَ جَـــاهِلُهُم بُعْـــدَا
وإنَّـــا لتَثْنِينَـــا عَوَاطِـــفُ حِلْمنَـــا علـيهِمْ وإنْ سَـاءَتْ طَرَائِـقُ ُهُمْ جِـدّا
ويَمْنَعُنَـــا ظُلْـــمَ العَشِـــيْرةِ أَنّنَـــا إلـى ضُـرِّها ، لـو نَبْتَغِـي ضَـرَّها ، أَهْـدَى

ومـا أقبح الجهـل الـذي يُعمـي علـى الحقـائق ، فلـو رجعـت تلـك القبائـل إلى رشـدها ؛ لعلمت حقيقة ضعفها وحاجتها إلى من يذود عنها ، ويصدُّ من يبطش بها.

يقول[٤] :-

ولـو عرفـتْ هـذي العشـائرُ رشـدها إذاً جعلتنـــا دُونَ أعـــدائها ســـدّا
ولكـــنْ أراهَـــا- أصـــلح اللهُ حالهـــا وأخلفها – بالرُشدِ – قد عدمتْ رُشدا
إلـى كـم نـردّ البـيضَ عـنهم صـواديا ونثني صـدورَ الخيـلِ قد مُلئت حِقدا؟

وقد بّث الشاعر شكواه إلى الله في خلوة أسره ، ورجا من خالقه أن يفرج عنه ويرحم ضعفه بين قوم لا ينكرهم ولاينكرونه ، فهو ممن جلب النار والعار على بلادهم ، ثم دالت الأيام عليه ، فوقع أسيراً بينهم ، لا يملك من أمره شيئاً ، إلا أن يبوح بذلك الألم العظيم الذي لا يقدر على وصفه إلا لخالقه ، فوصفَ تلك الشدة التي وضعت الرفيع ، ورفعت ــــــــ

(١) . بنو كلاب : إحدى القبائل التي كانت منتشرة في القرن الرابع الهجري والتي كانت كالرعايا لبني حمدان يؤدون إليهم الأتاوات وينفرون معهم في الغزوات ، وقد شقوا عصا الطاعة على سيف الدولة وعاثوا في أعمالهم ، فكان يداريهم لاشتغالة بحروب الروم ، ولما عيل صبره منهم هاجمهم وأوقع بهم .
انظر : عشائر الشام ، أحمد وصفي زكريا ، ١ /٨٤ ، دار الفكر ، ط٢ ، دمشق ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

(٢) . نمير : من قبائل البدو في الشام . (انظر :المصدر السابق : ١ /٧٩)

(٣) . الديوان : ٧٤/٢

(٤) . المصدر نفسه : ٧٤/٢

الوضيع ، وقلدت الحقير زمام العظيم، يقول[١]:

إلـــى اللهِ أَشْـــكُو أَنَّنَـــا بِمَنَـــازِلٍ تَحكَّـــمُ فـــي آســـادِهِنَّ كِـــلابُ[٢]

يعجز المرء عن وصف فراق الأحبة ويحار في التعبير عن تلك الوحشة التي يجدها حاضرة في كل وقت ؛ لما لذلك من وحشة وكآبة عظيمة .

وكان أبو زهير المهلهل نصر بن حمدان ، يحتل منزلة عظيمة في فؤاد الشاعر وفي فراقه لوعة عظيمة وكربة شديدة تضرم وجدانه ناراً....

فشكا الشاعر إلى ربه ما يجده من محنة عظيمة لا يعلم بها أحد إلا الله ، فهو القادر على كشف الضر ، مجيب المضطر إذا دعاه..

يقول[٣]:

إلـى الله أشْـكُو مـنْ فِرَاقِـكَ لَوْعـةً ، طَوَيْتُ لهَا ، مِنّي الضُّلُوعَ ، عَلَى جَمْرِ

وحَسْـرَةَ مُرتـاحٍ إذا اشْـتَاقَ قَلْبُـهُ ، تعلّـلَ بالشَّـكْوى وعَـادَ إلـى الصَّـبرِ

فَعُدْ يازمانَ القُرْبِ ، في خَيْرِ عِيْشَةٍ ، وأَنْعَـمِ بَـالٍ ، مـا بَـدَا كَوْكَـبٌ دُرِّي

---

(١) . الديوان : ٢/ ٧٥

(٢) .طرق الإمام الشافعي _ رحمه الله _ ما يُقارب هذه الفكرة في قوله :

تمـــوتُ الأُسْـــدُ في الغابَـــاتِ جُوعـــاً ولحـــمُ الضـــأنِ تأكلُـــهُ الكِـــلابُ

وعبـــدٌ قـــد ينـــامُ علـــى حريـــرٍ وذُو نَسَـــبٍ مفارِشُـــهُ الـــترابُ

(ديوان الإمام الشافعي : ص ٤٥)

(٣) . الديوان : ٢/٢٢٠

ثالثاً : تمازج عتابه وشكواه:

يقع امتزاج العتاب بالشكوى في النفس ؛ لما يتركه من أثر في نفس المتلقي ، و هو يعطي الأشياء رؤية جديدة ، تأخذ من سمات العنصرين ، فتبدو في حلة جديدة تميل بالمكشوف إلى الغامض ، وبالغامض إلى المكشوف.

والجدير بالذكر أن العتاب في أصله قوة وجرأة ، والشكوى في أصلها ضعف ولين، والجمع بين القوة واللين ، جمع بين العزة والاستعطاف ، فهذا يرفع أمر ذا ، وذا يحط من الحدة الممجوجة .

وقد مزج الشاعر كثيرا هذين الغرضين سوياً ، واختار ما يناسب الشكوى ، وأجراه مجرى العتاب ، كما أجرى العتاب مجرى الشكوى.

يقول أبو فراس[1] :

ألا مُبْلِغٌ عَنّي ، ابْنَ عَمِّي ، رِسَالَةً بَثَثْتُ بها بَعْضَ الذي أَنَا كَاتِمُهْ

أَيَا جَافِياً! ما كُنتُ أَخْشَى جَفَاءَهُ وإنْ كَثُرَتْ عُذّالُهُ ، ولَوَائِمُهْ

كَذَلِكَ حَظِّي مِنْ زَمَانِي وأَهْلِهِ يُصَارِمُنِي الخِلُّ الذي لا أُصارِمُهْ

وإنْ كُنْتُ مُشْتَاقاً إليكَ فإنّهُ لَيَشْتَاقُ صَبٌّ[2] إِلْفَهُ ، وهْوَ ظَالِمُهْ

فالملاحظ أن " بثثت " توحي بأنّ الشاعر سيشكو لأبي زهير ، إلا أنّ أبا زهير تحول إلى مُعَاتب على ذنب لم يتوقعه الشاعر منه ، على الرغم من وجود دلائل تدل على وجوده ، ولكن ثقة الشاعر تكذب كل لائم وتقطع السبيل عليه .

وجفاء أبي زهير ، يُدخله في زمرة الأخلاء الذين قطعوا حبل الوداد ، الذي طالما صانه الشاعر.

ولا مُسوغ لشوق الشاعر لمن جفاه ، إلا أنّ الظلم في حياة الألفة والألاف ، يُحرّف في بعض معانيه ، فتجد المحب يتجرع المر من ظالمه دون أن يجد في نفسه عليه ، إلا الشوق

(١) . الديوان : ٣٩٣/٢

(٢) . صبّ : عاشق . (انظر لسان العرب : (صبب)

والصبر على الزلات ، بل قد يكون ذلك علامة من بعض علامات الحب التي منها : "تصديقه إن كذب ، وموافقته إن ظلم ، والشهادة له وإن جار ، واتباعه كيف سلك"[1]

وإصلاح ما أفسده أبو زهير ، سهل يسير ، ألوكة محكمة يزينها إعتاب يقيم رواق الود الذي صدعه الجفاء ، يقول[2] :

أَعِنْـدكَ لـي عُتْبَـي فَأَحْمِـلَ مَـا مَضَـى وَأَبْنِـي رُوَاقَ[٣] الـوُدِّ ، إذْ أَنْـتَ هَادِمُـهْ

فـلا تَحْبِسّـنْ عَنِّـي الجـوابَ ، مُوَشَّـحاً بِعِقْـدٍ مِـنَ الـدُّرِ الـذي أَنْـتَ نَاظِمُـهْ

فالشاهد أنه من المتوقع من الشاعر بعد أنْ بث شكاته ، أن ينتظر الإشكاء من خصمه ، ولكن الأمر تحول في النهاية إلى انتظار (العتبى).

و يُثبت هذا امتزاج معنى العتاب والشكوى في شعر ه امتزاجاً كبيراً ؛ لاتحاد مادتهما واستقائهما من منبع واحد .

و مزج الشاعر بينهما أيضاً حين أرسل لأبي حصين[٤] في قوله [٥]:

إنّـي عليـكَ ،" أبَـا حُصَـيْنٍ "عَاتِـبٌ والحـرُّ يَحْتِمـلُ الصـدِيقَ ، ويَصْـبِرُ

وإذَا وَجَـدتُ علـى الصـديقِ شـكوتُهُ سِـرّاً إليـهِ وفـي المَحَافـلِ أَشْـكُرُ

---

(١) . طوق الحمامة : ص ٢٤.

(٢) . الديوان : ٣٩٤/٢.

(٣) . رواق : بيت كالفسطاط يُحمل على سطاع واحد في وسطه ، ورواق البيت : سترة مقدمة من أعلاه إلى الأرض . (انظر :تهذيب اللغة : (را ق)) .

(٤) . هو علي بن عبد الملك بن بدر بن الهيثم الرقي ، ولاه سيف الدولة القضاء ، وكان ظالماً، إذا مات إنسان أخذ تركته لسيف الدولة وقال : "كل من هلك فلسيف الدولة ما ترك ، وعلى أبي حصين الدرك" قُتل في غزوة مغارة الكحل سنة ٣٤٩هـ ، وقيل إنّ سيف الدولة داسه بحصانه وقال : " لا رضي الله عنك ، فإنك كنت تفتح لي أبواب الظلم" انظر : زبدة الحلب من تاريخ حلب : ص ٦٨، ٧٧

(٥) . الديوان : ٢٢٩/٢ – ٢٣٠

فقد أفصح الشاعر في البيت الأول عما في نفسه ، وأن ما يجده على أبي حصين "عتاب". وفي البيت الثاني ، كشف الشاعر عن الموجدة التي وجدها في نفسه، إذ لا تطغى عليه فتفسد قلبه ونفسه ، بل تخرج مباشرة إلى شكوى من العامة أو الخاصة. فإن كانت من العامة ، فلخروجها مطلق الحرية.

أما إن كانت من خاصة الشاعر ، فلا تخرج إلا عن طريق الشكوى السرية ، التي لاتكون إلا بين الشاعر وخصمه من الصديق ولا ثالث لهما.
فلا يجد المعاتب ألماً في عتاب الشاعر ، لما بثه من طمأنينة ، فسويعة يتألمها المعَاتب ، سيقابلها مدح في المحافل ، وثناء طيب لا ينقطع. والشاهد في ذلك أنّ الشاعر يرى في العتاب شكوى ، وفي الشكوى عتاب ، لما بينهما من ترابط كبير، وتلاحم ناتج عن وحدة الموضوع ، واتحاد المعنى .

و تشبه الشكوى العتاب في كثير من الملامح و القسمات ؛ و ذلك لأنّ العتاب فن يُلزم الأديب الحذق في اختيار مسالكه التي يسلكها في الوصول إلى مبتغاه ، و قد لا يؤدي السير على نهج واحد في العتاب المطلوب ؛ لذلك لجأ الشاعر إلى اختيار حِيلٍ أُخرى أقحمها في العتاب. وأشبه ما يماثل العتاب هو الشكوى ، وفي مزجها يظهر العتاب في صيغة أخرى هي أجدر في القبول من العتاب المحض ، وهذا الضرب من العتاب فيه من الفطنة والذكاء بقدر ما فيه من الحيلة والالتواء ؛ وذلك لأنّ الشاكي يجد في نفسه على مُعَاتبه ، فيُشعر المعاتب بما يجده من ضيق أو ألم من جراء الهجران أو الجفاء أو غيره، فيكون بذلك قد تحول إلى عاتب بعد سابق إنذار ، حاله كحال المذنب الذي يعترف بذنبه الذي أورثه اللوم ، ليخلص إلى الرضا ، وفي تمازج عتاب الشاعر و شكواه دليل على ذلك التقارب الشديد بين الغرضين ؛ بدليل إمكانية المزج بينهما ، و المزج بين الأشياء المتقاربة أدعى للقبول من المزج بين الأشياء المتنافرة .
و مما ساعد على تقارب الملامح في العتاب و الشكوى ، تشابه الأهداف مثل إصلاح الود و الرغبة في تنقية النفوس ، والمصارحة التي تخلص إلى الرضا ، و الرغبة في طرد ما يؤدي

إلى الشحناء والتنافر ، و يشترك العتاب و الشكوى في حاجتهما إلى امتلاك القدرة على الإقناع ، و التأثير على المتلقي بأفضل الطرق التي تؤدي الغرض دون أن تحول عن المقصود.

ويُمكن أن يلُمح العتاب و الشكوى في شعر أبي فراس في كثير من المِوَاطن التي تشابهت دوافعها و حاجة التعبير عنها ، لذلك كان من العسير عزل العتاب عن الشكوى في شعره.
فحين قرّع سيف الدولة أبافراس على كتبه التي كان يُرسلها ؛ شكا أبوفراس تلك الحال ، وكان منها قوله[1] :

تَنكّــرَ "ســيفُ الــدينِ" لمَّــا عَتَبْتُــهُ وَعــرَّضَ بــي ، تَحــتَ الكَــلامِ ، وقرّعَــا
فقُــولا لــهُ: مِــنْ أصْــدَقِ الــوُدّ أنّنــي جَعَلتُــكَ مِمّــا رابنــي، الــدّهرَ مفْزَعَــا
وَلــوْ أننّــي أكْنَنتُــه فــي جَــوَانِحي لأوْرقَ مــا بــيْنَ الضُّــلُوعِ وفَرّعــا

فظهرت حاجة الشاعر الملحة على التعبير و التنفيس عن النفس ، و إخراج ما من شأنه يُبرز الموقف ، و يُفند ظنون سيف الدولة الخاطئة في صورة بوح هيّج العتاب ، و يُعد "البوح أوج التجربة النفسية المشحونة هموماً و آلاماً ، و يتخذ الشعراء منه متفرجاً يخففون به عن ذواتهم المثقلة ، و من طريقه ندخل إلى عالم الشاعر الداخلي و نسمع حسيس عواطفه الخفية ، و نتعرف على شواغله الحقيقية ، و أبعاد مأساته و أعماقها" [2].

---

(١) . الديوان : ٢٤٨/٢.

(٢) . الأسر و السجن في شعر العرب : ص ٦٤٨

رابعاً: تماثل عتابه وشكواه من حيث الدرجة :

أ. الضعف :

من أروع صور الامتزاج ما لان العتاب فيه ، ولطفت الشكوى ، فكأن العتاب يوهن قوته ، ليصل إلى ضعف الشكوى ، فتكون أدعى للقبول ، وأجلب للوداد.

ومن ذلك ما كتب به الشاعر إلى سيف الدولة عند مسيره إلى ديار بكر وتخلفه عنه بالشام يقول[1]:

إنـي مُنِعْـتُ مـن المسِـيرِ إلـيْكُمُ ولـو اسـتطعتُ لكُنـتُ أوَّلَ واردِ
أشـكُو ، وهَـلْ أَشْـكُو جنايـةً مُـنعِمٍ غَـيْظُ العَـدُوّ بِـهِ وكبْـتُ الحاسِـدِ ؟
قَـدْ كُنـتَ عُـدّتي التـي أَسْـطُو بهـا ويَـدِي إذا اشـتدّ الزمـانُ ، وسَـاعِدي

إنها شكوى ترسم فضل سيف الدولة وتذكره بإحسانه القديم ، الذي أخسأ كل حاسد ، وأضرم النار في صدر العدو.

ولا عجب في ذلك ، لأنّ من كان سنده سيف الدولة ، سيحيا عزيزاً ويموت كريماً.

وإظهار محاسن المعاتب قبل عتابه يهيء الموقف لقبول العتاب والإنصات له ، وقبول ما يعرضه.

وبعد ذلك يأتي دور الإفصاح عما وجده في نفسه على معاتبه بصورة لطيفة تبرز الذنب للمعاتب وتسبقه بالصفح والغفران ، كصبر البار الذي يلزمه بره بوالديه – وإن ناله ضر منهما – لين الجانب لهما وخفض الجناح لهما من الرحمة.

يقول[2]:

فرُميـتُ منـكَ بغيـر مـا أمَّلتُـهُ والمـرءُ يشـرقُ بـالزُّلالِ البـاردِ
لكـنْ أتـتْ دونَ السُّـرُورِ مَسَـاءَةٌ وَصَـلتْ لهـا كـفُّ القّبُـولِ بسـاعدِ

---

(١) . الديوان : ٢/٧٢-٧٣

(٢) . المصدر نفسه : ٢/٧٣

(١٥٤)

فصـبرتُ كالولـدِ التقـيّ ، لبـرِّه أغْضـى علـى أَلَـمٍ لضـربِ الوَالِـدِ
ونقضـتُ عهـداً كيـف لـي بوفائِـهِ! وسُـقيتُ دُونَـكَ كَـأسَ هـمٍّ صَـارِدِ[1]

فلم يخرج الشاعر عن حدود اللطف و الرقة برغم غضبه ، و عبّر عن خيبة أمله فيه بصورة المرء يشرق بالماء الزلال البارد ، وبرر إغضاءه عما لقيه منه بصبر الولد البار التقي على ألم الضرب من أبيه[٢].

وكان هذا اللطف قبل الأسر ، ولم ينقطع تماماً بعد الأسر ، وكذا كان في لينه وعنفه ، مع خاصة الناس وعامتهم.

وقد عاش الشاعر ساعات خوف عظيمة ، لتوقعه عتاب سيف الدولة ، و الشعور بالخوف يولد عدم الرضا عن النفس حتى في اقتناعها بصحة فعلها، ويؤثر الاضطراب الناتج عن ذلك بشكل واضح في تعبير الوجه وفي بعض التصرفات الصادرة عن الشخص في طريقة تعامله مع الآخرين.

و شكا الشاعر حالة الخوف التي جرعته أشد العذاب في خوفه من عتاب سيف الدولة الذي قرعه على إلحاحه في تعجيل أمر الفداء ، فنقل تلك الصور المتقلبة التي كابدها ، فهو الذي يبيت ليله خائفاً يترقب عتاب أميره ، فإذا ما جاء الصباح ، تحولت حالة الخوف تلك إلى حزن لا ينقضي وكربة لا ترحل ، بل تنتقل إلى مساء مفزعٍ مروع ... وهكذا يتعاقب الليل والنهار عليه .

ومما يزيد عمق الأسى أنّ الشاعر متّعَ سيف الدولة بشبابه الذي أمضاه في خدمته ، يقود الجيوش ، ويحرس الحمى ويدافع عن قومه باللسان والسنان ، منشغلاً عن صباه وزهرة فتوته ، ثم هو ذا يُقابل بالنكران ، ويُقرّع حين يطلب حقاً من حقوقه.

يقول[٣]:

---

(١) . صارد : خالص . (انظر : تهذيب اللغة : (صرد)) .

(٢) . انظر : أبو فراس الحمداني الموقف والتشكيل الجمالي :ص٩

(٣) . الديوان : ٢٤٦/٢

(١٥٥)

وهبتُ شبابي ، والشَّبابُ مَضِنَّةٌ [١]، لأَبْلَجَ مِنْ أَبناءِ عَمِّيّ ، أَرْوَعَا !

أبيتُ ، مُعَنىً مِنْ مَخافَةِ عَتْبِهِ ، وأُصْبِحُ ، مَحْزُوناً، وأُمْسِي ، مُرَوَّعَا !

فلمّـا مَضَـى عصـرُ الشّـبيبةِ ،كُلّـهُ ، وفَـارَقني شَـرْخُ الشـبابِ ، مُودِّعِـا ،
تَطلَّبْـتُ بـينَ الهَجْـرِ والعَتْـبِ فُرْجَـةً فحاولـتُ أمـراً ، لايُـرامُ ، مُمنَّعَـا

ثم مضى في سبر أغوار نفسه ، فاستنزف جراحها ، و تهافتت جُلّ ذكرياته الحزينة ، وكأنه ما مرّ بسعادة قط!!

يقول[٢]:

فلـو أنَّ أَسْـري بـينَ عَـيْشٍ نعمتُـهُ حَملتُ لذاكَ الشّهدِ ذا السُّمَ مُنْقَعا[٣]
ولكـنْ أصـابَ الجُـرُح جِسـماً مُجَرَّحـاً وصـادفَ هـذا الصَّـدْعُ قلبـاً مُصـدَّعا
وصـرتُ إذا مـا رُمْـتُ فـي الخيـرِ لَـذَّةً تتّبعتُهَـا بـينَ الهمُـومِ ، تَتَبُّعَـا

وشملت شكواه تلك شيب رأسه ، الذي يُعد رواية لحياته المضنية التي أمضاها ولما تتحقق أمانيه يقول[٤] :-

وهَـا أَنـا قـدْ حَلَّـى الزَّمـانُ مَفَـارِقي [٥]، وتَـوَّجني بالشَّـيْبِ تاجـاً مُرَصَّـعَا
فَلَـو أنَّنـي مُكّنْـتُ ممَّـا أُريـدُهُ مِنَ العيشِ ، يوماً ، لم يجدْ فيّ مَوْضِعَا

ثم عتب الشاعر عن طريق الشكوى ، وذلك حين استجدى الوفاء من الأصحاب ، وحقيقة هذا الاستجداء عتاب على أصحابه الذين غدروا به ، وفخر بنفسه فخراً يعاتب به الأصحاب الذين ضيعوا ما حفظه الشاعر ، وقطعوا ما وصله.

يقول[٦] :

---

(١) . مضّنة : الشي النفيس المضنون به . (انظر : لسان العرب : (ضنن)) .
(٢) . الديوان : ٢٤٦/٢
(٣) . منقعا : منقع : بالغ قاتل . (انظر : لسان العرب: (نقع)) .
(٤) . الديوان : ٢٤٧/٢
(٥) . مفارقي : المفرْق : وسط الرأس وهوالذي يُفرق فيه الشعر . (لسان العرب : (فرق)) .
(٦) . الديوان : ٢ / ٢٤٧

أمَـا صـاحبٌ فـردٌ يَـدومُ وفـاؤُهُ! فيُصفي لمنْ أَصْفَى ، ويَرْعى لمنْ رَعَى
أ فـي كُـلِّ دارٍ لـي صـديقٌ أودُّهُ إذا مـا تَفَرَّقْنَـا حفظـتُ وضَـيَّعَا؟

وعجب من قومه الذين استبدلوا ما هو أدنى بالذي هو خير ، وعجباً لمن يتيمم وهو يدرك الماء !!

يقول[1] :

لقدْ قنِعُوا بَعْدي مِنَ القَطْرِ بالنَّدى ؛ ومَنْ لم يَجِدْ إلا القُنُوعَ تَقَنّعَا

ومع زيادة حدة غضب سيف الدولة على الشاعر ، ازداد الشاعر ليناً ، فأظهر ضعفه لذلك الأمير الذي تنكر لابن عمه ، وقرعه على عتابه الذي لا يدل إلا على حاجته الماسة إلى أميره وصاحبه ومقصده في كل ملمة.

يقول[2] :

تنكَّرَ "سيفُ الدِّينِ" لما عَتَبْتُهُ ، وعَرَّضَ بي ، تَحْتَ الكَلامِ ، وقَرَّعَا
فقُولا لهُ: مِنْ أَصْدقِ الوُدِّ أَنَّني جَعلتُكَ ممّا رَابني ، الدَّهْرَ ، مَفْزَعَا
ولَوْ أَنَّني أكننتُهُ في جَوانِحِي[3] لأَوْرَقَ ما بينَ الضّلوعِ وفَرَّعَا

أخيراً ختم شكواه وعتابه بالشكر والعرفان لله أولاً ، ثم لسيف الدولة الذي كانت له أياد بيضاء مهما اسوّدت الخطوب وأطبقت الكروب ، وهو الذي تفضل وتكرم وأسمى ، فهل ينقطع جميله السابق ؟!

---

(١) . الديوان : ٢/ ٢٤٨

(٢) . المصدر نفسه : ٢ / ٢٤٨

(٣) . جوانحي : الجوانح : أوائل الضلوع تحت الترائب مما يلي الصدر ، سميت بذلك لجنوحها على القلب . أنظر : لسان العرب : (جنح)

يقول[1]:

فللهِ إحْسَانٌ عَلَيَّ ونعمةٌ ؛ ولله صُنْعٌ قَدْ كَفَاني التَّصَنُّعَا

أرانـي طريـقَ المكْرُمَـاتِ ، كَمَـا رَأَى ، "عَلِـيٌّ "وأَسْـمَاني علـى كُـلِّ مَـنْ سَـعَى

ب: القوة :

و يُعد النوع الآخر في تماثل العتاب والشكوى في الدرجة ، نقيض ما سبق و هو القوة، فتكون الشكوى منبعثة من نفس غضبى مضطربة ، قد تنسى منزلة المخاطب وقدره ، ويجتمع معها عتاب قوي حاد ، لا يأبه صاحبه أحياناً ما يجره عليه ذلك العتاب.

وقد يورث هذا النوع الصدود أو قبح الإعتاب ، ولكنه يحمل من حرارة العاطفة وقوة المنطق ما يربو به على أي نوع آخر.

ومما تأثر منه الشاعر ، لأثره العظيم عليه وتأزُّم نفسيته به ؛ هو تضخيم العواذل للأمور ، وكأنَّ مصائب الدنيا ما حلّت إلا بأسره !!

يقول[٢]:

تكـــاثر لُـــوّامي علـــى مَـــا أَصَـــابني كَـأنْ لـم تَنُـبْ إّلا بأَسْـري النّوَائِـبُ

يقولـونَ:" لَـمْ يَنظُـرْ عواقـبَ أمـرِه " ومِثلـي مَـنْ تجـريَ عَلَيْـهِ العَواقِـبُ

ففي البيت الأول تنضح الشكوى الفخر نضحاً ، إذ لا يكثر لغط الناس ، وسخطهم إلا لأمر عظيم ، وقد عظم عليهم أمر الشاعر ، ولكنّه لم يقبل منهم ذلك اللوم ؛ لأنّ لومهم كوّن الاحتجاج والشكوى من قوم جهلوا قدر فارسهم وحسبوه غِراً يجهل عواقب الأمور، ولا يقدر لها قدرها.

---

(١) . الديوان : ٢٤٩/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٣١/٢

يُفقد الغضب الإنسان صوابه ؛ لذلك تجد الغضبان يرفع الصوت ، ويكثرالشتم ، ويرد دون تفكير مسبق في صواب الرد أو خطئه ، وقد قرع الشاعر –كما سبق – أولئك العواذل بحجته القوية عن طريق الاستهزاء ، والسخرية ، والتعجب ؛ لإنكار مازعموه.

ثم انهال بعدها بوابل من العتاب القوي ثائراً لكرامته التي أُستبيحت في غيبته ، تالياً عليهم سفر الفروسية ، الذي يُلزم الشجاع بأخلاق حربية تتوجه ، فالفارس الشجاع الأبي يعلم أنّ الحرب سجال ، وأنّ عزته وأنفته تأبى عليه الفرار .

فإن كان العدو يرى في أسر خصمه إذلالاً له ، فإنّ الفارس يرى بعين الحقيقة أنّ الذلة الحقيقية في فراره ، يقول[1]:

ألم يعلم الذُلانُ أنّ بني الوَغَى كذاكَ ، سليبٌ بالرماحِ وسالبُ
أرى مِلءَ عَيْنّيَّ الرّدَى فَأَخُوضُهُ إذا الموتُ قُدّامي وخَلْفي المعَايِبُ
وإنّ وراءَ الحَزْمِ فيها ودونَها مواقفَ تُنسى دُونَهُنَّ التَّجارِبُ

إنها الألسنة التي تنال من الناس ما تجهله عن نفسها ، ولو لزم الناس أنفسهم ؛ لوجدوا في عيوبهم ما يُشغلهم عن عيوب غيرهم !! يقول[2] :

رجالٌ يُذيعونَ العُيُوبَ ، وعِنْدَنَا أُمورٌ لُهمْ مخزونةٌ ومَعَايبُ

وحين يتمكن الحسد من القلوب ، يعميها ، فتتعامى ما تبصره ، وتبصر مالا يُبصر ، و هذا ما جعل قوم الشاعر يُفتون في أمره و هو غائب ، فهو ذل له إنْ أُسر ، وخزي له إنْ فرّ ، ورضا الناس غاية لا تُدرك...

يقول[3]:

وأعلمُ قوماً لو تتعتعتُ دونها لأَجْهضَنَي بالذَّمِ مِنُهم عَصائبُ

وما كان لناس ذلك شأنهم الاستطالة على الشاعر إلا في مغيبه ، لأنهم أحقر من المواجهة ،

---

(١) . الديوان : ٣١/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٣١/٢

(٣) . المصدر نفسه : ٣١/٢

وما قضوا في أمره سراً ، كان لجلجاً ، ولو كان أبلجاً ، لسلك مسلكاً أشرف من الغيبة ، يقول[1]:

ومُضطغنٍ لم يَحْمِلِ السرَّ قلبُهُ تلفّتَ ثمَّ اغتابني ، وهو هَائِبُ

تردّى رِدَاءَ الذُّلِ لمّا لَقِيتُهُ كَمَا تتردَّى بالغُبَارِ العَنَاكِبُ

وبلغت حدة العتاب حين رمى لوامه من قومه بأنهم أشد خطراً عليه من عدوه المحارب[2]، فالمحارب يقف وقفة للقتال ، أما خصمه من أهله فلا يجيد مبارزة أبي فراس إلا في مغيبه ، وذلك أشد خطراً من وقع السنان .

يقول[3] :

فلستُ أرى إلا عدواً مُحارباً وآخرَ خيرٌ منهُ عندي المُحَارِبُ

و يبدو أنّ غضب الشاعر دفعه لهذا التصنيف الذي بيّن مرارة ظلم الأهل ، وأنّ سِلْمَهم ليس بسلم ، بل حربهم النفسية يُجاوز خطرها حد الظُباة .

---

(١) . الديوان ٣١/٢

(٢) . مر ذلك سابقاً في مبحث نفسية الشاعر

(٣) . الديوان ٣١/٢

المبحث الثاني : محاور العتاب والشكوى:

المحور الأول : الأمير الفارس يعاني ذل الأسر :

صدّر أبو فراس طرديته الشهيرة بهذه الأبيات[1]:

مـا العُمـرُ مـا طَالَـتْ بـه الـدُّهُورُ العُمـرُ مـا تـمَّ بـه السـرورُ !
أَيَّـامُ عِـزّي ، ونَفـاذِ أمـري هـي التـي أحسـبُها مـنْ عُمـري
مـا أجـورَ الـدَّهَر علـى بَنيـهِ ! وأَغْـدَرَ الـدَّهْرَ بمـنْ يُصـفيهِ[2]!
لـو شِـئتُ مِمَّـا قَـدْ قَلَلـنَ جِـدّا عَـدَدْتُ أيَّـامَ السُّـرور عَـدَّا

وهو مطلع يدعو إلى التساؤل : كم لبث الشاعر من سني عمره ، كي يعد أيام سروره عدا ؟! وهل هذا المطلع يلائم أميراً رُبيّ على الدلال ونُشّأ على العز؟!

ويمضي شاعرنا في وصف رحلة الطرد التي غمرته فيها السعادة غمراً ، وتربو القصيدة على المئة بيت ، ومن المدهش في مطلع المزدوجة ، مناسبتها للحدث الذي تربص بالشاعر في حياته ، يقول الأستاذ قدري قلعجي:

"وغاضت الكلمات في فم أبي فراس وانقطع حبل الأرجوزة ... إذ كان وراء حفلة الصيد أحبولة رومية تطلب الصيد الأكبر في شخص أبي فراس القائد الكبير وابن عم الأمير ... وكانت جولة قصيرة الأمد لم يثبت في حومتها رفاق الصيد الذين طاروا فراراً من حول ذلك الأصيد الذي ثبت في مكانه يصول ويجول في حفنة من الرجال تكاثر عليهم الأعادي[3].

---

(١) . الديوان ٢/٤٣٥-٤٣٦

(٢) . يدعو هذا البيت إلى إيراد ما ورد في سب الدهر ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر ، أقلب الليل والنهار " . (صحيح مسلم : ص٩٢٤) .

(٣) . أبو فراس الحمداني ، الأستاذ : قدري قلعجي ، (المجلة العربية) ع١٠-١١، السنة الثانية ، ص ٨٥

و كان على الأمير الفارس بعد أن قُضي الأمر ، وتمَّ الأسر ، أن يصمد ويواجه المحنة بما يليق بإمارته وفروسيته التي ناشدته بألا يخضع ولا يرى العدو منه موضعاً للشماتة.
ولم يسلك ذلك الأمير مسلكاً يتعصب فيه لرأيه ، ولم يلح في إقرار مبدأ من مبادئه؛ لئلا يوهم السامع الإلزام بالرأي ، والحق دائماً أقوى فهو لا يحتاج إلى كثرة براهين.

واقتضت لوازم العزة والأنفة المستقاة من شخصيته أن يطمس نظرة العرب للأسير، وهي نظرة استحقار وعيب يُعيّر الأسير به ، ويلحق ذلك العيب بنيه ، لأنه أمارة على وهن وجبن ، ولربما بقي الأثر المعنوي السلبي لوقوع الرجل أسيراً أمداً طويلاً بعد فك أسره ، ومن ذلك ما ورد عن عقيل بن علفة حين استنكف أن يُنكح ابنته والي المدينة في عهد الوليد بن عبدالملك – عثمان بن حيان المري – لأنه مسّه أو مسّ أباه أسر[1].
وقد أثبت الشاعر بحكمته أنَّ أسره ما كان في يوم من الأيام أمارة على وهنه أو جبنه ، وإنما أمارة على فروسيته وثباته حين زلت الأقدام ، وولت الفرسان الأدبار ، وخيرٌ لذلك الأمير الفارس أن يكون أسيراً من أن يكون فاراً ذليلاً!!

وهذا المحور إن لم يكن الوحيد في مادة عتاب الشاعر وشكواه ، إلا أنّه له من الأهمية ، ما جعل جُلّ الباحثين ينهلون من روميات الشاعر مجالاً خصباً يُثري الحديث عن شخصية أبي فراس ، ومن غير المجدي تكرار ما طُرح في موضوع الروميات ، ولكنني أقف على ذلك كمحور من محاور عتاب الشاعر وشكواه من حيث الحقائق التي كان عليه أن يثبتها بادئ ذي بدء وهي:
الأمر الأول : حقيقة أنَّ الأسر لا ينال من كرامة العزيز:
وهذا أمر كان عليه أن يطيب نفسه به كثيراً كلما وعى جلية أمره ، وأن يثبتها لقومه من صديق وشامت ، أما العدو ؛ فلا يضير شاعرنا أن يثبت لهم مثل ذلك ؛ لأنَّ أبا فراس ما

---

(١) . انظر : الأسير في الشعر حتى آخر العصر الأموي : محمد سليمان السديس ، (المجلة العربية للعلوم الإنسانية) ع٤٥ ، ، خريف ١٩٩٣ ، وهي مجلة محكمة ، ص ١٦

رأت أعينهم ، لا ما سمعت آذانهم!! وهم يعلمون علم اليقين خبر ذلك الأسير الذي قرع أرضهم بحوافر خيله ، وأحرقت ناره ماطاب من حرثهم. ولا يضير الشاعر إن كان في خرشنة أسيراً بعد أن كان فيها مغيراً ، يقول[١]:

إنْ زُرتُ"خَرْشَـــــــنَةً" أَسِـــــــيرا فَلكَـــمْ أَحَطْـــتُ بهَـــا مُغِيـــرا ؟

ولكن الجرح أعمق من ذلك بكثير ، وللشاعر أن يبرر ما يراه مناسباً للموقف ، إلا أن حزازات النفس في (خرشنة) تحكي عن واقع بشري وقدرات محدودة [٢] ، حدها : (**وخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفاً**)[٣] ، و (**لا يُكَلِفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا**)[٤]

وإن كان الشاعر مقتنعاً في قرارة نفسه بصحة ما فعل ، إلا أنه كثير التبرير لتفسير سلوكه لقومه ، و محاولة إقناعهم بما من شأنه أن يُوجد لديهم القبول ، و التبرير حيلة من حيل الدفاع النفسي وهو : تفسير السلوك الفاشل أو الخاطئ وتعليله بأسباب منطقية معقولة وأعذار مقبولة شخصياً واجتماعياً، ومن أحد صوره : مبالغة الفرد في تقدير قيمة سلوكه أو سماته[٥].

وقد بالغ الشاعر في ذلك ليرضي همة تُناطح الثريا و" إذا كان المرء حيث يضع نفسه ، فمنزلة أبي فراس ليست في متنفس هذا الجو ، أو على الأديم ، وإنما هناك فوق السماكين منزلة يهيض دون بلوغها كل ضعيف الجناح أو خوار متردد أو عاجز لم يعد الأمر لعدته[٦].

---

(١) . الديوان : ٢٠٨/٢

(٢) . و لا يشك الشاعر في أنّه يتحمل ما يتحمله البشر ، و ينوء عليه ما يثقل حمله عليهم ، يقول :

ماكُلّف الإنسانُ إلا وُسْعَهُ واللهُ نَصَّ بذاكَ في القرْآنِ

(الديوان : ٤٠٤/٢) .

(٣) . سورة النساء جزء من آية ٢٨

(٤) . سورة البقرة جزء من آية ٢٨٦.

(٥) . انظر : الصحة والعلاج النفسي: ص٤٢

(٦) . أبو فراس الحمداني ، الفتى الفارس الشاعر ، الأستاذ : قدري قلعجي ، (المجلة العربية) ، ع٩ ، السنة الثانية ، ص ١٢٢

الأمر الثاني :

الحديث عن هذا المحور له أهميته من حيث الزمان ، فقد كان في واسطة عقد حياته ، ولو كان في وقت باكر قبل أن تزهو الأماني وتزدهر الأحلام ؛ لكان أثرها أهون .

ولو كان في مرحلة متأخرة ، لقلّ جزعه من الأسر؛ لأن الإنسان كلما تقدمت السن به ؛ سئم الحياة لما لديه من مخزون كافٍ من تصاريفها[1] ، ولكنها كانت مرحلة في سن تقطُر فيه الآمال قطرا ، وتزهو به الحياة زهواً ، فكان من غير اليسير على فتى بلغت أهدافه مبلغاً عظيماً أن يئدها بين عشية وضحاها!!

أولاً : الإمارة :

الجانب الأول : نعيم ذوي السلطان :

للناس مقام بين يدي ذوي السلطان من ملك أو أمير أو وزير أو نحوه ، وهذا المقام هو الذي رفعهم بما يقتضيه من ذلة وخضوع أو أدب واحترام او انشقاق ومروق ، وخير الأمور أوسطها.

ويحظى ذوو السلطان بمزايا عديدة يحكمها المكان والزمان وتزنها النفس بالقبول أو عدمه.

ومن هذه الآداب ما يراه بعضهم أنّ " مساءلة الملوك عن حالها سجية النوكى[2]. فإذا أردت أن تقول : كيف أصبح الأمير؟ فقل: صبح الله الأمير بالنعمة والكرامة ، وإذا كان عليلاً فأردت أن تسأله عن حاله ، فقل : أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة ، فإنّ الملوك لاتُسأل ولا تشمّت ولاتكيّف[3]"

(١) . إلا أنَّ الشاعر كان يفخر بما وُهب به من عقل الشيوخ ، وشجاعة الشبان ، ولكنَّ الشاعر تجاوز في رأيه ؛ لأن رأي الكهول وحكمتهم وتجاربهم في الحياة لا يطاولها حدثُ حكيم!!

وفي ذلك يقول :

إنْ لمْ تَكُنْ طَالَتْ سِنيَّ فإنَّ لي رأيَ الكُهولِ ونَجْدةَ الشُّبَانِ

(الديوان : ٤٠٩/٢)

(٢) . النوكى : الحمقى . (انظر : لسان العرب (نوك)) .

(٣) . العقد الفريد : ١٠٣/٢-١٠٤

ومن الآداب أيضا ألا يسلم على قادم بين يدي الأمير[1]. ولا يمكن حصر الآداب ، لاختلافها من حين إلى آخر لما تفرضه الثقافات المختلفة ، لاختلاف سننها في الحياة ،

ولكنها تجتمع على تقدير ذوي السلطان ، وخفض الجناح لهم ، ومن خفض الجناح ، يرتفع القدر وتعلو المكانة وتُهاب المنزلة ...

وهذا النعيم الذي يجده أصحاب النفوذ نوعاً من العزة التي تقيم حياتهم ، فإن زُعزعت ؛ اختل ميزان حياتهم ، ومن ألفت نفسه حياة القصور وكلفت بأبهة الملك وعزة الجاه ، أنفت الحياة بدونها ، وأبت الخضوع لحاضر شقي يكسوه الهوان ، فإن كان ولابد من ذلك ، فهي مرغمة على القبول ومُكرهة على الرضا بما تراه هواناً لنفسها وموضع شماتة لعدوها.

والزهو بالإمارة ، والتَيْه في مفاخر إحراز الملك ، أمرٌ يوافق طبيعة الإنسان في حب التملك وعشق السيطرة ، ولا ينكر أحد من البشر غريزة الطمع الكامنة لديه ، التي تنطلق من منطلق قول الرسول صلى الله عليه وسلم : "لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب أحبّ أنّ له واديا آخر ، ولن يملأ فاه إلا التراب ، والله يتوب على من تاب"[٢].

ولكن حين يخرج الشخص في حبه للتملك عن المألوف ، ويُبالغ في أمره ؛ فإنه يُنفّر النفوس منه ، و يجعلهم يحقدون على الحفنة التي علت عليهم .

وكعادة قبيلة تغلب تتحفنا في كل عصر بشاعر يُملكهم البّر في قبضة ، والبحر في الأخرى، وكل من ملك البسيطة ملك لهم[٣] وأيامهم التالدة خير شاهد على ذلك .

---

(١) . أنظر : العقد الفريد : ١٠٣/٢

(٢) . صحيح مسلم : ص ٤٠٢

(٣) . وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم :

لنا الدُّنيا ومَنْ أَمْسَى عليها ونبطشُ حينَ نبطشُ قادرينا

بغاة ظالمينَ و ما ظُلمنا و لكنّا سنبدأُ ظالمينا

(ديوان عمرو بن كلثوم التغلبي : جمعه وحققه وشرحه : د . اميل بديع يعقوب ، ص ٩٠ – ٩١ ، دار الكتاب العربي ، ط٣ ، بيروت ، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م) .

وأكّد شاعرنا على ذلك المجد التليد ، الذي أقسم عليه عمرو والمهلهل ، فالقبيلة تملك الدنيا بكلمة منهم .

يقول أبو فراس[1]:

لَنَـــا الـــدُّنيا فمـــا شِـــئْنَا حـــلالٌ لِسَـــاكِنَها ومـــا شِـــئْنَا حَـــرَامُ

ويَنْفُـــذُ أَمْرُنَـــا ، فـــي كُـــلِّ حَـــيٍّ ، فيُدنِيـــــهِ ويُقْصِـــــيهِ الكَـــــلامُ

وهم يفضلون الأنام بالعزة والعلا والكرم ، فلِمَ لا يتميز فخرهم ؟!

يقول[2]:

أَعَـزُّ بنـي الـدُّنيا ، وأَعْلَـى ذَوي العُـلا ، وأَكْـرَمُ مَـنْ فَـوقَ الـتُّـرابِ ، ولا فَخْـرُ

ولا يجد السامعون حرجاً في أن يكونوا ذُنابى ، بل يجب عليهم أن يقروا بذلك الأمر ، وأن يقوموا مقام العبد الخاضع الذليل لبني حمدان ، لأنهم الرأس ، والناس ذُنابى، يقول[3]:

تُفَضِّـــلُنا الأنـــامُ ولا نُحاشَـــى ونُوصـــفُ بالجميـــلِ، ولا نُحـــابى

وقـــدْ عَلِمَـــتْ "ربيعـــةُ" بـــلْ "نِـــزارٌ" بأنّـــا الـــرأسُ والنـــاسَ الـــذُّنَابَى

وكل عين ترنو نحو ذلك المجد ، فلترجع حاسرة كسيرة ، وليخسأ كل طامح إلى مجد يضاهي مجدهم .

يقول[4]:

أيُّهـــا المُبْتَغِـــي مَحَـــلَّ بَنـــي حَمْـــ دانَ ، مَهْـــلاً ! أَتَبْلُـــغُ الَجْـــوزاءَ؟!

فَضَـــلُوا النَّـــاسَ رِفْعَـــةً وسُـــمُوًّا ، وعلَـــــوْهُمْ تَكَرُّمـــــاً وَوَفـــــاءَ

يـــا مُجيـــلَ الأفكـــارِ فـــيهم إلـــى كَـــمْ تُتعـــبُ الـــنفسَ ، هـــل تنـــالُ السّـــماءَ؟

أُســـرَتي ، لا أقـــولُ فخـــراً ، سَـــراةٌ حَسْـــبُهمْ ذاكَ ، مَفْخَـــراً وسَـــناءَ

---

(١) . الديوان : ٣٦١/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٢١٤/٢

(٣) . المصدر نفسه : ١٣/٢

(٤) . المصدر نفسه : ٤/٢

وبمنطق العنجهية الحمدانية ، افتخر الشاعر باستعباد الملوك ، واستباحة دمائهم وتملكته النشوة في كسر قلوب أولئك الملوك عقب ما تُوجوا به من عز ، فقد أصبحوا عبيداً تعلوهم مسحة حزن وذل وصغار ، وفي ذلك يقول[1]:

وكَمْ مَلِكٍ ، نَزَعْنَا المُلكَ عنهُ ، وجبّارٍ ، بهـا دمُهُ جُبَارُ ؟ [2]

وكُنَّ إذا أَغَرْنَ على دِيَارٍ رَجعْنَ ، ومِنْ طَرَائِدِهَا الدِّيارُ ،

فقَدْ أَصْبَحْنَ والدُّنيا جَميعاً لنا دارٌ ، ومَنْ تَحْوِيهِ جَارُ

إذا أَمْسَتْ " نِزارُ " لنا عبيداً فإنَّ النّاسَ كُلَّهُمُ "نِزَارُ"

وحديث الشاعر عن ألم نزع الملك من الملوك ، إحساس عميق منه بشدة وقع الذل عليهم ، وشعور جلي بأثر تلك الصدمة على عزيز ذلّه الزمان ، وذلك الإحساس يقود إلى إحساس القارئ بما عانى الشاعر منه حين أُسرت إمارته ، وعُزل عما كان في قبضة يديه ، وأصبح في ثياب العبيد ، بعد مباهاته باستعباد الأحرار!!

ألا يصعب على ذلك الأمير المترف الذي رُبي على العز والدلال أن يذكر مباهاته بصنيعهم بأولئك الملوك ، وهو يرسف في قيوده وعليه ثياب الصوف بعد حُلل الإمارة !!

وبيات يوم في خرشنة كفيل باسترجاع الماضي النزاري ، وما حكاه عن أكاليلهم التي أُنتزعت قهراً ، لا يختلف كثيراً عن واقعه في خرشنة.

وكان على الشاعر أن يدرأ مصاب الأسر بما يرضي غروره ، فلا يُسرف في الشكوى لئلا تدركه شفقة الناس ، وهو الذي كان بينهم أميراً مبجلاً !! لذلك عمد إلى ما علّل به أسباب رضاه عن واقع الأسر ، فمثله لا يبيت إلا أسيراً أو أميراً[3].

---

(١) . الديوان : ١٧٩/٢

(٢) . جبار : هدر . (لسان العرب : (جبر)) .

(٣) . يقول : من كان مِثْلي لم يَبِتْ إلا أَسِيراً أو أَمِيرا
(الديوان : ٢٠٩/٢)

الجانب الثاني : شقاء ذوي السلطان :

قال المغيرة بن شعبة : " أُحب الإمارة لثلاث ، وأكرهها لثلاث ، أحبها لرفع الأولياء ، ووضع الأعداء ، واسترخاص الأشياء ، وأكرهها لروعة البريد ، وموت العَزل[1] ، وشماتة الأعداء "[2].

والمسوغ في بغض الإمارة للإقصاء عن الحكم ، هو طبيعة النفس البشرية التي تأبى الذلة بعد العزة ، و تخشى عواقب السقوط عن سلم الجاه بعد رُقيّه ، و يَعظُم أثر ذلك على النفس بقدر ما ارتقت من وجاهة وعظمة ، وقد حدّث نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن شأن الإمارة وحرص النفس عليها ، وكما تُحمد ؛ تُذم ، فقال :" إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة ، فنعم المرضعة وبئست الفاطمة"[3].

فنعم المرضعة لما في ذلك من حصول الجاه والمال ونفاذ الكلمة وتحصيل اللذات الحسية والوهمية حال حصولها ، وبئست الفاطمة عند الانفصال عنها بموت أو غيره ، وما يترتب عليها من التبعات في الآخرة[4].

و يعظم الألم على من فارق الإمارة ؛ لأن صاحبها لا يفتأ يذكر أيام عزه ، ونفوذ سلطانه، وتشتعل نفسه كمداً بحجم الجاه الذي مُتّع به ، و قد حفظ التاريخ كثيراً من المشاهد التي صورت ما عاناه أصحاب النفوذ بعد تنحيهم عنه من شعور بالذلة و إحساس بالمهانة ، بل تعدى الأمر ذلك في العصر العباسي إلى التنكيل و سمل العيون ، وكم من عزيز رفعته الدنيا ثم خفضته ، وهكذا الأيام دول ، و دوام الحال من المحال ـــــــ

(١) . يريد الإقصاء عن الحكم . العقد الفريد : ١ /١٠٠

(٢) . المصدر نفسه : ١ / ١٠٠

(٣) . صحيح البخاري : مج٤/ ج٨/ ص ١٠٦

(٤) . فتح الباري في شرح صحيح البخاري : أحمد بن علي بن حجر أبوالفضل العسقلاني الشافعي ، ت: محب الدين الخطيب ، ١٣ / ١٢٥ ، دار المعرفة ، (ب . ط) ، بيروت ، (ب . ت) .

وتظل نكبة المعتمد بن عباد[1] من أعظم عبرات التاريخ التي بكت واستبكت ، وخبر بنيّاته، وهُنّ يطأن في وحل أغمات في يوم العيد ، بعد أن كن يطأن مسك أشبيلية وكافورها ، خبر يذيب القلب حسرة وكمداً .

وصف المعتمد ذلك اليوم ، فقال [2]:

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسروراً ... فساءكَ العيدُ في أغْماتَ مأسُورا

ترى بناتِكَ في الأطمار جائعةً ... يغْزلْن للناس ما يملكْن قطْميراً

برَزْنَ نَحْوَكَ للتسلْيِم ، خاشِعةً ... أبصارُهُنّ ، حسِيراتٍ مكاسِيرا

يطأن في الطين والأقدامُ حافِيةٌ ... كأنها لم تطأ مِسكاً وكافُورا

ولم يكن أبو تغلب الغضنفر فضل الله بن ناصر الدولة بن حمدان (٣٦٩هـ) ، أفضل حالاً من المعتمد ، فقد أُسر في حرب قامت بينه وبين بن الجراح والفضل في الرملة ، ثبت فيها إلى أن أُسر وكُتّف ثم قُتل ، ومن العجيب أنْ وجدت أبيات ـــــــ

(١) . هو المعتمد على الله أبوالقاسم محمد بن المعتضد بالله أبي عمرو عباد بن الظافر المؤيد بالله ، ينتهي نسبه إلى النعمان بن المنذر اللخمي ، وملك المعتمد قرطبة وأشبيلية وما والاهما من جزيرة الأندلس ، وقد كان يؤدي الضريبة إلى ملك الأفرنج الاذفونس فرذلند ، إلى أن أخذ الأخير الطمع ، ورفض أخذ الضريبة طمعاً في تملك الحصون ليكون للمسلمين فقط السهل ، فاجتمع أمر المسلمين أن يكتبوا ليوسف بن تاشفين – صاحب مراكش يستنجدونه، وتم لهم ذلك . والتقى الجيشان في معركة الزلاقة ، وكانت النصرة للمسلمين . ثم إن يوسف بن تاشفين تملكه الطمع في بلاد الأندس ، فحاصر أشبيلية ، وقبض على المعتمد وأهله ، وقُتل أبناه الراضي والمأمون ، وسُجن المعتمد وأهله في مدينة أغمات ببلاد المغرب ، ولم يخرج منها إلى الممات ، ومن الغريب أنه لما حانت منيته في السجن عام ٤٨٨هـ نودي في جنازته بالصلاة على الغريب بعد عظم سلطانه وجلالة شأنه واجتمع على قبره عدد من الشعراء يبكون منهم أبو بحر عبدالصمد ، قال فيه :

ملك الملوك أسامعٌ فأنادي ... أم قد عدتك عن السماع عوادي

لما نقلت عن القصور ولم تكن ... فيها كما قد كنت في الأعياد

أقبلت في هذا الثرى لك خاضعاً ... وجعلت قبرك موضع الإنشاد

لما فرغ من إنشادها قبل الثرى ، ومرغ جسمه ، وعفّر خده ، فأبكى كل من حضر . انظر : وفيات الأعيان : /ص٢١ و ما بعدها .

(٢) . ديوان المعتمد بن عباد ملك أشبيلية : جمع وتحقيق : د . رضا الحبيب السويسي ، ص١٦٨، ١٦٩، الدار التونسية للنشر ، (ب ط) ، ١٩٧٥

بخطه على جدران أحد القصور ، قال فيها[1]:

يـــا قصـــرُ ضعضـــعك الزمـــا نُ وحـــطَّ مـــن عليـــاءِ قـــدركْ
ومحـــــا محاســـــن أســـــطرٍ شَـــرُفَتْ بهـــنَّ متـــون جُـــدْرِكْ
واهـــــاً لكاتبهـــــا الكريـــــ م وقـــــدرهِ المـــــوفي بقـــــدرك

ولم يكن شاعرنا أفضل من صاحبيه حالاً ، فلقد جرّعته تبعات الإمارة اليتم والأسر ، فعاش الأولى كليل الطرف بين أهل خذلوه ، وعاش الأخرى بين عدو سلبه جاهه وسلطانه ، ولكن استطاع بعزته الملكية التي فاخر بها كل من على أديم الأرض أن يلبي رغبات نفسه ، بالجأر بصيغة تناسب مقامه الذي ملأ به الدنيا ، فلا يُهدرُ له قطرة دم من زهو أو عزة ، ليثبت أنّ الدهر لا ينزله على حكم كهذا !! فمن كان مثل الشاعر فلا يبيت إلا أسيراً أو أميرا ً!
يقول[٢]:

مَـــنْ كـــانَ مثلـــي لـــم يبـــتْ إلا أســـــــيراً أو أميـــــــرا
ليســـــت تَحُـــــلُّ سَـــــرَاتُنا إلا الصُّـــــــدورَ أو القُبُـــــورَا

وكلمة (الصدور) هنا لها مغزى في العرف السياسي ، وليس ببعيد أن تكون من أسباب إطالة أمد الأسر وزيادة دواعي الهجر[٣]. والعجيب أن هذه الكلمة في فترة الأسر لم ترد مرة فحسب !! بل وردت أيضاً في قوله :

---

(١) . انظر : ١- الكامل في التاريخ : ١٢٠/٧، ١٢١
٢- الوافي بالوفيات : ١٧٦/٢٤، ١٧٧
٣- وفيات الأعيان : ١١٧/٢

وهناك كتاب بعنوان "من دنت له الدنيا فرفعته ثم دالت عليه فوضعته:ل :حنان بنت سيف عبدالعزيز سيف ، والكتاب من اسمه يذكر تبدل الزمان وضيقه على أُناس ضاقت بهم رحب الأوطان بعد عز السلطان ، ويمثل فئات معينة من الملوك والخلفاء والأمراء والوزراء والعلماء والأدباء .. الخ ، ومن الأمانة العلمية أنّ صاحبة الكتاب ، ذكرت أن العنوان نُسج على عنوان كتاب للقفطي ، ولا تعلمُ عن وجوده شيئاً.

(٢) . الديوان : ٢٠٩/٢

(٣) . انظر : أبو فراس الحمداني : الأستاذ قدري قلعجي ع ١٠-١١ ، (المجلة العربية) السنة الثانية ، ص٨٥

ونحـــنُ أُنـــاسٌ لا توسُّـــطَ عِنْـــدنَا ، لنـــا الصَّـــدرُ، دُونَ العـــالمينَ أو القَبْـــرُ

تَهُـونُ علينــا فــي المعَــالي نُفُوسُــنا ؛ ومَـنْ خطـبَ الحسـناءَ لـم يُغلِهَـا المَهْـرُ

أَعَـزُّ بنــي الـدُّنيا وأَعْلَـى ذَوِي العُـلا ، وأَكْرَمُ مَنْ فوقَ التُّـُرابِ ، ولا فَخْرُ[1]

وكـأن الشـاعر في كلمـة (الصـدر) استنشـق شـذا القصـور ، وأشـبعَ غـروره مـن حـب الملـك والتميز ، وهذا متنفس يحل من كبْته ، ويرضى نفسه التي لم يمتها الأسر.

كمـا أنّ فيهـا سمواً بالعتـاب والشـكوى إلى منزلـة الفخـر والعـزة الملكيـة الـتي تـأبى أنّ يحطمهـا الأسر ، وتأنف أن تخضع مهما أُحكم أسرها.

ولا يناقض ذلك الشكوى التي تُظهر الضعف ، ولا العتاب الذي يُقبّح الظلم ، ويُفسّر ذلك الدكتور محمود محمد ميلاد قائلا[2] :-

"هذه النفس الرقيقة مع ميلها إلى الود والعطف والتقرب ، كانت ذات أنفة وشجاعة وإقدام ، تميل إلى التضحية العالية في إباء ملوكي وعزة فطرية ، فظلت وسط الآلام التي صقلتها وأوضحت جمالها قائمة على إبائها ، متذكرة كرم محتدها ، تأبى التذلل للأعداء ، وتحاول التجلد والصبر ، حتى إذا تعذر عليها كتم الألم واحتباس الشكوى ، عمدت إلى التغني بالألم تفريجاً للكربة وتنشيطاً على اليأس والاستسلام للوهن"

أمـا ذكرياتـه في شـاهقات القصـور ، فـلا تفتـأ نفسـه المقيـدة أن تطـل بعـين كسـيرة لـذلك النعيم،وتتفجع عليه ، فيؤرقها سكون القصور،وخواء الديار العامرة،التي طالما أظله نعيمها.

وبقـدر طبقـة الشـاعر الاجتماعيـة المرموقـة ، يعظـم الإحسـاس بـالهوان ، لأن الهبـوط مـن عـز الإمارة ، سقوط إلى هوّة عميقة موحشة القعر تفضي للهلاك.

وأميرنا طاردته ذكريات الماضي ؛ لأنه عشق حياة القصور ، وشغف قلبه ذكر منبج، فقال بعد أن خنقته عبرات سكبها على ذرا قصورها :

قِــفْ فــي رُسُــومِ "المُسْــتَجَا بِ" وحَــيِّ أَكْنَــافَ "الُمصَــلى"!

---

(١) . الديوان : ٢/٢١٤

(٢) . رؤية نفسية لروائع مختارة من الشعر العربي : د. محمود محمد ميلاد ، ص ٢٦٣ ، دار عمار للنشر والتوزيع، ط١ ، عمان ، ١٤٢٤هـ _ ٢٠٠٤م .

فــ"الجَوْسَقِ" الميْمُــونِ ، فَ"السُّــ قْيَــا[1]" بهــا ، فــالنَّهْرُ أَعْلَــى !

تِلـــــكَ المنـــــازلُ ، والمَـــــلا عِـــبُ ، لا أَرَاهـــا اللهُ مَحْـــلا[٢] !
أُوطنتُهـــــا ، زمـــــن الصِّـــــبَا ؛ وجعلـــتُ "منـــبجَ" لـــي مَجِـــلاّ
حَـــرُمَ الوقُـــوفُ بهـــا عَلَـــيَّ وكـــان ، قبـــلَ اليـــومِ ، حِـــلاً[٣]

ثم مضى في وصف ما بها من دور وحصون ورياض تجلو عن النفس أسقامها وهمومها. وهذا نأي عن الواقع الأليم ، ليفر بنفسه من لظى العذاب الذي يتجرعه في كل يوم تطلع فيه الشمس.

وفي صورة أخرى تدل على حسرة الشاعر على مظاهر الترف ، والبكاء على الجاه والسلطان حين عزّى الشاعر سيف الدولة في ابنه أبي المكارم ، كان لايفتأ يذكر النعيم الذي كان يُغرقه من الأهل والعبيد والجاه. فأين الأهل والعز بجاههم وأين الخيل والحرس...؟!

ربما أحس بذلك الشاعر لتشابهه بابن سيف الدولة في الحال ، فإنْ كان الآخر قد قضى ، فإنّ الشاعر يرى الموت بعيدا عن الدعة .

يقول[٤] :

يـــامَنْ أتتـــهُ المنايـــا ، غيـــرَ حَافِلَـــةٍ! أيـنَ العبيـدُ ؟ وأيـن الخيـلُ ، والخَـوَلُ؟
أيـنَ اللُّيـوثُ ، التـي حَوْلَيْـكَ ، رابضَـةً ؟ أين الصَّنَائِعُ ؟ أينَ الأهلُ ؟ ما فَعَلُوا؟
أيـن السُّـيوفُ التـي يَحْمِيـكَ أَقْطَعُهَـا؟ أينَ السوابقُ ؟ أَينَ البيضُ؟ والأسَلُ ؟

---

(١) . السقيا : قرية على باب منبج ذات بساتين كثيرة ومياه جارية ، وهي وقف على ولد أبي عبادة البحتري إلى الآن . (معجم البلدان : ٢٥٨/٣) .

(٢) . مَحْلا : المِحْل : الجدب و القحط . (انظر : لسان العرب : (محل)) .

(٣) . الديوان : ٣٢٦/٢-٣٢٧

(٤) . المصدر نفسه : ٢٧٦/٢

يُفتدى أبناء بني حمدان بنفائس الأرواح والأموال ؛ ولكنّ أبعاد الملك الحقيقية لاتجاوز حفنة من تراب ، ولايَردّ المنايا عز العزيز ، ولا فضل الكريم .

و حين تخطف الموت جابر بن ناصر الدولة من وسط سادات قومه و سراتهم ، ولم يُغنه عنه من بني حمدان مال و لا و لا خيل ، استعبر أبوفراس ، و رثى تلك الحال [1]:

لوكـــان يخلُـــدُ بالفضـــائلِ فاضـــلُ وُصـــلتْ لـــكَ الآجـــالُ بالآجـــالِ!
أوكنـــتَ تُفْـــدى لافتـــدتكَ سَـــرَاتُنا بنفـــــــائسِ الأرواحِ والأَمْـــــــوالِ
أو كـانَ يُـدفعُ عنـكَ بـأسٌ أقَـْبلَـتْ صَـــرْعى ، تُكـــدَّسُ بالقَنَـــا العَسَّـــالِ[2]
أعززْ ، على ساداتِ قَومِكَ ، أَنْ تُـرَى فـــوقَ الفِـــراشِ مُقلَّـــبَ الأوصـــالِ
والسُّـمْرُ عنـدكَ ، لـم تُـدَقَّ صُـدُورُهَا والخيـــلُ واقفـــةٌ علـــى الأَطـــوالِ
والســـابغاتُ مصـــونةٌ ، لـــم تُبْتَـــذَلْ والبـــيضُ ســـالمةٌ مـــعَ الأَبْطَـــالِ
وإذا المنيّـــةُ أقْبَلَـــتْ لـــم يثْنِهـــا حِـــرصُ الحـــريصِ ، وحيلـــةُ المحتـــالِ

يُظهر هذا التفجع أبعاد الملك الحقيقية التي أدركها الشاعر؛ و لكنها على قدر ما تُدرَكْ فهي تُترك ؛ لأنّ التأمل في حال المصير أمر تنأى النفس عنه ، و استغراق الشاعر في ألفاظ العز والجاه أمر يدل على أُمور متضادة في البشر ، من حُب اللذات و كره ذكر هادمها ، أما دلالتها عند الشاعر ؛ فقد أفصحت عن ذلك ألفاظه مثل : (سراتنا ، نفائس الأرواح والأموال ، سادات قومك ، السُمر ، الخيل ، السابغات ، البيض) إنه زخم ملكي يُبدي مظاهر علوق الشاعربحياة العز و الدعة التي كان يعلم أنه سيودعها في يوم من الأيام ، كما ودعها أمامه ابن ناصر الدولة !!

و تُعد القصور أحد مظاهر العز و المنعة التي ذكرها الشاعر كثيراً ، و لم يكن حديثه عنها مُختصاً بما شاده أبناء حمدان ؛ بل ذكر القصور في سياق حديثه عن الغارات التي شهدها في خرشنة بعد أن قُضي له الأمر فيها ، فذكر أثر تلك الغارات التي أحرقت ـــــــ

(١) . الديوان : ٢ / ٣٠٠ – ٣٠١

(٢) . العسّال : شدة اهتزاز الرمح و اضطرابه . (انظر : لسان العرب : (عسل)) .

الأخضر واليابس ، والتهمت المنازل و القصور ، يقول[1] :

ولقـــــدْ رأيـــــتُ النّـــــارَ تَنْـــــ ـــــتهِبُ المنـــــازِلَ والقُصُـــــورا

فتخصيصه كلمة (القصور) مستوحاة من أثرها النفسي عليه بعد أن رتع طويلاً في حياة القصور ، ثم آله الأمر إلى زنزانة عزلته عن الحياة ، و كم كان الفرق بين قصوره و قصور خرشنة ؟! ولكنّ الجامع بينهما في مقامه ذلك : الذكرى ، فهو لا يفتأ يذكرهما و يذكر ما أحاط بهما من مواقف .

ولقد كانت تُثيره تلك الحياة الخاملة التي لاعمل فيها ، يضطر إليها شاب ملء إهابه صحة وعزم وآمال ، يريد أن ينشىء ملكاً وأن يكون دولة ، فيتأسى على ماضيه ، ويوازن بينه وبين هذا الحاضر الخامل الذي يعيش فيه غير مستطيع أن ينفع وأن يضر ، حتى و إنْ صح أنّ الروم أفردوا له بيتاً ، و لم يدعوه مع بقية الأسرى [٢].

والأمر أعظم من أنْ يُميّز الأسير في المعاملة ، "حتى لو كانت السجون مريحة ، فإنها لا تعكس ذلك في نفس الشاعر وبالتالي في شعره"[٣].

وهكذا كانت شاهقات القصور تطل دوماً من خلف البحار والدروب على شاعرنا الذي رفض واقعه بشدة حتى لو حاول التكيّف !! بل ظل يرثي حياة القصور لنفسه ولغيره ، ومن أحب شيئاً داوم على ذكره.

ثانياً : الفروسية :

لا يقل شأن عِشْقُ الشاعر لإمارته عن عشقه لفروسيته ، وحقيقة كل منهما لديه واحدة ، بل تظل الإمارة خاوية على عروشها ما لم تقومها الفروسية ، ولا قيمة للتاج ما

---

(١) . الديوان : ٢٠٨/٢

(٢) . انظر : شاعر بن حمدان : ص ٦٧

(٣) . شعر السجون والأسر في الأدب العربي : د. هادي الحمداني ، (مجلة كلية الآداب) ، ع ١٣ ، ١٩٧٠م ، تصدرها كلية الآداب في جامعة بغداد ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ص ٥٥٠

لم يرصعه جوهره !! ولعل أبرز ما يعلّل تعلق أبي فراس بالفروسية ما يلي:

– الشغف العربي بالفروسية واعتبارها أحد مقومات الحياة التي لا غنى للنفس عنها ؛ فهي أغلى من النفس والمال والولد ، ولأنّ "الفارس والحصان والسيف ثالوث موحد ، وتعلق العربي بفرسه وسيفه هو تعلق واجب مشروع ، لأنه بهما وعليهما تستمر حياته وتحفظ كرامته ، ويحرز النصر على الأعداء ، فهذا الثالوث كتلة واحدة يرمز إلى كرامة الإنسان العربي وعزته ورفعته"(١).

وهذه الحقيقة واضحة في شعره ، فهو يقدم الفروسية على غيرها من مناقب ، لأنها صناعته الأولى ، يقول (٢):

وصِـــناعتي ضَـــرْبُ الســـيُوفِ وإنّـــي متعـــرّضٌ فـــي الشِّـــعرِ بالشُّـــعراءِ

– الميراث التغلبي التليد الذي اقتسمه الشاعر مع فتيان بني حمدان من أجدادهم ، ولا فضل للمتأخرين فيما ورثوه ، ما لم يصونوه ويعززوه بأمجاد تخلد لهم مثل ماخلد الأوائل .

وثمة أمر آخر ميّز بني حمدان عن غيرهم ، وخصهم بشرف نالهم دون غيرهم وهو حماية الثغور ، وذلك لما فرضته عليهم ظروفهم التاريخية للتصدي للخطر البيزنطي دون غيرهم من العرب ، فوسمت طبائع أُمرائهم وبخاصة فرسانهم الأبطال كأبي فراس بسمات خلقية عربية أصيلة كالحرية والعزة والوفاء والإباء والثبات والإقدام والعفو عند المقدرة وحماية الجار والنجدة والتضحية والكرم والعفاف ، وهي جميعا صفات للفروسية مباشرة أو غير مباشرة ، يتعلق بعضها بالسلوك الحربي بينما يتعلق بعضها الآخر بالسلوك الاجتماعي للفارس(٣).

والحرمان يصدّق الأماني ويكذبها ، لأنه يمثل صوراً من صور العذاب النفسي، ـــــــ

(١) . الخيل في قصائد الجاهليين والإسلاميين : د. أحمد أبو يحي ، راجعة : د.ياسين الأيوبي ، ص ٢٦ ، المكتبة العصرية ، ط١ ، صيدا بيروت ، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م .

(٢) . الديوان : ٩/٢

(٣) . انظر : أبو فراس الحمداني الموقف والتشكيل الجمالي : ص١٥٣

فمن ثبَتَ وارتضى بالحرمان ، فهو على نقيض ما ادعى و كما أن التجلد في العشق مذموم ، فهو كذلك في الحرمان . وأما من جمحت نفسه وصارع الحرمان ، وعبّر عن رفضه لواقعه قولاً أو عملاً ، فهو أهلٌ لما ادعى .

وتظل نفس المحروم تصارع الأماني ، وترى سراب الآمال نهراً عذباً يروي عروقها على شدة ما يقاسي صاحبها من ظمأ ، لتجتاز الحرمان بما أوتيت من طموح .

وأبرز هلع يتملك النفس فلا تقوى على كتمانه ، هو وقع حوافر الفرس في الميدان وحيلولة النفس دونها. فهي ساعة تقرع قلوب الفرسان وتقّض مضاجعهم وتتقطع أوصالهم شوقاً وطمعاً...و من أبرع من صور تلك الساعات العصيبة أبو محجن الثقفي[1]

يقول :

كَفَى حزناً أن تُطعن الخيلُ بالقَنَا وأُتْرَكَ مَشْدُوداً عليَّ وِثاقِيَا

---

(١) . هو عمرو بن حبيي بن عمرو بن عمير بن عوف ، أحد الأبطال الشعراء الكرماء في الجاهلية والإسلام، أسلم سنة ٩ للهجرة ، وتوفي سنة ٣٠ للهجرة ، حبسه سعد بن أبي وقاص بكتاب من عمر بن الخطاب ، فلما كان يوم أرماث – أحد أيام القادسية — اشتد على الشاعر احتدام القتال بين المسلمين والفرس ، وهو مقيد في الحبس ، فصعد إلى سعد يستعطفه ، ولكن دون جدوى ثم استعطف زوجة سعد أن تخلي عنه وتعيره البلقاء فرس سعد على أن يرجع إن سلمه الله إلى قيده ، فلم تُلبِّ طلبه أول الأمر فلما أنشد أبياته ، أطلقته زوجة سعد ،دون أن تعيره الفرس ، فاقتاد أبو محجن الفرس ، وأبلى بلاءً حسنا ، فعجب الناس منه ولم يعرفوه حتى أن سعدا قال : الطعن ، طعن أبي محجن ، والضبر ضبر البلقاء ، ولولا محبس أبي محجن،لقلت : هذا أبومحجن وهذه البلقاء ، فلم يزل يقاتل حتى انتصف الليل ، وتحاجز أهل العسكرين ، فأقبل أبو محجن حتى دخل القصر ووضع عن نفسه ودابته وأعاد رجليه في القيد ، فقالت له زوجة سعد ، يا أبا محجن في أي شي حبسك هذا الرجل؟ فقال : أما والله ماحبسني بحرام أكلته ولا شربته ، ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية ،وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني ، فينفثه أحيانا فحبسني لأني قلت:

إذا مت فادفني إلى أصل كرمة تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولاتدفني في الفلاة فإنني أخاف إذا ما مت ألا أذوقها
ليروي بخمر الحص لحمي فإنني أسيرُ لها من بعد ما قد أسوقها

فعفا عنه سعد وقال : أما والله لا أضرب اليوم رجلاً أبلى الله المسلمين على يده ما أبلاهم ، فخلى سبيله ؛ فقال أبو محجن : قد كنت أشربها إذ كان حدٍ يقام علي ، وأطهر منها ، فأما إذا بهرجتني فلا والله أشربها .

انظر : ١- الأعلام :٧٦/٥

٢- الأغاني : مج١٠/ج١٩/ص٧ ، وما بعدها .

(١٧٦)

إذا قُمتُ عَنَّاني الحديدُ وغُلِّقَتْ مَصاريعُ من دُوني تُصِمُّ الُمنادِيا

وقد كنتُ ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ فأصبحتُ منهم واحداً لا أخاليا

و قد شفَّ جِسْمِي أنّني كلَّ شَارِقٍ أُعالج كَبْلاً مُصْمتاً قد بَرانِيَا

فلِلَّـــه دَرِّي يـــومَ أُتـــرَكُ مُوثَقـــاً و تَـــذْهَلُ عنّـــي أُســـرَتي و رِجاليـــا

حَبيساً عن الحَرب العَوانِ و قد بدت و إعمـــالُ غَيْـــري يـــوم ذَاكَ العَوَالِيَـــا

و لِلَّـــه عَهْـــدٌ لا أخِـــيسُ بعَهْـــده لـــئن فُرِجَـــت ألاّ أزُورَ الحوانِيَـــا[1]

إذن لا ينال الحبس من نفس الفارس ، بقدر ما ينال الحرمان ، وكما لوحظ على أبي محجن أنه خرج من كبت عظيم أشعله التعطش إلى الفروسية و الارتماء في ساحة الوغى، ليلبي نداء نفسه ، فأتى انحلال قيده في اللحظة المواتية التي قادته ليشق الصفوف ببسالة بعد أن شقت الآلام صدره شقّا.

أما شاعرنا ، فقد اضطرب اضطرابا شديداً وأعلن ثورته على الحرمان الذي اقتحم أجلّ أمنياته ، فلم يتجلد لذلك ، ولم تكن هذه التجربة التي خاض غمارها وليدة الأسر، بل هي تجربة متعمقة في نفس الشاعر من قبل أسره ، دافعها ثورة فتية ، أو نأي عن مقام لا يليق به ، أو نشوة موارة لثقة أميره به ، فخرجت في صورة ثائرة ، وقد تجلّى منها ما ثار به حين أُستخلف على أمر الشام بأمر سيف الدولة ، وغُلّظ عليه بالقعود دفعة بعد دفعة ، وذلك في وقائع سيف الدولة على مغاورة بلد ابن شميشق ، فكان مما قاله :

قـالوا المسَـيرُ! فهـزَّ الـرُّمحُ عَامِلَـهُ ، وارتـاحَ فـي جَفْنِـهِ الصَّمصَـامةُ[2]الخـذِمُ[3]

---

(١) . ديوان أبي محجن الثقفي : صنعة أبي هلال الحسن بن عبدالله العسكري ، نشره وقدم له : د. صلاح الدين المنجد ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، دار الكتاب الجديد (ب.ط) ، بيروت (ب.ت) .

(٢) . الصمامة :السيف الصارم الذي لا ينثني . (لسان العرب : (صمم)) .

(٣) . الخذم : سرعة القطع . (لسان العرب : (خذم)) .

(١٧٧)

فطَـــالَبَتْنِي بماســـاءَ العُـــدَاةَ ، وقـــدْ عَوّدْتُهـــا مـــا تشـــاءُ ، الـــذئبُ والـــرَّخمُ[1]

حَقّـاً ، لَقَـدْ سَـاءَني أَمْـرٌ ذُكِـرتُ لـهُ ، لَـــولا فِراقُـــكَ لـــم يُوجَـــدْ لـــه أَلَـــمُ

لا تَشْـــغَلّني بأَمْرِ"الشَّـــامِ" أَحْرُســـهُ إنّ الشـــآم "عَلَـــى مَـــنْ حَلَّـــهُ حَـــرَمُ[2]

و أُصيب الشاعر بنوع من الإحباط حين خرج "سيف الدولة " في بعض غزواته ولم يأذن له في المسير معه ، و ظلت نفسه تكتوي بنيران ذلك النبأ بعد أن أعدّ العدة و تهيأ للوثوب؛فقال [٣]:

دعِ العبراتِ تَنْهَمِرُ انهمارا ، ونارَ الوَجْدِ تَسْتَعِرُ استِعَارَا
أ تُطفَأُ حَسْرتي ، وتَقَرُّ عَيْني ، ولم أُوقِدْ معَ الغَازينَ ،نارَا؟
رأيتُ الصَّبرَ أبعدَ ما يُرَجَّى ، إذا ما الجيشُ بالغازِينَ سارَا
وأعددتُ الكَتَائِبَ مُعْلمَاتٍ ، تُنادي ، كُلَّ آنٍ بي :سَعَارَا!
وقد ثقَّفتُ للهيجاءِ رُمْحِي ، وأَضْمرتُ المهَارِي والمُهارَا

فحين تحسر الشاعر على الموقف بألفاظ قوية دلت على عِظم حسرته ؛ ذكرَ ما تقر عينه به من عدة و عتاد ؛ ليزيد من ألمه و يُذكي فتيل حسرته ، بعد أنْ عيل صبره و انقطع أمله؛ لأن الصبر على مثل هذه المحنة خورٌ و عجز يُنافي فروسيته و تعطشه للقتال .

و بكى الشاعر قبل الأسر تخلفه وهو حاضر ، و بكى في الأسر تخلفه وهو غائب وبذلك تتم الصورة ويُقضى الأمر ، فيَصْدق ويُصّدق ، و يدل بكاؤه وهو حاضر على قلة الحيلة ، وعدم قدرته على استنفاد المحاولات لإقناع من غلّظ القعود عليه

وتدور رحى العذاب النفسي في إرغامه على القعود ، من شكوك ، وسوء ظنون ، ــــــــ

(١) . الرخم : نوع من الطير ، موصوف بالغدر والموت وقيل : بالقذر . (لسان العرب : (رخم)) .
(٢) . الديوان : ٣٥٨/٢
(٣) . المصدر نفسه : ١٨٧/٢-١٨٨

واضطراب النفس من غضب و من رضا غير صريح ، كما يلاحظ اختفاء ذكر الفرسان المشاركين مع سيف الدولة ومقارنة منزلتهم بمنزلته ، كما سيلحظ فيما بعد ، وربما رجع ذلك إلى اختلاف جدية الأمر في كل منهما ، أو لنضج الجرأة في الحق في فترة الأسر ، أو لسياسة لم يفصح عنها ، أو لأنها لم تخطر بباله .

وغلب طابع الحزن عليه في حرمانه وهو غائب مع الشرود من الحاضر إلى الماضي والارتماء في أحضان الذكريات ، واقتناعه بالحائل بينه وبين ميدان القتال ، وهو ماخفف الوطأة ، بل وجد ذلك مفخراً طاول به رأسه في موطن قلت الحيل فيه.

ومن تلك الأمور التي ظاهرها الحزن ، وباطنها الفخر ، انصرام الليالي الخاملة التي خوت من كرم العربي ونجدته وشهامته .

فحين ضلّ الفرس فارسه ، والسيف مُتقلِدُه ، وحاد المعروف عن صانعه ، وتاه ابن السبيل ، وأُخمدت النار ، وملّ الغمد مكوث سيفه ، وشَكَتْ الحراب طول المكوث ، ولم تركز الأطناب خياما ؛ قلت قيمة الحياة ، وانقضت عيشة الأحرار...

يقول[1]:

تمُـرُّ الليـالي لـيسَ للنَّفْـعِ مَوْضـعٌ لَـــدَيَّ ، ولا للمُعْتَفِـــينَ جَنَـــابُ

ولا شُـدَّ لـي سَـرْجٌ علـى ظهرِسَـابحٍ ولا ضُـــرِبَتْ لـــي بـــالعراءِ قِبَـــابُ

ولا بَرقَـتْ لـي فـي اللقَـاءِ قَوَاطِـعٌ ولا لَمَعَـتْ لـي فـي الحُـرُوبِ حِـرَابُ

وثمة أمر يثير التساؤل بين الحين والآخر ، وهو : ما أثر فقد ذلك الفارس العظيم؟

يحمل هذا السؤال عدة مغازٍ ، صرّح الشاعر ببعضها ، ولمحّ ببعضها ، ولعل أبرزها :

تأنيب من كان مثل أبي فراس قائدهم ، إذ كيف تدور للحرب دائرة وفارسهم مأسور؟

وكأن ذلك قدح في الرأي والمشورة التي تسيس الحرب من حسن اختيار القادة ، ومقياس ذلك التجربة ، فلا بد من اختيار من جالد الحرب ، وصبر على وطيسها.

ووجد الشاعر في نفسه على الفارس البديل الذي حلّ مكانه موجدة عظيمة ، بدافع الغيرة

---

(١) . الديوان : ٢٣/٢

على مكانه الخاص الذي لم يجرؤ عليه أحد من قبل ، ولم يطعن الشاعر في بسالة أولئك الفرسان الذين حَلُّوا من بعده ، ولكنّه كان يخشى ألا تفعل سيوفهم ما فعل سيفه ، ويحزن ألا يشاركهم شرف تلك الغلبة ! يقول[1]:

أَعْــزِزْ عَلــيَّ بِــأَنْ يُخَــلَّ ِبمَــوقِفِي ويُحَــلَّ بــينَ المُســلمينَ مَكَــاني

إنــيّ أغــارُ علــى مكــانيَ أنْ أرى فيــهِ رِجَــالاً لا تَسُــدُّ مَكَــاني

أو أنْ تكــونَ وقِيعــةٌ أو غَــارَةٌ مَــالي بهــا أَثَــرٌ مــعَ الفِتيَــانِ

و هناك أمر يُثير العجب ، و هو تبادل اللغة بين الشاعر وبين ما خلّفه من خيل وسيف ورمح ، فكلٌ منهم حفظ حق الوفاء الذي ترقبه الشاعر في البشر كثيراً ، فوجده معقوداً في عنق فرسه ، ومعدن سيفه ورمحه ، فكانت الفرس تفرض على الفارس واقعها وتتعامى الحقائق فاستوحشت المكان وأبت أن تبصر فارساً سوى فارسها ، ولم يجد السيف والرمح ما يروي غليله ، فتعطل الأول ، وأُغمد الثاني!!

يقول واصفاً تلك الحال[٢] :

واسْتَوحَشَــــتْ لفِرَاقِــــهِ ، يَــومَ الــوَغَى ، سِــرْبُ الخُيــولِ

وتَعَطَّلَــــتْ سُــــمْرُ الرِّمَــــا حِ ، وأُغمِــدَتْ بــيضُ النُّصُــولِ

وقد أنذر الشاعر قومه بما سيكون منهم إذا حمي الوطيس ، فربما أدركوا ساعتها أن كثرتهم كغثاء السيل وسيذكرون فتاهم الذي تنداح به الظُلم ، وتتجلى به بوارق النصر بعد أن جلا عنهم عار الهزيمة ، فمن العار عليهم أن يرضوا بمقامهم ومقامه!! يقول[٣] :

---

(١) . الديوان : ٢/٤٠٩ – ٤١٠

(٢) . المصدر نفسه : ٢/٢١

(٣) . الديوان : ٢/٢١٣

ســيذكُرُني قَــوْمِي ، إذا جَــدَّ جِــدُّهُمْ ، وفــي الليلــةِ الظلمــاءِ ،يُفْتَقَــدُ البَــدْرُ

و لم يرَ الشاعر أنّ سموه بنفسه في هذا البيت وصل إلى درجة الغرور!! ولم يرَ أن ذلك المدح إغراقاً لذاته التي لا تجد منفذاً لأمانيه إلا بالاعتداد بنفسه وحسب!! بل دعاهم للاعتراف بحقيقة البديل هل سدد الرمي وأحسنَ الضرب؟!

الجواب واضح معلوم ، وما فضل الذهب على النحاس إلا كفضل أبي فراس على الفرسان، يقول[1]:

ولو سدّ غيري، ما سددتُ اكتفوا به وماكان يغلو التبر[2]لونفق الصفر[3]

وربما عقمت النساء لإنجاب فتى لم تسوّده إلا شمائله ولم ترفعه إلا فضائله ، جميل الخَلْق والخُلق ، يقول[4] :

متى تُخْلِفُ الأَيَّامُ ، مِثْلِي ، لَكُمْ فَتىً طويلَ نِجادِ السَّيفِ ، رحبَ المُقلَّدِ ؟

متى تَلِدُ الأَيَّامُ مِثْلِي ، لَكُمْ فتىً شديداً على البأساءِ غَيرَ مُلَهَّدِ[5]؟

وبعد كل هذا إن لم تتحرك حميتهم لابنهم ؛ فلتتحرك على من كان يدافع عنهم بسنانه ولسانه ، يقول[6] :

فإنْ تَفْتَدُوني تَفْتدُوا شَرفَ العُلا ، وأَسْرعَ عَوَّادٍ إليها ، مُعَوَّدِ

وإنْ تفتدُوني تَفْتَدُوا لُعلاكُمُ فتىً غَيْرَ مَرْدُودِ اللِّسانِ أو اليَدِ

يُطاعنُ عنْ أعِراضكُمْ ، بِلسَانِهِ ويَضْربُ عنكُمْ ، بالحُسَامِ المهنَّدِ

---

(١) .الديوان : ٢ / ٢١٤

(٢) . التبر : الذهب . (لسان العرب : (تبر)) .

(٣) . الصفر: النحاس الجيد . (لسان العرب: (صفر)) .

(٤) . الديوان : ٢/٧٩

(٥) . ملهد : مستضعف ذليل . (لسان العرب : (لهد)) .

(٦) . الديوان : ٢/٨٠

و ربما أعاد التاريخ نفسه ، فوجد أبو فراس نفسه أمام بيت المتنبي الذي أنشده ، وشاعرنا أحد الحاشية التي ربما عناها المتنبي في قوله[1] :

أُعِيـــذُها نظـــراتٍ مِنْـــكَ صـــادِقةً أَنْ تَحْسـبَ الشَـحمَ فـيمَنْ شَـحْمُهُ وَرَمُ

فالشحم والورم يتشابه ظاهرهما وهما في الحقيقة على طرفي النقيض[2]. وكذا الفارس الحقيقي والفارس البديل ، و لو تفحص الشاعر قوله ؛ لوجد ذلك التشابه في مضمون بيت المتنبي ، و قوله [3]:

ومـا كُـلُّ وَقّـافٍ ، لـهُ مِثْـلُ مَـوْقِفِي ، ولا كُـــلُّ ورّادٍ لـــهُ مثـــلُ مَـــوْرِدِي

فمـا كُـلُّ مَـنْ شَـاءَ المعـالي ينالُهـا ولا كُـلُّ سَـيَّارٍ إلـى المجـدِ يهتـدِي

وأولى الناس باللوم والتأنيب ، أبناء العمومة ، لأنهم أعرف الناس بمنزلة ابنهم في يوم الوغى، وما قيمة السيف إن ثُلِم حده ، أو عَدِم حامله ؟!

ولئن دارت رحى الحرب ، وحمي وطيسها ، فسيلعم القوم أنّ عدتهم وعتادهم لن تغني عنهم من فارسهم الذي أضحى بيد العدو !! يقول[4] :

بَني عَمِّنا ما يَصْنَعُ السَّيفُ في الوَغَى إذ فُـــلَّ مِنْـــهُ مَضْـــربٌ وذُبَـــابُ ؟

بنـــي عَمِّنـــا لا تُنكِـــرُوا الـــوُدَّ إنَّنـــا شِـــدَادٌ علـــى غَيْـــرِ الَهـــوَانِ صِـــلابُ

بنـــي عَمِّنـــا نحـــنُ السَـــواعدُ والظُّبَـــا ويُوشِـــكُ يومـــاً أنْ يكـــونَ ضِـــرابُ

و قد ارتبط مكان أسر الشاعر ارتباطاً وثيقاً بنفسه فهو مصدر فخره ومكمن أشجانه وحاضر شقائهما ، "والعلاقة بين الشعر والمكان علاقة وطيدة من خلالها ترتبط الرؤية الشعرية بالواقع ، فيكون لها علوق بالأرض التي يمشي الناس في مناكبها ، ويقيمون

---

(١) . العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب : ٦٤٠/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٢ / ٦٤٠

(٣) . الديوان : ٨٠/٢

(٤) . المصدر نفسه : ٢٣/٢

عليها علاقاتهم ويتجاذبون فوقها أحاديثهم ، ويبنون أحلامهم ويرسمون تطلعاتهم"[١] .

ويغني عن وصف ذلك كله صوت الشاعر الممزوج بنبرة الحزن مع بحة الألم وشجو الفخر، يقول[٢]:

وأُسـرتُ فـي مجـرى خيـولي غازيـاً و حُبسـت فيمـا أشـعلتْ نيرانـي

بلـدٌ لعمـرك ، لـم أزلْ زوّاره مـع سـيّدٍ قـرمٍ أغـرّ ،هجـانِ

ومن مفارقات الحياة أنّ ذلك الأبي الذي لا يقهره ضيم ولا يضيره ألم ، أضحى يشكو عجزه بعد فتوته ، وضعفه بعد قوته إلا أنه لا يشكو هزيمة بعد انتصار.

يقول[٣]:

أصـبحتُ مُمْتَنَـعَ الحَـرَاكِ ، وطالمـا أصـبحتُ مُمْتَنِعـاً علـى الأَقْـرَانِ

ولطالمـا حَطَّمـتُ صَـدْرَ مثَقَّـفٍ ، ولطالمـا أَرْعَفْـتُ أنـفَ سِـنَانِ

ولطالمـا قُـدتُ الجِيَـادَ ، إلـى الـوَغَى قُـبَّ[٤] البُطُـونِ ، طويلـةَ الأَرْسَـانِ [٥]

وأَنَـا الـذي مَـلأَ البسـيطةَ كُلَّهَـا نَـارِي ، و طَنَّـبَ فـي السـماءِ دُخَـانِي

وما نَفْعُ الأسد بضراوته إنْ قُيدت أقدامه ،وكُسرّت أنيابه؟!

يقول[٦] :

يـا " مَـنْ رأى ، لـي بحصـنِ "خَرَشَـنَةٍ" أُسـدَ شَـرًى ، فـي القُيُـودِ أَرْجُلُهـا"!

---

(١) . اللغة الكونية في جماليات الفكر الشعري في بائية ذي الرمة : د.صالح بن سعيد الزهراني ، ص٤٨ ، جامعة أم القرى ، معهد البحوث العلمية مركز بحوث اللغة العربية وآدابها ، ط١ ، مكة المكرمة ، ١٤٢٣هـ

(٢) . الديوان : ٤٠٨/٢

(٣) . المصدر نفسه : ٤٠٩/٢

(٤) . قبّ : القب : ضمور البطن . (لسان العرب : (قبب)) .

(٥) . الأرسان :جمع رسن ، وهو ما كان من الأزمة على الأنف . (لسان العرب : (رسن)) .

(٦) . الديوان : ٣٣١/٢

وظلت نفسه الثائرة تتربص ما يرضي عزتها ويشبع غرورها ، فقدّر الأمور ، وقلّبها وتلّمس مخرجاً لعله يثلم حد أحزانه ، فإذا خرشنة دار البلاء ، عزاءُ نفسه التي أدت واجبها البطولي في ساحاتها يقول[1] :

إنْ زُرتُ "خَرْشَـــــنَةً" أسِـــــيرا فَلَكَـــمْ أَحَطْـــتُ بِهَـــا مُغِيَـــرا ؟

ولقـــــدْ رأيـــــتُ النَّـــــارَ تنْـــــ تَهِـــــبُ المنـــــازلَ والقُصُـــــورا

وإن كان أسره درة في مفارق عدوه ، فلقد تخير مما يشاء من دررهم وحورهم ، يقول[2]:

ولقـــــد رأيـــــتُ السَّـــــبْيَ يُجْـــــ لَـــــبْ نحونـــــا حُـــــوّاً ، وحُـــــورَا

نختـــــارُ منـــــهُ الغَـــــادَةَ الـــــ حَسْـــــناءَ والظّبـــــيَ الغَرِيـــــرا

وخلف ليالي الأسر القاسية ، أيام خوال قدّم فيها لنفسه مدخلاً من السلوى ليهرب من حاضره الأليم[3] إلى أحضان أيامه الغر الأُول ، على ذُرى خرشنة ، يقول[4]:

إنْ طـــــالَ ليلـــــي فـــــي ذُرا كِ فقـــــدْ نعمـــــتُ بـــــه قَصـــــيرا

ولـــــئنْ لقيَـــــتُ الحـــــزنَ فيـــــ كِ فقـــــدْ لقيـــــتُ بـــــكِ السُّـــــرورَا

علاقة الفروسية بالإمارة :

هناك تشابه كبير بين الإمارة والفروسية ، فالفروسية إمارة في كثير من جوانبها ، ومكونات الإمارة هي مكونات الفروسية ، لأنّ روح الإباء والعزة والشهامة تلازم شعر

---

(١) . الديوان : ٢٠٨/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٢٠٨/٢

(٣) . ترى الباحثة الجوهرة المعيوف : أنّ أبا فراس عزز آلية الكبت بآلية النكوص والتي من أساليبها : إنحراف المرء في التحدث عن الماضي الذي عاش فيه أو عاش فيه أجداده حين يفشل في حياته الحاضرة .

(انظر : أثر الاغتراب في شعر أبي فراس الحمداني مظاهره وسماته الفنية ، ص ١١٠) .

(٤) . الديوان : ٢٠٨/٢

الفروسية ، فنحس الشاعر الفارس أميراً ذا سلطة قوية يهزم بها الصعاب والمحن ، ويطرد مكامن الضعف في النفس البشرية[1].

ولكن الأمير يَهْزِمُ ويُهزم ، وكذا الفارس يوم له ويوم عليه ؛ ولكنّ الفارق بينهما أنّ ثقافة الفارس تختلف عن ثقافة الأمير ، فالفارس يعلم علماً يقيناً أنّ الحرب سجال وهذا مايهون عليه نتائج الحروب ، فيكون ذلك أدعى لقبول الواقع وأقرب له .

أما ثقافة الأمير فليست سياسة محضة يقاتل لأجلها !! بل رفاهية وترف وانشغال بأمر الحاشية ، لذا يكون الأمير أرق جناناً من الفارس ، وهذا بطبعه يُثير تساؤلاً ، ما العنصر الأقوى في تكوين شخصية الشاعر، الفروسية أم الإمارة؟

قبل الإجابة على هذا السؤال لابد من وقفة قصيرة مع بيت أبي فراس[2]:

ومُلكي بقَايا مَا وَهَبْتُ: مَفَاضَةٌ ، ورُمْحٌ، وسيفٌ صارمٌ ، وسنانُ

يعلق على ذلك د. عبداللطيف عمران قائلاً: "فأين الإمارة هنا ؟ وأين عزة الملك المادي ؟ فالقيمة الأهم لدى أبي فراس هي فروسيته التي تطغى على وضعه السلطوي ، فمنبع فخره شجاعة فارس ، وثبات مقاتل ، لا ميزة ملكية أو أنفة علية قوم ، وهذا أمر فطري عنده ، وهذه هي حال رجال بني حمدان"[3].

أتفق مع الدكتور عمران في أنَّ الفروسية العنصر الأهم لدى الشاعر ؛ ولكن أثر الحرمان من السلطة نَحَتَ في قلب الشاعر ما لم تنحته الفروسية ، ويرجع ذلك إلى ما سلف في أنّ جنان الفارس أعظم تحملاً من جنان الأمير ، وقلب شاعرنا ذا شطرين.

و دلت أشعاره على شدة وطأة أثر الإمارة عليه بقدر يفوق أثر أسر فروسيته ، ولا تكون العبرة بعدد القصائد ، بل بربطه بالواقع البشري .

---

(١) . انظر : شعر أبي فراس الحمداني ، دلالته وخصائصه الفنية : ص ١١٣

(٢) . الديوان : ٢٦/٢

(٣) . شعر أبي فراس الحمداني ، دلالته وخصائصه الفنية : ص١١٥

المحور الثاني : مرارة الغربة :

يشير معنى الغربة اللغوي إلى النزوح عن الوطن والاغتراب ، والاغتراب والتغرب كذلك ، تقول عنه : تغرب ، واغترب ، وقد غرَّبه الدهر ، وغريب : بعيد عن وطنه[1].

ولكلمة الغربة استعمالات في السنة النبوية ، فقد جاءت بمعنى : المقيم في غير وطنه بين قوم غير قومه ، فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي ، فقال :"كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " ، قال ابن بطال في فتح الباري : " ولما كان الغريب قليل الانبساط إلى الناس بل هو مستوحش منهم ، إذ لا يكاد يمر بمن يعرفه مستأنس به فهو ذليل في نفسه ، خائف ، وكذلك عابر السبيل"[2].
وجاءت أيضاً بمعنى الاغتراب المعنوي ، وهو أن يكون المرء على حال من الاستقامة ولزوم الجادة ، ومجانبة الفتن ، والأهواء ، وملازمة السمت الذي كان عليه الصدر الأول ، مع قلة النصير والمعين والمواقف ، وكثرة المنابز والمخذل والمخالف ، فيسمى صاحب هذه الحال غريباً ، وهذا المعنى هو المفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم "إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ "[3]

و قد شاءت القدرة الإلهية أن تجعل حقيقة الوجود الإنساني وجوداً مغترباً قبل الضرورة

---

(١) . انظر : لسان العرب : (غرب)

(٢) . انظر: ١ – صحيح البخاري : مج ٤/ج ٧/ ص١٧٠

٢– الغرباء الأولون : سلمان بن فهد العودة ، ص٢٣ ، دار ابن الجوزية ، ط١ ، الإصدار الثاني ، ١٤٢٦هـ .

٣ – فتح الباري في شرح صحيح البخاري : ١١ / ٢٣٤

(٣) . انظر الغرباء الأولون : ص ٢٦

الفلسفية أو النفسية ، وأن هذا الوجود المغترب يفصح عن نفسه كل لحظة من لحظات الوجود[1].

وتشير أصول مصطلح الاغتراب إلى أن الاغتراب بلا وعي ظاهرة قديمة سبقت الوعي بها، وتدل المكتشفات الآثارية على رسوم تشير إلى حيوانات واقعية وخرافية على جدران الكهوف رسمها الإنسان ولجأ إليها في صراعه مع ما حوله ، فالظن أن ذلك نوع من تغريب قوته أو انصياعه لقوة هذه الحيوانات في محاولة لإرضائها أو إرهابها ، وكلاهما اغتراب عن الواقع يمثل إحساس الإنسان بأنه محدد القدرة.

أما الاغتراب بوعي ، فيؤسس له أفلاطون وفكره بذاته يعد أول اغتراب واع عندما قسّم العالم إلى مطلق ووجود ، والمطلق هو عالم المثل ، والوجود هو عالم الظلال والصور المشوشة ، ثم كانت جمهوريته تجسيداً لهذه الفكرة الاغترابية ، ولعل محنة العبقرية في زمانه، ومقتل أستاذه سقراط ، كانا مع أسباب أخرى من بواعث اغترابه وبحثه عن المثال منفصلاً عن الواقع[2].

و يدل هذا على وجود صراع قائم في النفس أو إحساس بخلل يجعلها تعبر عن ذلك بالطريقة التي تُناسبها من قول أو فعل ، و أنّ الاغتراب ظاهرة موجودة أحسَّ بها الواعي و الساذج ، و عبَّر بها بالطريقة التي تُناسبه .

و يرتبط المعنى الاجتماعي للاغتراب بالمعنى النفسي ارتباطاً وثيقاً ؛ لأن أغلب المغتربين نفسياً كانوا مغتربين اجتماعيا بمعنى أنّ اضطرابهم كان في جانب كبير منه أثراً من آثار نبذ المجتمع ، أو تجاهله ، أو مطاردته لهم ، و من ثم كانوا غرباء بين الآخرين ، تميزوا بعدم الانتماء إلى الآراء أو المعتقدات الشائعة المألوفة[3]

---

(١) . انظر : دراسات في سيكولوجية الاغتراب : د. عبداللطيف محمد خليفة ، ص١٩ ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، (ب.ط) ، القاهرة ، (ب.ت) .

(٢) . انظر : تحول المثال دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي : صالح زامل ، ص٢١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٣م.

(٣) . انظر : أبوحيان التوحيدي ... مغترباً : د . بركات محمد مراد ، الرسالة ١٥٢ ، الحولية الحادية والعشرون ، مجلس النشر العلمي ، جامعة الكويت ، ١٤٢١هـ -١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٠م – ٢٠٠١م ، ص ٦٨.

ومهما كثرت التعريفات فإنّ "المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للاغتراب واحد ، والغربة والاغتراب كلها في اللغة بمعنى واحد وهو الذهاب والتنحي عن الناس " [١]
ولعل التعريف الذي يخدم هذا المحور هو أنّ الاغتراب : " انسلاخ عن المجتمع والعزلة والانعزال عن التلاؤم والإخفاق في التكيف مع الأوضاع السائدة في المجتمع ، واللامبالاة وعدم الشعور بالانتماء ، بل وأيضاً انعدام الشعور بمغزى الحياة " [٢]

وساعد على شيوع هذه الظاهرة بكثرة في الأدب العربي ، أنّ العربي يرى العزة في لزوم وطنه ، والذلة في التغرب عنه ، وقال بعض الأدباء :"الغربة ذلة ، والذلة قلة" [٣]، و قد يرجع هذا الإحساس إلى افتقاد الفرد إلى ما كان يألفه في وطنه من أهل و وطن و جاه ، و"قيل لأعرابي ما الغبطة ؟ قال : الكفاية ولزوم الأوطان والجلوس مع الإخوان. وقيل: فما الذل؟ قال : التنقل في البلدان ، والتنحي عن الأوطان" [٤]
و لا يمكن تعميم هذا الأمر ؛ بل إنّ الناس يختلفون في قدرتهم على التكيف مع البيئة الجديدة ، فمنهم من يألف ، و منهم من يتكيف على مضض ، و منهم من يرفض الغربة بشدة ، فتظل نفسه تحلق في سماء وطنه ، تمشق عبيره إذا خنقته الغربة ، و تتفيء تحت ظلاله إذا اشتد هجير النوى ، و تروي فؤادها من عذب أنهاره إذا تراءى لها سرابه .

وفي الغربة مذلة ، فهي تذل الجبابرة ، فهذا مهلهل ، سيد تغلب و قائدهم في حرب البسوس ، خرج من قومه ، بعد انتهاء الحرب ، ولحق بأرض اليمن ، فكان في (جنب)
فخطب إليه أحدهم ابنته فأبى أن يفعل ، فأكرهوه فأنكحها إياه ، فقال في ذلك مهلهل:

---

(١) . الغربة والحنين في الشعر الأندلسي : فاطمة طحطح ، ص ٣٣ ، مطبعة النجاح الجديدة ، ط١ ، الدار البيضاء ، ١٩٩٣م .
(٢) . دراسات في سكيولوجية الاغتراب : ص ٢١
(٣) . المحاسن والأضداد : ص١٠٨
(٤) . المصدر نفسه :ص ١٠٨

أَنْكحَهـــا فَقْـــدُ الأراقـــم[1] فـــي جنـــبٍ[2]وكـــانَ الحبـــاءُ[3] مـــن أدمِ
لـــو بأبـــانين[4] جـــاء يخطبُهـــا ضُـــرِّجَ مـــا أَنـــفُ خاطِـــبٍ بـــدمِ
أَصْـــبحتُ لا منْفَســـاً أَصَـــبْتُ و لا أُبْـــتُ كَرِيمـــاً حُـــرَّاً مـــنَ النَّـــدمِ
هـــانَ علـــى تَغْلِـــبَ مـــا لَقيـــتْ أُخْـــتُ بنـــي الَمـــالِكِينَ مـــنْ جُشَـــمِ[5]
ليســـوا بأَكْفَائِنَـــا الكـــرامِ ولا يُغنُـــونَ مـــنْ عَيْلـــةٍ ولا عَـــدَمِ[6]

وقد أفرد ظاهرة الاغتراب في شعر أبي فراس بعض الباحثين ، بالدراسة الأكاديمية وما يعنيني في هذه الدراسة ، التركيز على الاغتراب بكونه محوراً من محاور عتاب الشاعر و شكواه ليس في الأسر فحسب !! بل إحساس الشاعر بالغربة بين أهله ووطنه ؛ لذلك " يخطىء من ظن أن أبا فراس الشاعر الأمير لم يذق طعم الغربة إلا في الأسر، فقد أشار في كثير من أشعاره إلى ما يعانيه من آلام نفسية جراء إحساسه بالاغتراب عن الناس في مجتمعه[7] "

---

(١) . الأراقم : حي من تغلب وهو جُشم وسميت الأراقم بهذا الاسم لأن ناظراً نظر إليهم تحت الدثار وهم صغار فقال : كأن أعينهم أعين الأراقم ، فلّج عليهم اللقب. (انظر : لسان العرب : (رقم)) .

(٢) . جنب : موضع في اليمن لبني يزيد بن حرب . (انظر : مُعجم البلدان : ١/ ١٩٥)

(٣) . الحباء : يقصد المهر ، وأراد أنهم لم يكونوا أرباب نعم فيمهروها الإبل وجعلهم دباغين للأدم .
(انظر :لسان العرب : (حبا)) .

(٤) . أبانان : جبلان ، يُقال لأحدهما أبان الأبيض والآخر أبان الأسود ، و قال آخرون : أبانان تثنية أبان و مُتالع غُلِّب أحدهما ،كما قالوا : العمران و القمران في أبي بكر و عمر ، و في الشمس والقمر ، و هما بنواحي البحرين (انظر : مُعجم البلدان : ١ / ٨٢ – ٨٣)

(٥) . جشم : جشم بن بكر بطن من تغلب بن وائل من العدنانية ، وهم قوم الشاعر .
(انظر : ١- ديوان مهلهل بن ربيعة ،ص ٨١
٢ – معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ١/١٨٨)

(٦) . انظر : ١- الغربة في الشعر الجاهلي : دراسة : عبدالرزاق الخشرم ، ص ٤٩ ، منشورات اتحاد الكتاب العربي،(ب .ط) دمشق ، ١٩٨٢
٢- ديوان مهلهل بن ربيعة : ص٨١ ، دار صادر ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٦م .

(٧) . الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري: د. سميرة سلامي ، ص ١٦٤،دار الينابيع ، ط١،دمشق ، ٢٠٠٠م .

وقد حدد الشاعر معالم غربته في ثنايا عتابه وشكواه ، فهو الغريب بين ظهراني أهله، وعابر سبيل في وطنه ، ووحيد بين الجموع الغفيرة التي لاتنتمي إليه ، يقول[1]:

غريبٌ وأهلي حيثُ ماكَرَّ نَاظِرِي وحيدٌ وحولي مِنْ رِجَالي عَصَائبُ

وقد حكم على ذلك الزمان نفسه ، فهو غريب عليه وغريب على أهله ، بل ويشمل الأمر أفعال الشاعر التي لا تشابه أفعال أبناء زمانه ، يقول[2]:

ولكنَّني في ذا الزَّمانِ وأَهْلِهِ غَريبٌ وأَفْعَالي لَدْيه غَرائِبُ

فالشاعر هنا لم يسند غربته في مكان ما !! لأن العبرة ليست بالرحيل عن الأوطان، بل في عدم احتواء الزمان له ، وانعدام الألفة بينه وبين الناس لعدم التوافق.

ولعل شكوى الشاعر من الغربة منبثق من خبرته بالحياة ، وضجره من الدنيا التي لا يقر لها قرار ، فهي الظهر الأحدب الذي لا يقر عليها راكب.

يقول[3] :

ألا إنّما الدُّنيا مطيَّةُ راكِبٍ عَلا رَاكِبُوها ظَهْرَ أَعْوجَ أحْدبَا

شَمُوسٌ متى أَعْطَتكَ طَوْعاً زِمَامَهَا فكُنْ لِلأَذى من عَقِّها مُترقّبا

اختيار الشاعر للغربة :

كلما ازداد وعي الإنسان واتسعت ثقافته ، ازدادت معاناته ، وأشار إلى ذلك المتنبي في قوله :

ذو العقْلِ يَشْقى في النّعيمِ بِعقْلهِ وأَخُو الجَهالةِ في الشّقاوةِ يَنْعمُ

وفي قوله أيضاً:

أَفاضِلُ الناسِ أغْراضٌ لدى الزَّمنِ يَخلُو مِنَ الهَمِّ أخْلاهُمْ مِنَ الفِطَنِ

---

(١) . الديوان : ٢/٢٠

(٢) . المصدر نفسه ٢/٣٤

(٣) . المصدر نفسه : ٢/٥٣

فكأن الهم معقود بناصية أصحاب الطموح ، فإنْ عجز الإنسان عن وضع هدفه و صنع طموحه ؛ فهو خالٍ من الهم .

وكانت معاناة الشاعر المثقف بين ما هو قائم في مجتمعه حين كان ينشد الحياة الأفضل التي كانت تشده إلى الأمام ويشده واقع مجتمعه إلى الخلف ، وبين ما لم يوجد بعد أو ما ينبغي أن يوجد وهو المسافة القائمة بين الواقع والإمكان ، أو بين الواقع والمثال[1].

وقد اختار أبو فراس الغربة نأياً بنفسه عن البشر ، فهو لا يفتأ ينشد الحياة الكريمة التي أعيا عليه وجودها بين الناس ، ويطلب الغربة أيضاً ليصون كبرياءه من أن يُبتذل ، ولذلك ولأمور عدة اختار الشاعر الغربة وشكا ممن تسبب له بها ، وعتب على أبناء زمانه الذين تسببوا في اغترابه .

وأقدم الشاعر على تلك الخطوة باختياره ، ليحفظ على نفسه عزتها ، فلا يضيره بعد ذلك نأي الأنام عنه ، ولا يوحشه غريب الديار !! يقول[2]:

عزيزٌ حيثُ حَطَّ السَّيرُ رَحْلي ، تُداريني الأَنَامُ ولا أُداري !

وأَهْلِي مَنْ أنختُ إليه عِيسي، ودَارِي حيثُ كُنتُ منَ الدِّيارِ!

فما أهلُ العَداوَةِ[3] لي بأَهْلٍ ، ولا دارُ المذَلَّةِ لي بدارِ !

والنفس الأبية التي عقدت همتها ، بالكواكب ، لا تجد في الأرض موطئها ، بل تظل تتبع همتها في أي مكان تخلق فيه ، وكذا كانت نفس الشاعر التي لم يكن أديم الأرض مهادها...

---

(١) . انظر: ١- الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري :ص ١٨

٢- العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب : ١١/١، ٣٧٣/١

(٢) . الديوان : ٢٢٨/٢

(٣) . وردت في تحقيق سامي الدهان (غداوة) ، و لعله خطأ في الطباعة ، و وردت في تحقيق د. خليل الدويهي (عداواة) ، لذلك أثبتها ، و هي الأقرب للصواب والله أعلم .

(ديوان أبي فراس الحمداني : تحقيق خليل الدويهي ، ص ١٨٣ ، دار الكتاب العربي ، ط٥ ، بيروت – لبنان ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م) .

يقول[1]:

ولـو رَضـيَتْ نَفْسِـي المُقـامَ لقَصَّـرتْ ولكنَّهـــا معقُـــودةٌ بالكَواكـــبِ
ولـو أنَّـها لانَـتْ لخَفْـضِ مَعِيشَـةٍ أطاعَـتْ مَقَـالاتِ الغَـوَاني الكَواعِـبِ
ولكـنّ نفســي لا تُحِـبُّ لـي الرِّضَـا بغيـرِ الرِّضـا مِـنْ عاليـاتِ المنَاصِـبِ

ولا عجب أن يبرز للمرء شأن عظيم في غربته ويبلغه فيها ما لا يبلغه في أوطانه من أوطار، فتكون بذلك الغربة نعمة على المرء لا نقمة عليه، وهي عوض عن مفارقة الأهل والوطن[2]، يقول أبو فراس[3]:

والمـرءُ لـيسَ ببـالغٍ فـي أَرْضِـهِ ، كالصَّـقْرِ لـيس بصَـائِدٍ فـي وَكْـرِهِ

وإذ أعياه وصل الخليل ، فله شأن آخر ، يقول [4] :

إذا لـم أَجِـدْ مِـنْ بلـدةٍ مـا أُريـدُهُ فعنـدي لأُخـرى عزْمـةٌ ورِكـابُ

---

(١) . الديوان : ٤٩/٢

(٢) . وقد فصَّل ذلك الأمر الإمام الشافعي رحمه الله في قوله :

مـافي المَقَـامِ لـذي عقـلٍ وذي أدبِ مـن راحـةٍ فـدعِ الأوطـانَ واغـترِبِ
سـافرْ تجـدْ عِوضـاً عمَّـن تُفارِقُـهُ وانْصَـبْ فـإنَّ لذيـذَ العـيشِ في النَّصـبِ
إنِّي رأيـتُ وقـوفَ المـاءِ يُفسـدُهُ إنْ سـاحَ طـابَ وإنْ لم يَجْـرِ لم يطـبِ
والأُسـدُ لـولا فِـراقُ الأرضِ مـا افترسـتْ والسَّـهمُ لـولا فـراقُ القـوسِ لم يُصِـبِ
والشـمسُ لـو وقفـتْ في الفُلـكِ دائمـةً لملهـا النـاسُ مـن عُجْـمٍ ومـنْ عَـربِ
والبـدرُ لـولا أُفـولٌ منـه مـا نظـرتْ إليـه في كُـلِّ حـينٍ عـينُ مُرْتقِـبِ
والتِّبْـرُ كـالتُّربِ مُلْقـىً في أَماكنـهِ والعـودُ في أرضـهِ نـوعٌ مـن الحَطـبِ
فـإنْ تغـرَّبَ هـذا عَـزَّ مَطْلَبُـهُ وإنْ تغـرَّبَ ذاكَ عَـزَّ كالـذَّهبِ

(ديوان الإمام الشافعي : ص ٥٣- ٥٤)

(٣) . الديوان : ١٩٧/٢

(٤) . المصدر نفسه : ٢٢/٢

وإذا تكالبت الهموم ، واستحكمت الكروب ، وتمكن اليأس من النفس ، فلا يدفع تلك البلايا إلا الرحيل عن مواطنها ، وكم من ضيق جلاّه النوى ، وكم أشرفت مطالع الأنس مع أول خطوة في الغربة.

يقول[1]:

وإذا الهمـــوم تكـــاثرتْ ، لـــم يُغْنهـــا إلا العُـــذافِرةُ[2] الأمُـــوُنُ[3] الجلعـــدُ[4]

الغربة الفكرية :

وهي نأي الشاعر بنفسه عن فكر لا يلائمه ، أوفراره إلى موطن آمن للحفاظ على المبادئ والقيم الراسخة في نفسه ، و التي يخشى عليها من التغيير أو التبديل .

و يُشبه الاغتراب الفكري الاغتراب الزماني في أنّ الآخرحالة نفسية تصيب الإنسان داخل وطنه في مرحلة زمنية غير مواتية تجعله يشعر بالغربة بين أهله وذويه في مجتمع نشأ فيه و أفقده مكانته دون أن يعترف بتميزه و فضله [5].

و قد ينتج عن الاغتراب الفكري ما يُمكن تسميته بالعزلة و هو تعبير أصبح يُستخدم في وصف و تحليل دور المفكر أو المثقف الذي يغلب عليه الشعور بالتجرد وعدم الاندماج النفسي أو الفكري بالمقاييس الشعبية في المجتمع[6] .

---

(١) . الديوان : ٨٨/١

(٢) . العذافرة : الناقة الشديدة الأمينة وهي الأمون. (لسان العرب : (عذر)) .

(٣) . الأمون : ناقة أمون : وثيقة الخلق ، قد أمنت أن تكونَ ضعيفة وهي التي أمنت العثار والإعياء .
(لسان العرب: (أمن)) .

(٤) . الجلعد : ناقة جلعد : قوية ظهيرة شديدة . (لسان العرب : (جلعد)) .

(٥) . انظر : الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة : د. أشرف علي دعدور ص٧٣، ٢٣ دار نهضة الشرق (ب.ط)، جامعة القاهرة –١٩٩٧م

(٦) . انظر : أبوحيان التوحيدي ...مغترباً : د . بركات محمد مراد ، ص ٨٥

و قد يجد الشخص الذي تجاهله أهل زمانه ، ما لا يجده من تنّكر له أهل زمانه بعد اعترافهم بفضله ؛ لأن ذلك يؤدي إلى فقدان الثقة بالنفس وبالناس ، والثقة بالنفس بناء يقوّم المجتمع أركانه ، فإن اختلت الأركان ، اضطربت النفس وتزلزل كيانها.

و انطلقت شكوى أبي فراس في هذا النوع من الغربة من الشعور بغربة مبادئه على أهل زمانه ، فهو غريب الأقوال والأفعال فيهم[1]، لذا قبّح أفعالهم وأعلن موقفه الحاسم منهم دون أن يخشى العواقب .

وربما زيّن حس الشاعر المرهف أموراً قد لايراها غيره من الناس بمثل رؤيته ، وكذلك قبّح له حسه أموراً لاتقبح عند غيره ، فبدت عليه علامات القلق والحيرة وانعدام ثقته بالناس ، لأنه كشف حقائق الأمور ، واستهجن الأفعال ، وعرّض بالنفاق الاجتماعي الناتج عن الضعف وسفه الأحلام ، لذا حاول النجاة بفكره عنهم لئلا يقع فيما حذّر منه أبو تمام[2] في قوله[3]:

إذا جاريتَ في خُلُقٍ دنيئاً فأنتَ ومَنْ تُجاريه سَواءُ

و حين أعيا شاعرنا أمر الناس و انعدمت ثقته بهم ؛ ندب الأصحاب و أبناء الزمان و أفعالهم المشينة، فقال [4]:

بمَنْ يثقُ الإنسانُ فيما يَنُوبُه ومِنْ أينَ للحُرِّ الكريمِ صِحابُ؟

---

(١) . وقال في ذلك : ولكنَّني في ذا الزمانِ وأَهْلِهِ غريبٌ وأفعالي لديهِ غَرائِبُ .

(الديوان: ٣٤/٢)

(٢) . هو حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن الأشج بن يحي بن مروان بن مُر بن سعد بن كاهل بن عدي بن عمرو بن الغرث بن طي ، ولد سنة ١٧٢هـ بقرية جاسم بين دمشق وطبرية ونشأ في مصر ، عمل سقاءً وقيل : بل يخدم حائكاً ويعمل عنده ، كان أوحد عصره في ديباجة لفظه ونصاعة شعره وحسن أسلوبه ، وله كتاب الحماسة وكتاب فحول الشعراء ، توفي بالموصل سنة٢٣١هـ .

(انظر : وفيات الأعيان: ١١/٢-١٢-١٧)

(٣) . شرح ديوان أبي تمام :٣١١/٢

(٤) . الديوان : ٢٢/٢

وقد صارَ هذا النّاسُ إلّا أقَلّهُمْ ذئاباً على أَجْسادِهِنّ ثِيَابُ

واضطراب الشاعر من الناس أحبطه في اختيار خليل يناسبه ، فأين يجد ذلك الخل الوفي ونفسه تنفر من الناس ، وأي خليل يستصحبه والشاعر قد ذمّ أهل زمانه وقبّح أفعالهم !! يقول[1]:

ولما تخيّرتُ الأخّلاءَ لم أجِدْ صَبْوراً على حِفْظِ المودّةِ والعهدِ
سليماً على طيِّ الزّمانِ ونَشْرِهِ أميناً على النّجوى صَحِيحاً على البُعدِ

فأدبر بفرسه عن غث الناس وسمينهم ، ورأى في الغربة أنساً يُبعده عن خيانة البشر. يقول[2]:

"أبا المنصورِ" ، خانتْني ثِقَاتي فمهِّدْ لي عَلى العَدَوِيِّ سَرْجي!

وقد طلب الشاعر صنوا يماثله ليتحد لسان الشكوى بينهما ، ويلتئم صدع الإحساس بالغربة ، ويبدي كل منهما نجواه دون خوف أو توجس...ولكن الأمر لا يبدو بهذه السهولة ، يقول[3]:

ألا ليت شعري– هلْ أنا الدَّهرَ واجدٌ– قَريناً ، لهُ حُسْنُ الوفاءِ قرينُ؟
فأَشْكُو ويَشْكُو ما بِقَلْبِي وقَلبِهِ ، كِلانا ، على نَجْوى أخِيهِ ، أَمِينُ
وفي بعضِ مَنْ يُلقِي إليكَ مَودَّةً عَدوٌّ إذا كشّفْتَ عَنْه مُبِينُ

أحس الشاعر بالغربة من إحساسه بالتفرد وعدم وجود قرين يماثله ، "فالغربة وما يصحبها من هم وغم ، ليست في البعد عن الوطن والأهل ، وإنما في التفرد وعدم وجود النظير[4].

ولم يتنح الشاعر فكرياً عن قومه إلا بعد أن نصح ، وحاول أن يعالج الخلل الذي كان

---

(١) .الديوان : ٩٢/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٥٧/٢

(٣) . المصدر نفسه : ٣٩٦/٢

(٤) . الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع : ص ١٦٣

يواجه ، وهذا موقف إيجابي انتهجه الشاعر قبل أن يغترب فكرياً عن مواطن الفساد ، و اتضح ما لديه من انتماء قبلي بين الفينة والأخرى حين كان يُذكّر بصلة القرابة وقداستها.

" قال ابن خالوية : قال أبو فراس " قصد ابن بويه الديلمي " الأمير ناصر الدولة" في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة فانصرف إلى " نصيبين" وكاتب الأمير "سيف الدولة" في الانحدار للاجتماع على التدبير فيه . فأقام أياماً حتى استعد ، وأخذ الأهبة وسار إلى الرقة، وقد أصلح الأمير "ناصر الدولة " بينه وبين سلطانه . ووجد من تأخير "سيف الدولة "المسير في تلك الأيام ، وتوجه إلى الأعمال التي له التي "بديار بكر" وبسط أيدي الرجال فيها. وأشرفت الحرب على الشروق فقال أبو فراس في ذلك[1]:

أيا قَومَنا لا تُنْبِشُوا الحربَ بَيْننا أيا قَوْمَنا لا تَقْطعُوا اليدَ باليَدِ

فيا ليتَ داني الرِّحْمِ بَيْني وبَيْنكُمْ إذا لم يُقرِّبْ بيْننا لمْ يُبعِّدِ

"عداوةُ ذِي القُربى أَشَدُّ مَضاضَةً على المرءِ مِنْ وقعِ الحُسامِ المهنّد"[2]

ومن شدة حرص الشاعر على الإبقاء على الود نصح بالابتعاد عن مجاورة الحبيب لأن في ذلك ما يحرك الأضغان ويثير الخلاف ، وخير دنو من الحبيب هو النأي عنه بالجوار ومعاودته بالزيارة ، يقول[3] :

لا تطلبنّ دُنُوّ دَا رٍ منْ حبيبٍ أو مُعاشِرْ

أبقى لأسبابِ المَوَدّ ةِ أنْ تزورَ ولا تُجاوِرْ

---

(١) . الديوان : ٢/٩٨

(٢) . البيت لطرفة بن العبد ، وقد ورد برواية أخرى :

وظُلمُ ذوي القُربى أشَدُ مضاضةً على المرءِمِنْ وقع الحسامِ المهنّد

١- شرح المعلقات السبع : ص ٥٩

٢- ديوان طرفة بن العبد : ص ٣٦ دار صادر (ب.ط)، بيروت ، (ب،ت)

(٣) . الديوان : ٢/٢١٨

الغربة قسراً[1]:

وهي ما أُلزم الشاعر عليها دون اختياره ، وبرزت في تفكر الشاعر في سنة الله في الخلق لإحساس الشاعر أنّ قومه وجَدوه غريباً بينهم تعمداً أو جهلا.

وبعد تفكر الشاعر في حال الناس في الدنيا ، وجد أنّهم غرباء ، فكل قريب ونسيب ، غريبٌ بالموت.

و يُعد ادعاء الوفاء بين الأصدقاء ضرب من الهذيان ، وكل ما يتعاهد الخليلان عليه من الوفاء باطل ، يحول الموت دونه[٢] . وحسب الإنسان غربة في الدنيا ألا يدوم له حبيب ، ولا يبقى له نسيب ، وأن يجد نفسه عاجزاً عن مجاورة من حجب التراب.

يقول[٣]:

أَتَـــزْعَمُ أَنَّ ّكَ خِـــدْنُ الوَفَـــاءِ وقَدْ حَجَبَ التُّرْبُ مَنْ قدْ حَجَبْ ؟
فـــإنْ كُنـــتَ تَصـــدُقُ فيمـــا تقُـــولُ فمُـــتْ قبـــلَ مَوْتِـــكَ مَـــعْ مَـــنْ تُحِـــبْ
وإلا فَقَـــدْ صَـــدَقَ القـــائِلُونَ: مَـــا بـــينَ حَـــيٍّ ومَيْـــتٍ نَســـبْ

---

(١) . القسر : القهر على الكره . لسان العرب : (قسر) .

(٢) . وخبر ليلى الأخيلية مع توبة خير ما يدل على اقتناع الأوفياء بكذب ما يدعونه ، ذكر صاحب الأغاني " أن ليلى الأخيلية أقبلت من سفر ، فمرت بقبر توبة ومعها زوجها وهي في هودج لها. فقالت :والله لا أبرح حتى أُسَلّم على توبة ، فجعل زوجها يمنعها من ذلك وتأبى إلا أن تلم به. فلما كثر ذلك منها تركها ، فصعدت أكمة عليها قبر توبة ، فقالت : السلام عليك يا توبة ، ثم حولت وجهها إلى القوم فقالت : ما عرفت له كذبة قط قبل هذا . قالوا : كيف ؟ قالت : أليس القائل :

ولـــو أنَّ ليلـــى الأَخْيَليّـــةَ سَـــلّمتْ عليـــيّ ودوني تُرْبـــةٌ وصـــفائحُ
لسَـــلَّمتُ تَسـليمَ البَشاشـــةِ أوزَقَـــا إليهـــا صـــدى مـــن جانـــب القـــبر صـــائح
وأُغْـــبطُ مـــن ليلـــى بمـــا لا أنالُـــه ألا كُـــلُّ مـــا قَـــرَّتْ بـــه العـــينُ صـــالح
فمـــا بالـــه لم يســـلم علـــي كمـــا قـــال ؟! " الأغاني : مج ٦/ج١١/ص١٦٢

(٣) . الديوان : ٢/٤١-٤٢

و وَصفَ الشاعر الغربة في مشهد من أواخر مشاهد حياته وصفاً يحكي واقع الغربة التي عاشها في حياته ، و ستعيشها بعده ابنته ، فقال يخاطبها :

قُـــــــولي إذا نَـــــــادَيْتِنِي ، وعَيِيـــتُ عَـــنْ ردِّ الجـــوَابِ:
زيـــنُ الشَّـــبابِ ، أبُـــو فِـــرا سٍ لـــم يُمتّـــعْ بِالشّـــبابِ ![1]

ولايخفي ما سجله الشاعر من خوفه الشديد من الموت في بلاد الغربة بين يدي آسريه[2]، "وتزداد غربة الموت وطأة حين يموت الرجل في غير بلده وقومه ، إنه لا يكاد يتحمل مأساة الموت وغربته ، بل إنه كان يأنس وقت موته إلى أهله بقربه مع علمه بأنه سيبقى وحيداً غريباً في قبره ، ولكن كيف يتحمل عذاب الغربة قبل موته وبعده ، إنه يموت بين قوم أغراب ولا يستطيع أن يشتم تراب أرضه ولا أن يكحل عينيه برؤية قومه وذويه"[3] وهذا ما نعاه امرؤ القيس حين مات غريباً في بلدة من بلاد الروم تُدعى أنقرة بجوار قبر امرأة من بنات الملوك ماتت هناك ، فدُفنت في سفح جبل عسيب ، سأل عنها فأُخبر بقصتها ، فقال [4] :

أجارتنـــا إنّ الخطـــوبَ تنـــوبُ وإنـــي مُقـــيمٌ مـــا أَقـــامَ عســـيبُ
أجارتنـــا إنّـــا غريبَـــانِ هَهُنَـــا وكُـــلُّ غريـــبٍ للغَريـــبِ نَسِـــيبُ
فـــإنْ تَصِـــلينَا فالقرابـــةُ بيننـــا ، وإنْ تَصْـــرِمينَا فالغريـــبُ غريـــبُ
أجارتنـــا مـــا فـــاتَ لـــيس يـــؤوبُ ومـــا هـــو آتٍ فـــي الزَّمـــان قَرِيـــبُ
ولـــيس غريبـــاً مَـــنْ تنـــاءتْ ديـــارُهُ ولكـــن مَـــنْ وارى التُـــرابُ غريـــبُ

و تجاهل أبو فراس في حين آخر ما علمه مما لابد منه ، فظل يشكو تلك الغربة ـــــــ

(١) . الديوان : ٤٧/٢

(٢) . مرّ ذلك في الفصل الأول في مبحث أثر الأسر .

(٣) . الغربة في الشعر الجاهلي دراسة : ص ٣٠٥ ، ص ٣٠٦

(٤) . انظر : ١- الأغاني : مج٥ / ج٩ /ص٧٠
٢ - ديوان امرئ القيس : ص ٤٤

التي عاشها بعد فقد الأحبة ، وبعد أنْ صرم الموت حبال الآمال ، فقال في فقد ابن أخته أبي المكارم :

هـــل تَبلُـــغُ القَمـــرَ المـــدفُونَ رائِعـــةٌ مِـــنَ المقـــالِ ، عليْهـــا للأَسَـــى حُلَـــلُ ؟

مـا بَعْـد فَقْـدِكَ ، فـي أَهْـلٍ ولا وَلَـدٍ ، ولا حَيَـاةٍ ، ولا دُنَيـا ، لَنَـا أَمَـلُ[1]

فإحساس الشاعر بغربته عن المتوفى قاده إلى غربة أخرى ، فهو مغترب بين الأهل والولد وزخرف الدنيا وبهجتها ؛ لأن العيش بعد فقد الأحبة مرير ، لا يطيبه أُنس ولا تزخرفه حياة ولا تغيّره مسرة.

وكما اختار الشاعر الغربة نأياً بنفسه عن غثاء البشر ، فقد وجد أنّ البشر فرضوا الغربة عليه ، وادعوا أنه فيهم غريب منكر.

ومن ذلك ما قاله معرضاً بسيف الدولة[2]:

ومـا هَـو إلاّ أَنْ جَـرَتْ بفِراقِنَـا يَدُ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ: مَنْ هُو حَارِثُ؟

يُـذَكِّرُنا بُعْـدُ الفِـرَاقِ ، عُهُـودَهُ وتِلـكَ عُهُـودٌ قَـدْ بَلـينَ رثَائِـثُ

فكم كان يجد الشاعر من ألم عظيم حين تنكر له الأهل و انكروا فضله و نسوا ذلك الحارث الضاري ؟! و هذا ما عبر عنه الشاعر في صيغة الاستفهام ، و كأن ألمه تقلص في صُغر العبارة التي اختارها ، ليبقى الألم يعتلج في نفسه ، و يظل المتُلقي يسبر أغوار تلك المعاناة ، و يجد ألمها في التعجب و الاستنكار و الدهشة ، لينتقل إلى ذلك الحزن والضيق و و التغلغل في أعماق الغربة .

واستنكر الشاعر أيضاً على ابنة العم – وربما قصد ابن العم السابق – ما ادعته أو ما ادعاه من جهل به ، فقال[3]:

فـلا تُنْكِرِينـي ، يابْنَـةَ العَـمِّ إنَّـهُ لَيَعْـرِفُ مَـنْ أَنْكرْتِـهِ : البَـدُو والحَضْـرُ

---

(١) . الديوان : ٢/٢٧٥-٢٧٦

(٢) . المصدر نفسه : ٢/٥٦

(٣) . المصدر نفسه : ٢/٢١١

ولا تُنْكرينـي ، إنَّنـي غَيْـرُ مُنْكَـرٍ إذا زَلَّـتِ الأَقْـدَامُ ، واُسْـتُنزِلَ النَّصْـرُ

ولاغرو أن تكون تجربة الأسر غربة على غربة ، فإذا كان الشاعر غريبا بين أهله وعلى زمانه ، فما حظ الأسر في بلاد الروم من غربته؟!

ولذلك كان يرى نفسه مثالاً في الصبر ، لا يُطيق أحد ما أطاقه في حياته من أمور جسام ، يهون الموت فيها على صاحبه .

يقول[1]:

ومَــنْ لقِــيَ الــذي لاقيْــتُ هانَــتْ عليــهِ مَــوارِدُ المــوْتِ الــزُّؤَامِ[2]

"وكان يجتمع على الشاعر إذا حبس في غير دياره ، ذِلتان : السجن والاغتراب ، فيعظم إحساسه بالمهانة لما هو فيه من العجز التام بين أيدي آسريه."[3]

---

(١) . الديوان : ٣٧٣/٢

(٢) . الزؤام : موت زؤام عاجل ، وقيل سريع مجهز ، وقيل : كريه . (لسان العرب : (زأم)) .

(٣) . الأسر والسجن في العرب : ص ٤٧٧

المحور الثالث : المرض :

المرض أشمل من السقم وأعم منه ، لأنّ أثر المرض في النفس وفي البدن ، أما السقم فتأثيره في البدن[١] ، والشاعر شكا ما حلّ في بدنه وما استوطن في نفسه ، وعتب على من أسقم النفس وأضناها .

لم يكن مرض الشاعر ليكوّن محوراً من محاور العتاب والشكوى إذا قيس ذلك على حقيقة حياته التي عاشها ، فلم يعش سقيماً مقعداً ، أو مريضاً مدنفا ، إنما عاش معافى النفس والبدن ، خلا بعض العوارض التي اعترضته مثل أثر النصل الذي بقي في فخذه ، وبعض الأسقام الأخرى الظاهرة والباطنة[٢].

والتمحيص في حقيقة مرضه لم يكن أمراً ذا أهمية بالغة بقدر إحساسه بذلك ، فالإحساس بالمرض حقيقة يعيشها الشاعر نفسه وينفث بآلامها ، والألم مورد الشعراء الثر ، وهو وقود وجدانهم ، ينظمون أعذب القوافي فيه ؛ لأنّ "الشاعر الذي صهر روحه الألم فنفث شعره كأنه يحمل قطعاً ممزقة من قلبه"[٣] و "عدد الآثار الأدبية والفنية الضواحك أقل عدداً من الآثار البواكي"[٤].

إذن تأتي أهمية هذا المحور من أهمية الألم ، الذي كوّن مادة شكوى أرسل الشاعر زفراته بها، ووعكة ألم من محبوب تبعث على ضروب العتاب.

---

(١) . انظر : الكليات : (سقم) .

(٢) . يقول :

جِـــــرَاحٌ تَحَامَاهـــــا الأُسَـــــاةُ ، مَخُوفَـــــةٌ ؛ وسُـــــقْمَانِ: بَـــــادٍ ، مِنهُمـــــا ودَخِيـــــلُ

(الديوان : ٣١٣/٢) .

(٣) . الشاعر العربي أبو فراس الحمداني : محاضرات الموسم الثقافي : ج ٤ ، ص ٥٨

(٤) . المصدر نفسه : ص ١٥٩

و قد سما بشمائل أبي فراس العظيمة ، الصبر والجسارة ونكران الذات في سبيل العزة والرفعة والإباء ، ولئن ربي على الدلال ، فلقد نشّأته السيوف التي تحمل صاحبها على الخروج وهو

يعلم يقيناً أنّ الموت أقرب إليه من شراك نعله ، فحين يشكو ذلك الشجاع من ألم ؛ يُدْرَكُ عظم ذلك الألم ، ولو كان الشاعر كثير الشكوى من العلل والأسقام ، لما كانت شكواه ذات بال ، ولكن مثله لا يشكو إلا من عظيم .

يقول[1] :

وإنّـــي للصـــبّورُ علـــى الرّزايَـــا ، ولكـــنّ الكِـــلامَ علـــى الكِـــلامِ
جـــروحٌ لا يَـــزَلْنَ يَـــرِدْنَ منّـــي علـــى جُـــرْحٍ قَرِيـــبِ العهـــدِ دامِ
ولـــم يبـــقَ الرَّمـــيُّ ، وإنْ تَراخَـــتْ لَيَالِيـــهِ عَلـــى مَـــرِّ السِّـــهامِ

وقد كان الشاعر يبدي جلده للنكبات ويريها ثباته الذي يوازي الجبال عند الخطوب إلا أنّ الشكوى من المرض زفرات تخرج بشكل لا إرادي أمام الأم ، ورُب مسحة منها على الرأس تفعل ، ما حار الأُساة في أمره. و قد راكم الشاعر مصائبه وصدرها بجراحه التي نالت منه ما لم ينل الأسر منه ، فهي جراح تثعب دماً ، توجس الأساة في أمرها خيفة منها ، لأنها فجرت أسقاما قد ظهر أمرها على جسده ، ودخيلة لطفت عن أعين البشر.

يقول[2]:

مُصـــابي جليـــلٌ ، والعَـــزاءُ جَميـــلُ ، وظَنّـــي بـــأنَّ اللهَ ســـوفَ يُـــديلُ
جِـــراحٌ ، وأَسْـــرٌ ، واشـــتياقٌ ، وغُرْبـــةٌ أُحَمَّـــلُ! إنّـــي ، بَعْـــدَها ، لحَمُـــولُ !
و إنّي في هذا الصَّباحِ ، لصَالحٌ ؛ و لكنَّ خطْبي في الظلام جَليلُ !
ومـــا نـــالَ منـــي الأســـرُ مـــا تَرَيانِـــهِ ؛ ولكنّنـــي دامـــي الجِـــراحِ ، عَلِيـــلُ
جِـــراحٌ ،تَحَامَاهَـــا الأُسَـــاةُ ، مَخُوفَـــةٌ ؛ وسُـــقْمَانِ: بَـــادٍ مِنْهُمـــا ودَخِيـــلُ

---

(١) . الديوان : ٢/٣٧١-٣٧٢

(٢) . المصدر نفسه : ٢/٣١٣

واتخذ الشاعر من ذلك النصل تجربة جعلته ينطق بمنطق الشيخ الحكيم الذي خبر الأمور وجربها وعارك الحياة ، وذاق حلوها ومرها ، وأغرق في وصف ألمها.

يقول[1]:

ولاتَصــفَنَّ الحــربَ عِنــدِي ، فإنَّهــا طَعــامِيَ مُــذْ بِعْــتُ الصِّــبَا وشَــرابِي
وقد عَرفَتْ وَقْعَ المسابير[2] مُهجَتي وشُــقِّقَ عَــنْ زُرْقِ النُصُــولِ إهــابِي[3]
ولجَّجْــتُ فــي حُلــوِ الزمــانِ ومُــرِّه وأنفقــتُ مِــنْ عُمــري بغيْــرِ حِسَــابِ

والجدير بالذكر أن هناك علاقة متبادلة بين الأسقام النفسية والبدنية ، فمثلاً القلق والتوتر والغضب ، تؤثر على صحة البدن ولها اصطلاح في الطب.

وكذلك الأسقام البدنية تؤثر على النفسية ، ومن ثم العلاقات الاجتماعية التي تربط المريض بمجتمعه .

ولما اجتمعت الأدواء على الشاعر وكابد من ألمها و كربها و ضيقها ؛ جزم أنّه يمتلك قدرات غير محدودة تفوق قدرات البشر الطبيعية في التحمل و الصبر ؛ لأن اجتماع الألم الجسدي مع الألم النفسي ؛ غاية في هلاك النفس و دنفها و هذا ما جعله يُعلن أنّه من أصحاب القلوب الصخرية التي تُطيق ما لا يُطيقه الماء و الطين ، وصوّر ذلك في صورة تنقل واقع حي لميت أثخنته الجراح و أثقلته الآلام ، فقال مخاطباً خادمه منصور[4]:

مُغْــرمٌ ، مُــؤْلَمٌ ، جَــريحٌ ، أســيرٌ إنّ قَلْبــاً ، يُطيــقُ ذا ، لصَــبُورُ
وكثيــرٌ مِــنَ الرِّجَــالِ حَديــدٌ ؛ وكثيــرٌ مِــنَ القُلُــوبِ صُــخُورُ

---

(١) . الديوان : ٢/٢٩

(٢) . المسابير : المِسْبَار : ما سُبر به و قُدّر به غور الجراحات ، و السبار فتيلة تجعل في الجرح .
(انظر : لسان العرب : (سبر)) .

(٣) . إهابي : الإهاب : الجلد . (انظر : معجم مقاييس اللغة : لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق و ضبط : عبدالسلام محمد هارون ، (أهب) ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

(٤) . الديوان : ٢/٢٠٥

قــلْ لِمَــنْ حَــلَّ بالشــآمِ طَلِيقــاً: بــأَبي قَلبُــكَ الطّليــقُ الأَســيرُ
أنــا أصــبحتُ لا أُطيــقُ حِراكــاً ؛ كيــفَ أَصْــبَحتَ أَنْــتَ يــا "مَنْصُــورُ"؟

و شكا الشاعر من الهوى ؛ لأن الهوى سقم يصيب الروح والجسد ، وقد بُلي الشاعر به وشكا من أثره عليه ، وعتب على مُسببه الذي فرّط في صاحبه بهجر أو ببين أو غير ذلك.

يقول ابن حزم " لابد لكل محب صادق المودة ممنوع الوصل ، إما ببين وإما بهجر وإما بكتمان واقع المعنى ، من أن يؤول إلى حد السقام والضنى والنحول ، وربما أضجعه ذلك ، وهذا الأمر كثير جداً موجود أبداً ، والأعراض الواقعة من المحبة غير الأعراض الواقعة من هجمات العلل ، ويميزها الطبيب الحاذق والمتفرس الناقد " [1] وعلاقة الهوى بأسقام الشاعر ، علاقة واضحة ، برزت في ظاهره ، وتغلغلت في الداخل ما بين الحشا والجوانح، وطغت على الأكباد بعد أن مزقت القلوب.

والهوى نذير شؤم للقلب ، فلايزال الأول بالثاني إلى أن يورده المهالك ...

ولو كان قلب الشاعر حديداً ، لما عجز الهوى في صهره ، ولكن قلبه مضغة بحجم قبضة يده ، فما عسى الهوى صانعاً به ؟!

ولو كانَ قلبْي مِنْ حديدٍ أَذابَهُ زَفيرُ الأَسَى بينِ الحشَى والتَّرائِبِ
فكيفَ بقَلْبٍ إنّما هُوَ مُضْغَةٌ ولَوْعَتُهُ جُزْءُ الهوى والمصائِبِ
ولم أرَ مِثْلَ الصَّبرِ في الحُبِّ عاصِياً إذَا ما أَطاعَ الحُبُّ نَعْبَ النَّواعِبِ[2]

وللأكباد نصيب من الأسقام ، فالهوى يعمد إلى ما يجاور القلب ، فيكلمه أو يذيبه أو يسلط عليه أي آفة أخرى ، فيشارك القلب العلة في نزف الجراح ؛ فتتكالب الأحزان

---

(١) . طوق الحمامة : ص ١١٨

و تجتمع الأشجان،و قد نقل الشاعر إلى ابن أبي ورقاء بعض تلك الوجدانيات ، فقال [1]:

قلوبٌ فِيكِ داميةُ الجِرَاحِ وأكبادٌ مُكلَّمَةُ النَّواحِي

وحُــزْنٌ ، لانفَــادَ لــهُ ، ودَمْــعٌ يُلاحِــي فــي الصَّــبَابَةِ كُــلَّ لاحِ

ولذلك استراح من خلا قلبه من الهوى ، ولكنه يظل قليل الوفاء !! يقول[٢]

يــا قليــلَ الوفــاءِ ،هــذا قَبِــيحٌ ! أنْــتَ خِلــوٌ مــن الهــوى مُسْــتَرِيحُ!
أنــتَ ، لــو كــانَ للهــوى فيــكَ حَــظٌّ لــم يبِــتْ مِنْــكَ ، مِثــلُ قَلْبِــي ، جَــرِيحُ

وحُقّ للشاعر أن يبارك لكل معافٍ من الهوى لأنّ من وُقي منه ، سَلِمَ بدنه ، وغنم العافية يقول[٣] :

أيــا مُعــافَى مــن رَسِــيسِ[٤] الهــوَى! يَهْنِيــكَ حَــالُ السَّــالِمِ الغَــانِمِ
أعانَــــكَ اللهُ بخيــــرٍ ، أَمَــــا تكــونُ لــي عَوْنــاً علــى الظَّــالِمِ؟!

والهوى موضع شماتة الحساد ، وبهجة الأعداء ، وهو أسر لا فداء له ، وسقم يستوجب عيادة العُذّال .

يقول[٥]:

أَلا يارَبَّــــــةَ الحِلْــــــيِ عَلَــــى العَــــاتِقِ[٦] والهــــادي[٧]
لقَــــدْ أَبْهَجْــــتِ أَعْــــدَائي وقــــدْ أَشْــــمَتِّ حُسّــــادِي

---

(١) . الديوان : ٢ / ٦٠

(٢) . المصدر نفسه : ٦٤/٢

(٣) . المصدر نفسه : ٣٦٩/٢

(٤) . رسيس : الرّسُّ : ابتداء الشيء . (لسان العرب : (رسس)) .

(٥) . الديوان : ٨٩/٢

(٦) . العاتق : ما بين المنكب والعنق . (لسان العرب : (عتق)) .

(٧) . الهادي : العنق لأنها تتقدم على البدن ، ولأنها تهدي الجسد . (لسان العرب: (هدي)) .

بسُــــــقْمٍ مالَــــــهُ شَــــــافٍ وأَسْــــــرٍ مالَــــــهُ فَــــــادِ
فــــــإخواني ونُــــــدمَاني وعُــــــذَّالي وعُــــــوَّادِي

فمـــا أَنْفَـــكُّ عـــنْ ذِكـــرا كِ فـــي نَـــوْمٍ وتِسْـــهَادِ

وهناك تشابه كبير بين الهوى والحرب ، فكل منهما يلزمه جيش ، وتكنفه نار، وتمطره سهام ... إذن ما الفرق بينهما ؟! يقول[1] :

وبـــينَ بُنيَّـــاتِ الخُـــدورِ وبَيْننـــا حُـــروبٌ ، تَلظّـــى نارُهـــا وتَطَـــاولُ
أَغَـرْنَ علـى قلبـي بجـيْشٍ مـنَ الهـوى وطَـــاردَ عـــنهُنّ الغَـــزَالُ المُغـــازِلُ
تَعَمَّـــدَ بالسَّـــهْمِ الُمصِـــيبِ مَقَـــاتِلي ألا كُـــلُّ أعْضَـــائي ، لديـــهِ مَقاتِـــلُ

ومن وقع في شباك الهوى ، هوى إلى قعر هاوية سحيقة ، لامحيد له من ضنكها ، تقتله الحسرات ، وتحرقه الدموع ، وتؤدي به إلى الأسقام... يقول[2] :

حســـــــراتٌ قَوَاتِـــــــلُ ، ودُمُـــــــوعٌ هَوَامِـــــــلُ !
وحَبِيـــــــبٌ مُقـــــــاطِعُ ، وسَـــــــقَامٌ مُواصِـــــــلُ!
كيـــفَ أنجـــوُ مـــن الهَـــوَى ، وَهْـــوَ فـــي القَلْـــبِ دَاخِـــلُ؟
لســـتُ أَشْـــكُوكَ فـــي الحشَـــا مِـــنْ جَـــوَى الحُـــبِّ شَـــاغِلُ !
لـــــكَ خصـــــرٌ كأَنّـــــهُ مِـــنْ ضَـــنا السُّـــقْمِ نَاحِـــلُ !

وهو الموت البطيء ، الذي يشتعل اشتعال النار في الهشيم إلا أنّ النار تُتلف ما حولها ، أما الهوى ؛ فإنه يُتلف و يُبقي بقية تظل تُصارع و تُقاسي وهي تعلم أنّ مابقي رمقٌ سيمضي، و هذه المعاناة التي عاناها الشاعر ، جعلته يعجب لما بقي منه لِمَ لمْ يمضِ كما مضى بعضه

---

(١) . الديوان : ٢/٢٩٤

(٢) . المصدر نفسه : ٢/٣٠٧-٣٠٨

الآخر؟! يقول[1] :

يـــا مَـــنْ وهبـــتُ لـــهُ رُوحـــي تَمَلَّكَهَـــا و رُمْـــتُ تَخْلِيصَـــهَا مِنْـــهُ فلـــمْ أُطِـــقِ

أدْرِكْ بَقَيَّـــةَ رُوحٍ فِيـــكَ قـــدْ تَلِفَـــتْ قَبْـــلَ الممَـــاتِ ، فهـــذا آخِـــرُ الرَّمَـــقِ
وَلو مَضَى الكُلُّ مِنْها لَـمْ يَكُـنْ عَجَباً ، وَ إنَّمـا عَجَبـي للـبَعْضِ كَيْـفَ بَقِـي !
قـدْ كُنْـتُ عَبْـدَكَ قَبْـلَ العَزْمِ ، مُطَّرَحَـاً ، وَ عَبْـدَ غَيْـرِكَ مَحْمُـولاً علـى الحـدَقِ

وإن لم يكن الهوى هو الموت ، فهو سبب من أسبابه ، وهو جسر البلى ، وأساس كل داء وعلة ، يقول[٢] :

فقلـت لهـا : " لَـوْ شِـئْتِ لـم تَتَعنَّتـي ، و لم تسألي عنّي ، و عِنْدَكِ بي خُبْرُ !"
فقالتْ : "لقد أزرى بِكَ الدَّهر بَعْدَنا!" فقلتُ " مَعاذ اللهِ ! بل أنتِ لا الدَّهرُ ،
و مـا كـانَ للأحـزانِ ، لـولاكِ ، مَسْـلكٌ إلى القَلْبِ ، لكِنَّ الهوَى للبِلَى جِسْرُ"
و تَهْلِـكُ بـينَ الهـزْلِ والجِـدِّ مُهجـةٌ ؛ إذا مَـا عَـدَاها البَـيْنُ عَـذَّبَهَا الهَجْـرُ

" والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس ، والعين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملاً. وهي رائد النفس الصادق ودليلها الهادي ، ومرآتها المجلوّة التي بها تقف على الحقائق وتميز الصفات ، وتفهم المحسوسات"[٣]

ولما كانت العين أبلغ الحواس نفاذاً إلى القلب ، كثرت أسقامها لأسباب لاتعرفها إلا مُقل المحبين ، يقول[٤]:

إنّ "ســلمى" لا يُبْعِـدِ اللهُ "سَـلَمى" ، تَرَكَـــتْ مُقْلتَـــي بغيـــرِ سُـــباتِ
لَحَظْتنـــي فَأَسْـــقَمَتْني ، ومـــازا لَ سَـــقَامُ المُحـــبِّ فـــي اللَّحَظَـــاتِ

---

(١) . الديوان : ٢/٢٦٦-٢٦٧

(٢) . المصدر نفسه : ٢/٢١١

(٣) . طوق الحمامة : ص ٤٣

(٤) . الديوان : ٢/٥٥

والبكاء والأرق واحمرار الحدق أبرز أدواء العيون وهي المرآة التي تعكس مرض صاحبها ، حتى وإن ادعى صاحبها غير ذلك في أفعاله ، ولئن ضحك ، فإنّ عينه تُكذّب فعله ، وتُنبئ بما يُخفيه .

يقول[1] :

أترقُـــدُ خاليـــاً ممـــا أُلاقـــي ، وجَفْنِـي لـم يَـذُقْ طَعْـمَ الهُجـوعِ؟!
وأضـحكُ ، دائمـاً ، وتَـرَى جُفُـوني ، مِرَاضـــاً مِـــنْ مُدَاومَـــةِ الـــدُّمُوعِ!

ولغة العيون سهام نافذة إلى القلب ، تُدْمِيه إلى أن تفتك به ، وصاحب القلب عاشق عدم الطبيب والمعين ، يقول[2]:

وقَفَتْنِـــي علـــى الأَسَـــى والنَّحِيـــبِ مُقْلَتَـــا ذَلِـــكَ الغـــزالِ الرَّبِيـــبِ
كُلمـــا عَـــادَني السُّـــلُوُّ ، رَمَـــاني غَـــنْجُ ألحاظِـــهِ بِسَـــهْمٍ مُصـــيبِ
فـــاتِراتٌ ، قَوَاتِـــلٌ ، فَاتنَـــاتٌ فاتِكـــاتٌ سِـــهَامُها فـــي القُلُـــوبِ
هَـــلْ لصَـــبٍّ مُتـــيَّمٍ مِـــنْ مُعـــينٍ؟ ولـــداءٍ مُخـــامِرٍ مـــنْ طبيـــبِ؟

ومما زاد ألم الشاعر اجتماع داء الجسد والنفس ، فعزز كل منهما صاحبه ، فاتحدت الزفرة ، ولو وقف الأمر على حد الأسر ؛ لهان المصاب ، يقول[3] :

فَلـوْ أنَّ أَسْـرِي بـينَ عَـيْشٍ نَعمتُـهُ حملـتُ لـذاكَ الشـهدِ ذا السُّـمَ مُنْقَعَـا
ولكِـنْ أصـابَ الجـرحُ جِسـماً مُجَرّحـاً وصَـادفَ هـذا الصَّـدْعُ قلبـاً مُصَـدَّعا

---

(١) . الديوان : ٢/٢٥٢

(٢) . المصدر نفسه : ٢/٤٥

(٣) . المصدر نفسه : ٢/٢٤٦

وقال أيضاً في ذلك :

فـــلا تحمـــلْ علـــى قلـــبٍ جـــريحٍ بـــه لحـــوادثِ الأيـــامِ نـــدبُ

(المصدر نفسه : ٢/٢٨) .

المحور الرابع : الشوق والحنين :

الشّوْق والاشتياق : نزاع النفس إلى الشيء . والشوق : حركة الهوى[١].

والحنين : الشديد من البكاء والطرب ، وقيل : هو صوت الطرب كان ذلك عن حزن أو فرح ، وحنت الإبل نزعت إلى أوطانها وأولادها ، والناقة تحن في إثر ولدها حنيناً ، تطرب مع صوت. ويقال :" حن قلبي إليه ، فهذا نزاع واشتياق من غير صوت ، وحنت الناقة إلى أُلاّفها فهذا صوت مع نزاع"[٢].

والشوق والحنين معنيان متقاربان ، فكلاهما توقان النفس[٣]، وربما زاد الحنين على الشوق بشدة البكاء والطرب[٤]، والحنين ذو صلة قوية بالماضي وتطلّع إليه في استعادته عبر وشائج متصلة كالأبناء والزوج[٥].

وقد أثار الشوق والحنين مكامن العتاب والشكوى في وجدان الشاعر ، فشكا من مثيراته، وعتب على من حّرك أشجان النفس.

ومن أبرز مثيرات الشوق والحنين :-

١- الهوى :

يعتبر الهوى محرك خفي للنفس ، ومثير من مثيراتها ، يُسفّه الحليم ، و يُضعف القوي ، ويطمس على عين البصير... وشهد شاهد من أهله على ذلك ، فقال أبو فراس[٦]:

---

(١) . انظر : لسان العرب : (شوق)

(٢) . المصدر نفسه : (حنن).

(٣) . انظر : المصدر نفسه : (حنن)

(٤) . أنظر : الكليات : (حنن) .

(٥) . انظر : ثلاث نونيات في الحنين للأوطان : د.سعاد عبدالوهاب العبدالرحمن ، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية ، ص١٥ ، دورية عليمة محكمة ، الرسالة ١٨٤، الحولية الثانية والعشرون مجلس النشر العلمي- جامعة الكويت ١٤٢٢-١٤٢٣هـ .

(٦) . الديوان : ٢/٣٨٠

وقد كنتَ ذا عِلْمٍ بما يصنعُ الهوى ، وما جَاهلٌ شيئاً كمنْ هُو عَالِمُهْ !
ومَنْ ذاقَ طَعْمَ الحُبِّ مِثْلِي ، فإنَّهُ عليمٌ بأنَّ الحُبّ مُرٌّ مَطَاعِمُهْ

و يودي الهوى بصاحبه إلى المهالك ؛ فهو سُكْرٌ ؛ ولكنّ شاعرنا لايرى في ذلك السكر بأساً أو حرجاً ؛ لأنّ السكر دأب الهائم الذي ذهب الهيام بلبه .

يقول[1]:

أَتُنْكِرُ أنّني صَبٌّ مَشُوقُ؟ ونحنُ مِنَ الهوَى لانَسْتَفِيقُ!
ولي مجمُوعُ دُرٍ ، كُلَّ يومٍ ، أُفرّقُهُ ، إذا رَحلَ الفريقُ ،
ولي شَوقٌ إلى "حَلبٍ" شَدِيدٌ وقلبٌ بينَ أَضْلُعِهِ حريقُ

والهوى أيضاً ذهاب للروح التي جاد بها صاحبها لحبيبه دون مبالاة ، بل العجب كل العجب أن يبقى أحد شطريها ويمضي الآخر!!

يقول[2] :

يامَنْ وهبتُ له رُوحِي تَمَلَّكَهَا ، ورُمتُ تخلِيصَها مِنْهُ فلم أُطِقِ
أدركْ بقيَّةَ رُوحٍ فيكَ قَدْ تَلِفَتْ قَبلَ الممَاتِ ، فهذا آخرُ الرِّمقِ
ولو مَضى الكُلُّ مِنْهَا لمْ يكُنْ عَجَباً، وإنّما عَجَبي للبَعْضِ كيفَ بَقِي!

وفي عذل العاشق إهدار لما لا جدوى منه ، لأنه يعلم مغبة ما هو فيه ، ويرى الهوى ذريعة لأفعاله وأقواله ؛ وما يصنع الهوى بصاحبه حري أن يحرك شفقة العاذل ليلتمس العذر لصريع ذبحه غرامه ، يقول[3]:

يا أيُّها العاذلُ الرَّاجي إنابَتهُ ، والحُبُّ قَدْ نَشِبَتْ فيهِ أظافرُهُ ،
لا تُشْعِلَنَّ ؛ فما تَدري بُحرقتِهِ ، أَ أَنتَ عاذِلُهُ ، أَمْ أَنْتَ عاذِرُهُ؟

---

(١) . الديوان : ٢٦٩/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٢٦٦/٢-٢٦٧

(٣) . المصدر نفسه : ١٨١/٢

وقد خاطب الشاعر عاذله هنا بلطف وهدوء ، وأطلعه على مايهوّن من العذل ، وبيّن له الأسباب ، وحرص على إقناعه من خلال وصف أمور نفسية تكتنف المحب.

ويبدو في حين آخر أن الشاعر كان أكثر حزماً مع العاذل ، فهو يخالفه جهاراً دون سوق أعذار أو حجج ، ويقوي ذلك جموح الهوى الذي أضحى له الأمر والنهي ، يقول[1] :

خالفتُ قولَ العاذلينَ على الهوى ، ونَهى غرامَ الحُبِّ مَنْ يَنْهَانِي

والهوى تجاوز محمود – في نظر الشاعر – للمثل والمعايير الاجتماعية ، يقول[2]

وليسَ بذي وَجْدٍ فَتىً كَتَمَ الهوى ؛ وليس بِصبٍّ مَنْ ثَنَتْهُ لوائِمُهْ

ولكن ذلك التجاوز لا يصل إلى حد الذلة والخضوع والانقياد دون وعي ، بل انتقد الشاعر بشدة على من سلّم زمامه للهوى ، وملّك أمره لغانية ، فهذا هو الضلال الذي يذل رقبة الكريم . وقد استطاع الحزم أن ينقذ شاعرنا من جموح الهوى ، فعزّ حين ذلت الرقاب ، وأخذ بناصية الهوى حين أمسك الهوى بالنواصي ، يقول[3] :

لقد ضَلّ مَنْ تَحْوي هَوَاهُ خَرِيدةٌ وقَدْ ذلَّ من تَقْضِي عليه كَعَابُ
ولكنّني – والحمدُ للهِ – حَازِمٌ أَعِزُّ إذا ذَلَّت لُهنّ رِقَابُ
ولا تَمْلِكُ الحَسْنَاءُ قَلْبِي كُلَّهُ وإنْ شَمِلَتْهَا رِقَّةٌ وشَبَابُ

وإنْ جمح هواه ، فهو على علم بحقيقة ما يصنع ، ومثله في الهوى كمثل هائم على وجهه في أرض يعرف سهولها ووهادها وفجاجها ، فإقدامه لا يعني استسلامه ؛ بل إنه يعلم مغبة أفعاله ، وهفوته لا تجزم بجهله ، يقول[4] :

---

(١) . الديوان : ٤١٤/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٣٨١/٢

(٣) . المصدر نفسه : ٢٢/٢

(٤) . المصدر نفسه : ٢٢/٢

وأجري ولا أُعطي الهوى فضلَ مِقْودَي وأَهْفُــو ولا يَخْفَــى عَلَــيَّ صَــوَابُ

ومن الواضح أنّ حال الشاعر مع الهوى كحال اليقظان الهاجع ، فهو حذر شديد الحرص، لايغفل عن غفلته ، وفي البشر من يفوق الذئب في حذره وحرصه[١].

ومن الأمور التي رامها الشاعر في الهوى ، الكتمان وحبس النفس أمام الحبيب ومحاولة التجلد والجمود لأغراض في نفسه ، ولكن يبدو أن استحكام الهوى وفرط الشوق تُفسد ما بيّتُ بالليل ، فتظهر علامات على قصمات المدعي وتبلوه الدلالات.

يقول ابن حزم : " ومن بعض صفات الحب الكتمان باللسان ، وجحود المحب إن سُئل والتصنع بإظهار الصبر وأن يُرى أنه عزهاة[٢] خلي.

ويأبى السر الدفين ونار الكلف المتأججة في الضلوع إلا ظهوراً في الحركات والعين ، ودبيباً كدبيب النار في الفحم والماء في يبيس المدر[٣]. وقد يمكن التمويه في أول الأمر على غير ذي الحس اللطيف ، وأما بعد استحكامه فمُحال"[٤].

ويقول أبو فراس بعد إخفاقه في التعريض والتمويه[٥]:

مَــنْ لــي بكِتْمَــانِ هَــوَى شَــادنٍ[٦] عَيْنــي لــهُ عَــونٌ علــى قلبــي ؟

عَرَّضْــتُ صــبري وسُــلُوِّي لَــهُ فاستشــهدا فــي طاعــةِ الحُــبِّ

---

(١) . وأجمل ماقيل في شدة حذر الذئب ما قاله حميد بن ثور الهلالي :

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى المنايا فهو يقظان هاجع

(انظر: عيون الأخبار : ابن قتيبة الدينوري ، تحقيق د. محمد الإسكندراني مج ٤٨٣/٢ ، دار الكتاب العربي ، ط٥ ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م) .

(٢) . عزهاة : الذي لا يقرب النساء . (لسان العرب : (عزه)) .

(٣) . المدر : قطع الطين اليابس . (المصدر نفسه : (مدر)) .

(٤) . طوق الحمامة : ص٤٧

(٥) . الديوان : ٤٠/٢

(٦) . شادن : الشادن : من أولاد الظباء الذي قد قوي وطلع قرناه واستغنى عن أمه . (لسان العرب : (شدن)).

٢- الحنين للوطن:

الوطن : كل مكان قام به الإنسان لأمر فهو موطن له[١].

"وبين لفظتي الوطن والحنين تقارب شديد وارتباط وثيق . فقد نص اللغويون على أنّ حنين الإبل يعني نزوعها إلى أوطانها وأولادها وكذلك الإنسان"[٢].

وقد أشار أبو هلال العسكري في قوله تعالى : (**ولَو أنّا كَتبْنا عَلَيهِم أَنِ اقْتُلُوا أنفُسكُمْ أو اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُم مّا فَعَلُوُه إلاّ قَليلٌ مِنْهُم**) إلى أنّ الخروج من الديار كفؤ قتلهم لأنفسهم[٣].

وقال حكيم وهو يفلسف الحنين للوطن بقول رقيق وأسلوب رائع : " الحنين إلى الوطن من رقة القلب ، ورقة القلب من الرعاية والرعاية من الرحمة والرحمة من كرم الفطرة وكرم الفطرة من طهارة الرشدة وطهارة الرشدة من كرم المحتد"[٤].

أما شاعرنا فقد شكا حنينه وأشواقه الملتاعة بروحه الشفافة التي تطرب الخلي والشجي ، يقول[٥] :

مـا لُمْـتُ ذا شَـجَنٍ بَكَـى أوطانَـهُ ، مُـــذْ أَقْفَـــرتْ فبَكْيتُهـــا أوْطَـــاني

ولـئِنْ سَـلَوْتُ عــن الأَحبّــةِ نائيــاً ، مـــاغرَّد القُمْـــريُّ فـــي الأَفْنَـــانِ

---

(١) . تهذيب اللغة : : أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري الهروي ، تحقيق : أحمد عبد الرحمن مخيمر : (وطن)، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٤ ، ١٤٢٥هـ .

(٢) . الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي : محمد إبراهيم حور ص١٢ دار نهضة مصر للطبع والنشر (ب .ط) ، (ب.ت)

(٣) . انظر : ١- ديوان المعاني ٩٨٣/٢

٢- سورة البقرة آية ٨٤

(٤) .انظر : ديوان المعاني : ٩٨٥/٢

(٥) . الديوان : ٤١٤/٢

ومن شدة فرط حنين الشاعر لوطنه ، كان يفكر في الديار التي خوت على عروشها من بعده ، وأصبحت قفراً موحشاً ، ولم يكن حالها أفضل من حال الذين تقطعت أوصالهم شوقاً وحنيناً لابنهم ، يقول[١]:

تَشَــوّقني الأهــلُ الكــرامُ وأوْحَشَــتْ مواكــبُ بعــدي عِنــدَهُم ومجَــالسُ

ففي إحساس الشاعر بشوق الديار إليه رابط قوي رسخ ما بينها ، وفيه دلالة على أن الشاعر لم يفتأ يذكر وطنه ، ويقفو آثاره ، ويحرص على معرفة قدر شوق الأهل إليه ومدى حنينهم عن طريق الكتب التي كانت ترده ، أو من فرط ما زينه حنينه.

ولا عجب في أن يُقّدر الشاعر مدى حنين الوطن إليه وشوق الأهل له وهو غائب عنهم ، ولايعلم صحة ما يدعي ، وذلك لأن وطن الشاعر لا يضم بلداً محدداً،ولا قبيلة بعينها ، بل استوطن ما شاء من البلاد ، وضم إليه من العشائر ما يرتضيه عدلاً وجوراً ، يقول[٢]:

أنــا الــذي لايُصــيبُ الــدهرُ عِترتَــهُ[٣] ولا يبيــتُ علــى خــوفٍ مُجــاوِرُهُ
يُمســي وكــلُّ بــلادٍ حلّهــا وطــنُ وكُــلُّ قــومٍ ، غــدا فــيهم عَشــائرُهُ
ومــا تُمــدُ لــه الاطنــابُ فــي بلــدٍ إلا تضعضــعَ[٤] باديــه وحَاضِــرُهُ
لــي التخيُّــر مُشــتطّاً[٥] و منتصــفاً وللأفاضــل بعــدي مــا أُغَــادِرُهُ

وقد أشعلت حلب ومنبج فتيل الحنين وأوقدت نار الأشواق ، فحاصرته الذكريات وخنقته العبرات ، فقال في ذلك[٦]:

---

(١) . الديوان : ٢/٢٣٥

(٢) . المصدر نفسه : ٢/١٨٣

(٣) . عترته : عترة الرجل : هم رهطه وعشيرته الأدنون من مضي منهم ومن غبر . (لسان العرب: (عتر)).

(٤) . تضعضع : بمعنى الخضوع والتذلل . (انظر : لسان العرب : (ضعع)).

(٥) . مشتطا : جائر ، بعيد عن الحق . (انظر : لسان العرب : (شطط)) .

(٦) . الديوان : ٢/٢٠٦

لأَيّكُـــــــــــمُ أَذْكُـــــــــــرُ ؟ وفـــــي أيِّكُـــــمْ أفكـــــرُ؟
وكـــمْ لـــي عَلَـــى بَلْـــدَتي بُكـــــــاءٌ ومُسْـــــــتَعْبَرُ ؟
ففـــــي "حَلَـــــبٍ" عُـــــدَّتي وعِـــــــزِّيَ ، والمَفْخَـــــــرُ
وفـــي " مَنْـــبجٍ " مَـــنْ رِضـــا هُ أنْفـــسُ مَـــا أَذْخَـــرُ

ولم يرسل الشاعر أشواقه العظيمة مع أي رسول عابر ، بل اشتط في ذلك وبالغ في الاختيار ، لأنّ الحنين الذي يضطرم بين جوانحه عظيم لا يقوى على إيصاله أي رسول !! لذلك اختار الشاعر رسول تحمله ناقة قوية عظيمة ، ليبلغ بها إلى أولئك القوم الكرام من بني حمدان يقول[1]:

يـا راكبـاً يرمـي "الشـآم" بجَسْـرَةٍ[2] مَـــوَّارةٍ[3] شَـــدَنِيَّةٍ[4]مِـــذْعَانِ ![5]
إقـرا السَّـلامَ ، مـن الأَسـيرِ العَـانِي إقـرا السَّـلامَ علـى "بنـي حَمْـدانِ"
إقـرا السـلامَ ، علـى الـذين سُـيوفُهُمْ يـومَ الـوغى ، مَهْجـورةُ الأَجفـانِ
إقـرا السَّـلام ، علـى الـذين بُيُـوتُهُمْ مَـأْوى الكِـرَامِ ومَنْـزِلُ الضِّـيفَانِ
الصـافحينَ عـنِ الْمسِـيءِ ، تَكَرُّمـاً ، والمُحْسِـنينَ إلـى ذَوِي الإِحْسَـانِ

ففي أوصاف الناقة المتتالية " موّارة" ، " شدنية" ، " مذعان" ما يجسد عمق المعاناة التي كان يشعرها ، فشدة حنينه أَمْلَتْ عليه ألفاظاً استمدت مدادها من جرحه النازف ، لتبعث أشواقه على إيقاظ قومه من غفلتهم و التنبه لابنهم الأسير الذي يُقرؤهم السلام ويحمد مفاخرهم ، التي أذكت فتيل عتابه عليهم ؛ فهلاّ نهضوا للأسير العاني؟!

(١) . الديوان : ٢/٤١٠

(٢) . جسرة : الناقة الجسرة هي الطويلة الضخمة . (انظر : لسان العرب : (جسر)) .

(٣) . موارة : سهلة السير سريعة . (انظر : المصدر نفسه : (مور)) .

(٤) . شدنية : شَدن: موضع باليمن ، الإبل الشدنية منسوبة إليه . (المصدر نفسه : (شدن)) .

(٥) . مذعان : ناقة مذعان : سلسة الرأس منقادة لقائدها . (المصدر نفسه : (ذعن)) .

٣-ذكرى الأحبة :

يصف الإنسان أحياناً أجمل مواقف حياته التي مرت به في السابق ، ويستنفد انفعالاته النفسية للتعبير عن الموقف بأدق تفصيلاته وأروع لحظاته ، فينزع إلى تلك الذكريات ، التي تعتبر مقياساً من مقاييس الشوق والحنين.

وللتذكر في النفس البشرية درجات:

- درجة الاسترجاع التلقائي : وهو خطور الذكريات في الذهن من دون أن يكون هناك دائماً مناسبات ظاهرة لخطورها. وقد لايوفق الشخص في الكشف عن بواعثها إلا بعد تحليل طويل.

- درجة التذكر المعتمد أو الاستدعاء : وهو استرجاع الذكريات مع ما يصاحبها من ظروف الزمان والمكان ، وبالاستدعاء تنتقل عملية التذكر من عالم المدركات الخارجية إلى عالم التصورات الذهنية مع تحديد محتويات هذه التصورات في الزمن الماضي لا في الحاضر[1].

وتعد الانفعالات النفسية التي تصاحب التذكر أمراً ذا أهمية بالغة يرصدها صاحبها ، فيصف أحاسيسه ويعبر عن مشاعره ليرسم صورة ذكريات الماضي التي تقتحم حاضره بطريقتها الخاصة ، فيبدو أثرها على النفس والجسد.

وقد تسعرت ذكريات في أحشاء شاعرنا ، فألهبت المدامع وأرسلت الدموع ، وأضرمت نار الشوق يقول[2]:

تَسَّعرتِ الأحشَاءُ منّي لِذِكرِهِ بشَوْقٍ شَديدٍ ، مُسْتَلِّحٍ ، ومُسْتَسرِ

أَلِفْنَ عُيُوني بالدُّمُوعِ ، فرُبَّمَا جَرَيْنَ جُفُوني بالدُّمُوعِ ولا أَدْرِي

---

(١) . انظر: النفس البشرية : د.سيد عبدالحميد مرسي ص٧١، ٧٢ دار التراث العربي ، ط١ ، ١٤٠٢هـ

(٢) . الديوان : ٢٢١/٢

ومن العجيب أن يوجد في الذكرى من دواعي الكدر ما يجعل صاحبها يغص ويشرق بلا

مسبب حسي !! و هذا وصف خلعه الشاعر على نفسه حين تداعت عليه الذكريات يقول[1]:

أَغَـــصُّ بـــذِكرِهِ ، أبـــداً ، برِيقِـــي وأَشْـــرَقُ مِنـــهُ بالمـــاءِ القَـــرَاحِ

والذكرى أرق يطرد النوم ويشرد الذهن ويشغل البال ، كما أن لها جاذبية عجيبة ترسلها كلما ازدادت الأشواق ، والتهب أوراها ، فيبدو أثرها واضحاً على النفس والبدن.

يقول[2] :

يُـــؤرِّقُني ذِكْـــرِي لـــهُ وصَـــبَابةُ وتجـــذُبُني شـــوقاً إليـــهِ الجَـــواذِبُ

وأحياناً يساور الشك الشاعر في جدوى الذكرى التي لا تقرب بعيداً ، ولا تعيد حدثاً كائناً ، فما نفعه بها ؟! إنها فضول الأشجان وخصم السلوان ، يقول[3]:

يُـذَكِّرُني "نجـداً" حبيـبٌ ، بأَرْضِـهَا ، أَيَا صَاحِبيَ نَجْوايَ ، هل ينفعُ الذِّكرُ؟

تطاولـتِ الكُثبـانُ ، بينـي وبَيْنـهُ ، وبَاعَـدَ ، فِيمـا بَيْنَنـا ، البلـدُ القَفْـرُ

مثيرات الذكرى :

أ – يوم البين :

"مامن شيء من دواهي الدنيا يعدل الافتراق ، ولو سالت الأرواح به فضلاً عن الدموع لكان قليلاً. وسمع بعض الحكماء قائلاً يقول : الفراق أخو الموت ، فقال : بل الموت أخو الفراق[4] " .

---

(١) . الديوان : ٦٦/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٣٢/٢

(٣) . المصدر نفسه : ١٨٦/٢

(٤) . طوق الحمامة : ص ٩٩

وقد ظلت ساعة الإزماع على الرحيل وزم الركاب صورة عظيمة لاتفارق ذهن العربي يستحضرها كلما هزه الشوق وناداه الحنين ، فيهرب من آلامه الحاضرة ليرتمي في تفاصيل الماضي ليعيد الموقف برمته ، ومن تلك المواقف التي نقلها الشاعر ، رسم صورة الوداع وبعض أحداثها العجيبة وهو موقف مُثير ، يقول[1]:

ما أَنْسَ لا أنْسَ ، يومَ البَيْنِ ، موْقِفَنَا والشّوقُ ينهى البُكَى عَنِّي، ويأْمُرُهُ

وقَوْلَهَا ، ودُمُوعُ العَيْنِ واكِفةٌ : "هَذا الفِرَاقُ الذي كُنَّا نُحاذِرُهُ!"

ففي الشطر الثاني من البيت الثاني إيضاح لعمق الأسى الذي خلفه الفراق ، ففي ترقبه هم وغم ، وفي وقوعه برحاء شديدة لا يبرح الشوق من إثارتها.

وظل ترقب البين يعكر مورد اللقاء ، ويُرنق مشرب الوصال ، وهذا طبع مودع في النفس فهي تبحث عن اللذة الدائمة التي لا يعترضها عارض ، يقول[2]:

لئنْ وَصَلَتْ "سَلْمَى" حِبالَ مَوَدَّتي فإنَّ وشيكَ البَيْنِ ، لاشَكَّ ، قَاطِعُ

وكتب الشاعر إلى القاضي " أبي الحصين " لماعزم على المسير إلى الرقة ، متذكراً الهم الذي بات معه حين علم بموعد الرحيل الذي لم يبق عليه إلا سويعات وتنقضي .

فقال [3] :

ياطُولَ شوْقي إنْ قالوا: الرحيلُ غَداً لافرّق اللهُ فيما بيْنَنا أبدا

يا مَنْ أُصافِيهِ في قُرْبٍ وفي بُعُدٍ ومَنْ أُخَالِصُهُ إنْ غابَ أوشَهِدا

رَاعَ الفِراقُ فُؤاداً كُنتَ تُؤْنِسُهُ وذَرَّ بينَ الجُفُونِ الدّمعَ والسَّهدَا

لايُبعدِ اللهُ شخصاً ، لا أَرى أَنَساً ولا تَطِيبُ لي الدُّنْيا ، إذا بَعُدَا

---

(١) . الديوان : ٢/١٨٠-١٨١

(٢) . المصدر نفسه : ٢/٢٥١

(٣) . المصدر نفسه : ٢/٩٦

ففي ظاهر هذه الشكوى حزن وهلع أثاره الشوق ، وفي باطنها ما يبعث المشكو له على الاطمئنان على إخلاص الشاعر في الوداد ، فهو واضح في الحضور ، محفوظٌ في الغياب ، والبرهان على ذلك اتضح يوم البين ، واستمرار ذكراه بعد حين.

وقد أبدى الشاعر همه الطويل الذي كان يلازمه قبل الرحيل ، وهو هم لا يقل شأنه عن حزن الرحيل ، بل هو بداية الحزن وبوابته وفيه إضاعة لفرصة من فرص اللقاء ، لانشغال البال بأمر الرحيل ، وفيه تعكير لصفو اللقاء ، و فيه روع فطّر القلوب ، وأرهق العيون ، وأمّج حلو الحياة.

وتملي ثقافة العاشق على صاحبها أن البين أحد متلازمات الحب – وإن ادعى صاحبها الجهل بذلك – ويظل بعض العاشقين متجاهلاً ذلك إلى أن تحين ساعة البين ، وقد صور الشاعر حالته بين الخوف والرجاء إلى أن خذلته الأماني بعد صراعهما[1] يقول[2]:

أبيتُ كأنّي للصَّبابةِ[3] صَاحِبُ ... وللنَّومُ ، مُذ بانَ الخَلِيطُ ، مُجانِبُ

وما أَدَّعِي أَنَّ الخُطُوبَ فَجَأْنَنِي ... لقَدْ خَبَّرْتْني بالفِرَاقِ النَّوائِبُ

ولكنَّني مازِلْتُ أَرْجُو وأَتّقِي ... وَجَدَّ وشِيكُ البَيْنِ ، والقلبُ لاعِبُ

وما هَذهِ في الحُبِّ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... أَساءَتْ إلى قَلبي الظُّنونُ الكواذِبُ

و يُعد نعيق غراب البين شؤم جاهلي ، ولكنه أحد المنذرات التي شكاها الشاعر دون أن يجد حرجاً في ذكراها ، لأنّ حنقه على الفراق جاوز المدى إلى طير السماء الذي نالته دعوات الشاعر بالبؤس والهلاك من شدة ما وجده الشاعر في نفسه من بؤس وهلاك ،

---

(١) . نظر المتنبي إلى الرحيل بهذه النظرة ، وعدل عنها في بيت واحد ضم الأمرين يقول :

أو مَا وجدتم في الصراة مُلوحةً ... ممّا أُرقرق في الفراتُ دُموعي

ما زِلت أحذرُ مِنْ وداعِكَ جاهداً ... حتى اغْتَدى أسفي على التَّوديعِ

(العُرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب : ١ / ١٦٤) .

(٢) . الديوان : ٣٠/٢

(٣) . الصبابة : الشوق وقيل : رقته وحرارته . وقيل : رقة الهوى . (لسان العرب :(صبب)) .

فقال [1]:

وقــدْ كــانَ تنْعــابُ الغُــرابِ مُخبِّــراً بِوَشْــكِ فــراقٍ ، أو حَبيــبٍ نُصــارِمُه
فمــا لغُــرابِ البَــيْنِ– لا دَرَّ دَرُّهُ ! – ولاحَمَلَتــــــهُ رِيشُــــــهُ وقَوادِمُــــــهْ

وقد يأخذ البين شاعرنا على حين غرة ، وكأنه ما مرّ بتجارب عاطفية هدم لذاتها النوى واكتوى الشاعر منها بالأسى ، وقد وصفَ الشاعر حاله بعد فراق ألهبه شوقاً وهما، فقال[2]:

كَفَــى حَزَنــاً أَنْ غَــالَني الــدَّهرُ فِــيهمُ برَغْمــي ، ومــا هــذا الزَّمــانُ بــراغِمِ
غَشُــومٌ فــلا ذُو الفَضــلِ يُنجيــهِ فضــلُهُ لديْــه ، ولا ذو الــنَّقصِ منــه بِســالِمِ

و يعد البين كرباً عظيماً ، وشدة خانقة ، ومحنة للروح والجسد ، فالفراق يُخرج اللبيب عن لبه ، ويُفقدُ الحليم صبره ، وهو جناية على الجنان الثابت ، حيث يبلو أسراره ويفضح أخباره ويبث ما كتم المرء من أشواقه ، وفي ذلك يقول[3]:

البــيْنُ بَــيَّنَ مــا يُجــنُّ جَنَــاني ، والوجْــدُ جَــدَّدَ بَعْــدَكُمْ أحْزانــي
وبِلَى الرُّسُومِ ، الدَّارسَاتِ بِذِي الغَضَا[4] أَغْــرى بِــيَ الكمَــدَ الــذي أَبْلانــي

وهو بلوى عظيمة تفتك بالصبر ، وكيف لا يكون كذلك وهو الفادحة العظيمة التي تحول دون الأمنيات ، وتُحيلُ حلو اللقاء إلى مر ذكريات ، يقول[5]:

بُلِيــتُ بِبَــيْنٍ ، بَــانَ فــي إثْــرِهِ صَــبْرِي ، وأَخْنَــى عَلــىَ عَزْمِــي بِفادِحَــةٍ الــدَّهْرِ
وَبَاعَــــدني مِمّــــنْ أُحِــــبُّ دُنُــــوَّهُ ، وأَسْــلمنَي مِنــهُ البِعَــادُ إلــى الــذِّكْرِ

---

(١) . الديوان : ٣٨١/٢

(٢) . المصدر نفسه ٣٨٣/٢

(٣) . المصدر نفسه : ٤١٣/٢

(٤) . الغضا : الغضى من نبات الرمل له هدب كهدب الأرطى ، وأهل الغضى هم أهل نجد لكثرتها هنالك . لسان العرب (غضى) .

(٥) . الديوان : ٢٢١/٢

وكان الشاعر يغبط من لم يطرقه النوى ، ولو كان ذلك المغبوط طيراً في السماء ، لأنه لم يتجرع لظى الفراق ، ولم يكابد هوله ولم يقتحم غمرات الهموم ، يقول[1]:

مَعاذَ الهوى ما ذُقْتِ طارقةَ[2]النَّوى ولاخَطَرَتْ مِنكِ الهمُومُ ببالِ !

وكما شكا الشاعر من البين ؛ شكا من الهجر ، وقد لا يقل شأن الآخر عن الأول ، لأن الهجر نبع ثر ، يثري الشكوى ويقوي فيها الحجة وصحة الادعاء ، والبين مورد لا ينضب ، ويظل ماثلاً أمام الشاكي ليعمق أصل معاناته ، ويؤصل صورتها.

وحين شيّع الشاعر بعض نساء أهل بيته للحج ، تملكته الحيرة الشديدة في أمر ما أصابه هل هو من أثر البين ؟ أم من أثر الهجر ؟ يقول[3]:

أَ بالبينِ ؟ أم بالهَجْرِ ؟ أَمْ بكِلَيْهِمَا ، تَشارَكَ ، فِيمَا سَاءَنِي ، البَيْنُ والهجْرُ؟
يُذكرِّني "نَجْداً" حَبيبٌ ، بِأَرضِهَا ، أَيا صَاحِبَيْ نَجْوايَ ، هلْ ينفعُ الذِّكرُ؟
تَطَاولَتِ الكُثْبَانُ ، بيني وبَيْنَهُ ، وباعَدَ فيما بَيْنَنَا ، البَلَدُ القفْرُ
مَفَاوِزُ لا يُعجِزْنَ صاحبَ هِمَّةٍ ، وإنْ عَجِزَتْ ، عنها الغَرِيرِيَّةُ[4] الصُّبْرُ

وقد عقد ابن حزم مقارنة بين أثر الهجر والبين على صاحبه فقال :

"واختلف الناس في أي الأمرين أشد : البين أم الهجر؟ وكلاهما مرتقى صعب وموت أحمر وبلية سوداء وسنة شهباء ، وكل يستبشع من هذين ما ضاد طبعه. فأما ذو النفس الأبية ، الحنانة الألوف الثابتة على العهد فلا شيء يعدل عنده مصيبة البين ، لأنه أتى قصداً وتعمدته النوائب عمداً ، فلا يجد شيئاً يسلي نفسه ، ولا يصرف فكرته في معنى من المعاني إلا وجد باعثاً على صبابته ومحركاً لأشجانه وعلة لأمله وحجة لوجده وحاضاً على البكاء

---

(١) . الديوان : ٣٢٥/٢

(٢) . طارقة : كل ما أتى ليلاً فهو طارق . (لسان العرب : (طرق)) .

(٣) . الديوان : ١٨٥/٢-١٨٦

(٤) . الغُرَيْرِيّة : فحل من الإبل ، وهو ترخيم تصغيراً أغَرّ ، والإبل الغُرَيرية منسوبة إليه . (لسان العرب : (غرر)) .

على إلفه. وأما الهجر فهو داعية السلو ورائد الإقلاع. وأما ذو النفس التواقة الكثيرة النزوع والتطلع القلوق العزوف فالهجر داؤه وجالب حتفه ، والبين له مسلاة ومنساة. وأما أنا فالموت عندي أسهل من الفراق ، وما الهجر إلا جالبٌ للكمد فقط ، ويوشك إن دام أن يُحدث إيغاراً "[1]

وعلى كل حال ، فإنّ الهجر والبين فراق يولد الأشجان ، ولكنّ شجن الهجر مشوب بعتاب قوي ، لأنه طوع النفس ورضاها. أما البين فقد يكون شجنه محضاً من شوائب العتاب على الراحل دون أن يترك إيغاراً في الصدور كالذي يتركه الهجر.

ولا عجب في هوان أمر الهجر على الشاعر مقارنة بعظم أثر البين ، لأنّ فتى لم يأسره الهوى في شباكه حريٌ ألا يحني رأسه لهاجر أو قالٍ .

يقول[2] :

وكــانَ عظيمــاً عِنْــديَ الهجْــرُ مَــرَّةً فلمّــا رأيــتُ البــينَ هانَــتْ عَظائِمُــهْ

ب– الرسائل

الرسالة دليل الوصال ، وبها تنقل الأخبار وتُرسل الأشواق ، وتُسمى الألوكة ، وقد وردت في شعر أبي فراس بهذه التسمية ، وسُميت بذلك اشتقاقاً من قول العرب : الفرس يَأْلُك اللُّجُمَ : أي يمضغ[3].

وكانت الرسالة وسيلة الشاعر في بث شكواه ووصف آلامه النفسية والجسدية ، ولم يكن يرسلها إلا لمن يستمع ويعين ويجبر ، ولعل أبرز من حاز قسطاً وافراً من رسائل الشاعر، أبو زهير صديقه المقرب وخليله المحبب والأثير ، الذي تجاوزت منزلته حد القرابة ، فكانت الرسالة تحمل الأشواق المشتعلة في وجدان الشاعر ، وتصف حال الروح والجسد ، ــــــــ

(١) . طوق الحمامة : ص ١٠٧

(٢) . الديوان : ٣٨١/٢

(٣) . لسان العرب : (ألك) .

وربماحملت ما عجز عن وصفه اللسان ، وذلك لأن العبرات تحول أحياناً عن تمام البلاغ، أما الرسالة فتبكي وتستبكي ، وتشكو وتعتب ، وهذه من إحدى الرسائل التي أرسلها الشاعر إلى أبي زهير وكان منها[1]:

إنَّ لـي ، مُـذْ نَأَيْـتَ ، جِسَـمَ مَـرِيضٍ ، وبُكَـــا ثاكِـــلٍ ، وذُلَّ أَسِـــيرِ

لـم تَـزَلْ مُشْـتَكَايَ ، فـي كُـلِّ أمـرٍ ومُعِينِـــي ، وعُـــدَّتِي ومُجِيـــرِي

و وصف بعد هذه الشكوى فرحته الشديدة وامتنانه العظيم لأبي زهير الذي سبقه برسالة أحب إلى قلب الشاعر من الماء البارد ، تنساب عذبة الرواء ، قصّر عن إحكامها فحول الشعراء يقول[2] :

وَرَدَتْ مِنْـكَ ، "يـابْنَ عَمِّـي" هَـدَايا تَتَهـادى فـي سُـنْدُسٍ وحَرِيـرِ

بقَـوَاف ألَـذَّ مِـنْ بَـارِدِ المـا ءِ ، ولَفْـظٍ كـاللُؤْلُؤ المنْثُـورِ

مُحْكَـمٍ ،قَصَّـرَ،"الفَـرزدقُ[3]"و"الأَخْـ[4] طَلُ"عنـهُ ، وفَـاقَ شِـعرَ"جَرِيرِ"[5]

ولم ينس الشاعر أن يختم رسالته بخلاصة أثر رسالة أبي زهير التي وردته ، فهي مصدر

(١) . الديوان : ١٧٣/٢ - ١٧٤

(٢) . المصدر نفسه : ١٧٤/٢

(٣) . الفرزدق : هو همام بن غالب بن صعصعة من بني تميم ،كان أبوه من سراة قومه ورئيسهم ، وكان الفرزدق كثير التعظيم لقبر أبيه فما جاءه أحد واستجار به إلا نهض معه وساعده على بلوغ غرضه وكان بين الشاعر وجرير مهاجاة ومعاداة وجُمع لهما كتاب يسمى بالنقائض ، وتوفي بالبصرة سنة ١١٠هـ .

انظر: ١- وفيات الأعيان: ٨٦/٦-٩٧-٩٩

٢- معجم الأدباء : ٢٧٨٥/٦

(٤) . الأخطل : هو غياث بن غوث بن الصلت بن الطارقة يكنى بأبي مالك و الأخطل لقب غلب عليه حين هجا رجلا من قومه ، فقال له : يا غلام إنك لأخطل ،كان نصرانياً من أهل الجزيرة، ومحله في الشعر أكبر من أن يحتاج إلى وصف، و يُعد هو وجرير والفرزدق من طبقة واحدة . (انظر الأغاني مج ٤/ ج:٨ / ص ٤١٧، ٤١٨) .

(٥) . جرير : هو جرير بن عطية الخطفي ، أبو حزرة من فحول شعراء الإسلام ، ويقال : " إن بيوت الشعر أربعة: فخر ومديح وهجاء ونسيب ، وفي الأربعة فاق جرير غيره ، توفي باليمامة سنة ١١١هـ بعد أن عمر نيفا وثمانين سنة . (انظر وفيات الأعيان : ١/ ٣٢١ ، و ما بعدها) .

هيجان الأشواق واضطرامها ، يقول[1]:

هَــاجَ شَــوْقِي إليــكَ حِــينَ أَتَتْنِــي: [هــاجَ شــوقُ المتــيَّمِ المْهجُــور] (٢)

ففي هذه الرسالة قدّم الشاعر الشكوى على الثناء على رسالة أبي زهير التي سبقت رسالته؛ ولكنه في رسالة أخرى يثني على الرسالة ، ثم يشكو ، وهي رسالة أخرى أرسلها مجيباً لأبي زهير عن قصيدة أولها :

[أيا ابن الكرام الصيد والسادة الغُرّ](٣) :

أَيَابْنَ الكِرَامِ الصِّيدِ ، جَاءَتْ كريمَةً : [أَيَـابنَ الكِـرَامِ الصِّـيدِ والسَّـادَةِ الغُـرِّ]
فَضَلْتَ بها أهلَ القريضِ ، فأصبحتْ تحيَّـةَ أهـلِ البَـدْوِ ، مُؤْنِسَـةَ الحضْـرِ
وإنّـكَ ، فـي عَـذْبِ الكـلامِ وجَزْلِـهِ ، لتَغْرِفُ مِنْ بَحْرٍ وتنْحَتُ مِنْ صَخْرِ

ومضى في ثنائه على جزالة الألفاظ وقوة المعاني ، ورقة أنامل صاحبها إلى أن وصل إلى شكاته من لوعة الفراق ، ولظى الوجد من حائر تسريه الشكوى ويوقظه الصبر.

يقول (٤):

إلـى اللهِ أشـكُو مـنْ فِراقِـكَ لَوْعـةً ، طَوَيْتُ لها ، مِنِّي الضُّلُوعَ على جَمْرِ
وحَسْـرةَ مُرتـاحٍ إذا اشْـتَاقَ قلبُـهُ ، تَعلّـلَ بالشَّـكْوى وعَـادَ إلـى الصَّـبْرِ
فعُدْ يازَمَـانَ القُـربِ فـي خيـرِ عِيشـةٍ ، وأَنْعَـم بـالٍ ، مابَـدَا كوكـبٌ دُرِّي
وعِشْ "يابن نَصْرٍ"ما استَهلَّت غَمَامَةٌ ، تَـرُوحُ إلـى عِـزٍّ ، وتَغْـدو علـى نَصْـرِ

ولعل بدء الشاعر بالثناء على الرسالة وصاحبها قبل الحديث عن شوقه إليه والشكوى من فراقه ، فيه تهيئة للنفس قبل سماع الشكوى ، وهذا الأمر يثير المتلقي فيأنس بالثناء على رسالته ، وفيه لطف وحكمة من المرسِل الذي حاول تهيئة جو ملائم لعرض شكواه ، ومن ثم قبولها ، وقد يكون في هذا من القوة مع اللطف أكثر من سابقتها.

---

(١) . الديوان : ١٧٤/٢

(٢) . هذا العجز هو أول الرسالة التي أرسلها أبو زهير للشاعر . (انظر : المصدر نفسه :١٧٢/٢) .

(٣) . المصدر نفسه : ٢٢٠/٢

(٤) . المصدر نفسه : ٢٢٠/٢-٢٢١

وبالإضافة إلى ما تحمله الرسالة من شوق وحنين ، فإنّها تفسر وتوضح للمتلقي ما يحس به لسانه ولا ينطقه جنانه. فمثلاً الهجر والبين أحد مثيرات الشكوى والعتاب وفي تداعي ذكرياتها ألم شديد تهرب النفس منه بشكل لاشعوري ، وقد أدرك الشاعر أنّ هذه الحقيقة لن تغيب عن صديقه ؛ لذا خشي أن يساور الشك ذلك الصديق البعيد الذي يخشى على الوداد من البعد وعلى الألفة من الفناء ، فأرسل إليه ما يطمئن الفؤاد ، ويُؤمّن الفَرَق ويقر العين ، يقول[1] :

أَخِي ، وابنَ عَمِّي"يا ابنَ نَصْرٍ"نداءَ مَنْ أُقِيمَتْ لطُولِ الهَجْرِ مِنكَ مآتِمُهْ
أَوَدُّكَ وداً لا الزَّمَانُ يُبِيدُهُ ، ولا النَّأيُ يُفْنيهِ وَلا الهَجْرُ صَارِمُه
ولورُمْتُ يوماً أَنْ تَريمَ[2] صَبابَتي إليكَ ، أَزالَ الشّوْقُ مَا أَنَا رَائِمُهْ[3]

وقد طلب الشاعر الرسول الذي يبلغ أبا العشائر ألوكة تحمل الأشواق وتبلغ صور العذاب التي ذاقها الشاعر إثر أسر صاحبه ، وتنقل ما غُيّب عن الأسير ؛ ليعلم أنّ الوداد باق على عهده ، وأنّ الوفاء من خلق الشاعر.

يقول[4]:

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عَنَّي"الحسينَ" أَلُوكَةً ، تَضَمنَّها دُرُّ الكَلامِ المُنظَّمُ :
لذيذُ الكَرَى ، حَتَّى أَرَاكَ ، مُحَرَّمُ ونَارُ الأَسَى بينَ الحَشَا تَتَضَرَّمُ

ثم انهال بوصف محكم دقيق صور فيه العذاب النفسي الذي لا يتمثل في الدموع فقط بل في عدم تكيفه مع الأعراف الاجتماعية التي تناقض هيئة حزنه .

وقد استخدم الشاعر الرسائل للمكاشفة والمصارحة بواسطة العتاب الرقيق ، الذي تكشفه عبارات قوية فلّ من حدها أنها رسالة قد لا تجاوز ناظري قارئها ، ومنها ما كتبه

---

(١) . الديوان : ٣٨٢/٢

(٢) . تريم : الرّيم هنا بمعني : التباعد . (انظر : لسان العرب : (ريم)) .

(٣) . رائمه : طالبه . (انظر :المصدر نفسه : (روم)) .

(٤) . الديوان : ٣٨٥/٢.

لأبي زهير وقد استجفاه [1] :

ألا مُبْلِـغٌ عَنَّـي ، ابـنَ عَمِّـي رِسَـالةً بَثَثْـتُ بِهَـا بَعْـضَ الـذي أَنَـا كَاتِمُـهْ

أَيَـا جَافِيـاً ! مـا كُنْـتُ أَخْشَـى جَفَـاءَهُ وإنْ كَثُـــرَتْ عُذَّالُـــهُ ، ولَوَائِمُـــهْ

فهذا عتاب في غاية الصراحة دعّمه ببراهين تدل على صحة ادعائه ، ثم بالغ في قسوته عليه، وكأنه كلما قسا عليه في العتاب كلما ازداد حباً وقرباً .

يقول[2]:

وإنْ كُنـــتُ مُشْـــتَاقاً إليـــكَ فإنَّـــهُ ليشْـتَاقُ صَـبٌّ إلفَـهُ ، وهْـوَ ظَالِمُـهْ

وبعد هذه الشدة ، أرسل الوداد ينساب عذباً ، ليروي به فؤاد مُعَاتبه بعد أن شدد عليه المسألة .

يقول[3]:

أوَدُّكَ وداً لا الزَّمَـــــانُ يُبِيـــــدُهُ ، ولا النَّـأْيُ يُفْنِيـهِ ، ولا الهَجْـرُ ثالِمُـهْ

وأنـــتَ وفـــيٌّ لا يُـــذَمُ وفـــاؤُهُ ، وأَنْـتَ كَـرِيمٌ لـيسَ تُحْصَـى مَكَارِمُـهْ

ومضى في الثناء عليه إلى أن وصل إلى استجداء لطيف أبدى فيه شوقه الشديد إلى رسالة من نظم بديع يُعتبه فيها .

يقول[4] :

أَعِنـدكَ لـي عُتْبـى فَأَحْمِـلَ مَـا مَضَـى وأَبْنِـي رُواقَ الـوُدِّ ، إذْ أَنْـتَ هَادِمُـهْ

فَـلا تَحْبِسَـنْ عَنِّـي الجَـوابَ ، مُوشَّـحاً بعْقِـدٍ مِـنَ الـدُّرِ الـذي أَنْـتَ نَاظِمُـهْ !

---

(١) . الديوان : ٣٩٣٩/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٣٩٣/٢

(٣) . المصدر نفسه : ٣٩٣/٢

(٤) . المصدر نفسه : ٣٩٤/٢

أمارات الشوق والحنين :

١-البكاء :

يقول ابن حزم : " والحواس الأربع أبواب إلى القلوب ، ومنافذ نحو النفس ، العين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملاً ، وهي رائد النفس الصادق ودليلها الهادي ومرآتها المجلوة التي بها تقف على الحقائق ، وتميّزُ الصفات وتفهم المحسوسات"[١]

وما دام الأمر كذلك في العين فإنه يشمل حركاتها وسكناتها التي تغني عن الكلام ، ولعل أبرز صفة في العين ، تُلازمُ الصَبّ المشوق ، هي صفة البكاء ؛ لأن الإنسان يجد في البكاء راحة تعطل الجوف عن حزنه ، و تبرد من لهيبه و ذلك بما يُريقه صاحبها من ماء أو ربما دم – على حد تعبير الشعراء – يحول الباكي من ساخط إلى راض يشعر أنه بذل لشوقه أسبابه ، كما أنه يطفئ الغليل ويبرد حرارة المحزون ويزيل شدة الوجد[٢].

وكان أبو فراس يدفع الكرب بالدموع بعد أن أحرق الشوق الفؤاد ،وأذاب الجوى الحشا ... يقول[٣] :

---

(١) . طوق الحمامة : ص ٤٣

(٢) . انظر الصناعتين : ص ١٤١ ، ١٤٢

و لم يقتصر التجلد في مثل هذه المواطن على الذم ؛ بل يجد المكروب راحة تُطفىء بعض لهيب جوفه ، قال أبوبكر عياش : "كنت وأنا شاب إذا أصابتني مصيبة لا أبكي فيحترق جوفي ، فرأيت أعرابياً بالكناس على ناقة له والناس حوله وهو ينشد :-

خليلـــى عوجـــا مـــن صـــدور الرواحـــل ببرقـــة حـــزوى فابكيـــا في المنـــازل
لعـــل انحـــدار الـــدمع يعقـــب راحـــة مـــن الوجـــد أو يشـــفى نجـــى البلابـــل

فسألت عن الأعرابي ، فقيل : هو ذوالرمة ، فكنت بعد ذلك إذا أصابتني مصيبة بكيت فاشتفيت فقلت : قاتل الله الأعرابي ما كان أبصره " . (الصناعتين : ص ١٤٢)

(٣) . الديوان : ٤٦/٢

يـــــاخَلِيلَيَّ ، خليَّـــــانِي ودَمْعِـــــي إنَّ فـــي الـــدَّمْعِ رَاحَـــةَ المكْـــرُوبِ
مـــا تَقُـــولانِ فـــي جِهَـــادِ مُحـــبٍّ وَقَـفَ القلـبَ فـي سَـبيلِ الحبيـبِ؟

فأي جرم يستقبحه العاذل على أحداق تقطر الهوى؟ ! وربما لا يشقى من العواذل أحد إلا عاذل العاشق ، يقول[١] :

أَ يَلْحَـــانِي ، علـــى العَبَـــراتِ لاحٍ وقَـدْ يَـئِسَ العَـوَاذِلُ مِـنْ صَـلاحِي؟!

ولا يلاحي الصب المشوق على حزنه خصمٌ إلا غُلب ، لأن البكاء والحزن في عالم العشاق نهجُ مُتّبعُ ، وقد صوّر ذلك في قوله[٢]:

وحُـــزنٌ ، لا نَفَـــادَ لـــهُ ، ودَمْـــعٌ يُلاحِـي[٣] فـي الصَّـبَابَةِ ، كُـلَّ لاحِ[٤]

وقال في مشهد آخر[٥] :

يـــا عَـــاذِلِي كُـــفَّ المـــلامَ ، فإنَّـــهُ لا يُســـتطاعُ علـــى الفِـــرَاقِ تَجلُّـــدُ
إنْ كـانَ أَطْفَـأَ نـارَ شَـوقِكَ فـي الهـوى مَـــاءٌ ، فنـــارُ صَـــبَابَتي تتوقَّـــدُ
أو لـم يَكُـنْ لـكَ مِـنْ دُمُـوعِي وَازِعٌ ؛ لمَّـا غَـدَوْتَ علـى البُكَـاءِ تُفَـنِّدُ؟

بل توسع في نطاق العذل ، وتجاوز حده في ذلك ، فدعا على قلب لا يهيم ، وعين لا تهمي صبابة وشوقاً ، وكان مما كتبه إلى القاضي أبي حصين[٦]:

رَعَـى اللهُ مـا بَيْنِـي وبَيْنَـكَ ، إنَّهـا عَلائِـقُ حُـــبٍّ لا يُـــرَامُ مَنِيعُهَـــا
لَحَـــى اللهُ[٧] قلبـــاً لايَهِـــيمُ صَـــبَابَةً إليـــكَ ، وعَيْنـــاً لا تَفِـــيضُ دُمُوعُهـــا !

---

(١) . الديوان : ٦٣/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٦٠/٢

(٣) . يلاحي : ينازع ويخاصم . (انظر لسان العرب : (لحا)) .

(٤) . لاح : عاذل ولائم . (انظر : المصدر نفسه : (لحا)) .

(٥) . الديوان : ٨٨/٢

(٦) . المصدر نفسه : ٢٤١/٢

(٧) . لحى الله : أي قبحه ولعنه . (انظر : لسان العرب : (لحا)) .

والأجدر بالتعنيف مَنْ ادعى الهوى وهو عاصي الدمع ، ضنين البكاء ، يقول[1]:

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ ، شِيمَتُكَ الصَّبرُ ، أمَا للهَوَى نَهْيٌ عليكَ ولا أمْرُ؟

ولا يجتمع كبرياء وهوى ؛ بل رقة الهوى تهزم جحافل الجفاء أو تذلل غلظتها فتهراق الدموع الأبية ما شاء الهوى لها...

إذا اللَّيلُ ، أَضْوَاني بَسَطْتُ يَدَ الهَوَى و أَذْلَلْتُ دَمْعاً مِنْ خَلائقِهِ الكِبْرُ[2]

وقد كشف الشاعر في أنَّ الصراع الداخلي القائم في النفس بين كبريائه ومثالياته التي تنفر من الخداع وتقبّح فعل المنافقين وتبغّض الكذب ، فطغى ذلك الصراع على وجدانه ، فاعتبر أن البكاء خُلق راسخ يترجم أشواقه ويصدق ما يجن جنانه ، و كان مما كتبه إلى أخيه أبي الهيجاء [3]:

تُقِرُّ دُموعِي بشَوْقي إليكَ ويَشْهدُ قلبي بطُولِ الكَرَبْ
وإنّي لمجتهِدٌ في الجُحُودِ ولكنَّ نَفْسيَ تَأْبَى الكَذِبْ
وإنّي عَلَيْكَ لجارِي الدُّمُوعِ وإنّي عَلْيكَ لصبٌّ وَصِبْ[4]

وكما أنّ العين دليل النفس وعنوان الضمير ، فهي ترجمان الأشواق والحنين ، وفي مائها رقة الشوق ، وهي كاتب الشاعر البليغ ، الذي يخط ما تمليه الأشواق ، يقول[5]:

عَلَيَّ لرَبْعِ العَامِرِيَّةِ وَقْفَةٌ تُمِلُّ عَلَيَّ الشَوْقَ والدَّمْعُ كاتِبُ

ولن تكف مقلتا المشتاق عن الدموع إلا لتجود بما هو أعظم من الماء ، فجادت عينا

---

(١) . الديوان : ٢٩/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٢٠٩/٢

(٣) . المصدر نفسه : ١٩/٢

(٤) . وصب: الوَصَب : شدة التعب . (لسان العرب : (وصب)) .

(٥) . الديوان : ٣٠/٢

الشاعر دماءً حين غاب عنها الأحبة ، يقول[1] :

ولمَّـــا عَـــزَّ دَمْـــعُ العـــينِ فَاضَـــتْ دمـــــاءً ، عِنـــــدَ تِرْحَـــــالِ الفَرِيـــــقِ

وقَـــدْ نَظَمَـــتْ علـــى خَـــدِّي سُـــمُوطاً مِـــــنَ الـــــدُّرِ المُفَصَّـــــلِ بـــــالعَقِيقِ

ولعل منظر الدم على الوجنتين أبلغ وفاءً للحبيب الذي أضحى يرى أهازيج الشوق تجري في أخاديد على خديه من مهجة فاضت شوقاً وحنينا .

وحين يبالغ الشخص في وصف وجد صاحبه عليه ، فهو لا يصف إلا نفسه ، ولا ينقل إلا أشواقه التي يراها في صاحبه ، ولما علم الشاعر بجزع أخيه أبي الهيجاء عليه حين أُسر ، أخذ الشاعر يعرض تفاصيل الموقف بعد أن أضفت أشواقه على المشهد مسحة حزينة ، وغرف من بحار حنينه ما جعله يجزم أنّ أخاه استنفد جميع أحزانه فلم يبق لعينه دمع ولا غمض تقرُّ به ، ولا يفتر عن مساءلة الركبان عن غائب عزيز ، جعله يزهد في ملذات الدنيا فلا قدر للعيش من بعد أسر الكريم!!

يقول[2]:

أَ أَبْقَى أَخِي دَمْعاً ، أَ ذَاقَ أَخِي كَرىً؟ أَ آبَ أخِي بَعدِي ، مِنَ الصَّبرِ آئِبُ؟

---------- ----------

بنَفْسِـي وإنْ لـم أرضَ نَفْسِـي لِرَاكِـبٍ يُسَـــائِلُ عنَّـــي كُلَّمـــا لاحَ راكِـــبُ

فمـا ذَاقَ بَعـدِي لَـذَّةَ العَـيْشِ سـاعةً ولانَـــابَ جَفْنَيـــهِ مِـــنَ النَّـــومِ نائِـــبُ

قَـرِيحُ مَجـارِي الـدَّمْعِ مُسْـتَلَبُ الكَـرَى يُقَلْقِلُـــهُ هَـــمٌّ مِـــنَ الشَّـــوقِ نَاصِـــبُ

ولاجزاء يقايض الشاعر أخاه به إلا أن يبدأ من نقطة النهاية التي وصل أخوه إليها حين نفدت الدموع ، و زاد على ذلك فسحّت عيناه الدم جزاءً و وفاءً ، فقال[3] :

---

(١) . الديوان : ٢٦٧/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٣٣/٢

(٣) . المصدر نفسه : ٣٣/٢

ولستُ مَلُوماً إنْ بَكَيْتُكَ مِنْ دَمِي إذا قَعَدَتْ عنِّي الدُّمُوعُ السَّواكِبُ

فإن كان عذر العين في نفاد دمعها ، فإنّ الدماء لا تعجز عن ترجمان الشوق و الحنين ؛ بل إنّ منظرها على الوجنتين حقيقة أو خيالا يُذكي فتيل الموقف ، و ينقل صورة النياط التي قطعها الأسى و المهجة التي أراقها الحزن .

٢- الطيف :

الطيف : كلمة يائية أو واوية ، يُقال : طاف به الخيال طوفاً ، أي ألمّ به ، وقال الفراء: الطائف والطيف سواء وهو ما كان كالخيال والشيء يلم بك.

ويقال : " طاف يطيف ويطوف طيفاً وطوفاً ، فهو طائف ، ثم سُمي بالمصدر ، ومنه طيف الخيال الذي يراه النائم وفي الحديث : " فطاف بي رجل وأنا نائم[١]"

و الطيف نشاط نفسي ومحاولة داخلية لتجاوز المكان المغلق وقهر الذلة المفروضة وتعويض غير إرادي عن لقاء اليقظة المفقودة[٢]. فهو بذلك يفارق الخيال ؛ لأنّ الخيال قد يُقال للصورة الباقية عن المحسوس بعد غيبته في المنام وفي اليقظة ، أما الطيف فلا يقال إلا فيما كان حال النوم[٣].

و يرتبط الطيف ارتباطاً وثيقاً بما يُخالج وجدان صاحبه ، فيُترجم بعض الأشواق و يرسم صور الحنين ، وهو " يجود بما يبخل به صاحبه ، وإن الواشي لو علم بمزار الطيف لساءه"[٤]

---

(١) . انظر: لسان العرب : (طيف) .

(٢) . انظر : الأسرُ والسجن في شعر العرب: ص ٤٩٥

(٣) . انظر : الكليات : (طيف) .

(٤) . المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ضياء الدين نصر الدين ابن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم ابن الأثير الجزري ، تحقيق وتعليق : كامل محمد محمد عويضة ، ٣٠٣/٢ دار الكتب العلمية ، ط١ بيروت – لبنان، ١٤١٩ - ١٩٩٨م .

وأجاد كثير من الشعراء في وصف الطيف ، وغلب على بعضهم طريقته فاختص في الحديث عنه و برع في وصفه ، وفي ذلك يقول ابن رشيق: " لابد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه ، فينقاد لها طبعه ويسهل عليه تناولها كأبي نواس في الخمر وأبي تمام في التصنيع والبحتري في الطيف وابن المعتز في التشبيه..."[١].

و يُدرك من هذا أنّ الحديث عن الطيف شاع لدى الشعراء ، و فضل بعضهم على بعض في الإجادة في الحديث عنه بما انقادت له طباعهم و برزت فيه .

واتخذ الطيف في شعر أبي فراس وسيلة من وسائل التعبير عن شوقه ، وهو منفذ الأمل في لجة اليأس ، وهو تمام الوفاء للحبيب الذي لا يغادر ذاكرة مُحبه يقظة ومناما ، وهو يصل ليلاً ما صرمه صاحبه نهاراً ، ويصلح ما أفسده ، وفي ذلك يقول أبي فراس[٢]:

وطَيْـــفٍ زارنـــي وَهْنـــاً وحَيَّـــا فقُلـــتُ لَـــهُ: علـــى عَيْنـــي ورَاسِـــي

يُصَـــارِمُني نَهَـــاراً وهْـــوَ لَيْـــلٌ يُواصـــلُني مُواصـــلَةَ اخْـــتِلاسِ

فيُطْعِمُنـــي ويُؤْنِسُـــنِي هـــوَاهُ فَأَهْلِـــكُ بَـــينْ أَطْمـــاعٍ ويَـــاسِ

وفي هذا مايهوّن العتاب ، ويخفف من حدته ، وفيه أيضاً ما يصد من فحيح الشكوى ويُبرّد من لظاها ، لأنّ الطيف وسيط خير بين المعاتِب و المعاتَب .

و يجدر في الحديث عن الطيف ، ذِكرُ ضرب من حيل المحبين إذا حُرموا الوصال ، يقول ابن حزم في ذلك : " ولابد للمحب إذا حُرم الوصال من القنوع بما يجد وإن في ذلك لتعللا للنفس ، وشغلاً للرجاء وتجديداً للمنى وبعض الراحة[٣] "

" ومن القنوع الرضى بمزار الطيف وتسليم الخيال وهذا إنما يحدث عن ذكر لايفارق وعهد لايحول وفكر لا ينقضى ، فإذا نامت العيون وهدأت الحركات سرى الطيف"[٤]

---

(١) . العمدة في محاسن الشعر ونقده : ٢٥١/٢

(٢) . الديوان : ٢٣٦/٢

(٣) . طوق الحمامة : ص ١١٠

(٤) . المصدر نفسه : ص ١١٣

وقد قنع شاعرنا بطيف الحبيب الجافي ، ففي طيفه تمحيص للجفاء ، وقناعة بعد طمع اللقاء ، يقول[1]:

أَ قَنَاعَـةً ، مِـنْ بَعْـدِ طُـولِ جَفَـاءِ ، بِـدُنُوِّ طَيْـفٍ مِـنْ حَبِيـبٍ نَـاءِ!

وإذا فارق الغمض الأجفان ؛ استحال الطيف وانقطعت السبل إليه ، لتتعالى آهات الشكوى من الأرق من ناحية ، ومن هجران الطيف من أخرى ، فالأول : قلق وقلة راحة والثاني : قطع أسباب الرجاء واندحار إلى هوة اليأس .

وفي ذلك يعجب الشاعر من طمعه في زيارة الطيف ، وهو لم يبلغ أسباب مجيئه ، يقول[2]:

كيـفَ السـبيلُ إلـى طَيْـفٍ يُـزَاوِرُهُ والنَّـومُ فـي جُمْلَـةِ الأَحْبَـابِ ، هـاجرُهُ؟

الحُـبُّ آمِـرُهُ ، والصَّـوْنُ زاجِـرُهُ ، والصَّـبْرُ أَوَّلُ مـا يَـأْتِي ، وآخِـرُهُ

ثم تساءل مرة أخرى عن السبب الحقيقي في هجران طيف عزة وحاول أن يفرض الأسباب ، ولكنه رجّحَ ما ذكره سابقاً وعوّل عليه ، إنه السهر علّة العاشق العضال التي تُقرِّحُ الأجفان ، وتُزِلُ الأجساد ، و تُهلك الرجاء ، وتحل حيازيم الصبر وتُهلك الرجاء ، يقول[3] :

مـا بَـالُ لَيْلـيَ لا تَسْـري كَوَاكِبُـهُ ، وطَيْـفُ "عَـزَّةَ" لا يعتـادُ زائِـرُهُ؟

مَـنْ لايَنَـامُ ، فـلا صـبرٌ يُـؤَازِرُهُ ولا خَيَـالٌ ، علـى شَـحْطٍ يُـزَاوِرُهُ

يـا سَـاهِراً ، لَعِبَـتْ أَيْـدِي الفِـرَاق بِـهِ ، فالصَّـبْرُ خاذِلُـهُ ، والـدَّمعُ ناصِـرُهُ

إنَّ الحبيـبَ الـذي هَـامَ الفُـؤَادُ بِـهِ ، يَنَـامُ عـن طُـولِ ليـلٍ ، أَنْـتَ سَـاهِرُهُ

---

(١) . الديوان :٢/٧

(٢) . المصدر نفسه : ٢/١٨٠

(٣) . المصدر نفسه : ٢/١٨٠

و بالرغم من أنّ الطيف أداة من أدوات الشوق إلا أن الشاعر استنكر على من ادعى الشوق وهو ينام إذا جنّ الليل !! إنها مفارقة واضحة ربما سوغها الشوق ، فكانت من أضداد المتحابين ، فكان الشاعر يحمد الطيف الذي لبى داع الشوق في نفسه مع علمه أنّ الطيف

لا يكون إلا في حالة النوم ، و كان تارة أخرى يُعرّض بالخِل الذي ادعى الشوق ، ولم يؤرقه السهاد !!

فيبدو أن اضطرام الأشواق قسم الشاعر إلى شطرين : شطر يرى النوم للعاشقين مذّمة ، والشطر الآخر يرى في النوم إطلاقاً لأعنة الرجاء بعد إطباق اليأس عليها ، فتراها تسرح مع الطيف أنّى شاءت .

ومهما يكن من أمر ، فالشاعر لا يرى في الأمر الأول مذمة له ، لأنه إن نام ، فلا ينام إلا طمعاً في مزاورة الطيف ، وإن سهر ، فإن الشوق لا يدّعيه وسنان!! يقول[1] :

فَمَـــا أَنْفَـــكُّ عَـــنْ ذِكْـــرا كِ فـــي نَـــوْمٍ وتَسْـــهَادِ

بشَـــوْقٍ مِنْـــكِ مُعْتـــادِ وطَيْـــفٍ غيـــرِ مُعْتـــادِ

ومهما يكن من أمر ، فإن الطيف وهم لا واقع ، ولكن الوهم يخفف من حدة الواقع، ويجلب النعيم في وسط الشقاء ، والراحة في كبد العناء ، وكم من طيف سرى في حالكات الليالي ، فأحال الظلمة إلى ضياء ... ورُبّ شكوى مريرة اختلطت بعبرات الشاعر ، ثم سرّى عن نفسه بذكر الطيف ، وكأن ألم البين توارى خلف طيف من خيال الأحبة ، يقول[2] :

علـى أَنَّنـي مِـنْ شَخْصِـهِ ، مُتَمتّـعٌ بطيـفِ خَيَـالٍ مِنْـهُ عِنـدَ الكَـرَى يَسْـري

فـواللهِ ، مـا أَدْرِي ، أَ يَـدْرِي بمـا جَنَـى على القلبِ ؟ أَمْ أَشْقَى بِهِ وهْوَ لايَدْرِي؟

واستخدم الشاعر الخيال قريباً من فكرة الطيف ، وعبّر عن ذلك بالفعل "يُخيّل" في سياق

---

(١) . الديوان : ٨٩/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٢٢١/٢

تذكره لقوم كان يألفهم ، فيخيل له أمرهم كأنهم حاضرون بين يديه ، فحزنه لا ينقضي عليهم ، ودمعه ما يفتر[1].

يقول[2]:

لأَيِّكُـــــــمُ أَذْكُـــــــرُ ؟ وفـــــي أيِّكُـــــمْ أَفْكِـــــرُ؟

وكـــمْ لـــي عَلَـــى بَلْـــدَتِي بكـــــــاءٌ وُمسْـــــــتَعْبَرُ؟
ففـــي "حَلَـــبٍ" عُـــدَّتي ، وعِـــــــزِّيَ والمَفْخَـــــــرُ
وفـــي " مَنْـــبجٍ" مَـــنْ رِضَـــا هُ ، أنْفَـــسُ مَـــا أَذْخَـــرُ
ومَـــنْ حُبُّـــهُ زُلفـــةٌ ، بهـــا يُكـــرَمُ المَحشَـــرُ
وأَصـــــبِيةٌ ، كـــــالفِراخِ ، أَكْبَـــــرهُمُ أَصْـــــغَرُ
وقـــــومٌ أَلِفْنَـــــاهُمُ ، وغُصْـــنُ الصِّـــبا أَخْضَـــرُ
يُخَيَّـــلُ لـــي أَمْـــرُهمْ كَـــــأَنَّهُمُ حُضَّـــــرُ
فحُزْنِـــــيَ لا يَنْقَضِـــــي ؛ ودَمْعِـــــيَ مـــا يَفْتُـــرُ

٣-ليل العاشق:

يثير الليل أشواق العشاق ، ويحرك سكونه مكامن أشجانهم ، ويبلو طوله نومهم ويقرّح أجفانهم ، فيرون أنفسهم أعرف الناس به وفي ذلك يقول ديك الجن[٣]:

من نامَ لمْ يدرِ طالَ الليّلُ أَمْ قَصُرا لا يَعْرِفُ الليلَ إلا عاشِقٌ سَهرا

وهم بذلك على صنفين : الأول : يراه طويلاً أبدا ، فيتمنى زواله. والآخر : يراه قصيراً ضيقاً ، فيتمنى دوامه ، ومرجع ذلك كله معقود في ناصية تجربة العاشق .

---

(١) . انظر : الطيف والخيال في الشعر العربي القديم : د. حسن البنا عز الدين ص ٥٩ ، دار المناهل ، ط٣ ، بيروت – لبنان ١٩٩٤م –١٤١٥هـ .

(٢) . الديوان : ٢٠٦/٢

(٣) . ديوان ديك الجن الحمصي : ص ٦٦

فإن قصرّت غاية العاشق ، ولزمه اليأس ، وكبله الهوى وأسره الشوق وقيّد فكره ، ولم يجد لتحقيق هدفه مسلكاً ، فهو بلا شك يتمنى زوال الليل الذي لايحسب أن ساعاته تنقضي ، ولا أنّ كواكبه تأفل ، وفي ذلك يقول امرؤ القيس[١]:

فيالـــكَ مـــن لَيـــلٍ كـــأنّ نُجومَـــهُ بـــأمْراسِ[٢] كتّـــانٍ إلـــى صُـــمّ جَنـــدَلِ[٣]

ويقول بشار بن برد[٤] :

تبيتُ تُراعي الليلَ ترجو نفَادَه ... وليس لليلِ العاشقين نَفَادُ

تَقلّبُ في داجٍ كأنّ سَوادَه ... إذا انجاب موصولٌ إليه سَوادُ

أما شاعرنا ، فقد شكا طول ليل العاشق وثقله عليه لأسباب ذُكرت سابقاً[٥] ، منها: قلة النوم ، ونفاد الصبر أو تلاشي أسبابه مثل : هجران الطيف ، وخذلان الخليل .

فإن كان العاشق ممن سعد في ليله بلقاء الأحبة حقيقة أو طيفا ، فهو بلا شك يتمنى دوام الليل ، وقد يجاوز ذلك الأمر فيُعادي الصباح ويذم مجيئه .

وقد حار أبو فراس في الحكم على النهار الذي قطع عليه إحدى لياليه العابثة ، أ يظن بذلك الصباح خيراً أم شراً ؟! يقول[٦]:

دنَا ذاكَ الصَّباحُ فلستُ أَدْرِي ... أَ شوقٌ كانَ مِنهُ ؛ أَمْ ضِرَارُ؟

وقَدْ عَادَيْتُ ضَوْءَ الصُّبحِ ، حَتَّى ... لِطَرْفِي عَنْ مطالِعِهِ ، ازْوِرَارُ

---

(١) . ديوان امرىء القيس : ص٣١

(٢) . أمراس : جمع مَرَسة : وهو الحبل سُميّ بذلك ، لتمرس الأيدي فيه . (انظر لسان العرب : (مرس)).

(٣) . جندل : الجندل الحجارة . (انظر لسان العرب : (جندل)) .

(٤) . ديوان بشار بن برد : ص ٣٠١

(٥) . ويقول في ذلك :

مَنْ لا ينامُ فلا صَبْرٌ يُؤَازرُهُ ... ولا خَيَالٌ ، على شَحْطٍ ، يُزاورُهُ

يا ساهراً ، لَعَبَتْ أَيْدى الفراق به ... فالصّبرُ خاذلُهُ ، والدمعُ ناصرُهُ

إنَّ الحبيبَ الذى هَامَ الفؤادُ به ... ينامُ عَنْ طُولِ ليلٍ ، أنتَ سَاهِرُهُ

(الديوان : ١٨٠/٢)

(٦) . المصدر نفسه : ١٧٧/٢

وكما يحمد القوم السُرى في الصباح ؛ يحمد العاشق الليل ، لأن الليل سترٌ لعاشقٍ أخفى هواه ، ودرعٌ لمشتاق قطع الشوق أوصاله ، وقد قيل قديماً : ادرعوا الليل ، فإنّ الليل أخفى للويل[١] .

ويقول أبو فراس[٢]:

الليـــــلُ للعَاشـــــقينَ سِـــــتْرٌ ، يـــــا ليـــــتَ أَوْقاتَـــــهُ تَـــــدُومُ!
نَـــدِيميَ الـــنَّجْمُ طُـــولَ لَيْلِـــي ، حَتَّـــى إذا غَـــارَتِ النُّجُـــومُ ،
أَسْـــلَمَنِي الصُّـــبْحُ للبَلايَـــا ، فـــلا حَبِيـــبٌ ، ولا نَـــدِيمُ

و ليس من الضروري أن يكون للعاشق مُتناقضات في حياته فيعيش الشيء و ضده ؛ بل تغير الحال و تبدل النفسيات تصنع مفارقات عظيمة يعيشها العاشق دون أن يستنكر على نفسه ذلك ، بل قد يُنكر تجارب كثيرة مرت به ، من خلال رد الفعل في تجارب لاحقة .

---

(١) . انظر : جمهرة الأمثال : ٢ / ١٥٠

(٢) . الديوان : ٢/ ٣٤٤

المحور الخامس : الخذلان :

يرتبط الفرد بالجماعة ارتباطاً وثيقاً ، إذ لا غنى له عنهم و"اعتراف الشخص بحاجته إلى الآخرين يتضمن أيضاً القدرة على علاقات شخصية وثيقة بهم"[1]

و لا يحتاج تكوين العلاقات إلى تخطيط ودراسة ؛ بل هي أهون من ذلك لدى الفرد العادي ؛ لأنّ الحاجة إلى المجتمع تفرض على الفرد دوره ، و يقوم المجتمع بإيجاد علاقات تقوم على أساس المصالح المشتركة ، و من خلال ذلك يُمكن معرفة ما اصطلح المجتمع عليه من قيم و معايير ترتبط ارتباطاً مُباشراً بأمور شتى ، مثل ثقافة الأفراد و مُستوى وعيهم و ترابطهم.

ومن الواضح أنّ أبافراس لم يخفق في تكوين علاقته مع الناس ، بل تعايش معهم فحَلِمَ وغضب ، وصفح، وبطش ... عاملهم بالطريقة التي تضمن له القدرة على مجاراتهم ومخالطتهم ، لأنّ مخالطة الناس والصبر على أذاهم شأن ذوي الطباع السليمة ولا ينُعت الإنسان بالحلم والصبر والكرم إلا في ساعة الشدة ؛ ولكنه يحتاج في ساعة شدته إلى مَن يعينه ولا يعين عليه ، وينصره ولا ينصر عليه ويجيره ولا يجير عليه ، فإن لم يكن له ذلك ؛ أحس بالوحدة والخذلان .

و ينشأ الخذلان عن وجود خلل في علاقة الفرد بمجتمعه ، ينشأ عن ذلك تنحي الفرد عن مجتمعه أو تنحي المجتمع عن الفرد ، ففي كليهما تكون النتيجة سيّان . فالخذلان إذن هو ترك النصرة والعون[2] ، وقد أحس الشاعر بذلك منذ أن نشأ في كنف من تلطخت أيديهم بدم أبيه ، ولم يكن يملك من أمره إلا أن يخفض الجناح لهم ، ويلين لهم القول وينسى الثارات ، فإن طالب بالدم ؛ فهو عاق لن يجد في الناس إلا خاذلا.

---

(١) . النفس البشرية : ص ١٠٠

(٢) . انظر : لسان العرب : (خذل) .

إذن بدأ إحساسه بالخذلان من قرابته في أول الأمر إلى أن امتد ذلك إلى أهل زمانه ، فيأس من الناس ، وقلت ثقته بهم ، فلم يأمن الصديق ، ولم يثق بالقريب ؛ بل شك في الناس و قلَّت ثقته فيهم ، و لم تعد ترى عينه سوى قبحهم و كذبهم .

يقول[1]:

وما كُلُّ أَنْصَارِي ، مِنَ النَّاسِ ، نَاصِري ولا كُلّ أَعْضَادي ، مِنَ النَّاسِ عَاضِدِي

ومن أبرز صور الخذلان:

١- الغدر :

ذم الشاعر الزمن الذي يُقتل فيه الوفاء و يظهر فيه الغدر ، و استهجن ذلك وقبّح صور أهل الغدر ، وندب الخل الوفي الذي يُعين على نوائب الدهر.

و قاده بغضه لهذه المثلبة إلى الكشف عن أحد أسباب اضطرابه في الحياة ، من خلال تصريحه بفقدان ثقته في الناس وعدم رضاه عنهم و هذا ما جعله متربصاً خائفاً حذراً.

يقول[٢] :

بمَنْ يثقُ الإنسانُ فيما يَنوبُهُ ومِنْ أينَ للحُرِّ الكَريمِ ، صحابُ؟

وقَدْ صَارَ هَذا النَّاسُ إلاَّ أَقَلَّهُمْ ذِئابَاً على أَجْسَادِهِنَّ ثِيَابُ

لم يكن الغدر و الخيانة قصراً على العدو ، بل هو آفة الصديق الذي عزّ وفاؤه وكثر جفاؤه ، يقول[٣] :

يا خَليلَيَّ بالشآمِ ، أَفيقَا ! هَلْ تُحسَّانِ لي رَفِيقاً رَفِيقاً ؟

كَثُرَ الغَدْرُ ، والخِيَانَةُ في النَّا سِ ؛ فَمَا أَنْ أَرَى صَدِيقاً ، صَدُوقا !

---

(١) . الديوان : ٨٢/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٢٢/٢

(٣) . المصدر نفسه : ٢٦٨/٢

قَلَّ أَهْلُ الوفاءِ ، واتَّبعَ النَّا سُ مِنَ الغَدْرِ والجفَاءِ طرِيقَا !

وقد بلغ يأس الشاعر مبلغاً عظيماً جعله لا يفرح بخير ، ولا يحزن بشر ، ولا يرجو نفعاً من صاحب ، يقول[١]:

أَعْيَـــا عَلَـــيَّ أخٌ ، وَثِقْـــتُ بِـــوُدِّه ، و أَمِنْـتُ فـي الحَـالاتِ عُقْبَـى غَـدْرِهِ
وخَبَـــرْتُ هـــذا الـــدَّهرَ خِبـــرَةَ ناقـــدٍ حتّـــى أَنِســـتُ بخَيـــرِهِ وبِشَـــرِّهِ

ولم تكن غدرة الصاحب وحدها تثير حفيظة الشاعر ، بل العذر الذي يعقب الغدر أعظم من الغدر وهو أمر موغل في القبح ، وكأن صاحبه جمع بين الحشف وسوء الكيل ، وقد صبر الشاعر على تلك الهنات وستر على جهل الصاحب ، ووارى دلائل حماقته.

يقول[٢] :

لا أَشْـــتري بَعْـــدَ التَّجـــرُّبِ صـــاحِبا إلا وذْدِتُ بـــــأَنَّني لـــــمْ أَشْـــــرِهِ
مِـــنْ كُـــلِّ غَـــدَّارٍ يُقِـــرُّ بذْنبـــهِ فيكـــونُ أَعْظَـــمُ ذَنْبِـــهِ فـــي عُـــذْرِهِ
ويجـــيءُ ، طَـــوْراً ، ضُـــرُّهُ فـــي نَفْعِـــهِ ، جَهْـــلاً ، وطَـــوْراً ، نَفْعُـــهُ فـــي ضُـــرِّهِ
فصـــبرتُ لـــم أَقْطَـــعْ حبـــالَ وِدَادِهِ وســـترتُ مِنـــهُ ، مـــا اســـتطعتُ بِسَـــتْرِهِ

و يبدو أنّ صبر الشاعر كان على مضض لأسباب اجتماعية ، وإلا فمثله يقدر على الهجر و القلى ؛ ولكنّ خبرته التي اكتسبها من مجتمعه ، جعلته يضطر لأفعال لا تُناسب مقامه و منزلته الاجتماعية ، فإذا كان ضر الصاحب في نفعه ، ونفعه في ضره ؛ فهو بلا شك أرعن، و حماقته تُزهّد في صحبته ؛ و لكنّ الشاعر استبطن ذلك الأمر للشكوى ، و صَابرَ للتعايش ، وهذا الأمر بحد ذاته جهاد عسير و بلوى عظيمة .

---

(١) . الديوان : ١٩٦/٢

(٢) . المصدر نفسه : ١٩٦/٢-١٩٧

٢- الحسد :

يُعد الحسد سلوكاً عدائياً يتمنى فيه الفرد زوال النعمة عن الآخرين ، وهو ناجم عن

عدة أسباب ، لعل من أبرزها : الإحباط الشديد والإخفاق في تحقيق هدف معين في الوقت الذي ينجح فيه الآخرون ، لأن العلاقة بين الإحباط والعدوان قائمة وهو ما أطلق عليه دولارد ومساعدوه بافتراض الإحباط والعدوان إذ يقولون : " نحن نفترض أن السلوك العدائي يسبقه دائماً حدوث إحباط عند الفرد ، والعكس صحيح ، بمعنى أن حدوث الإحباط سيؤدي إلى سلوك عدائي[1] " .

وقد يكون الحاسد شخصاً محبطاً مخفقاً في تحقيق أهدافه ، أو مبرزاً قاده حب التميز إلى حب التفرد والسبق ، فلا يرضى الفرد أن ينافسه أحد في المنزلة ، لذلك تظهر عليه أمارات القلق والهم ومحاولة إنكار الحقائق ، وكم نظم الحاسد من الوشايات والأكاذيب ليطفئ الحق ويوقد الباطل .

ومن أسبابه أيضاً ضعف الوازع الديني وعدم الرضا بما قسمه الله تعالى من المعيشة والله جل علا يقول[2] : **(نَحنُ قَسمْنَا بَيْنَهمُ مَعِيشَتَهُمْ في الحيَاةِ الدُّنْيَا)** .

والتمس البعض جانباً آخر في الحسد ، هذا الجانب يخفف من حدة سهام الحساد ، ويهوّن الأمر على المحسود ، ففطنوا إلى أن قبح الحسد يُظهر المحاسن وينشر الفضائل المكتّمة ، وفي ذلك يقول أبو تمام[3] :

وإذَا أرادَ اللهُ نَشْـــــرَ فَضـــــيلَةٍ طُوِيَـتْ أَتـاحَ لهـا لَسـانَ حَسُـودِ
لَـوْلا اشـتعَالُ النّـارِ ، فيمـا جَـاوَرَتْ مـا كـانَ يُعْـرفُ طيـبُ عُـرْف العُـودِ

ومن أقبح ما هدف إليه حساد الشاعر ، إثارة أشجانه ، وإيغار صدره ، سالكين في ذلك

---

(١) . مقدمة في الصحة النفسية : ص ١١٢

(٢) . سورة الزخرف آية :٣٢

(٣) . شرح ديوان أبي تمام : ٢١٣/١

مسالك الكذب الوعرة ، جادين في تلفيق الافتراءات والادعاءات الباطلة ، يقول[1]:

ويقـولُ فـيَّ الحاسـدُونَ ، تَكَـذُّباً ، ويُقـالُ فـي المَحسُـودِ مـا لا يَفْعـلُ
يَتطلّبُـونَ إسَـاءَتي لا ذمتـي ، إنَّ الحُسـودَ ، بمـا يسُـوءُ ، مُوكَّـلُ

كما عبر ابن المعتز[٢] عن ذلك السلوك المستنكر بشكل مضاد مقبول[٣] ، ورأى أن الحياة لا تطيب إلا بالحسد الذي يقتفى أثر المجد يقول:

مَـــــا عَـــــابني إلا الحَسُـــــو دُ وَتِلـــكَ مـــنْ خَيـــرِ المنَاقِـــب
وإذَا مَلكَـــــتَ المجـــــدَ لَـــــم تَملِـــــك مَـــــودّاتِ الأقَـــــارِب
والمجـــــدُ والحُسّـــــادُ مُقـــــرو نـــــانِ إنْ ذَهبُـــــوا فَـــــذَاهب
وإذا فَقَـــــــدتَ الحَاسِـــــــد يـنَ ، فَقَـدتَ فـي الـدّنيَا الأطايـب[٤]

---

(١) . الديوان : ٢٩٦/٢

(٢) . هو أبو العباس عبدالله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور ينتهي نسبه إلى العباس بن عبدالمطلب ، أخذ الأدب عن أبي العباس المبرد وأبي العباس ثعلب وغيرهما ، كان أديباً بليغاً شاعراً مطبوعاً أقام في الخلافة يوماً وليلة ، وقتل خنقاً على يد مؤنس خادم المقتدر ، وكان مولده في ٢٤٧هـ او ٢٤٦هـ ووفاته في ٢٩٦هـ وله عدة تصانيف.

(انظر : وفيات الأعيان : ٧٦/٣ ، ٧٧)

(٣) . وهناك حيلة من حيل الدفاع والتوافق النفسي تُسمى بحيلة التكوين العكسي وهي التعبير عن الدوافع والرغبات المستنكرة سلوكياً في شكل معاكس أو في شكل مضاد مقبول ، وقد صور عمر بن أبي ربيعة بعضاً من ذلك في واقع طريف في قوله:

خَبرّوهَـــا بـــأَنني قـــدْ تَزَوَّجْـــ ـــتُ فَظَلَّـــتْ تُكـــاتِمُ الغَـــيْظَ ســـرّا
ثمّ قالـــتَ لأُختِهـــا ولأُخـــرى جَزَعـــاً ليْتَـــهُ تـــزوَّجَ عَشْـــرا
و أشـــارتْ إلى نِســـاءٍ لـــدَيْها لا تَـــرى دونَهُـــنَّ للسِّـــر سِـــترا
مـــا لقلـــبي كأَنَّـــهُ لـــيس مِـــنِّي و عظـــامي أخـــالُ فـــيهنَّ فَـــتْرا
مـــن حـــديثٍ نمـــى إليَّ فظَيـــع خِلْـــتُ في القلـــبِ مِـــنْ تلَظِّيـــه جَمْـــرا

(انظر : ١- ديوان عمر بن أبي ربيعة: قدّم له وضع هوامش وفهارسة د.فايز محمد ، ص ١٩٢ ، دار الكتاب العربي ، (ب.ط) ، بيروت – لبنان ، ١٤٢٥هـ -٢٠٠٤م .

٢- الصحة النفسية والعلاج النفسي : ص ٤٤، ٤٥)

(٤) . ديوان ابن المعتز : ٤٤٢/١

أما شاعرنا فلم ينكر ألمه من أقاويل الحساد ، ولكنه سرّى عن نفسه بحقيقة يجهلها الحاسد وهي أنّ مذمة المحسود شرفٌ له وفخر ، وهي للحاسد نقصٌ ومذمةٌ ، لأنه ما أقدم على الحسد إلا بعد أن أرهقه ارتقاء المجد ، فتنحى عنه ، يقول[١] :

ومِـــنْ شَـــرَفي أَنْ لايَـــزَالَ يَعِيبُنـــي حسُـودٌ علـى الأَمْـرِ الـذي هُـوَ عَائِـبُ

ولكـنَّ ترّفعـه عـن حسـاده وحطـه مـن شـأنهم ، تسـامى إلى درجـة التعـالي ، و ازدراء النـاس واحتقار منزلتهم ، التي لا تبلغ شأو منزلته مهما جدّوا في ذلك ، يقول[٢]:

رفعتُ على الحُسَّادِ نفسي ، وهلْ هُمُ وما جَمَعُوا لـوِ شـئتُ إلا فَـرائِسُ؟
أُيـدرِكُ مـا أَدْرَكْـتُ إلا ابـنُ هِمَّـةٍ يُمارسُ فـي كسْـبِ العُـلا مـا أُمـارِسُ؟
يَضِـيقُ مَكَـاني عَـنْ سِـوَايَ لأَنَّنـي علـى قِمَّـةِ المجـدِ المؤثَّـلِ جَـالِسُ
سـبقتُ وقَـوْمِي بالمكـارِمِ والعُـلا وإنْ رَغَمـتْ مِـن آخِـرينَ المعَـاطِسُ[٣]

وهذا تحول من مواجهة الحساد وكَشْف أهدافهم إلى إثارة ما تمقته العامة ، وترفض قبوله، لذا تشعبت العداوة إلى حسد وشماتة طال التبرم منها في عتاب الشاعر وشكواه وهو بلاء جره الشاعر على نفسه " بسبب فخره وتعاليه وغلوه في اعتداده بنفسه ، فالناس إن حقدوا على العباقرة فهم أحرى بالحقد على المتحدثين عن أنفسهم والفخر بأعمالهم وأحسابهم ، ولا سيما إذا كان الفخر من مثل أبي فراس"[٤]والسخرية من الحسد ضرب من التعالي على النـاس ، وهـي اسـتهزاء يـدعو للغضـب ويجـر للحقـد وتـربص الشـر ، يقـول في إحـدى قصائده[٥]:

---

(١) . الديوان : ٣١/٢

(٢) . المصدر نفسه " ٢٣٥/٢

(٣) . المعاطس : ج معطس وهو الأنف . (انظر : لسان العرب : (عطس)) .

(٤) . الاتجاه الوجداني في روميات أبي فراس الحمداني ص ٦٥.

(٥) . الديوان : ٣٢٨/٢

مَـــنْ كـــانَ سُـــرَّ بمَـــا عَـــرَا نـــي ، فليمُـــتْ ضُـــرّاً وهَـــزْلا
لـــم أخْـــلُ ، فِيمَـــا نَـــابَني مِـــنْ أنْ أُعَـــزَّ ، وأَنْ أُجَـــلاّ
رُعْـــتُ القلـــوبَ ، مَهَابَـــةً ومَلأْتُهَـــا فَضْـــلاً ونُـــبْلا

مـــا غَـــضَّ مِنّـــي حـــادِثٌ ؛ والقـــرْمُ قَـــرْمٌ ، حيـــثُ حَـــلاّ

وهذه السخرية بالحساد التي غلبت عليها لهجة التحدي تقود إلى تساؤل عظيم وهو: ما مدى حقيقة كثرة حساد الشاعر التي بلغت منه مبلغاً عظيماً جعلته يقول لحاسديه موتوا بغيظكم؟!

يرى البعض[1] أن شدة شعور الشاعر بنفسه ، توحي بأن له حساداً كثيرين ، وهناك من يرجح أنّ بعض الأقوال التي اجتهد الشاعر في الرد عليها في بعض روملياته كانت من نسج خياله[2].

وأرى أنّ النظر إلى هذا الأمر على أنه مبالغ فيه لا يعني بالضرورة نفي وجوده ، كما لا يجب أن يقود نفور النفس من الغرور إلى الجزم بالمبالغة إلا إذا كانت هناك بيّنة واضحة تنفي وجود الحساد ، وأصدق وثيقة تثبت ذلك وتنفيه شعر الشاعر نفسه ، حتى وإن كان هناك من ادعى غير ما وُجد في سيرته . وإن ادعى أبو فراس وجود الحساد وبالغ في كثرتهم ، فبلاط سيف الدولة يصدّق ذلك الادعاء ويزيل الشك باليقين. ومجلسٌ يعج بالتنافس الشديد ، حريٌ بظهور الحساد والشامتين .

ولئن شكا شاعرنا من الحساد ، فلقد ظهرت أمارات الحسد على قصماته حين لمع نجم المتنبي ، وإذا كان الأمر كذلك فالأجدر تصديق الدعوى وإن كثرت الشكوى.

وفي شعر أبي فراس ما يبرز تفشي الغدر في أهل زمانه إلى درجة الخوف من بوائق الصديق، والصديق الذي خان أو نكث وغدر ليس ببعيد عليه أن ينضوي إلى زمرة الحاسدين ؛ لأن تمني زوال النعمة عن الآخرين مجال متفرع الأغصان ، فمن سكت عن

---

(١) . انظر : شاعر بني حمدان : ص ٧٥

(٢) . انظر : أثر الاغتراب في شعر أبي فراس الحمداني مظاهر وسماته الفنية : ص١٧٦

إحقاق حق ليطفىء نوره ؛ فهو حاسد ، ومن اغتاب الشاعر ونال من رأيه ؛ فهو أيضاً حاسد[1] .

و قد سبرت محنة الأسر أغوار المعاناة ، وصدقت ظنون الشاعر ، وزادت شعوره بالخذلان ، لأن مصاب الغائب في النيل منه أعظم من مصاب الحاضر ؛ لذلك أكثر الشاعر من التبرم من أقوال الحاسدين وكان جاهداً في الرد عليهم .

٣-الوحشة من الأقارب:

قال أبو حيان التوحيدي :" قلت لأبي سليمان : لم صار التنافس والتعادي وما أشبههما في ذوي القربى أكثر وأشد ، وهذا كالشيء المتعالم ، وهو غني عن البرهان ، وإعادة القول والبيان ، وليس ذلك كذلك مع الأجانب والأباعد ، فإن كان ، فكالشاذ ، كما أن التصافي والتخالص أيضاً في ذوي الرحم كالشاذ؟

فقال : إن ذوي القرابة والرحم النسب ، يرى كل واحد منهم أنه أولى وأحق بحيازة ما لأبيه وعمه ، وأن غيره في ذاك كالمزاحم والدخيل والمتدليّ ، فتحفزه أعراض كثيرة من الحسد والغيرة والتنافس على أن يكون هو وحده حاوياً لتلك المواريث من المال والجاه والقْدر والمنزلة ، وهذه الأعراض لا تعتري الإنسان في البعيد النسب والبلد واللغة والصناعة والخلق[٢] ".

إذن الحسد والغيرة والتنافس نار تضطرم في صدور الأقارب ، ولا يختص ذلك بزمان أو

---

(١) . وفي ذلك يقول أبو فراس :

ومُضْطَغِنٍ لم يحملْ السِّرَّ قلبُهُ ... تَلَفَّتَ ثُمَّ اغْتَابني ، وهُوَ هَائِبُ

تَرَدَّى رِداءِ الذُّلِّ لَّما لقيتُهُ ... كما تَرَدَّى بالغُبَارِ العَناكِبُ

ومِنْ شَرَفِي أَنْ لايزالَ يَعِيبُني ... حسودٌ على الأَمْرِ الذي هُوَ عَائِبُ

(الديوان : ٣١/٢)

(٢) . الصداقة والصديق : ص١٠٥

مكان وهو أمر مُتعارف عليه ، وقد يتمكن العداء بينهم ويصل إلى إراقة الدماء ، وهذا ما قُدّر لشاعرنا ، فنشأ موتوراً في كنف من وتره ، ومات غدراً بأيديهم ، وما بين نشأته ومماته كان عليه أن يطل دم والده على الرغم منه ، وأن يحتمل أذى تلك القرابة التي أسرفت في العداء وجاوزت قدره .

ولا فرق بين غريب مخذول في غير داره ، وقريب مخذول في عُقر داره ، إلا أن الأول يجد عذراً يلتمسه لأولئك الأباعد ، وأما الآخر فلا يجد عذراً يلتمسه ، بل غدراً يرتقبه ، ولا خير في قرابة لم يبق منها إلا رسمها!!

يقول[1] :

و هَـلْ أنـا مَسْـرورٌ بقُـرْبِ أَقَـارِبِي إذا كَـانَ لـي مـنْهُمْ قُلـوبُ الأَباعِـدِ ؟

كما أوصى الشاعر أقاربه أن يحقنوا الدماء وأن يصلوا الأرحام ، فإن لم يفعلوا ذلك فلا يجاوزوا أمراً ، وإن قلّ نفعهم ، فليكفوا ضرهم ، وشر العداوة عداوة أولي القربى .

يقول[2]:

أيـا قومَنَـا لاتُنْشـبُوا الحـربَ بَيْننـا أَيَـا قَوْمَنـا لا تقْطعُـوا اليـدَ باليـدِ
فياليـتَ دَانِـي الـرَّحْمِ بَيْنِـي وبيـنَكُمْ إذا لـم يُقـرِّب بيْننَـا لـم يُبعِّـدِ
"عـداوةُ ذِي القُربـى أشـدُّ مضَاضَـةً على المرءِ مِنْ وقْعِ الحُسامِ المُهنّد"

وقد طغت خيبة الأمل على الشاعر إلى درجة جعلته يضرب بعقوق أقاربه الأمثال في الحسد والضغينة ، ولم يسعفه وصف في معاناته من خطوب الدهر وقلة الحظ أصدق من وصف حظه من أقاربه ، يقول[3]:

رَمَتْنـي اللَّيَـالي بـالفراقِ حَسَـادَةً وهُـنَّ الليـالي راميـاتٌ صـوائِبُ
وماكُنتُ أَخشَى أَنْ أَرى الدَّهرَ حَاسِدي كـأنَّ لَيَالِيـهِ لـدَيَّ الأَقـارِبُ

---

(١) . الديوان : ٣٤/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٩٨/٢

(٣) . المصدر نفسه : ٣٤/٢

"وفي ظل شعوره بإهمال قومه لشأنه تعمق لديه الإحساس بالظلم والتجاهل حتى انتهى به الأمر إلى الشعور بالإحباط الشديد ، وبالتالي اليأس من الدنيا بجميع مظاهرها وشخوصها واليأس من جدوى العيش بها وتفضيل الموت على الحياة"[1]

وتصل درجات الإحباط من الأهل أقصى درجتها حين جحد الأهل فضله ، وادعوا الجهل به ، وهذا ظلم كبير وخذلان عظيم .

قال معرضاً ذات يوم بسيف الدولة[٢]:

ومـــا هُـــوَ إلاّ أَنْ جَـــرَتْ بفِرَاقِنَـــا يَدُ الدَّهْرِ حتّى قِيلَ : مَنْ هُو حَارِثُ؟

يُـــذَكِّرُنا بُعْـــدُ الفِـــرَاقِ ، عُهُـــودَهُ وتِلـــكَ عهـــودٌ قـــدْ بلـــينَ رثائـــثُ

فكما كان يفخر باسمه الذي كان علماً على المكارم ، كان يجد ألماً عظيماً من تجاهل قومه له ، و ربما كان هذا هو العدل الذي يعنيه[٣]!!

---

(١) . أثر الاغتراب في شعر أبي فراس الحمداني ، مظاهره وسماته الفنية : ص ١٨٨

(٢) . الديوان : ٢/٥٦

(٣) . وذلك في قوله :

سَـــعَادَةُ المِـــرءِ في السَـــرَّاء إنْ رَجَحَـــتْ و العَـــدْلُ أَنْ يتَسَـــاوَى الهَـــمُّ و الجَـــذَلُ

(المصدر نفسه : ٢ / ٢٩٩) .

الفصل الثالث :

الخصائص الفنية لشعر العتاب والشكوى :

المبحث الأول : اللغة والأسلوب.

المبحث الثاني : التجربة الشعرية.

المبحث الثالث : الموسيقى الشعرية.

المبحث الرابع : الصورة الفنية

المبحث الخامس : الشاعر في ميزان النقد

المبحث الأول : اللغة والأسلوب :

" العمل الأدبي هو رسالة موجهة من المنشىء إلى المتلقي تستخدم فيها نفس الشفرة اللغوية المشتركة بينهما ، ويقتضي ذلك أن يكون كلاهما على علم بمجموعة الأنماط والعلاقات الصوتية والصرفية واللغوية والدلالية التي تكون نظام اللغة (أي الشفرة) المشتركة ، وهذا النظام يلبي متطلبات عملية الاتصال بين أفراد الجماعة اللغوية ، وتتشكل علاقات من خلال ممارستهم كافة ألوان النشاط الفردي والاجتماعي في حياتهم[1]".

ويتضح من ذلك ضرورة وجود علاقة بين المنشىء والمتلقي ، في فهم العمل الأدبي ، ويجب أن ترتكز هذه العلاقة على (شفرة) يفهمها الطرفان ، وهذه الشفرة هي القدرة على فهم نظام اللغة ، والوعي بأبعادها " فمادة الشعر مثلاً هي الألفاظ المختارة والتراكيب المنتقاة التي يتخذها الشاعر وسيلة للتعبير عن أفكاره[2]".

وهذه الألفاظ والتراكيب الأسلوبية ، هي أداة الأديب للتعبير عما يختلج في نفسه، يطوعها للإفصاح عما يريده ، وهي وسيلة جذب ناجعة ، تأسر المتلقي بأثرها على النفس ، وقدرتها على تحريك العواطف ، وتأجيج المشاعر.

و قد غدت قضية اللفظ والمعنى كالمقدمة الطللية ، تُستفتح بها الدراسة الفنية ، وهذا بلا شك ناتج عن حرص النقاد القدامى والمحدثين على الوصول إلى حقيقة واحدة تجمعهم؛ فكانوا ما بين مفنّد ومقوّم ، ومقيمّ ، ولايجاوز قولي هذا ، ما قاله إمام البلاغة

---

(١) . الأسلوب دراسة لغوية إحصائية : د. سعد مصلوح ، ص ٣٧ ، عالم الكتب، ط٣ ، القاهرة ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م .

(٢) . دراسات في علم النفس الأدبي : ص ١١٤

عبدالقاهر الجرجاني[1] – رحمه الله – يقول : " إن قيل : " إنه ليس في الدنيا علم قد عرض للناس فيه من فحش الغلط ، ومن قبيح التورط ، ومن الذهاب مع الظنون الفاسدة ما عرض لهم في هذا الشأن" ، ظننت أن لا يخشى على من يقوله الكذب[2]"

وهذا ما علله أبو الفتح عثمان بن جني (٤٢٩هـ) في خصائصه بقوله: "اعلم أنه لما كانت الألفاظ للمعاني أزمة وعليها أدلة وإليها موصولة وعلى المراد منها محصلة ، عنيت العرب بها فأولتها صدراً صالحاً من تثقيفها وإصلاحها[٣]"

وهذا أمر جدير بالبحث والدراسة ، وتعقب هذه الظاهرة من جيل إلى جيل ؛ ولكن الوقوف أمام النظم الذي قام على أنقاض المعاني التي طرحها الجاحظ على الطريق ، بحر لا ساحل له ، وتتبع آراء النقاد القدامى والمحدثين ، في العرض والموازنة ، كالوقوف أمام دوحة عظيمة تفرعت أغصانها وتشابكت ، إلا أن بذرتها واحدة.

وقد تصدى د. أحمد بدوي لهذه الظاهرة ، فأبان بدقة أضاليل الاستقراء الناجم عن تلك القضية ، وهو هذا الوهم الكبير في تقسيم نقاد العرب قسمين : لفظيين أو أنصار اللفظ ، يجعلونه وحده هدف البليغ ، ويدعون البلغاء إلى العناية به وحده ، ويضعون الجاحظ على رأس هذا الفريق ، ومعنويين أو أنصار المعنى ، يجعلون له المكانة الأولى في النص الأدبي ، ويأخذون البلغاء بالغوص عليه ، وتتبعه ، والبحث عنه ؛ ويضعون على رأس هذا الفريق

---

(١) . هو عبد القاهر بن عبدالرحمن أبوبكر الجرجاني ، أخذ النحو بجرجان عن أبي الحسين محمد بن الحسن الفارسي ، كان من كبار أئمة العربية ، له عدة مصنفات ، مثل أسرار البلاغة ، دلائل الإعجاز ، و الإيضاح، والمقتصد في شرح الصغير ، وكتاب تتمة العروض ، والعوامل المادية ، والمفتاح ... وكان شافعي المذهب ، أشعري الأصول مع دين وسكون ، وله شعر جيد ، توفي سنة ٣٧١ أو ٣٧٣هـ .

(انظر: ١- الأعلام : ٤٨/٤-٤٩

٢- الوافي بالوفيات :٣٤/١٩) .

(٢) . دلائل الإعجاز : الشيخ عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، ص ٣٦٩، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة ، ط٣ ، ١٤هـ- ١٩٩٢م.

(٣) . الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : محمد علي النجار ، ٣١٢/١ ، عالم الكتب ، (ب ، ط) ، بيروت، (ب.ت) .

عبد القاهر الجرجاني ، وبعد دراسة آرائهما ، خلص إلى أنّ الإمام عبدالقاهر اعتنى بالصياغة ومثلّ على ذلك في موضعين أحدهما في قوله : " سبيل المعاني سبيل أشكال الحُليِّ كالخاتم والشنف والسِّوار ، فكما أن من شأن هذه الأشكال أن يكون الواحد منها غُفْلاً ساذجاً لم

يعمل صانعه شيئاً أكثر من أن يأتي بما يقع عليه اسم الخاتم إن كان خاتماً ، والشَّنْفِ إن كان شَنْفَا ، و أن يكون مصنوعاً بديعاً قد أغرب صانعه فيه. كذلك سبيل المعاني أن ترى الواحد منها غُفْلاً ساذجاً عامِّياً موجوداً في كلام الناس كلهم ، ثم تراه نفسه ، وقد عمد إليه البصير بشأن البلاغة وإحداث الصور في المعاني ، فيصنع فيه ما يصنع الصَّنَعُ الحاذق ، حتى يُغْرِب في الصنعة ، ويُدِقَّ في العمل ، ويُبدِع في الصيّاغة...[1]"

والموضع الآخر في قول الإمام : " ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة ، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه ، كالفضة والذهب ، يصاغ منهما خاتم أو سوار ، فكما أن محال إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم ، وفي جودة العمل ورداءته ، أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة ، أو الذهب الذي وقع فيه ذلك العمل وتلك الصنعة –كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزّية في الكلام أن تنظر في مُجَرَّد معناه وكما أنّا لو فضَّلنا خاتماً على خاتم ، بأن تكون فِضَّة هذا أجود ، أو فصه أنفس ، لم يكن ذلك تفضيلاً له من حيث هو خاتم ، كذلك ينبغي إذا فضلنا بيتاً على بيت من أجل معناه أن لا يكون تفضيلاً له من حيث هو شعر وكلام ... [2]"

وعبدالقاهر إذن أحد نقاد العرب الذين عني معظمهم بالصياغة اللفظية ، وإذا كان الجاحظ قد ادعى أن المعاني معروفة وملقاة في الطريق ، فذلك لكي يبرز ما للصياغة من أهمية في الأدب ، ولكنه لم يهمل جانب المعنى إهمالاً تاماً، كما قد يبدو من عبارته ؛ فقد

---

(١) . دلائل الإعجاز : ص ٤٢٢ – ٤٢٣

(٢) . المصدر نفسه : ص ٢٥٥

تعرض للمعاني ، فذكر منها الغريب العجيب ، والشريف الكريم ، والبديع المخترع[1] ،و استشهد على ذلك من قول الجاحظ ما يَصُدُّ تهمة لفظيته حين قرّر أن الأدب يؤثر في القلب تأثيره البليغ بمعناه ولفظه معا ، بل جعل للمعنى حقاً على اللفظ ، فمن " حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً ، وتلك الحال له وفقاً ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا مفضولاً ، ولا مقصراً ، ولا مشتركا ، ولا مضمنا[2] "

ولا تعني هذه الوقفة السريعة إغفال آراء ابن قتيبة (٢٧٦هـ) في الشعر والشعراء ، ولا إغفال آراء صاحب الوساطة القاضي الجرجاني (٣٦٦ هـ) ، ولا رأي ابن رشيق الذي جعل اللفظ والمعنى كائناً يتمثل بالروح والجسد ؛ و لأن وقفتي على اللفظ والمعنى لم تبلغ حاجة المتلوم ، والحديث عن ذلك –كما أسلفتُ – خضم عظيم ، وما شدني إليه في هذا المبحث هو اجترار اللغة والأسلوب للعلاقة القائمة بين جسد النص وروحه ، وأن ما يحتوي ذلك كله ، أنّ الألفاظ أوعية المعاني وهي تتبعها في مواقعها ، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس ، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق[٣] .

أبرز السمات اللغوية والأسلوبية في عتاب الشاعر وشكواه:

حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم[٤] ، وهذه الأصوات الصادرة من الكائنات وسيلة ربط بينهم ، وهي وسيلة تعارف قائمة بين المنشئ والمتلقي.

---

(١) . انظر : أسس النقد الأدبي عند العرب: د. أحمد أحمد بدوي ، ص ٣٥٧ ، و ما بعدها ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، (ب .ط) ، القاهرة ، (ب .ت)

(٢) . البيان والتبيين : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ت : د ٠ درويش جويدي ، ١/ ٦٦ ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .

(٣) . انظر : دلائل الإعجاز : ص ٥٢

(٤) . انظر : الخصائص : ٣٣/١

واللغة كالكائن الحي تنمو وتتطور ، و تحمل سمات العصر ، كما أنّ جينات الفرد الوراثية من مكوناته الثقافية ، تظهر في ألفاظه وتراكيبه الأسلوبية[١]

ولغة الشعر هي من أعجب اللغات وأكثرها إثارة في نفوس متذوقي الأدب ؛ لأن الشاعر يعمد إلى نقل أحاسيسه وعواطفه وأفكاره ، بصورة أخاذة ، تأسر القلوب ، والعقول ، فهي " عالم خاص وشخصية متفردة ، أبرز ما تتميز به أنها لا يمكن أن تُلتمس معالمها بين دفتي

المعجم شأن اللغة العادية ، إنها تتأبى على المعجم وتستعصي عليه لأنها أكثر حيوية ، وأغنى إيحاء ، وأوفر مدلولاً من جميع التحديدات والمفاهيم التي يضمها المعجم ؛ لأنها في الأصل فردية في مقابل اللغة العامة التي يستخدمها العلم[٢] ".

وإذا كان للغة الشعر عالمها الخاص الذي تنفرد به ؛ فإنها تنتمي إلى محيطها العام ولا تنعزل عنه ، كما أنها تحقق توازناً معنوياً وأسلوبياً مع أقدار المخاطبين أو المتلقين ، وتكون مرتبتها في مقام الحال الذي تنظم فيه ، فلكل فئة اجتماعية أسلوبها الذي يجب أن تخاطب به ؛ بل إن لكل حالة نفسية أو ظاهرة اجتماعية أو حادثة أُسلوباً يحسن فيها ولا يحسن في غيرها[٣].

ويحتاج العتاب والشكوى إلى مخزون لغوي يتأتى مع الشاعر من خلال تجربته الشعورية التي تدفعه إلى اختيار ألفاظ تطبع ما يتلظى في وجدانه ، وما يستعر في أحشائه ، ولا يعني

---

(١) . انظر : الاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية ؛ د. مسعد بن عيد العطوي ، ص٤١٦ ، مكتبة التوبة ، ط١ ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ١٤١٥هـ ١٩٥٩م.

(٢) . دراسات في النقد الأدبي : د. وليد قصاب ، ص ٥١ ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ط١ ، الرياض المملكة العربية السعودية ، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

(٣) . انظر : شعر الشريف الرضي ومنطلقاته الفكرية : د. عبداللطيف عمران ، ص٢٧٠ ، دار الينابيع ، ط١ ، دمشق ، ٢٠٠٠م .

ذلك أن كل لفظة منها تسعفه ، وتبلغه المقصود ؛ بل قد تندفع حمماً تُفسد الود ، وتشعل العداوة ؛ وتثير البغضاء . وإذا كان الأسلوب هو العبارات اللفظية المنسقة لأداء المعاني[١] ؛ فإن أسلوب أبي فراس في عتابه وشكواه نسيج محكم تألفت فيه ألفاظه ومعانيه، ففي عنايته باختيار كلماته ، وإدخالها في سياق خاص ، إنما يخلق بذلك علائق لغوية جديدة لم نكن نألفها أو نتوقعها ، وهو ينأى بها بعيداً عن حرفيتها الحسية المحدودة[٢].

وقد تنوعت أساليب الشاعر في عتابه وشكواه لتنوع محاورها واختلاف بواعثها، وكان يمزج في القصيدة الواحدة أساليب عدة من استفهام ونداء وتكرار... الخ ، وذلك ناتج لا محالة من رغبته في نقل ما كان يعتلج في نفسه بوضوح ودقة ، وليحرك مشاعر مُخاطبه ويؤثر فيه ، وأكثر ما تكون وسائل الإقناع ناجعة ، إذا كانت بطرق غير مباشرة ، فقد يشترك اثنان في موضوع واحد ؛ ولكن الغلبة لا تكلل إلا من بذل لها أسبابها بحذق وروية.

و لا تحتاج الشكوى من الشدة إلا إلى ألفاظ شديدة لتحمل هودجها ، فمثلاً حين كان الشاعر يُحس بالضيق والهم ، أو يشعر بحرقه لوعة الشوق ؛ كان يلجأ إلى ألفاظ جزلة تناسب تلك الشدة.

ومن أكثر ما يثير الانتباه ، أنّ الشاعر قد اختار لمعاني شعوره بالشدة ألفاظاً تدل على الشدة مثل (الناقة) ، فهي التي تحمل رسوله إلى قومه ، ليبلّغهم ألوكته ، أو ربما امتطاها الشاعر هرباً من الهموم ؛ لذلك لجأ إلى وصف تلك الناقة بأوصاف كثيرة متتالية؛ لتحمل من شدائد نفسه ، وتحورها من وجدانيات نفسه المضطربة إلى واقع محسوس على ظهر تلك الناقة التي تقطع الفيافي والقفار،فالشاعر يريد أن يستنفد جميع المعاني المعجمية التي تبلور حزنه وشدته ، وتُجسد حالة الأسى والضيق التي كانت تُطبق عليه ، فترى

---

(١) . انظر: الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية : د. أحمد الشايب، ص ٤٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ١١ ، القاهرة ، ٢٠٠٠م

(٢) . انظر : أبوفراس الحمداني الموقف والتشكيل الجمالي : ص ٣٩٦

انعكاسات شكواه في أوصاف تلك الناقة التي كان من صفاتها: (موارة) ، (شدنية) ، (مذعان) ، يقول[١] :

ياراكباً يَرْمِي "الشآم" بجَسْرَةٍ ... مَوَّارَةٍ ، شَدَنيَّةٍ ، مِذْعَانِ !

إقرا السَّلامَ ، مِنَ الأسير العَاني ... إقْرا السَّلام على "بني حمدان ! "

إقرا السَّلامَ ، على الذين سُيُوفُهُمْ ... يومَ الوَغَى ، مهجورةُ الأَجفانِ

إقرا السَّلام ، على الذين بُيُوتُهُمْ ... مَأْوَى الكِرَامِ ، ومَنْزِلُ الضِّيفَانِ

فالشاعر أراد نقل أشواقه العظيمة مع رسول يُيمم وجهته إلى الشام ؛ لذلك اشتط في اختيار ذلك الرسول ، فلابد أن تحمل ذلك الرسول ناقة ضخمة عظيمة ، سريعة السير، طوع راكبها ؛ وذلك ليضمن وصول رسالته إلى قومه.

ولكن تكرار صفات الناقة في أكثر من قصيدة يُخرجها إلى أبعاد أخرى ، فالشاعر في الأبيات السابقة ، اضطرمت أشواقه الأسيرة بين جوانحه ، وهو أسيرها وأسيرُ القيود، فدلت هذه الصفات المتتالية على شدة الشوق ، الذي لا تسعه المفردات ، بدليل التكرار المتواصل الذي جاء بعدها في جملة (إقرا السلام من الأسير العاني).

وكذلك الأمر حين أرسل إلى القاضي أبي الحصين عند أسر ابنه أبي الهيثم ؛ فقد اشترط ناقة سريعة ، مأمونة من حوادث السير ، يضمن وصولها ؛ لتبلغ سلامه ، وتحمل عظيم مواساته ، فقال[٢] :

أيا رَاكِباً ، نَحْوَ الجزيرةِ ، جَسْرَةً عُــذَافِرَةً ، إنَّ الحــديثَ شُجُــونُ !

مِنَ الموخَدَاتِ[٣] الضمَّر اللاّءِ وَخْدُهَا كَفِيــلٌ بحَاجَــاتِ الرِّجَــالِ ضَــمِيْنُ

---

(١) . الديوان : ٢/٤١٠

(٢) . الديوان : ٢/٣٩٥-٣٩٦

(٣) . الموخدات : الوَخْد : ضرب من سير الإبل السريع . (لسان لعرب : (وخد)) .

أما همومه ؛ فلا يبددها إلا أمر أعظم منها حتى وإن كان الرحيل والغربة ؛ لأنّ فيها تبديد الهموم والانشغال عنها ، والرحيل يحتاج إلى مركبٍ عظيم له طاقة على حمل مكروب أوهنته الهموم ، وتكالبت عليه الغموم ، فهو ثقيل على نفسه ؛ لذلك أدرك أنَّ ناقة تحمله حرية أن تتمتع بطاقات عظيمة ، شديدة ، وثيقة الخلق ، قد أمنت العثار والإعياء ، وفوق ذلك قوية ظهيرة ، يقول [١]:

وإذا الهُمُــومُ تَكَــاثَرَتْ ، لــم يُغْنِهَــا إلا العُــذَافِرَةُ ، الأَمُــونُ ، الجَلْعَــدُ

ويقول في موطن آخر [٢]:

عَلَيّ لِكُلِّ هَمٍّ ، كـلُّ عِيسٍ عـيـس أَمُـــونُ الرَّحْـــلِ مُوخِـــدَةُ القِفَـــارِ

وهكذا تخير الشاعر ما يتناسب مع شكواه ألفاظاً جزلة قوية منتزعة من الصحراء ، والصحراء تدل على الشدة وقسوة الحياة على أمير مترف له قصور عظيمة ألفها وألفته ؛ ولكنه يُخْرِجُ نفسه من ظلالها إلى رمضاء الصحراء ؛ لتكتوي ألفاظه من رمضائها ، لالتهاب معانيه التي أضرَّت بها الهموم ، و أضْنتها الأشواق .

وقد طغت آلام الشاعر على ألفاظه بصورة جسدَت عمق معاناته وغضبه ، دون أن يفكر في عواقب عتابه ؛ بل أفرغ أحاسيسه في أوعية حديدية ؛ ليصفد ما جمح من أفعال مُعاتَبه ، فلعل إشراك المعاتب في العقاب ما يُسرِّي عن العاتب ؛ فحين وصف الشاعر حالة الضر التي كسته وكست أصفياءه في الأسر ، أراد أن يكبُل ألفاظه ويصفدها من خلف أبواب أوصدها المعَاتب ؛ ولكن تقييده لألفاظه لم يكن في حبسها في الوجدان ! بل في صبغها من واقع تجربته، فقال واصفاً تلك المعاناة [٣] :

أُقلِّـــبُ طَرْفِـــي بـــينَ خِـــلٍّ مُكَبَّـــلٍ وَبـــيْنَ صَـــفِيٍّ بالحَديـــدِ مُصَـــفَّد

---

(١) . الديوان : ٨٨/٢

(٢) . المرجع نفسه : ٢ /٢٢٧

(٣) . المرجع نفسه : ٢ / ٧٨

دَعَوْتُـــكَ ، والأَبـــوَابُ تُـــرتَجُ دُونَنَـــا ، فَكُـــنْ خَيْـــرَ مَـــدْعُوٍّ ، وأَكْـــرَمَ مُنْجِـــدِ

فكم توحي هذه الألفاظ (مكبّل ، مصفّد ، تُرتج) من معاني القهر والحسرة والغضب على المعَاتبِ الذي ارتضى لابن عمه بهذه المنزلة الضَنْكة التي حلّ الشاعر عقالها ؛ لتتراءى لابن عمه من خلف الأبواب الحديدية التي دونها الدروب و البحار...

كما اكتست أحياناً شكواه ألفاظاً تحمل الشدة والرقة ؛ لتحكي عن ضنى الحال الرقيقة التي استطاعت أن تحمل ما لا يحمله الحديد ؛ بل لو كُلّف ذلك ، لانصهر من فحيح الأسى الذي كان يضطرم بين الترائب !

يقول[1] :

ولـو كـانَ قلبـي مِـنْ حَديـدٍ أَذَابَـهُ زَفِيرُ الأَسَى بَيْنَ الحَشَى والتَّرائبِ

فكَيْـفَ بِقَلْـبٍ إنّمـا هُـوَ مُضْـغَةٌ ، ولوْعَتُهُ جُزْءُ الهوى والمَصـائِبِ

فما أرّق هذه الشكوى وما أقساها على نفسه ، فكم بين (حديدٍ ، ومضغةٍ) من شدة بأس وإظهار ضعف ، ولو كان الشاعر يتمتع بقدرات غير عادية ما نفعه ذلك بشيء أمام اللوعة والجوى التي تلتهب في قلب إنما هو مضغة يطيق من أذى صاحبه مالا يطيقه صلب الحديد !

ويبدو أنّ ذكر الأحبة مادة ثرّية لإيجاد الألفاظ العذبة الرقيقة التي تحمل ظمأ الشوق ، وتُرسل أنينه في أعذب قالب ، فحين كان الشاعر يذْكر أحبته ؛ كان يغص بريقه ويشرق بالماء العذب الزلال ، يقول[2]:

أَغَـصُّ بِـذِكْرِهِ ، أَبَـداً ، بِرِيقِـي وَأَشْـرَقُ منْـهُ بالمـاءِ القَـرَاحِ

فعذوبة الشكوى أتت من رقة الشوق والحنين التي حملته على انتقاء ألفاظ رقيقة مثل (القراح) الذي يوحي بالعذوبة والارتواء .

---

(١) . الديوان : ٢/٤٨-٤٩

(٢) . المرجع نفسه : ٢/٦٦

وفي رسائل العتاب التي كان الشاعر يرسلها إلى أبي ورقاء الشيباني ما يحمل رقة العتاب وحيويته ، التي ترسم صورة معنوية لنفسه التي تأنس وتستوحش ، و ترى رقتها في البسمة والدمعة ، يقول[1] :

أَتَـاني مِـنْ "بَنِـي وَرْقَـاءَ" ، قَـوْلٌ أَلَـذُّ جَنـىً مِـنَ المَـاءِ القَـراحِ

وأطيـبُ مِـنْ نَسِـيمِ الـرَّوْضِ حَفَّـتْ بِـهِ اللَّـذَاتُ مِنْ رَوْحٍ وَ رَاحِ

وتَبْكـي فـي نَواحِيـهِ الغـوادِي بِأَدْمُعِهَـا ، وَتَبْسِـمُ عَـنْ أَقَـاحِ

عِتَابُـكَ يـا بْـنَ عَـمِّ بِغَيـرِ جُـرْمٍ أَشَـدُّ عَلـيَّ مِـنْ وَخْـزِ الرِّمـاحِ

فالألفاظ (القراح ، نسيم الروض ، الغوادي ، أدمعها ، أقاح) تنساب منها الرقة ، وتعبق بأريج الود الذي يسبق لذيذ عتابه ، فالشاعر حين تألم من عتاب صاحبه ، وصف أولاً وقع الرسالة على نفسه ، وبردها على كبده واختار لذلك ما يناسبها من ألفاظ ، ثم ثنّى بوصف وقع العتاب على نفسه ، فلو كان شخصاً آخر ؛ ما أحس الشاعر بما أحسَّ به من ابن ورقاء ؛ فعتابه كوخز السهام ، فهذه عبارة قوية ؛ ولكنّ سبر أغوارها والتنقيب في أبعادها ؛ يوضّح رقة الشاعر في اختيارها لما يدل على حساسيته النفسية وفرط تأثره من عتاب لا يشبه أي عتاب ، فمهما بلغت رقة العتاب إلا أن استحقاقه بلا مُسببٍ أثّر بشكل كبير عليه.

ومهما يكن من أمر ؛ فإنّ ألفاظ الشاعر تراوحت بين الجزالة والرقة ؛ خدماً لمعانيه ، حتى وإن جاوز قدره في العتاب والشكوى واشتد في حدتها أو علا صوته فوق صوت مُخَاطبه؛ فإنه ينقل ما في وجدانه دون تصحيف – إن صحّ التعبير – فلا يحول بين اللفظة ومعناها حائل يعْدِلها عن معناها الذي وُجِدَ في نفسه أولاً ، وهذا ما دعا إليه الشيخ عبد القاهر إذ يقول : " لا يُتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه ، ولا أن تتوخى في

---

(١) . الديوان : ٢/٦١-٦٢

الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً ، وأنك تتوخى الترتيب في المعاني وتُعمل الفكر هناك ، فإذا تمّ لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها ، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك ، لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني ، وتابعة لها ، ولاحقة بها ، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس ، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النقط[١] " .

وتنوعت سمات الشاعر اللغوية في عتابه وشكواه من منطلق غاياته التي كان يرمي إليها ، فتراه كان يستخدم صيغ المبالغة التي تدل على الكثرة بأوجز الألفاظ ، ويشتق لتعجبه صيغاً تناسب حالته ، وكان مما قاله في وصف نفسيته المتأزمة من خذلان قومه[٢]:

أَعــــززْ علـــيّ أنْ يُخَـــلَّ بِمَـــوقِفِي وِيُحَـــلّ بـــينَ المســـلمينَ مَكَـــاني

مازلْـــت أكـــلأُ كـــلّ ثَغـــرٍ مُـــوحِشٍ أَبَـــداً ، بمُقلَـــةِ سَـــاهِرٍ يَقْظَـــانِ

ســـلاّك كُـــلّ عَظيمـــةٍ ورَّادِهَـــا ، ضَـــرّابِ هَامَـــاتِ العِـــدا ، طَعّـــانَ

إنْ يَمْنـــعِ الأعـــداءُ حَـــدَّ صَـــوارِمي لا يَمْنـــعِ الأَعـــداءُ حَـــدَّ لِسَـــاني

فصيغة(أعزز) فيها استعظام من الشاعر على تخلّي قومه عنه ، وهو صاحب المواقف ورجل الملمات ، الذي قاد الجيوش وأذكى نار الحروب على أعداء الدولة الحمدانية ، فما انطفأت ناره منذ أن شبَّ ، فيا لقومه الذين تناسوا ما بذله لهم وما شرّفهم به !

وقد خصص الشاعر هنا الروم بالعداء بدليل ما ذكره في الشطر الثاني من كلمة (المسلمين)، فهو بلا شك يذم قومه الذين تخلوا عن الوفاء الذي هو خلق المسلم ، وقد آن أوان الوفاء ؛ فصاغ لذلك الموقف الرهيب تعجباً يثير دهشته أمام قومه من جهة ، وينقل عِظم حسرته من جهة أخرى .

---

(١) . دلائل الإعجاز : ص ٣٧٠

(٢) . الديوان : ٢/٤٠٩

وفي البيت الذي يليه حاول الشاعر أن يُذّكر قومه بما كان منه في أيامه الخوالي ، التي لم يفتر فيها يوماً عن واجبه من رباط أو حراسة ؛ لذلك استخدم الفعل (مازال) الذي يدل على الاستمرار والدوام ، ثم اشتدّ حماسه في ذّلك الوصف ومضى بصورة أسرع فاستخدم لذلك صيغ المبالغة وهي أبنية تُصاغ لتكثير الفعل[١] ؛ فتدل على حدوثه مرة بعد مرة (سلاّك ، ورّاد، ضرّاب ، طعّان) جميعها على وزن (فعّال) وبعضها يؤكد بعضاً ؛ فـ(سلاّك) تدل على وعورة الطرق التي كان يسلكها دون أن تعجزه، و (ورّاد) تدل على اعتياده عليها وكثرة ارتياده لها ، و (ضرّاب) تدل على شدة بأسه وقوة بطشه و(طعّان) تدل على سرعته وتمرسه

، وهذا ما يضيف إلى الموقف الحركة التي تضفي عليه الحيوية ، فهو يقطع الرؤوس ويغمد سيفه في الصدور مرة بعد مرة ، وجدوى عرض هذه البطولات في سياق عتابه وشكواه ؛ تثير في نفسه دفعاً معنوياً ينقله من معاناته إلى مايُشغله عن هول مُصابه في قومه بدليل أنه لجأ في البيت الذي يليه إلى تحدي عدوه بأسلوب الشرط بـ(إن) التي تُستخدم فيما هو مشكوك[٢] ؛ لأن أسره ليس كافياً أن يُمكّنهم من حرية التصرف في أفعاله ؛ فإن استطاعوا أن يمنعوا سيفه . وهو يُشكك في ذلك . فلن يستطيعوا أن يفلوا حد لسانه ، وربما انبعث ذلك من ثقته بنفسه ، التي مكّنته من التشكيك في وقوع الشرط ؛ رفضاً للواقع من منطق بطولته التي لا تقر بالهزيمة أبداً .

ومن السمات التي غلبت على لغة الشاعر وأسلوبه ظاهرة التكرار التي لجأ الشاعر إليها كثيراً على حسب الغاية التي كان يرمي إليها ، فالتكرار باعث نفسي متمثل في إعادة ما وقع في القلب ، ولصق في اللسان ، فاتجهت إليه همة المتكلم وعنايته[٣].

---

(١) . المقتضب : لأبي العباس محمد بن يزيد بن المبرد ، تحقيق : محمد عبدالخالق عضيمة ، ١١٣/٢ ، عالم الكتب ، (ب . ط) ، (ب . ت) .

(٢) . البلاغة فنونها وأفنانها : علم المعاني : د . فضل حسن عباس ، ص ٣٥٢ ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، ط ٧ ، عمان – الأردن ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

(٣) . انظر : التكرار في شعر الخنساء دراسة فنية : د . عبدالرحمن بن عثمان الهليل ، ص ٢٦ ، دار المؤيد ، ط١،١٤١٩هـ. ١٩٩٩م .

وقد وقع التكرار في ألفاظه ومعانيه بظواهر مختلفة ، يطول الحديث عنها ؛ وقد اكتفى بما يُبرز هذه الظاهرة في عتابه وشكواه .

ومن أمثلة تكراره الجمل ، تكراره عبارة (إلى الله أشكو) في عدة مواضع ، منها قوله حينما شكا بعضَ أهل عشيرته الذين قابلوا إحسانه بالإساءة [١] :

إلى اللهِ ، أشْكُو عُصْبَةً مِنْ عَشِيَرتي يُسيئونَ لي في القول غيباً ومَشْهَدَا

وفي قوله أيضاً في شكواه من العشائر التي كانت تشق عصا الطاعة[٢] :

إلــى اللهِ أَشــكُو مَــا أَرَى مِــنْ عَشَــائِرٍ إذا مَــا دَنَوْنَــا زَادَ جَــاهِلُهُمْ بُعْــدَا

وفي شكواه من ضر الأسر والشعور بالمهانة ، قوله[٣]:

إلـــى اللهِ ، أَشَـــكُو أَنَّنَـــا بمَنَـــازِلٍ تَحكَّـــمُ فِـــي آسَـــادِهِنَّ كِـــلاَبُ

وشكا إلى الله لوعة الفراق في قوله[٤]:

إلــى اللهِ أَشْــكُو مِــنْ فِراقِــكَ لَوْعــةً ، طَوَيْتُ لَهَا ، مِنِّي الضُّلُوعَ ، على جَمْرِ

فتكرار الشاعر جملة (إلى الله أشكو) فيها من الإيحاء بإظهار الضعف ، والافتقار إلى لطف الله ما يجعل الشاكي متذللاً في شكواه إلى ربه متلذذاً بذلك ، بعد أن أُوصدت في وجهه الأبواب من ظلم العشيرة ، أو من سفاهة بعض القبائل التي كانت تخضع لحكمهم ، أو من استيائه الشديد من تحكم كلاب الروم بمصيره ، أو من لظى الفراق ، وقد جسّد هذا الفراق عمق المعاناة التي جعلته يضرع إلى الله ويستغيث به وهو طليق بين أهله أو أسير بيد عدوه .

و أشرت في فصول سابقة من البحث إلى تسّلط فكرة خوف الشاعر من الحساد ؛ فإنّ كلمة الحسد وردت كثيراً في ثنايا عتابه وشكواه .

---

(١) . الديوان : ٨٥/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٧٤/٢

(٣) . المصدر نفسه : ٢٣/٢

(٤) . المصدر نفسه : ٢٢٠/٢

و كان مما قاله [١] :

ويقُــولُ فِــيَّ الحاسِــدُونَ تَكَــذُّباً ، ويُقــالُ فــي المحسُــودِ مَــالا يَفْعَــلُ

يَتَطَلَّبُــــون إسَــــاءَتي لا ذمتــــي إنَّ الحسُــــودَ بمــــا يَسُــــوءُ مُوَكَّــــلُ

فتكرار مشتقات الحسد (الحاسدون ، المحسود ، الحسود) إمعان في تغلغل معاناته ، وإغراق في نفوره منهم ، حيث تبرز خشيته المستمرة في تكرار هذه الكلمة التي أبدت تخوفه من أقوالهم وخلقت لديه جواً من الرهبة ؛ فأصبحت كالهذيان الذي يهذي به ، و تراه في موطن آخر يبرز طرفاً آخرمن خشيته من هؤلاء الحساد فهو يخشى نظرتهم إليه؛ لأنّ الرؤية البصرية

تقترن بفعل الحاسد ، ليُتمم عملية حسده ؛ لذلك خرج خوف الشاعر من عين الحاسد من كوكب الأرض، ليصل إلى خوفه من الكواكب ، فربما وجد هناك من يحسده ! يقول[٢] :

رَمَتْنِـي عُيُـونُ النَّـاسِ حَتَّـى أَظُنُّهَـا سَتَحْسُدُنِي ، فِي الحَاسِدِينَ ، الكَواكِبُ

وهكذا كان الشاعر يُكثر من ذكر ما كان يستاء منه وما لا يغيب عن ذهنه مثل هؤلاء الحساد الذين أعطاهم جُلّ اهتمامه ، ولا يقل انشغاله بهم عن انشغالهم به ؛ فهو يُحلل أقوالهم ، ويُخمن ما يمكن أن يحدث ومالا وجود له أصلاً ، وعلى أي حال ؛ فإنّ الشاعر نشأ في بلا ط مليءٌ بالدسائس والمؤامرات ، التي جعلته يستنفد طاقته في التصدي للحساد واستحضارهم في شكواه وعتابه .

وتكرار الأساليب موجود بكثرة في عتاب أبي فراس وشكواه ؛ وذلك لتناسب الغرض مع الظاهرة تناسباً جعله يستنفد ما بوسعه من أساليب تحرك المشاعر ، وتُلهب العواطف ، و تشفي غليل صدره .

---

(١) . الديوان : ٢٩٦/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٣١/٢

فالنداء مثلاً بـ(يا) فيه مد للصوت ؛ لذلك استخدمها حين علت حسرته وفاضت بها عبرته حين غضب على سيف الدولة حينما أقفل أم الأسير خائبة ، ولم يُجب سؤلها ؛ فقاده ذلك إلى أن يصرخ بأعلى صوته ؛ لينـدب حاله التي طفح الكيل بها ، وأضحت قيودها معنوية قيدت روحه وأوهنت نفسه ؛ فأراد أن يرسل أنيناً ممتداً بقدر كبريائه بصيغة نداء واحدة .

يقول[١]:

"يَـا مَـنْ رَأَى لـي ، بِحِصْـنِ "خَرْشَـنَةٍ" أُسْـدَ شـرى ، فـي القُيُـودِ أَرْجُلَهَـا!"

"يَـا مَـنْ رَأَى لـي الـدُّرُوبَ ، شَـامِخَةً دُونَ لِقَـاءِ الحبِيـبِ أَطْوَلُهَـا"

"يـا مَـنْ رَأَى لـي القُيُـودَ ، مُوثَقَـةً ، عَلَـى حَبيـبِ الفُـؤَادِ أَثْقَلُهـا"

فتكرار (يا من) ثلاث مرات فيه دلالة على شدة الضيق التي كانت تعتلج في نفسه وتطغى على ألفاظه المكتوية بزفراته الحرى .

وفي مقطع آخر من القصيدة أراد أن يستنكر على سيف الدولة الدعة والرفاهية التي ينعم بها ؛ لذلك لم يُسعفه إلا أُسلوب النداء بـ (يا) التي تلاها اسم الفاعل ؛ ليمد صوته غابطاً ذلك النعيم و الترف .

يقول[٢]:

يـا وَاسِـعَ الـدَّارِ ؛كيـفَ تُوسـعُهَا ؟ ونَحْـنُ فـي صَـخْرةٍ نُزلزلُهَـا !

يـا نـاَعِمَ الثَّـوْبِ ! كيـفَ تُبْدَلُـهُ ؟ ثِيابُنَـا الصُّـوفُ مـا نُبَـدِّلُهَا !

يـا رَاكِـبَ الخيـلِ ! لـو بَصُـرْتَ بِنـا ، نَحْمِـلُ أَقْيَادَنَـا ، ونَنْـقُلُهَا !

فكم بين سعة الدور و رغد العيش من مسكن و مركب ، و بين ضيق السجون و ضنك العيش و قهر الذلة من مفارقات ، أججت الشكوى و أذكت العتاب بطريقة ربما أراد منها الشاعرتحريك ما سكن من الأحاسيس و إلهاب ما خبا من المشاعر؟!

---

(١) . الديوان : ٣٣١/٢

(٢) . المصدر نفسه :٣٣٣/٢

ومن الجدير بالذكر أنّ الشاعر زاوج بين الخبر والإنشاء في العتاب والشكوى ؛ ولكلٍ منهما مقامه الذي يقتضيه ؛ فالخبر هو ما احتمل الصدق والكذب لذاته[١] ، وطبيعة موضوع العتاب والشكوى تحتاج إلى كثير من الأساليب الخبرية التي ترمي إلى إظهار الضعف ، والاسترحام والاستعطاف ، والتعريض ، والتوبيخ ، والشماتة إلى غيرها من أغراض كمنت في أساليبه في إطار أهدافه .

وقد لجأ الشاعر إلى الأساليب الخبرية في كثير من عتابه و شكواه على حسب ما كان الشاعر يراه مناسباً للمقام الذي يقتضيه ، ففي إحدى قصائده يقول[٢] :

زَمَـانِي كُلُّـهُ غَضَـبٌ وعَتْـبُ وأَنْتَ عليَّ والأيَّـام إلبُ

وعَـــيْشُ العـــالمينَ لـــديْكَ سَـــهْلٌ وعَيْشِـــي وَحْـــدَهُ بفنـــاكَ صَـــعْبُ

وأَنتَ . وأَنْتَ دَافِعُ كُلِّ خَطْبٍ . مَـــعَ الخَطْـــبِ المُلـــمِّ عَلَـــيّ خَطْـــبُ

بدأ الشاعر بالجملة الاسمية التي تدل على الثبوت ، وعمّم الحكم على حياته بأجمعها أنها حياة غم ونكد دون استثناء أي مرحلة من مراحل حياته ؛ فكلها تلفظ الغضب والعتب ، وإنّ كان هذا كل ما يُمثّل حياته ؛ فإنّ هناك شطراً آخر خارجا عن نطاق الشطر الأول ، وهو تداول سيف الدولة مع الأيام ضد الشاعر ، فقد كان عوناً لها عليه ؛ لذلك بدأ الشاعر هجوماً عنيفاً دون أدنى مقدمة .

ومن الجدير بالذكر أنَّ " حُسن الافتتاح داعية الإنشراح ومطية النجاح[٣] " ، و قد " قيل لبعض الحذّاق بصناعة الشعر : لقد طار اسمك واشتهر ، فقال لأني أقللت الحز وطبّقت

---

(١) . انظر : البلاغة العربية فنونها وأفنانها ، ص١٠٣

(٢) . الديوان : ٢٨/٢

(٣) . العمدة : ١/ ١٩٥

المفصل وأصبت مقاتل الكلام وقرطست الأغراض بحسن الفواتح والخواتم ولُطف الخروج إلى المدح والهجاء[١] ".

وأبو فراس حمله غضبه على أنْ يُغير بهجمة عنيفة على سيف الدولة ، دون أن (يُقرطس) له أدنى حيلة ؛ بل أفرغ ما في نفسه من غضب ، و صبّ العتاب صباً على سيف الدولة بأساليب خبرية متتالية أحلاها مُرّ ، فحين اعترض في البيت الثالث بالجملة الاعتراضية (وأنت دافع كل خطب) ؛ زاد من وقود العتاب و أنب سيف الدولة الذي لم يدفع عنه خطب الأسر ؛ بل كان بمعية الخطوب على الشاعر ، وكادت القصيدة أن تنفجر من غضب الشاعر ، الذي لم يزل يبعث من حممها شيئاً فشيئاً إلى درجة أن المتلقي يكاد يشيح بوجهه ؛ اتقاءً لتلك الحمم التي أذكى الغضب فتيلها .

وقد أظهرت القصيدة بواطن نفس أبي فراس من عتب شديد تُديره الجملة الخبرية بسخرية من أميره ومحاسبة عنيفة تكشف عمق المعاناة . وفي مناسبة ذكر السخرية في الأساليب الخبرية ؛ فإنّ الشاعر قد لجأ إليها أيضاً في صورة طريفة يسخر فيها من تجربة مريرة عن طريق الجمل الفعلية التي تُسارع في نقل الأحداث ، وذلك حين خصص الروم يوم السبت لتزاور الأسرى ؛ فقال في ذلك[٢]:

جَعَلُوا الاتقَاءَ فِي كُلِّ سَبْتٍ فجعلناهُ للزِّيارةِ عِيدَا

و شَرِكْنَا اليهُودَ فِيه فَكِدْنَا رغبةً فيه أَنْ نَعُودَ يَهُودَا

يَرْقُبُونَ"المسيحَ"فيهِ ومَانَرْ قُبُ إلا أخاً وخلاً ودوداً

لَوْ قَدَرْنَا . وعَلَّ ذاكَ قَرِيبٌ . ما عَدِمْنَا بالقُرْبِ عِيداً جَدِيداً

فالشاعر أراد نقل معاناة مسلم رضي بالذل ، وأطرق له ، فلعل إطراقه يُحرك همم قومه ويستنهض روحهم الدينية ، فهل تُرضيهم تلك الدرجة التي أقام عليها إخوانهم

---

(١) . العمدة : ١ / ١٩

(٢) . الديوان : ٢/٩٥

أو أبناؤهم؟!

ولكن الشاعر جاوز في هذا الأمر ؛ إذ لا ينبغي على المسلم أنْ يصل هوانه إلى درجة يُقارن نفسه فيها باليهود وخصوصاً في البيت الثاني ؛ بل يصبر ويحتسب ، وما احترز به من الفعل (كدنا) خفّف عنه بعض اللوم ، فهو لم يُرد إلا السخرية من حالهم التي كانت تستصرخ الحمية الإسلامية ، وتوقدها في صدور قومه .

ونالت الجمل الإنشائية حظاً وافراً في عتاب الشاعر وشكواه ؛ وذلك لما تحمله من معان خفية تحتاج إلى إعمال الفكر ، والعتاب والشكوى تحتاج بطبعهما إلى مثل هذه الأمور ؛ للتنويع من جهة ، وللوصول إلى الغايات بطرق خفية من جهة أخرى .

ومن هذه الأساليب الاستفهام .

يقول [1]:

أ َوَلَـمْ يَكُـنْ لَـكَ مِـنْ دُمُـوعِي وَازِعٌ ؛ لَمَّـــا غَـــدَوْتَ عَلَـــى البُكَـــاءِ تُفَنِّـــدُ

أَوَ مَـــا عَلِمْـــتَ بـــأنَّ صَـــبْرِي عَزَّنِـــي لَمَّـــا جَفَـــانِي النَّاعِمـــاتُ ،النُّهّـــدُ؟

أَ فَهَـلْ عَلَـى فَـيْضِ المـدامِعِ مُنجِـدٌ ؟ أمْ هَـلْ عَلَـى بُعْـدِ الأَحَبَّـةِ مُسْـعِدُ ؟

فتوالي الاستفهامات في البيت الأول والثاني يُثير التساؤل عن شأن هذا العاذل الذي يرى الشاعر

عياناً ، ويُدرك حالته النفسية ، ثمُ يلومه على البكاء ، إنه أمر يثير العجب ويدعو للاستنكار ، فالموقف لم يكن طوع الشاعر ، ولوكان طوعه ؛ ما أُفلت منه زمام الصبر وغدا الموقف رهن مدامعه .

أما البيت الثالث ، ففيه استفهام يستبعد جميع مظان الجواب ، ويُكذب وجود ما يُطفىء لهيب ذلك الجو الحزين .

و سخر الشاعر بطريق الاستفهام من نفسه و تهكم بها ؛ لأنها لم ترتدع من تجاربها مع

---

(١) . الديوان : ٨٨/٢

أهل زمانها ، فقال [1]:

لِمَنْ أُعاتبُ ؟ مَالي ؟ أَينَ يُذهبُ بِي ؟ قَـدْ صَـرَّحَ الـدَّهْرُ لـي بـالمَنْعِ واليَـاسِ

أَبْغِـــي الوَفَـــاءَ بـــدَهْرٍ لا وَفَـــاءَ لَـــهُ كَـــأَنَّي جَاهِـــلٌ بالـــدَّهْرِ والنَّـــاسِ !

كرر الشاعر العتاب على نفسه بصيغ مختلفة مستنكراً على نفسه ، فكأنه وقع في غيبوبة حين تجاهل ما كان يعرفه من أمر الناس ، وأفاق على ألمها الذي زاد من شدة تقريعه لنفسه ، فهو لن يغتفر لنفسه ذلك التفريط .

واستخدم الشاعر أسلوب النداء ، و هو أحد الأساليب الإنشائية التي استخدمها في عتابه وشكواه ، وقد مرّ ذلك في أُسلوب التكرار ، و لجأ إليه في سياق عتابه الجريء ، حين نادى مُعاتبه خالعاً عليه صفة الظلم ، فقال[٢]:

أيــا ظَالِمــاً أمســى يُعاتــبُ مُنصــفا ! أَتُلزمُنــي ذنــبَ المُســيء تَعجْرفــا؟

بــدأتَ بتنميــقِ العتابِ،مخافــةَ الــ ـعتابِ ، وذِكرِي بالجفَا ، خشيةَ الجفا!

فلام مُعاتبه الذي بادر الشاعر بعتاب كاذب ؛ زوراً وجوراً ؛ و ترصد له هذا العتاب بصيغة النداء ؛ ليصد عن نفسه هذه الدعوى .

وهكذا كانت لغة الشاعر وأساليبه في العتاب والشكوى ، وهي بشكل عام سلسة ، تتراوح بين الجزالة والرقة ، ويُلحظ فيها أثر من تأثره ببيئته ، وتأثره بالتربية التي نشأ فيها، ويُلحظ ذلك في اقتباسه في كثير من أشعاره بآيات القران الكريم ، والسنة النبوية ، وإشارته إلى كثير من القصص التاريخي الذي يدل على ثقافته الغزيرة ، وقد ضمّن أشعاره كثيراً من أشعار السابقين ، و تصدى كثير من الباحثين لهذا الموضوع ، ووقفوا على سرقاته من المتنبي .

---

(١) . الديوان : ٢/٢٣٤

(٢) . المصدر السابق : ٢/٢٥٧

المبحث الثاني : التجربة الشعرية :

لا يرتبط الفن بالراحة وما يقرب منها ، لا من حيث التذوق ولا من حيث الإبداع[١] ؛ وذلك لأن الفن نتيجة معاناة قدحت زناد المشاعر وأذكت فتيل العواطف ؛ ولبثت في فؤاد صاحبها ، فتعايش معها بحسه وعقله ووجدانه ، وأعطاها جُلّ وقته واهتمامه ؛ ليُفكر في الطريقة التي يُخرجها من حيز الخفاء إلى حيز الظهور .

وإذا كانت درجة الانفعال تختلف من شخص إلى آخر ؛ فإنها تختلف من فن إلى آخر ، وهي " في الشعر أعلى منها في سائر الفنون الأدبية "[٢] ؛ وذلك لما للشعر من عذوبة تأسر العقول وتأخذ بالألباب في معانيه ، وإيقاعاته ، وموسيقاه الداخلية والخارجية ، ولأن " الإيقاع ووفرة التصورات الخيالية يساعدان الألفاظ على استنفاد الانفعال بطريقة شبه عضلية وحسية"[٣] .

و الشاعر إنسان مُرهف الحس ، مصقول الطبع ، بارع في النقل ، يُجيد تشكيل الأشياء ويمتلك القدرة على إعادة صياغة الموقف، ولا يتم له ذلك إلا بعد معاناة في تشكيل صورة تعكس تجربته ؛ إذن فالتجربة الشعرية هي الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التي يصورها الشاعر حين يُفكر في أمر من الأمور تفكيراً ينم عن عميق شعوره وإحساسه ، ويرجع الشاعر فيها إلى اقتناع ذاتي و إخلاص فني ، لا إلى مجرد مهارته في صياغة القول ليعبث بالحقائق أو يُجاري شعور الآخرين لينال رضاهم ، بل إنه ليغذي شاعريته بجميع الأفكار النبيلة ، ودواعي الإيثار التي تنبعث عن الدوافع المقدسة ، وأصول المروءة النبيلة، وتشف

---

(١) . انظر : الأسس النفسية للإبداع الفني ص ٤٧

(٢) . النقد الأدبي أُصوله و مناهجه : سيد قطب ، ص ١٣ ، دار العربية للطباعة والنشر، ط٤ ، ١٩٦٦م .

(٣) . المصدر نفسه : ص ٤٥

عن جمال الطبيعة والنفس [١].

إذن لا بد للشاعر المؤثر أن يصل إلى غاية القناعة ؛ لتكون مكونات التجربة واضحة لديه ، و تصبح لديه الجرأة الكافية التي تجعله يُقْدم دون أدنى تردد . أما الإخلاص الفني فهو ذلك التضامن الذي تتلاحم فيه كل عناصر التجربة الشعرية ؛ ليكون القالب الطبيعي لمعانيه وأحاسيسه ومشاعره ، دون أن يُفسد عليها روعتها ؛ بل يجعلها تنساب في رونق عباراته وجرس ألفاظه ، متخيرة لنفسها الموسيقى التي تخدمها ، دون أن تُثقل عليها .

ومن ذلك يُدرك أن للتجربة الشعرية عناصر ، لابد أن تنطوي عليها ، وهي:

. الموضوع أو المثير : وهو الشيء أو المعنى الذي يُريد الشاعر أن ينظم فيه .
. عمق الانفعال وصدقه : وهو أن يذوب الشاعر بموضوعه ، ويحترق في أتونه ، وأن يستغرق فيه بحسه وعقله ، و لا يقوم صدق الانفعال على الموافقة للحقائق المتعارف عليها ، أوهو ليس صدقاَ فلسفياً ، ولكنه صدق الشاعر في انفعاله الذاتي ووجوده .
. العقل والفكر : وهو أن يقف الشاعر أمام موضوعه بعقله ووجدانه معاً ، ويستعين به حين يتأمل ضروب المشاعر التي تنساب فيضاً اختيارياً .
. الأداء المعبر الموحي : وهو التعبير أو التنفيس بصيغة أداء خليقة بأن تجلو عاطفته ، وتعبر عنها أفضل تعبير[٢].

فإذا تضافرت عناصر التجربة الشعرية ؛ تشكلت واتضحت ملامحها ، ويرجع هذا الأمر إلى حذق الشاعر في اختيار ما ينقل تلك التجربة ؛ لأن التجارب يعيشها الساذج والفطن، وكلاهما يتأثربها و منها ؛ ولكن القدرة على التفاعل معها سمة فارقة ، وعلامة بارزة ، فـ"كل فكرة جنين بلا قسمات حتى تُصاغ الكلمات"[٣]، والأزمة التي تُحيط بالشاعر

---

(١) . انظر : النقد الأدبي الحديث : محمد غنيمي هلال : ص ٣٦٣ ، نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع ، (ب . ط) ، ٢٠٠٤م .

(٢) . انظر : العاطفة و الإبداع الشعري دراسة في التراث النقدي عند العرب إلى نهاية القرن الرابع الهجري : د . عيسى علي العاكوب ، ص ٢٣ ، و مابعدها ، دار الفكر ، ط١ ، دمشق _ سورية ، ١٤٢٣هـ _ ٢٠٠٢م .

(٣) . النقد العربي القديم (٢) قضايا نظرية و دراسات تطبيقية : د . أحمد علي دهمان ، ص ١٠٧ ، مديرية الكتب و المطبوعات الجامعية .

قبل صياغة الكلمات حالة مخاض عسيرة ، يظل صاحبها مضطرباً في الكيفية التي ينقل بها الصورة ؛ لأنها " خلق وإيجاد لحدث شعري وجداني "[١]، ولابد للشاعر أثناء ذلك أن يضغط على نفسه وعقله حتى يستخرج منهما الأحاسيس والأفكار الحبيسة ، ولابد أن يُعاني فيها من حين تخلقها في قلبه إلى حين اكتمالها ، يعاني في معانيها ، وفي لغتها ، وفي إيقاعها ، دافعها الأول انفعال مبهم يأخذ في التخلق والتولد عن طريق استثارة الأفكار والعواطف إلى أن ينقلها في كلمات موسيقية لها دلالات مختلفة[٢] .

ولذلك كان لابد من توافر عناصر التجربة الشعرية ، لأن الشاعر يُقيم بُنيانه على أسسها، فإن قام الشعرعلى تلك الأركان الراسخة القويمة ؛ فإنه بنيان لا يُخشى عليه من الانقضاض ، وإن قام على أعمدة هزيلة مضطربة لم تتمكن في نفسه ، ولم تتضح معالمها ؛ فمصيره قبل مصير صاحبه .

ومن الجدير بالذكر أن العاطفة ربة العمل الأدبي ؛ لأنها تُمثل كيانه ، وهي نبضه الذي يُدير روحاً كاملة بكل ما تحوي ؛ فإن سكن النبض ؛ بقي العمل جسداً لاروح فيه، و"عاطفة الشاعر أو انفعاله العميق بموضوعه يُلقي بظلاله الواضحة على سائر العناصر الأخرى للتجربة ويصبغها بلونه" [٣].

و تُعتبر إثارة الشاعر للعاطفة أمر رئيس لا غنى للشعر عنه ، بل لاغنى للعمل الأدبي بكافة أنواعه عنها ، وإذا لم تُثر العواطف في العمل الأدبي "صعب أن نسميه أدباً ، بل ربما كان علماً"[٤] .

و تُؤجج طبيعة العتاب والشكوى العواطف ، وتُثري التجربة باكتمال عناصرها التي لا

---

(١) . في النقد الأدبي : شوقي ضيف ، ص ١٤٣ ، دار المعارف ، ط٨ ، القاهرة ، (ب . ت) .

(٢) . انظر : المصدر نفسه : ص ١٤٣

(٣) . العاطفة و الإبداع الشعري : ص ٢٧

(٤) . النقد الأدبي : أحمد أمين ، ص ٢٥ ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٣ ، القاهرة ، ١٩٦٣.

يغلب عليها التكلف في الغالب الأعم ؛ لأنها تنبثق من وجدان محض ، والعاطفة في أغلب مظانها تكون حزينة أو جازعة أو خائفة أو جريئة إيجابية ، أي أنها لن تكون فاترة على أغلب أحوالها ، فإن رُزقت شاعراً حساساً مُرهف الحس ، شفاف الوجدان ؛ فإنها ستمنح القصيدة دفئاً من نبضها ، ليبث الحياة في الأبيات ، ويجعلها ناطقة مُبينة ، تُفصح عن حاجتها ، وتجذب المتلقي .

وأبو فراس شاعر بادرته الخطوب منذ سنيه الأولى إلى آخر يوم ودّع حياته فيه ، وقد تشكلت انطباعاته على شعره ، فنقل آلامه وآماله ، وصوّر ذلك الشقاء الذي كان يلتهب في نفسه من قومه ، و من أبناء عمومته ، و من الخطوب ، و من أسقام النفس و الجسد ، و من جميع ما يحس البشر به ؛ فهذه محور تجربته الشعورية التي عاشها لحظة بلحظة ، وتشكلت بين يديه طيعة ، تُلبي نداء ما كان يعتلج في صدره ، وتنقل بحذر أثر تلك التجربة وأبعادها ، وماذا تعني له وماذا تعني لغيره ، دون أن يُولي الشعر جُلّ اهتمامه على حسب زعمه ؛ لأنه يقول [1] :

وصِـــنَاعتي ضَـــرْبُ السُـــيُوفِ وإنَّـــي مُتَعَرِّضٌ في الشّعْرِ بالشُّعرَاءِ

ومهما يكن من صحة هذا القول أو تفنيده ؛ فإنه ينقل موقفه من الشعر ، الذي لا يقف حائلاً دون التعبير عما يختبئ في وجدانه ؛ بل يراه وسيلة تُفضي إلى الإفصاح عما في النفس ، و كان يطالب صحبه بمُحبرات فصاح ، لعل شيئاً منها يُعتبه أو يُشكيه وهذا ما سبق ذكره في الرسائل التي كانت بينه وبين أصحابه .

وإذا كانت التجربة الشعرية تتطلب جهداً ومشقة للتعبير بأدق الصور التي تنقل ما في الوجدان ؛ فإنّ العتاب والشكوى يُوحي من أول وهلة إلى ذلك الضنى الذي يلتهب في النفس ، و ذلك الهم وعدم الاستقرار والراحة وقلة الحيلة ، التي تُفضي إلى اغتنام فرصة سانحة ، لتُحلق كيف شاءت ، ومتى شاءت ، ومن عاش التجربة وأنشدها بآهاته ، ــــــــ

(١) . الديوان : ٢ / ٩

ووشاها بدمعه ، قادر على أن يُخلّدها لتحكي عن تجربة لا يمحوها الزمان ، أثبت صاحبها أنها ليست تجربة عابرة ، وبمعنى آخر أنّ طبيعة غرض العتاب والشكوى تُسهم بقدركبير في نجاح التجربة الشعرية ؛ فإن أخفق الشاعر في إتمام بعض العناصر ؛ فإن طبيعة الغرض تنهض بقدر لا بأس به في إذكاء النص بالانفعالات والعواطف التي تُصاحب الشاكي ، أو العاتب .

وقد اختلف بعض النقاد في قدرة التجربة الشعرية على النجاح في حالة تعدد موضوعاتها ، لأنهم يرون أنّ التركيز في موضوع واحد أفضل من طرق عدة موضوعات ؛ فينبغي أن تكون القصيدة " ذات مضمون واضح لا تعدوه ، فإن هي اشتملت على مضامين وموضوعات متعددة لم تكن تجربة كاملة ، فقد عاقت التجربة تجارب أخرى وعاق الموضوع الواحد موضوعات تجاوره وتزحمه "[1]، وشأن ذلك شأن ما يزدحم في حياتنا من موضوعات وتجارب ، تظل ناقصة ؛ لأنها لم تأخذ الزمن الكامل للتخلق ، وخير ما يُصور ذلك القصيدة العربية القديمة المؤلفة من موضوعات متباينة مثل الغزل و وصف الطبيعة والمديح والحكم، فإن موضوعاً منها لم يستوعبه الشاعر تأملاً وتفكراً[2] .

ومن الملاحظ أن العتاب والشكوى في ديوان أبي فراس اتخذا قصائد ومقطعات مستقلة بنفسها ، واتخذا أيضاً صورة تقليدية للقصيدة العربية القديمة(متعددة الأغراض) ، و من معطيات ذلك النظام أنّ القصيدة كانت تكسر تموجات التجربة الشعرية والشعورية عند الشاعر المبدع ، لتحطمها على صخرة النظام الصارم ، أو تُذيبها كلياً، لتصبح جزءاً ذائباً، أو ضائعاً في سلك ذلك النظام ، فلا يبقى منها سوى شكلها الباهت الأجوف ، بعد موت التجربة[3]

---

(١) . في النقد الأدبي : ص ١٤٠

(٢) . انظر : المصدر نفسه : ص ١٤٠ ــ ١٤١

(٣) . انظر : أبوفراس الحمداني فتوة رومنسية : خليل شرف الدين ، ص ١٩٧ ، منشورات دار و مكتبة الهلال ، (ب . ط) ، بيروت ، ١٩٩٦م .

و لكن العتاب والشكوى تأخذ في الغالبية الطابع الحزين ، فإذا نظم الشاعر على نمط القصيدة العربية القديمة ؛ فإنّ بكاءه على الأطلال يتناسب مع غرضه ، والخوض في هذا الحديث يقود إلى آراء النقاد المتباينة حول مطلع القصائد ، ومُقدماتها ، و اختلاف مناهجهم في تلك الدراسات ، وقد ركزّ القدامى على المخاطب ، معللين مطلع القصيدة بأنه تهيئةً لذهن المخاطب واستثارة له ، " فالشاعر الذي يمدح يكون هدفه الواضح كسب رضا الممدوح وما يترتب على هذا الرضا ، فالمطلع داخل في هذا الإطار، بمعنى أن الشاعر

إنما يهدف به إلى فتح شهية الممدوح لسماع القصيدة والانفعال بها ، وكذلك إذا كان الموضوع فخراً ، فإن الشاعر في وجهة نظر هذا الاتجاه إنما يقصد بالمطلع ، وبطريقة صياغته إياه إلى تهيئة نفوس السامعين إلى الانفعال بمعاني القصيدة ، وكذلك سائر الأغراض لا يقصد بالمطلع فيها في رأي هذا الاتجاه التعبير عن ذاتية الشاعر ، أو عن نفسيته، وإنما يقصد بالمطلع التأثير في نفسية السامع"[1].

وعلى هذا فإنّ الهدف من هذا الاتجاه نفسية السامع ، دون الاهتمام بنفسية الشاعر ، ومدى ارتباط مقدمته بغرضه ، ولم يسْلم المحدثون من هذه النظرة "لأن الغالبية العظمى منها تدور في فلك النظرة القديمة للمطلع والمقدمة"[2]

وبدأت الدراسة في التطور مع ظهور الاتجاه النفسي الذي حاول أن يُوجد صلة بين النص الأدبي و نفسية الأديب ، في ضوء معطيات علم النفس الحديثة ، ولم تخلُ" دراسة مطلع القصيدة العربية من حيرة لدى النقاد والباحثين في فهمه من حيث ارتباطه بالمناسبة ، وبموضوع القصيدة ، فإننا حين نعرض مطلع أي قصيدة على نفسية الشاعر إذا أتيح لنا معرفة نفسيته من خلال حياته وأحداثها – سنجد أن المطلع ليس إلا صدى لنفسية الشاعر وانفعاله"[3].

---

(١) . مطلع القصيدة العربية و دلالته النفسية : د. عبد الحليم حفني ، ص ٥١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (ب . ط) ، (ب . ت) .

(٢) . المصدر نفسه : ص ٥٢

(٣) . المصدر نفسه : ص ٥٦

ومهما يكن من أمر فإنّ تحليل النصوص ومحاولة ربطها بالحدث وبنفسية الشاعر ، والظروف المحيطة به خير حكم يفصل بالحق ، فأبو فراس مثلاً وفيٌّ شهمٌ ، يُحب الوفاء ويُرغّب فيه ، وقد جسد حبه ذلك على أرض الواقع من خلال قوله وفعله ، وخير ما يُمثل ذلك ، موقفه حين كتب إلى سيف الدولة من الأسر في بلد الروم يُعرّفه بخروج الدمستق إلى أرض الشام ، فالموقف يُمثّل واجباً دينياً وطنياً ، وفّى الشاعر فيه إلى من وصفهم سابقاً بالغدر ، وقد بدأ قصيدته بمطلع باك حزين ، ومن العجيب أن أجد بعض التعليلات النفسية في ثنايا القصيدة

أدلى الشاعر بها ؛ ليُفسر بعض الظواهر النفسية التي كانت تعتريه ، فقد وضّح حقائقها خالصة من شوائب النقد الخاطئ ، وسأقف وقفة تبين بعض تلك الجوانب التي تبرز فيها ملامح التجربة الشعرية ، التي ربما أثبت فيها ما يُجافي رأي النقاد في القصيدة المتعددة الأغراض ، يقول في مقدمة القصيدة[1] :

أَ تَعُـزُّ أَنـتَ علـى رُسُـومِ مَغَـانٍ ... فَـأُقِيمَ للعبـراتِ سُـوقَ هَـوَانِ

فَـرْضٌ علـيَّ ، لكِـلِّ دارٍ وَقْفَـةٌ ... تَقْضِـي حُقُـوقَ الـدَّارِ والأَجْفَـانِ

لـولا تَـذَكُّرُ مَـنْ هَويْـتُ بـ"حَاجِرٍ"[2] ... لم أَبْكِ فِيهِ مَواقِـدَ النِّيرَانِ

ولقَـدْ أَراهُ ، قُبَيْـلَ طَارِقَـةِ النَّـوَى ، ... مَـأْوَى الحِسَـانِ ، ومَنْـزِلَ الضِّـيفَانِ

ومَكَـانَ كُـلِّ مُهنِّـدٍ ، ومَجَـرَّ كُـ ... ـلِّ مُثَقَّـفٍ ، ومَجَـالَ كُـلِّ حِصَـانِ

ولقَـدْ وَقَفْـتُ فَسَـرَّنِي مـا سَـاءَني ... فيـهِ ، و أَضْـحَكَنِي الَّـذِي أَبْكَـانِي

و رَأَيْـتُ فـي عَرَصَـاتِهِ مَجْمُوعَـةً ... أُسُـدَ الشَّـرَى ، و رَبائِـبَ الغِـزْلانِ

فهذا مطلع باك حزين ، سيطر عليه موقف البكاء والدموع ، ليُمثل قمة الوفاء الذي يُقدّمه لتلك الديار التي خوت على عروشها ، وأقفرت من أهلها ، إنها ذكرى تشتعل ناراً .

---

(١) . الديوان : ٢ / ٤٠٧

(٢) . حاجر : موضع في ديار بني تميم . (معجم ما استعجم من أسماء البلاد و المواضع : ٢ / ٤١٦) .

وكم في عبارة (مواقد النيران) من معان تخيرتها نفسه من جملة الماديات من حوله لتبكي عليها ، وبالخداع العين حين ترى النار العظيمة ذات اللهب الكثيف ، فتظن أنها لن تراها بغير هذه الصورة ، ولا تحسب أن تراه إلا ساطعاً ، إنها حقيقة تشبه حقيقة البشر...

ومـا المـرءُ إلاَّ كالشِّـهابِ وضَـوئِهِ ... يحـورُ رَمَـاداً بَعْـدَ إذ هـو سَـاطعُ[1]

ولكن دوام الحال من المحال ، فلم يعد يطرق تلك المنازل نازل ، ولم يعُد يربط بين الحاضر والماضي إلا حديث الذكريات ، و كم فتح حديث الذكريات من أبواب لم تُرتج !!

إنها تفتح صفحات الماضي الجميل من أُنس الضيوف التي كانت تعمر المنازل ، ومن كناس الحسان ، والأهم عند الشاعر أنها كانت تحوي كل بهجته من الدنيا (المهند ، المثقّف ، الحصان) فهذه الأمور كفيلة أن تفتح أقفال القصيدة وتربط المقدمة بما يليها من أفكار ، فإن كانت هذه الأمور لا تخدم ؛ فإنها لا تُشتت – على رأي من قال إنّ تعدد الأغراض في القصيدة ، يُشتت التركيز في المعاني الأخرى– فكأن فناء تلك الصورة مرتبط بحاضر الشاعر الشقي الذي يُلهبه وقود ذكريات ماضيه في الشام ، حقاً كم تختلط مفارقات الحياة مع بعضها ، وتتشابه بصورة معقدة بحجم تعقد النفس .

وكم بين البكاء والضحك ، والشقاء والسرور من تشابه ، حين تقف في نفس الموقف ، وما أشبه قول أبي فراس [٢]:

ولقد وقفت فسرني ما ساءني فيه ، وأضحكني الذي أبكاني

بقول ابن المعتز[٣]:

لمّا وقَفتُ على الأطلال أَبكاني ما كانَ أضْحَكَني مِنها وأَبكَاني

---

(١) . ديوان لبيد بن ربيعة : شرح الطوسي ، قدم له و وضع هوامشه و فهارسه : د . حنا نصر الحتي ، ص ١١١، دار الكتاب العربي ، ط٢ ، بيروت ، ١٤١٧هـ _ ١٩٩٦م .

(٢) . الديوان : ٢ / ٤٠٧

(٣) . ديوان ابن المعتز : ١ / ١٠٩

ربما كانت طبيعة التشابه بينهما ترجع إلى تشابه ضحك الأمراء ، وبُكائهم ! أما (أُسد الشرى) التي وردت في مقدمته ، فهي في أغلب الظن التي وردت في قوله في الشكوى من الأسر [١]:

"يا مَنْ رَأَى لي ، بحِصْنِ "خَرْشَنَةٍ" أُسْدَ شَرًى ، في القُيُودِ أَرْجُلُهَا!

وما الفارق بين الصورتين إلا أنّ الصورة الأولى فنت مع الأيام دون أن يُكبل القيد أرجلها، والأخرى كانت تتجسد في واقعه المرير .

وقال في الجزء الثاني من مقدمة القصيدة [٢]:

يـا وَاقِفَـانِ ، مَعِـي ، عَلَـى الـدَّارِ اطْلُبَـا غَيْـــرِي لَهَـــا ، إِنْ كُنْتُمَـــا تَقِفَـــانِ !

مَنَـعَ الوقُـوفَ ، عَلَـى المنـازِلِ ، طَـارِقٌ أَمـــرَ الـــدُّمُوعَ بمُقْلَتِـــي ونَهَـــاني

فَلَـهُ ، إذَا وَنَـتِ المـدَامِعُ أَوْ هَمَـتْ ، عِصْـيانُ دَمْعِـي ، فيــه ، أَوْ عِصْـيَانِي

إنّـــا ليَجْمَعُنـــا البُكَـــاءُ ، وكُلُّنَـــا يَبْكِـي علـى شَـجَنٍ مِـنَ الأَشْـجَانِ

ولقـدْ جَعَلْـتُ الحُـبَّ سِـتْرَ مَـدَامِعي ولغَيْـــرِه عَيْنَـــايَ تَـــنْهَمِلانِ

أبكـــي الأحبَّـــةَ بـــ"الشآمِ"و بَيْنَنَـــا قُلَلُ"الدُّرُوبِ"وشَـــاطِئَا "جَيْحَـــانِ"

وتُحـــبُّ نَفْسِـــي العَاشِـــقِينَ لأَنَّهُـــمْ مِثلِـــي علـــى كَنَـــفٍ مِـــنَ الأَحْـــزَانِ

فَضَـلَتْ لَـديَّ مَـدامِعٌ فبَكَيْـتُ للـ ـــبَاكِي بِهَـــا ، و وَلِهْـــتُ للوَلْهَـــانِ

إنها أبيات بكّاءة يقطر مدادها من دموع الشاعر ، فلم يكد يخلو بيت منها من دموع الشاعر التي كانت نتيجة حتمية للجزء الأول من مقدمة القصيدة ؛ ولكنه يُفصح هنا عن حقيقة هذه الدموع ، ليُطلع القارئ على مُكاشفة صريحة انبثقت من أعماق نفسه ، ولو

---

(١) . الديوان : ٢ / ٣٣١

(٢) . المصدر نفسه : ٢ / ٤٠٧ – ٤٠٨

شهد عصره معطيات علم النفس الحديثة ؛ لأوجد مُصطلحاً يُعلل به تلك النوبة العظيمة من البكاء الذي فضلت لديه نوافل منه ؛ ولكنه عبّر عن السبب بشكل طبيعي دون تكلف قول ، أو تعسف لفظ ، إنه يُجاري صاحبيه في البكاء مجاراة للحال ، وليس بالضرورة أن تتوحد الأسباب ، وإن تشابه ظاهرها ، فهو لا يبكي هياماً على حبيب ؛ بل يبكي على

أحبته في الشام الذين وفّى لهم ، كما وفّى للديار التي كان وقوفه فيها فرضاً عليه؛ وكلاهما لا جدوى من الوفاء له، فالطلل ساكن لم ينبس بشفة ، والأحبة في الشام ارتضوا ببعد الشُقة بينهم وبينه .

إذن فليكن العشق بطانة يستر فيها سبب بكائه ، وهذا ما حمله على أن يُبرم حبل الوداد مع العاشقين ؛ فكلاهما في كنف من الأحزان .

وهكذا مهّد الشاعر للغرض الرئيس من القصيدة دون أن يعزل مقدمتها عن غرضها الذي كان يرمي إليه ، فقد ركّز في اختيار ما يُناسب القصيدة بشكل غير صريح ؛ ولكنه ممتع يدعو المتلقي لإعمال ذهنه ، عن طريق بعض المكاشفات تارة عن طريق التصريح ، وتارة عن طريق التلميح .

ويبدو أنّ نوبة البكاء التي اعترت الشاعر أوقدت جذوة في نفسه ، وحملته على الرفق بتلك النفس التي اشتد عليها صاحبها ، في تزامن تكالب أهل الزمان عليها ، فقال[1] :

مَـالي جَزِعْـتُ مِـنَ الخُطُـوبِ وإِنَّمَـا أَخَـذَ المُهـيمنُ بعـضَ مـا أَعْطَـانِي

ولقَـدْ سَـرَرْتُ كَمَـا غَمَمْـتُ عَشَـائِري زَمَنـاً ، و هنَّـاني الـذي عَزَّانِـي

فبالرغم من أنه كان يحمل نفسه على الرفق ، إلا أنّ حرارة التجربة الشعرية قد طغت على الموقف ، فاختار ألفاظاً قوية مثل (جزعت ، الخطوب) فإن كان المقام مقام رفق ، فهو يحتاج إلى ألفاظ رقيقة لتأسو جراح نفسه المكلومة ؛ ولكنّ شخصاً عظيماً مثل أبي

---

(١) . الديوان : ٢ / ٤٠٨

فراس لايخور ولا يضعف ، يحتاج إلى ألفاظ تُجلجل الموقف من ناحية ، و تطبع عمق أساه من ناحية أُخرى .

ثم انهال بعد ذلك بطوفان من ذكريات الماضي ، أقحمه في حاضره الشقي ، وأوجد صلة قوية بينهما ، فمن مُفارقات الحياة أن يجد الشاعر نفسه أسيراً ، في موطن كان لم يعرفه إلا مُغيراً غازياً ، فقال[1]:

وأُسِرتُ في مَجْرى خُيُولِي غَازِياً ، وحُبِسْتُ فِيما أَشْعَلَتْ نِيرَانِي

ثم مضى بعدها في الاستغراق في تذكر الماضي ، وفي تذكير سيف الدولة بمواقف عظيمة أمضاها في كنفه غازياً ، وقائدا ، ومُرابطاً ، إلى أن وقع في ذلك القضاء المرير الذي لا يدفعه بأس أو قوة .

ومضى في عتابه على سيف الدولة وقومه، وتقريعهم باللوم على ما فرطوا في حقه ، وهو حصنهم القويم ، ودرعهم المتين ؛ ولكن حظّ الشعر من أبناء زمانه ، حظ من يقع في العثرة تلو العثرة ... ثم علت نبراته وأطل بزاوية أخرى دفعته أن يقول[2]:

إِنّي أَغَارُ على مَكَانِيَ أَنْ أَرَى فِيهِ رِجَالاً لا تَسُدُّ مَكَانِي

أَوْ أَنْ تَكُونَ وَقِيعَةٌ أَوْ غَارَةٌ مَالِي بِهَا أَثَرٌ مَعَ الفِتْيَانِ

فإنْ لم يفتقده قومه ؛ فإنه يفتقد مكانته ويغار على مكانه الذي أقفر منذ قضاء الأسر ، فهذه الزاوية ثُنائية الأبعاد لأنها تقدح في قُدرات قومه وتحط من شأن بطولتهم ، فمن يجسر على قدرات الشاعر البطولية التي أُوتيها موهبة ؟!

ولم يصل الشاعر إلى تحفيز قومه للتصدي للدمستق ودحر خطره عنهم إلى بعد أن أفرغ ما بنفسه من عتاب مقرون بالتقريع ، وشكوى تظهر الضعف وقلة الحيلة إلى هذه الشكوى التي تأزمت فيها نفسيته إلى أبعد الحدود ، فعبّر عن ذلك في سلامه الذي أرسله مع رسول يغذ السير على ناقة تقطع تلك الصحاري المضنية ؛ ليبلغ قومه السلام ، وقد مرّ ذلك في

---

(١) . الديوان : ٢ / ٤٠٨

(٢) . المصدر نفسه : ٢/ ٤١٠

المبحث السابق ، حين كرر الشاعر قول (إقرا السلام) ثلاث مرات ، يقول[1]:

يَا رَاكِباً يَرْمِي "الشَّآمَ"بِجَسْرَةٍ مَوَّارَةٍ ، شَدَنِيَّةٍ ، مِذْعَانِ !

إقْــرا السَّــلامَ ، مِــنَ الأَسِــيرِ العَــانِي إقْــرَا السَّــلام عَلَــى "بَنِــي حَمْــدَانِ !"

وقد وقف كثير من الباحثين على هذه الأبيات ، كشاهد على تسهيل الشاعر للهمز في (إقرا) ، و اتضحت من خلال هذه الدراسة أبعاد أخرى ، ترتكز على عتاب الشاعر وشكواه ، ومن ذلك تتبع نفسية الشاعر التي ظهرت عليها أمارات الوهن في القصيدة ، فالشاعر مُجهد ، مُثقل بالهموم والآلام ، وينوء بحمل أدنى مجهود ، و كأن المتلقي يُدرك مع الشاعر ذلك الإعياء الشديد الذي حمله على تسهيل الهمز، و الهمز يحتاج إلى جهد عند نطقه ، فهو صوت حنجري انفجاري ، يتم "عن طريق غلق فتحة المزمار، ثم فتحها فتحاً فجائياً [٢]" ، وهذا بدوره يحتاج إلى جهد عسير على يائس ، يرى مهلكه ماثلا أمامه ، فإن لم تُسعفه الألفاظ في مثل هذا الموقف لنقل تجربته ، فما جدواها إذا لم تعكس بدقة صورة النفس من حزن وجهد ويأس ؟!

و قد بذل الشاعر جهداً مضنياً في الأبيات السابقة ، لا يُلحظ هذا الجهد في تعسف الألفاظ والمعاني ؛ بل يُلحظ في انصهاره في التجربة الشعرية التي كانت مرآة مجلوة تعكس الظاهر والباطن ، فلما وصل الشاعر إلى المقام الذي أراد أن يتنفس فيه ، ويبلغ قومه السلام ؛ بدت آثار الموقف تظهر على لغته ، فالهمزة تحتاج إلى جهد عند النطق ، والحلق مختنق بعبرات وغصص تكاد تنفجر ، ومن العجيب أنّ الهمزة من مجموعة الأصوات الرأسية التي تُعد " من أصعب الأصوات في مجال الفحص . وحين فُحصت بأفلام أشعة إكس لم تكن النتائج كاشفة كما كان متوقعا لأن الأفلام لم تظهر حركات عضلات الحلق وإنما أظهرت فقط الجدار الخلفي للحلق [٣]" .

---

(١) . الديوان : ٢/٤١٠

(٢) . دراسة الصوت اللغوي : د. أحمد مختار عمر ، ص ٣١٩ ، عالم الكتب ، (ب . ط) ، القاهرة ، ١٤٢٥هـ. ٢٠٠٤م .

(٣) . المصدر نفسه : ص ٣١٩

وكأن في اختيار الشاعر كلمة (العاني) ما دعّم ذلك التسهيل و دل على أن حالة الضعف قد استحوذت على الموقف ، فهي وصف موغل في الضعف وقلة الحيلة ، وهذا ما يناقض طبع الشاعر ، وهو الذي قال[1]:

و مَا الأَسْرُ مِمَّا ضِقْتُ ذَرْعَاً بحَمْلِهِ ؛ و مَا الخَطْبُ مِمَّا أَنْ أَقَولَ لَهُ : قَدِ

ولكن المقام هنا طمس على كل كبرياء كان يدعيه ، وهذا دليل قاطع على صدق تجربته الشعرية ، التي تلاحمت أجزاؤها ، وتآزر بعضها مع بعض ، ولما بلغ الشاعر غايته في إظهار الضعف ؛ شرع يوثب قومه إلى الاستعداد ، والتنبه إلى الخطر الذي كان يحدق بهم، فقال[2]:

هَذِي الجُيوشُ ، تَجِيشُ نَحْوَ بِلادِكُمْ مَحْفُوفَةً بالكُفْرِ والصُّلْبَانِ

البَغْيُ أَكْثَرُ ما تُقِلُّ خُيُولُهُمْ والبَغْيُ شَرُّ مُصَاحِبِ الإِنْسَانِ

ليسُوا يَنُونَ ، فَلا تَنُوا في أَمْرِكُمْ لا يَنْهَضُ الوَانِي لغَيْرِ الوَانِي

وشرع يُلهب حماسهم ويحملهم على الوثوب ، ويُقوّي عزمهم بذكر أحداث تاريخية تُحمسهم لمواجهة ذلك الخطر الذي حذّرهم منه ، وفاءً وحرصاً عليهم ، حتى وإن افتقد ذلك منهم ؛ ولكنه في الواقع قد شفى غليله من التصريح والتلميح بغدرهم الذي قابله بوفاء .

ومن الجدير بالذكر أنّ جُلّ أبيات القصيدة كانت عتاباً وشكوى ، حتى ماكان منه في مقدمة القصيدة ، كان يُمثّل دلالات نفسية مترابطة ، فسّر بعضها بعضاً .

وهكذا كانت التجربة الشعرية في القصيدة ، كانت تُمثّل القصيدة العربية القديمة ، استطاع الشاعر من خلالها أن يُرتب المعاني في نفسه ترتيباً منطقياً،وأن يُلاحم بين الأبيات

---

(١) . الديوان : ٢/٧٨

(٢) . المصدر نفسه : ٢/٤١١

من خلال مؤازرة المعاني لانفعالاته ، واستيفاء عناصر التجربة الشعرية ، التي استطاع أن يذوب فيها ، لشدة تفاعله مع الموضوع عقلاً ووجداناً ، دون أن يُلجم معانيه بمداراة تحبس عواطفه ، أو فتور يدس الأحاسيس في رمس النص .

المبحث الثالث : الموسيقى الشعرية :

" كان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأنجاد ، وسمحائها الأجواد،لتهز أنفسها إلى الكرم ، وتدل أبنائها على حسن الشيم ؛ فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً ؛ لأنهم شعروا به ، أي فطنوا ." [1]

و هكذا يفضل الشعر الكلام المنثور بحسه الموسيقي الذي ينبعث من جودة الإيقاع ، وحسن تخير الوزن والقافية ؛ ليخدم المعاني بصورة أشد وقعاً في النفس من النثر .

و هناك مقارنة طريفة عقدها ابن رشيق بين الكلام المنظوم و الدر المنظوم ؛ ليتسنى من خلالها معرفة فضل النظم على النثر ، فقال "كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة . ألا ترى أن الدر– وهو أخو اللفظ ونسيبه ، وإليه يقاس ، وبه يشبه –إذا كان منثوراً لم يؤمن عليه ، ولم ينتفع به في الباب الذي له كسب ، ومن أجله انتخب، وإن كان أعلى قدراً وأغلى ثمناً ؟! فإذا نظم كان أصون له من الابتذال ، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال ، وكذلك اللفظ إذا كان منثوراً تبدد في الأسماع ، وتدحرج عن الطباع ، ولم تستقر منه إلا المفرطة في اللفظ وإن كانت أجمله، والواحدة من الألف ، وعسى أن لا تكون أفضله ، فإن كانت هي اليتيمة المعروفة ، والفريدة الموصوفة ، فكم في سقط الشعر من أمثالها ونظائرها لا يعبأ به ولا ينظر إليه . فإذا أخذه سلك الوزن وعقد القافية تألفت أشتاته ، وازدوجت فرائده وبناته ، واتخذه اللابس جمالاً ..." [2]

---

(١) . العمدة في محاسن الشعر ونقده : ١/ ١٢

(٢) . المصدر نفسه : ١/١٢

ولما كان البيت مصدر الجاذبية في القصيدة ، ووحدة بنائها ؛ فإنّ تتبع مصدر تلك الجاذبية ينبع من أسرار البيت الشعري ، فهو يمثل " الوحدة الموسيقية القائمة بذاتها والتي تتكرر في القصيدة فلا يكون لطول القصيدة أوقصرها أي دلالة موسيقية سوى من الناحية الكمية ، أي كمية تكرار هذه الوحدة " [١] .

و قد يجتمع للمعنى شاعران ، عاشا تجربة واحدة ، وأجادا في نقلها بحذافيرها ؛ ولكن أحدهما غلب صاحبه في قدرته على جذب المتلقي بطريقة تجعل المتلقي قارئاً أو سامعاً يطرب مع القصيدة و يتفاعل معها ، إذ لا يُمكن أنّ يكون مصدر جذب المتلقي حرارة التجربة وحدها ، بل ما انبعث منها من إيقاع و موسيقى .

ويقال إن الأعشى سُمي صناجة العرب لقوة طبعه وحلية شعره ، حتى يُخيل لك إذا أنشدته أن آخر يُنشد معك ، ومثله من المولدين بشار بن برد تنشد أقصر شعره عروضاً وألينه كلاماً فتجد له في نفسك هزة وجلبة من قوة الطبع [٢]

ومبعث هذا التفاعل الكبير مع النص ، التجربة الشعرية الصادقة ، التي انسابت عذبة في كلام رصين ، يزينه تلك الإيقاعات البديعة التي تتضافر فيها عوامل داخلية في بنية البيت، وعوامل خارجية ، وبالأدق ما يُسمى بالموسيقى الخارجية ، والموسيقى الداخلية .

فالموسيقى الخارجية : يحكمها الوزن والقافية ، و الوزن : هو " مجموع التفعيلات التي يتألف منها البيت " [٣] أي أنه يقوم على عدة تفعيلات ، وهذه التفعيلات هي " وحدة قياس نظام الإيقاع ، وهي مكونة من مقطع عروضي واحد أو أكثر "[٤] .

أما القافية ، فهي ما لزم الشاعر تكراره في آخر كل بيت ، وسميت القافية قافية ؛ لأنها

---

(١) . التفسير النفسي للأدب : ص ٦٩

(٢) . انظر : العمدة : ١١٨/١

(٣) . النقد الأدبي الحديث : ص ٤٣٦

(٤) . أنظمة ايقاعات الشعر العربي : د . محمد مصلح الثمالي ، ص ١١ ، جامعة أم القرى ، ط١، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .

تقفو أثر كل بيت [١] ، ويرجع الفضل في تأسيس هذا العلم إلى الفراهيدي [٢].

والمثل الأعلى للوزن عند النقاد ، أن يكون معنى البيت تاماً مُستوفى ، لم يضطر الشاعر بسبب الوزن إلى نقصه أو الزيادة فيه أو قلبه ، وأن يأتي المعنى في عبارة ذات ترتيب لم يضطره الوزن إلى تأخير ما يجب تقديمه أو تقديم ما يجب تأخيره ، وأن تكون الأسماء والأفعال تامة مستقيمة كما بُنيت ، لم يدفع الوزن إلى تغييرها بالزيادة عليها أو النقص منها [٣].

والشاعر الحق هو الذي تهديه سليقته إلى الوزن دون تكلفه ، ولكن لا يمنعه هذا من الإحاطة بأوزان الشعر ، ومعرفة بحوره المختلفة .

و ترجع جودة القافية إلى تمكنها في مكانها من البيت ، بمعنى أن تكون طيعة غير مغتصبة ولا مستكرهة ، لتكمل هذا المعنى ، وهي لذلك مرتبطة بما قبلها ارتباطاً وثيقاً[٤].
و تتصل القافية بالإيقاع الموسيقي اتصالاً وثيقاً ؛ لأنها الفاصلة الموسيقية التي تنتهي عندها موجة النغم في البيت ، وينتهي عندها سيل الإيقاع ، وتمثل ختام السيل النغمي ، مثلها

---

(١) . انظر : العمدة : ١/١٣٦-١٣٧

(٢) . هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي ، كان رجلاً صالحاً عاقلاً حليماً وقوراً ، وكان إمام علم النحو ، وهو الذي استنبط علم العروض وأخرجه إلى الوجود ، وقيل إنه دعا بمكة أن يُرزق علماً لم يسبقه أحد إليه ولا يُؤخذ إلا منه ، فرجع من حجه ففُتح عليه بعلم العروض ، وأقام في البصرة لا يقدر على فلسين وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال ، توفي بالبصرة سنة خمس وسبعين ومائة ، وقيل غير ذلك ، وقيل إن سبب وفاته أنه قال أُريد أن أُقرب نوعاً من الحساب تمضي به الجارية إلى البياع فلا يُمكنه ظلمها ، ودخل المسجد وهو يعمل فكره في ذلك ، فصدمته سارية وهو غافل عنها بفكره ، فانقلب على ظهره ، وكان سبب موته ، من مؤلفاته : (كتاب العين ، العروض ، الشواهد ، النقط والإشكال ، النغم ، وكتاب في العوامل) . (انظر : وفيات الأعيان : ٢ / ٢٤٤ومابعدها) .

(٣) . انظر : أسس النقد الأدبي عند العرب : ص ٣٣٨ ، ٣٤١

(٤) . انظر : المصدر نفسه : ص ٣٤٦

مثل الموجة التي تصل إلى ذروتها وتنحسر لتعود من جديد [١].

ولا يوجد قاعدة تربط حروف القوافي بموضوع الشعر ، وما أوجد من صلات ، فهو من باب التغليب في مثل قولهم إن القاف تجود في الحرب والشدة ، والدال في الفخر والحماسة، واللام والميم في الوصف والخبر ، والباء والراء في الغزل والنسيب ، فهو قول إجمالي لا يصح من باب الإطلاق [٢]

و يشبه هذا الأمر ما أثير حول علاقة بعض البحور ببعض الأغراض ، فقد ربط بعض الباحثين بين موضوع القصيدة والبحر الذي تُنظم فيه ، وهذا أمر لم يثبت في الشعر العربي القديم ؛ لأن الشعراء قديماً لم يتخذوا بحوراً معينة لأغراض معينة ، فكانوا يمدحون، ويفاخرون ، ويتغازلون في كل البحور ، وتكاد تتفق المعلقات في موضوعها وقد نُظمت من الطويل والبسيط والسريع والخفيف ، والأمر بعد ذلك للشاعر، فقد يقع على البحر ذي التفاعيل الكثيرة في حالات الحزن لاتساع مقاطعه وكلماته وأنّاته وشكواه محباً كان أو راثياً [٣].

أما الموسيقى الداخلية ، فهي سر عبقرية الشعراء والأدباء ، وهي السحر الذي ينشأ حين تتجاوز الكلمات على نحو مخصوص ، وهي الإيقاع الذي يتبع المعنى أو الشعور فيلقي بظلاله عليه [٤] .

كما أنّ جرس الألفاظ مصدر مهم من مصادر الموسيقى الداخلية ، ويعتمد على براعة الشاعر في اختياره للألفاظ وتراكيبها التي تُعبر عن المعنى بحس موسيقي خفي ، " وأهم ما

---

(١) . انظر : نقد الشعر في القرن الرابع الهجري : د٠ قاسم مومني ، ص ٢٠٥ ، دار الإصلاح للطباعة والنشر ، (ب ٠ ط) ، الدمام ، (ب ٠ ت)

(٢) . انظر : النقد الأدبي الحديث : ص ٤٤٣

(٣) . انظر : المصدر نفسه : ص ٤٤١

(٤) . انظر : موسوعة موسيقى الشعر العربي عبر العصور والفنون : د٠ عبد العزيز نبوي ، ١٢٩٣/٢-١٢٤٩ ، دار اقرأ للنشر والتوزيع ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م .

يميز الصيغة الشعرية أنها صوتية ، فالشاعر لا ينطق شعره فحسب ، وإنما يحاول أن ينغمه، ينغم ألفاظه وعباراته حتى ينقل سامعيه وقارئيه من اللغة العادية التي يتحدثون بها في حياتهم اليومية إلى لغة موسيقية ترفعهم من عالمهم الحسي إلى عالمه الشعري[1] .

ولا يقل شأن الموسيقى الداخلية عن شأن الموسيقى الخارجية ، فكلاهما يتطلب الحذق والمهارة إلى جانب السليقة ، يقول د. شوقي ضيف: " ولا نقصد الموسيقى الظاهرة وحدها : موسيقى الأوزان والعروض والقوافي ، وإنما نقصد أيضاً الموسيقى الخفية التي تفرق بين بيت وبيت في قصيدتين من وزن واحد وقافية واحدة ، وهي أدق من الموسيقى الأولى ، وإذا فقدت في الشعر لم يُسَمَّ شعراً ، وإنما يسمى كلاماً عروضياً موزوناً ، أي أنه يشبه الشعر في وزنه وقافيته ولكنه لا يتحد معه في موسيقاه الداخلية الفنية [2] .

وهناك أمور لها دور فاعل في تلوين الصياغة الشعرية مثل المتحركات والسواكن ، وحروف المد ، فمثلاً العلاقة بين المتحركات والسواكن تؤثر على الموسيقى ، حيث يتأثر لذلك التتابع الزمني ، أما حروف المد ، فلها أثر في الجو النفسي بما تُشيعه هذه الحروف من جو حزين ممتد في أعماق النفس ، فمثلاً بيت امرئ القيس :

مِكَـــرٍّ مِفَـــرٍّ مُقْبِـــلٍ مُـــدْبِرٍ معـــاً كجلمـوُدِ صَـخْرٍ حَطَّـهُ السـيلُ مـنْ عَـلِ

فهذا البيت من معلقته الشهيرة يشيرُ إلى الشدة والفتوة .

وقال أيضاً في المعلقة نفسها :

أفـــاطِمَ مهـــلاً بَعْـــضَ هـــذا التَّـــدَلُّلِ وَإن كنـتِ قـد أزمعـتِ صَـرْمي فـأجملي

أغَـــرَّكَ منـــي أنّ حُبَـــكِ قـــاتِلي وأنّـــكِ مهمـــا تـــأمري القلـــبَ يفْعَـــلِ

فهذان البيتان فيهما إشعار بالضعف واللين والاستكانة ، برغم أنهما من قصيدة واحدة، ومن بحر واحد هو بحر الطويل ، وقد ساعد على هذا الاختلاف بين الموضوعين ، خلو

---

(١) . في النقد الأدبي : ص ١١٣

(٢) . المصدر نفسه : ص ١١٣-١١٤

الموضع الأول من حروف المد ، وكثرة حروف المد في الموضع الآخر[1] .

وهذا ما يضيف إلى الجو النفسي ذلك الشعور الذي ينتاب المتلقي ، ويُشعره أنّ هناك قوى خفية غير الوزن والقافية أوحت له بذلك الشعور ، وهذه القوى هي ذلك الحس الموسيقي الذي ينساب من داخل البيت من دقة تخير الألفاظ والعبارات ، ذات الجرس الذي يُوائم المقام ، ويُفصح عن نفسيه الشاعر ، ويُعبر عن رضاه وسخطه ، وقلقه وارتياحه ، و شدته ولينه ، كما هو مُلاحظ في الشاهدين السابقين ، فالشاعر عاش تجربتين مُختلفتين ، استطاعت ألفاظه أن تحتوي معانيه ، وتخلص إلى التعبير في أوجز طريقة تستطيع أن تخالج الحس ، وتصل إلى مرامها .

ولكنّ هذا " ليس بقاعدة شاملة فقد تكون حروف المد أحياناً عامل شدة وقوة وفتوة ، من مثل قول عمرو بن كلثوم :

و أيَـــامٍ لنـــا غُـــرٍّ طِـــوَالٍ عصَـــيْنَا المَلْـــكَ فيهـــا أنْ نَـــدينَا

فما سر هذه القوة التي دفعت بها حروف المد في هذا الموضع ؟

هنا يجب ألا نغفل طريقة نطق حروف المد في موضع الفخر والحماسة ، حيث يفتح الفم أكثر منه في موضع الحزن والانكسار " [2]

إذن فحروف المد ليست دليلاً مُطلقاً على اللين والضعف ، بل فيها أيضاً ما يُوحي بالشدة والغلظة ، ولكن يبدو أنها تدل على اللين من باب التغليب ، كما أن بعض البحور . من باب التغليب . تدل على بعض الأغراض الشعرية .

وكذلك ، فإنّ للمحسنات البديعية دور كبير في الإيقاع الموسيقي ، من جناس وطباق ومقابلة وسجع ... ولكنّها تنفع وتضر ، فإذا أسرف الشاعر في استخدامها ؛ فإنها بلا شك ستجعل البيت مُضطرباً ، مُثقلاً ؛ بل قد تذهب بجمال المعنى ، وتميت روح النص .

---

(١) . انظر : ١ــ موسوعة موسيقى الشعر العربي عبر العصور والفنون : ١٢٩٥/٢ ــ ١٢٩٦

٢ ــ ديوان امرئ القيس : ص ٢٤ ، ٣٢

(٢) . موسوعة موسيقى الشعر العربي عبر العصور والفنون : ١٢٩٦/٢، ديوان عمرو بن كلثوم: ص ٧١

و يؤدي التكرار جانباً إيقاعياً في النص ذا صلة بالوزن و ذا صلة بالمعنى ، إذ يُكسبها معنى جديداً ، حتى قيل إنه يحيها و يُميتها [1]

و ينشأ الإيقاع الطبيعي من روعة الانسجام بين حاجة الشاعر الملحة على التعبير ، وبين تمكن لغته من القدرة على الإفصاح والقدرة على التأثير . والمسافة التي بين الشاعر وبين الموضوع ، هي التي تحدد اللغة ،كما تحدد تشكيل الكلمات وبناء العبارات ، وتحدد نوعية الإيقاع المنتقى ، وهذه المسافة تتعين في العقل الباطن حتى قبل الشروع بالكتابة ، فتنتقي كلمات وصفات وتعبيرات من خزين الذاكرة [2] .

و لا تنبع الموسيقى بنوعيها إلا من ذات الشاعر ، ومن عمق تجربته ، فكلما اتضحت التجربة، وترتبت المعاني في النفس ، وانصهر الشاعر معها ؛ وجد ألفاظه تسبقه ، دون أن يلجأ إلى تقييدها بالتكلف أو الصنعة.

و لا يقف العتاب والشكوى كغيرهما من الأغراض عند بحر بعينه ، بل تحتاج من البحور إلى ما تفعيلاته كثيرة ، وإلى ما تفعيلاته قليلة ، وقد نظم أبوفراس في بحور عديدة، ولم يُقيد عتابه وشكواه ببحر معين ؛ بل تحتوي القصيدة الواحدة على اللين والشدة ، والرقة والغلظة ، وذلك بطبيعة الموسيقى التي تتردد في أشعاره ، والتي تدل دلالة واضحة على نفسه التي ترضى وتغضب ، وتخاف وتأمن ، و قد نظم الشاعر فيها من عدة بحور مثل الطويل و البسط و الوافر و الكامل ، و كثرت لديه القوافي المطلقة مقارنة بالمقيدة .

---

(١) . انظر : أصوات النص الشعري : د . يوسف حسن نوفل ، ص ١٣٠ ، مكتبة لبنان ، ط ١ ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٥م .

(٢) . انظر : الاغتراب والبطل القومي : صلاح نيازي ، ص ١٢٧ ، مؤسسة الانتشار العربي،ط١،لندن – بيروت، ١٩٩٩

و يحتاج وصف البين ــ و هو أحد متلازمات الشوق و الحنين ــ إلى فسحة من الوقت ، ليبرز عنصر العتاب والشكوى بنمطيه : الشديد ، والرقيق ، فالشدة تناسب الشاكي والعاتب في وصف ساعة الرحيل وأثرها عليه ، أو تُعينه على تذكر لحظة الإزماع على البين ، والتعبير عن حالة الضيق التي قد تكون أشد من الرحيل نفسه . أما الرقة ؛ فإنها تهراق مع ماء العيون ، و تنبعث طيفاً يحلق في سماء الوسنان .

ووصف حالات الحزن هذه في شدتها ورقتها ؛ تحتاج إلى بحر ذي تفاعيل كثيرة ؛ تتسع مقاطعه [1] لأنات الشكوى ، و زفرات العتاب ، وهذا ما نظمه أبو فراس في هذه القصيدة ، من بحر الطويل ، يقول [2] :

بُليتُ ببَينٍ ، بَانَ في إِثْرِه صَبْرِي ، وَأَخنَى عَلَى عَزْمي بفَادِحَةِ الدَّهْرِ

وبَاعدّنِي مِمَّنْ أُحِبُّ دُنوَّهَ، وَأَسْلَمَنِي مِنهُ البِعادُ إلى الذِّكْرِ

على أَنَّني مِنْ شَخْصِهِ ، مُتَمتِّعٌ بِطيْفِ خَيَالٍ منه عِنْدَ الكَرَى يَسْرِي

فَوَاللهِ مَا أَدْرِي ، أَيْدري بِمَا جَنَى على القَلبِ؟أم أَشْقَى بِهِ وَهْوَ لايدْري

فاختيار الشاعر للبحر المناسب ، صحبه اختيار مناسب للقافية ، فلم تكن مستكرهة، واختار لها روياً مطلقاً وهي الراء المكسورة ، والراء صوت مكرر ، تتكرر فيه ضربات اللسان على اللثة تكراراً سريعاً ، و هذا يوحي بمُصابه العظيم ، الذي لا ينقضي أثره ، ولا يبرح حزنه ، لذلك لجأ الشاعر إلى استخدام بعض الإيقاعات التي تلائم الموقف ، مثل حروف المد في صدر البيت الأول ، وكأنها تنقل ذلك الجو الحزين الذي تمتد زفراته مع حروف المد ، التي أنطقت النص من بدايته ، ومهدت لذلك الحزن ، وكرر الشاعر في الصدر نفسه حرف الياء ، الذي لا يخرج إلا بعد انحباس الهواء الخارج من الرئتين انحباساً تاماً ، ثم تنفرج الشفتان بعد أن يضغط الهواء عليهما مدة من الوقت ، ليندفع الهواء

---

(١) . انظر : النقد الأدبي الحديث : ص ٤٤١

(٢) . الديوان : ٢/ ٢٢١

من الفم محدثاً هذا الصوت الانفجاري [1]

و لما تكررت هذه الباء المجهورة في الصدر من مطلع القصيدة ، أوحت بشدة الموقف الذي سيطر على الشاعر ، و نقلت جو الاضطراب الذي كان يعتمل في وجدانه ، بعد أن كادت نفسه أن تتفجر من ذلك الموقف الذي جاوز حدود صبره .

و استخدم الشاعر في العجز من البيت نفسه مايدل على عظم ذلك الخطب ، من خلال الأصوات الحلقية (العين ، والحاء) ، والأصوات الحنجرية (الهمزة ، والهاء) فالحاء والهاء مهموستان ، والعين مجهورة ، والهمزة لاهي بالمهموسة ولاهي بالمجهورة [2]، واجتماع هذه الأصوات في شطر واحد ، يوحي بعظم أنات الشاعر، و اشتداد الغصص في حلقه إلى أن فاضت العبرات على وجناته ، و افتضح أمره ، و تفجر عويله .

و يدل البيت على عنف الشاعر على نفسه الرقيقة التي خانها صبرها، وذهب بعزمها ، و سيطر ذلك الماضي الحزين عليها ، وأجبرها على الشكوى وهي لا تقوى عليه ؛ لذلك جمع الشاعر في صدر البيت وعجزه ألفاظاً تدل على الشدة ، مثل : (صبري ، عزمي، فادحة الدهر) ، لتُمثل قوة محبطة ، ظنت أنها أقوى من الموقف ، ولكنها سرعان ما تلاشت ، وتحولت إلى إيقاعات حزينة ممتدة .

وواصل في البيت الثاني أثر ذلك البين الذي حال بينه وبين الأحبة ، وتمثل البعد المكاني في روعة المد في كلمة (باعدني) تمثلاً يوحي بذلك البعد الذي جاء إلزاماً وقهراً ، لذلك انسجم الطباق بين كلمتي (باعدني) ، (دنوه) وهو طباق إيجاب بين فعل واسم ، صوّر الشاعر فيه ذلك البون الشاسع بين الكلمتين ؛ ليلهب الموقف ، ويزيد من اشتعال الحنين، الذي ستر الشكوى ، واستنطق العتاب ، وفي اختلاف طول المقطع بين الكلمتين ما

---

(١) . انظر : المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي : د. رمضان عبدالتواب ، ص ٤٨ ، مكتبة الخانجي ، ط٢ ، القاهرة ، ١٤٠٥هـ _ ١٩٨٥م .

(٢) . انظر : المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي : ص ٥٥ – ٥٦

يُذكي من فتيل الموقف ؛ ففي (باعدني) مقطع طويل يمتد بطول البعد الزماني والمكاني ، الذي لا يوحي إلا باليأس ، أما قصر المقطع في (دنوه) عن المقطع السابق ، فدلّ دلالة واضحة على مكانة ذلك المحبوب من نفس الشاعر ؛ فبقدر ذلك القرب ازداد شقاء الشاعر .

و حين أعاد الشاعر تكرار المد في صورة أخرى (البعاد) من الشطر الثاني أراد أن يعظم ذلك البعد ، الذي خلص إلى (الذِّكْرِ) ، ليقف اللسان عندها قليلاً ، فمثلها لا يمر مروراً عابراً .

وأتى البيت الثالث ، ليدعم تلك الذكرى التي أعقبت البين ، فهي ذكرى قهرت كبته العظيم ، وتجاوزت حدود الزمان والمكان ، لتجنح في جنح الظلام، وتداعب الجفن الوسنان في صورة طيف ، تمنى الشاعر دوامه ، بطريق إيقاعي في قوله (بطيف خيال منه عند الكرى يسري) فكم في حروف المد من دلالات قهرت واقعه ، وسرحت به بعيداً عن مسرح الأحداث ، ليحلق مع آماله ...

ثم أفاق من تلك الغفوة في البيت الرابع ، ووقف وقفة مَنْ برىء من وخزة آلامه، وأفاق من جنوح آماله ، ليعتب عتاباً لا إسراف فيه للوم ، ولا تقصير فيه لعذل ، وكأنه التمس العذر قبل أن يشرع في العتاب ، عن طريق القسم (فوالله) ، والسؤال بالهمزة في (أ يدري) ، واتباعها بـ(أم) ، والتكرار بجملة (أدري) ، وروعة طباق السلب بين
(يدري) و (لا يدري) لتجسد رقة الشاعر ، ورهافة حسه .

وهكذا مضى الشاعر في شكواه من تلك الأشواق ، إلى أن أنهى القصيدة بما عالج الموضوع ، وخدم شوقه وحنينه ، فختمها بما يُسمى بحسن المقطع ، فقال [1] :

سـلامٌ علـى تِلـكَ الـدِّيارِ وأَهْلِهَـا ، سَلاَمَ غَرِيبٍ ، ظَلَّ يُزْرِي عَلَى الدَّهْرِ

و هو ختام ، يُبرز أشواق غريب أثقله النوى ، و أسقمه البعد ، وتماوج الحنين به إلى أن أجبره على الرضا بالواقع و حَمْل السلام إلى تلك الديار ، و لو كان غُصصاً تخرج منها

---

(١) . الديون : ٢/ ٢٢٢

أنفاسه ، و حملت حروف المد المتكررة هذا الموقف الشجي ، و عبّر صوت الهاء عن كثرة زفراته بعد أن عزّ اللقاء .

و كَثُر استخدام روي الراء في عتاب أبي فراس و شكواه ، فكأن هذا الصوت المجهور المتكرر يُوحي بحالة الشدة و الانفعال مع الفكرة ، ليشعر أنها تُرفرف مع لسانه و توحي أنّ حالة الضيق والحزن و الكرب والغضب تتكرر مرة بعد مرة ، و تُشعر السامع أنّ الشاعر يرغب في معالجة أمر أعياه ، و لعل الشاعر شفى غليله في قصيدته الشهيرة التي شرقت و غربت :

أَراكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ ، شِيمَتُكَ الصَّبْرُ، أَمَا لِلهَوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ و لا أَمْرُ [1] ؟

و تنبعث أحياناً حرارة الشكوى و العتاب من تناهي رقتها ، و عذوبة وقعها على النفس من جمال إيقاعها و حسها الموسيقي ، في مثل قول الشاعر [2]:

و واللهِ ، مَا أَضْمَرْتُ في الحُبِّ سَلْوَةً ، و وَاللهِ ، ما حَدَّثْتُ نَفْسِيَ بِالصَّبْرِ؟

و إِنَّكَ في عَيْنِي ، لأَبْهَى مِنَ الغِنَى ، و إِنَّكَ في قَلْبِي ، لأَحْلَى مِنَ النَّصْرِ؟

فَيَا حَكَمِي المَأْمُولَ ، جُرْتَ مَعَ الهَوَى و يَا ثِقَتِي المأْمُونَ ، خُنْتَ مَعَ الدَّهْرِ!

فيُلحظ روعة تشابه التقسيم في الأبيات ، مثل تكرار القسم في البيت الأول في شطريه (و والله) ، و ترادف أفعاله[3] (أضمرت) في الشطر الأول و (حدثت نفسي) في الشطرالثاني ، و ترادف الأسماء مثل (سلوة) في الشطر الأول ، و (الصبر) في الشطر

---

(١) . الديون : ٢٠٩/٢

(٢) . المصدر نفسه : ٢ / ١٩٢

(٣) . لا أقصد بالترادف ما هو معروف عند علماء اللغة بالعلاقات الدلالية بين الكلمات التي من علاقاتها : الترادف ؛ بل أردت إبراز الحس الموسيقي الذي نبع من رهافة الشكوى و دقة اختيار ألفاظها في إيقاع يُبرز حال صاحبها .

الثاني ، و هذا يقوي الفكرة ، و يُعزز ما ادعاه ، ولا مجال للشك في ذلك ولا سيما أنّ

التجلد في العشق مذموم ، فهو لم يُظهر أشواقه و وجده ، ليبطن صبره و سلواه ؛ بل اتحد ظاهره و باطنه على الجزع و الاكتواء بنار الوجد ، و أيدّ ذلك ما ذكره من رموز في البيت الذي يليه في (عيني) و (قلبي) ؛ فالعين خبر صاحبها و القلب سره و مستودعه ، فإذا ما تشارك الاثنان على أمر ما ؛ فذلك دليل قاطع على صدق الشعور ، و انساق ذلك في إيقاع ينبض بالدفء و الحياة في قالب تساوت أجزاؤه و تآزرت معانيه ، و كما بدأها في البيت الأول بالقسم ؛ فقد بدأها في البيت الثاني بالتأكيد :

(و إنّك في عيني) ، (و إنّك في قلبي)

(لأبهى من الغنى) ، (لأحلى من النصر) .

و في الجمع بين الغنى و النصر مايدل على أمور نفسية تخص الشاعر ، حيث كان يرى البهاء في الغنى و الدعة ، وكأنه يرمز إلى تلك الإمارة التي عشقها وعشقته ، و كان يرى اللذة في النصر ، و هي حقيقة تجسدت في شخصية الشاعر ؛ ليُبرز بذلك العنصرين المهمين في حياته : الفروسية والإمارة ، فخلع على محبوبه أجمل قيمتين عن طريق أفعل التفضيل : أبهى ، أحلى ، و البهاء و الحلاوة سمتين تناسب عاشق يستلذ بشكواه ، و يُرفق في عتابه ، ليُتبعها في البيت الثالث بتقسيم لا يقل إبداعه عن سابقيه ، و ذلك في :

(فيا حكمي المأمول) ، (و يا ثقتي المأمون)

(جرت مع الهوى) ، (خنت مع الدهر)

ففي تكرار النداء للمحبوب ما يُبين شدة علوق الشاعر به ، و حين أردف ذلك بصفات حميدة أسند إليها ياء المتكلم و هي في حقيقتها تُنافي أفعاله دليل على الحب الذي جعل صاحبه يتعامى الحقائق و يتجاوزها دون أن يجهلها .

و في تكرار (مع) ما خفف اللوم على حبيبه فإنْ جار ؛ فإنّ الهوى جائر ، وإنْ خان ؛ فإنّ الدهر ــ على حد قول الشاعر ــ خائن ، و قد تكالب الهوى و الدهر على الشاعر ، الذي كان يرى في عاشقه حكم عادل ، و ثقة أمين ، و لعل في هذا ما يُخفف من حدة اللوم و قوة العتاب .

(٢٩٢)

و يأتي الجناس الناقص بين كلمتي (المأمول) و (المأمون) ؛ ليزيد من جمال المعنى ،

بعد أن تساوى وزنها و اختلفت في حرف واحد[1]، وقد اشترط إمام البلاغة لاستحسان التجنيس أن يكون "موقع معنيهما من العقل موقعاً حميداً ، و لم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً "[2] و ساعد هذا الجناس على تقريب المعنى و إبرازه في حلة محببة لذلك المعاتب الذي لم يشأ الشاعر أنْ يلجأ إلى تبكيته إلا بعد أنْ تخير ما هوحري بإبقاء الود ، من رفق ولين و رقة ممزوجة بنفحات من عتاب و شكوى في ألفاظ حبرتها تحبيرا .

وحين كان الشاعر في ثورة غضب و ألم ؛ تخير موسيقى زادت الموقف اشتعالاً ، و من ذلك ما نظمه حين اتهمه سيف الدولة حين بلغه أنّ بعض الأسراء قال : إن ثقل هذا المال على الأمير كاتبنا فيه صاحب خراسان و غيره من الملوك و خفف علينا الأسر ، فبدأها الشاعر بإيقاع يقرع الأسماع من بحر المتقارب بروي مقيد ، فقال[3] :

أَ سَـيْفَ الهُـدَى ، و قَرِيـعَ العَـرَبْ عَـلامَ الجَفَـاءُ ! و فِـيمَ الغَضَـبْ ؟

و مَابَـالُ كُتْبِـكَ قَـدْ أَصْـبَحَتْ تَنَكَّبُنـي مَـعَ هَـذَا النّكَـبْ

تخير الشاعر روي الباء و هي صوت مجهور و كرر بعض الأصوات المجهورة ، مثل العين التي تكررت في البيت الأول أربع مرات ، والباء في البيت الثاني خمس مرات لينقل شيئاً من ذلك الجو النفسي الذي عاشه من غضب و عنف ، ليتمرد على آداب مخاطبة الملوك و

---

(١) . عدّ ابن الأثير هذا النوع من التجنيس من الأقسام الستة المشبهة بالتجنيس ، و هو أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير ، و إن زاد على ذلك خرج من باب التجنيس .
(انظر : المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر : مج ١ / ٢٤٥

(٢) . أسرار البلاغة : الشيخ أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، ص ٧ ، مطبعة المدني ، القاهرة ، دار المدني ، جدة ، ط ١ ،١٤١٢هـ - ١٩٩١م .

(٣) . الديوان : ٢ / ٢٦

ملاطفتهم ، فكرر الاستفهام ليقهر قاعدة أنّ الملوك لا تُسأل و لا تُكيّف ، و ليستنكر

على سيف الدولة و يتعجب من فعله ، و تخيّر الجناس الناقص (تنكبني) ، (النكب) ليُلهب الألم و يُشعل العتاب و يُبرز الشكوى ، و هي قصيدة تنبض بالقوة والشدة ، لجأ الشاعر فيها إلى المنطق و دحض الحجة ، و تفنيد ظنون سيف الدولة ، بطريقة لم يكبح فيها عنان الألم .

المبحث الرابع : الصورة الفنية :

تعد الصورة الفنية من الأمور ذات الأهمية الكبرى في النقد ، وقد كثر الكلام عنها، وتضاربت الأقوال في نشأتها ، وتعريفاتها ، وأبعادها ، فمن النقاد من يرى أنها حديثة النشأة ، ولا جذور لها تربطها بالماضي ، و تصدى النقاد لهذه الدعوى ، وفندوها واستندوا على أدلة تبطل صحة ما ادعاه ذلك الفريق.

و وجد النقاد بين طيات التراث العربي القديم ما يؤكد وجودها ؛ و إن اختلفوا في مضمونها .

يُعتبر التطور سمة من سمات البشر ، فكل جيل له اتجاهاته ، وميوله ، واهتماماته ، وأهدافه الخاصة والعامة ، التي يمكن ملاحظتها في تراثه من فكر وعلم وأدب ، والصورة أحد تلك المفاهيم التي نشأت وتطورت ، شأنها شأن اللغة التي شُبهت بالكائن الحي الذي ينمو ويتطور ، وقد كان " التيار العام في النقد العربي القديم يكاد يحصر المدلول اللفظي للصورة في الجانب المادي المحسوس من الكلام ، واللفظ الذي يقابل المعنى ، ولا يدل هذا على عدم وجود الصورة في النقد العربي القديم ، فقد درست بعمق ، ولكنها لم تكن تعرف بغير التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية ؛ وذلك لقوة التيار البلاغي آنذاك ، وعدم تميز النقد عن البلاغة تميزاً تاماً " [1] .

وهذا ملحوظ عند القدامى ، فتجد لفظة الصورة – مثلاً – عند إمام البلاغة – عبد القاهر – في كتابه أسرار البلاغة ، في ثنايا ذكره للتجنيس والتشبيه والاستعارة ، و عند غيره كالجاحظ ، وابن رشيق ،وغيرهم،ممن جعل الصورة تنبثق من مسألة اللفظ والمعنى،

---

(١) . الصورة الفنية في الشعر العربي مثال ونقد : ابراهيم عبد الله الغنيم ، ص ١٢ ، الشركة العربية للنشر والتوزيع ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

"حيث جعل القدامى الجانب اللفظي من الكلام هو صورته ، فالصورة هي ما يقابل المعنى ، وإليها ترجع المزية في صناعة الشعر ، والشاعر – صانع الشعر – تظهر موهبته ويبرز

إبداعه من خلال تصرفه في ألفاظ الكلام وتراكيبه ابتداء من اختيارها وانتهاء بنظمها وصياغتها " [1]

ومهما يكن من أمر ؛ فإن الصورة في النقد الحديث ، تختلف باختلاف أوصافها ، من بيانية أو بلاغية ، وفنية ، وشعرية ، وأدبية ، بحسب الفن الذي قيلت فيه ؛ فالبيانية أو البلاغية إذا كانت تقوم على فنون البيان والبلاغة ، وفنية إذا كانت تقوم على فنون البلاغة وطاقات اللغة الأخرى ، والشعرية إذا كانت في الشعر لا في النثر ، والأدبية إذا أريد التعميم وعدم تخصيص الشعر [2]

فالصورة في النقد الحديث تقوم على جذور ما أرساه القدامى ، ومهما أورقت وتفرعت ؛ فإنها ترجع إلى أصل واحد ، وجذور عميقة ممتدة.

وما يُلحظ من فروق بين الصورة القديمة والحديثة ، يرجع إلى اختلاف الثقافات ، وتطور الزمان .

ويمكن إيجاز الفرق بين مفهوم الصورة في النقد القديم والنقد الحديث ، في عدة أمور، من أهمها [3] :

- اهتمام النقد الحديث بالصورة بكونها عنصراً جوهرياً متكاملاً ، وبوصفها قضية نقدية قائمة ، يرجع إليها الفضل في نقل الأفكار والمشاعر ، وإثارة الإيحاءات والظلال.

-كثرة تشعيب الصورة إلى أهداف مختلفة ، فهدفها عند الكلاسيكيين يختلف عنه عند الرومانسيين ، وهي عند هؤلاء لا تهدف إلى ما يهدف إليه الرمزيون في صورهم وهكذا...

- تمثل الصورة عند المحدثين مشهداً أو لوحة كبيرة ، يحكمها شعور عام ، أي أنها تعني

---

(١) . الصورة الفنية في الشعر العربي مثال و نقد : ص ١٧

(٢) . المصدر نفسه : ص ١٨

(٣) . المصدر نفسه : ص ١٧- ١٨

بالنظر في القصيدة كلها.

- لم يشعب النقد القديم الصورة إلى مقاصد متباينة .

– أن الصورة القديمة عند العرب ، ذات اتجاه واحد نتج عن اتجاه اجتماعي ، يمجد الفضيلة ، ويحرص على تحري خطى السابقين .

– عنيت الصورة القديمة بالبيت الشعري ، دون النظر إلى القصيدة كلها دفعة واحدة.

– حرص النقد العربي القديم على عدم خروج الصورة عن حدود المنطق ، فلا يوصل الإغراق في الخيال إلى درجة تصل إلى تشبه الأوهام .

وقد حظيت الصورة الحديثة بتعريفات شتى ، نقلت الصورة من معناها الحسي ، لتشمل جوانب متعددة ، فهي طريقة خاصة من طرق التعبير ، أو وجه من أوجه الدلالة ، تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير ؛ ولكن أياً كانت هذه الخصوصية أو ذاك التأثير ؛ فإن الصورة لن تغير من طبيعة المعنى في ذاته ، إنها لا تغير إلا من طريقة عرضه وكيفية تقديمه ، ولكنها بذاتها لا يمكن أن تخلق معنى ؛ بل إنها يمكن أن تحذف دون أن يتأثر الهيكل الذهني المجرد للمعنى ، الذي تحسنه وتزينه [1] .

إذن تتمثل الصورة في طريقة عرض المعنى ، دون أن تخلقه ، بل هي وسيلة جذب وعرض، وهي ترتكز على المعنى ، فإذا لم يكن هناك معنى في ذهن الشاعر ، فهي لن توجده ؛ لأنها وسيلة الشاعر ، وليست غايته .

و إذا كان الشاعر حريصاً على نقل تجربته بدقة ؛ فإن الصورة الفنية هي وسيلتها التي تنقل من خلالها الأفكار والمعاني ، وتروج لها – إذا صح التعبير– بالطريقة التي ينتمي الشاعر إليها ، " إنها لا تشغل الانتباه بذاتها إلا لأنها تريد أن تلفت انتباهنا إلى المعنى الذي تعرضه" [2]

وهي تعتمد على جهد الشاعر في تحقيق ذاته " وما دام الفن الجميل هو الجهد الذي

---

(١) . انظر : النقد الأدبي (٢) الصورة الفنية : مجموعة أعمال جابر عصفور ، ص ٣٢٣ ، دار الكتاب المصري، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت . لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٤هـ . ٢٠٠٣م

(٢) . المصدر نفسه : ص ٣٢٧

يحقق به الإنسان كمال وجوده الإنساني ، فإن دائرته تتسع بحيث تنتظم صوراً ومعاني وأخيلة تشكل آخر الأمر في مادة محسوسة من التمثال، والرسم ، واللحن ، والشعر، والحركة " [1] .

وهذا دليل على وجود عوامل تتضافر في تشكيل الصورة ، وإبراز جوانبها المختلفة ، من مثل الخيال ،و العاطفة القوية التي تساعد في جمال الصورة وروعتها ، وقدرتها على التأثير، والاستخدام الجيد للغة ودلالاتها ، مما يضمن بقاء الصورة ، وقابليتها لدى المتلقي [٢].

ويرى د. أحمد الشايب أنَّ الخيال هو العنصر الرئيس في الصورة ، إذ يقول " فالخيال إذن أساس الصورة الأدبية مهما تكن درجتها الفنية ، سامياً ، أو عادياً ، وهو مع ذلك ذو طرق شتى في تناول العاطفة " [٣]

وربما ترجع أهمية أي عنصر من عناصر التجربة إلى طبيعة ما يستهوي المتلقي بصفة عامة ، فالنفس – مثلاً – تميل إلى الغوص في المعاني ، والاستمتاع في استخراج الصورة ، وإعمال الفكر في كيفية الوصول إلى فهم الصورة ، شريطة أن يبتعد الشاعر عن تضليل المتلقي والتعمية عليه ، حتى لا يفقد جمهوره ، بل يحاول أن يأخذ بيد المتلقي إلى ما لم يتوقعه ، وتميل النفس إلى ما فيه خروج عن المألوف،وما يحتوي بعض الطرافة والغرابة في ثناياه .

وتدل الصورة على ذلك المعنى المجرد " فتحدث فيه تأثيراً ، وخصوصية لافتة ؛ ذلك أنها لا تعرضه كما هو في عزلة واكتفاء ذاتيين ، وإنما تعرضه بواسطة سلسلة من الإشارات إلى عناصر أخرى ، متميزة عن ذلك المعنى ، لكنها يمكن أن ترتبط به على نحو من الأنحاء .

وبهذه الطريقة تفرض الصورة على المتلقي نوعاً من الانتباه واليقظة ، ذلك أنها تبطئ إيقاع التقائه بالمعنى ، وتنحرف به إلى إشارات فرعية غير مباشرة ، لا يمكن الوصول إلى المعنى دونها " [٤]

---

(١) . الأسس الفنية للنقد الأدبي : د . عبدالحميد يونس ، ص ١١٧، دار المعرفة ، ط ٣،القاهرة ، ١٩٧٩م.

(٢) . انظر : الجوانب الفنية في شعر محمد بن حمير الهمداني شاعر الدولة الرسولية في القرن السابع الهجري : مجدي محمد خواجي ، ص ١٣٦ ، مؤسسة الرسالة ، الإمارات العربية المتحدة ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ. ٢٠٠١م

(٣) . أصول النقد الأدبي : أحمد الشايب ، ص ٢٤٣ ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ١٠ ، القاهرة، ٢٠٠٢م .

(٤) . النقد الأدبي (٢) الصورة الفنية : ص ٣٢٧

وتملك العاطفة زمام الصورة ، وتجتذب ما يصلح للتعبير عنها ؛ لأنها لا تقبل وجود أي عنصر ما لم يناسبها – حتى وإن كانت عند الأديب ذاته – فكل مقام له عاطفة معينة ،

وبناء على هذه العاطفة يتم استحضار الصورة التي تخدمها ، بمعنى " أن العاطفة هي التي تستدعي لنا خواص الصورة الأدبية الصالحة للتعبير عنها ولإثارتها "[1]

وتكون الصورة بحجم تلك العاطفة " فإذا كانت عاطفة متوسطة أو قصيرة الأمد احتاجت إلى سهولة العبارة وجمال الصورة والإيجاز الكافي ، وإذا كانت عميقة خالدة تتصل بأصول الحياة وطبائع الناس اقتضتا تعبيراً جزلاً سديداً وصوراً محكمة تكون تمثيلاً أو كنايات أو مطابقة أو نحوها " [2]

و تُمثل قوة عاطفة الشاعر سبباً رئيساً في شدة انفعال المتلقي ، والعاطفة – بلا شك – موجودة عند الشاعر المجيد وغيره ، بل توجد عند الأديب وغير الأديب ؛ ولكن الصورة تخرجها من عالمها المجهول إلى عالمها الآخر ، الذي يجذب الجمهور ، ويذكي فتيل التأثر ، " وقد عرف نقادنا القدامى قوة العاطفة أو عمقها ، وقاسوها بهذا المقياس الحديث، أي بتأثيرها في نفس المتلقي ، ونجد عندهم ما يشبه أن يكون اتفاقاً بين الشاعر ومتلقي شعره على هذه القوة ٠ وذلك أن انفعال المتلقي بما يتلقى وعمق تأثره به مبعثهما غالباً قوة انفعال الشاعر بموضوع شعره وشدة تأثره به " [3] .

وما دام الشاعر بهذه القوة من التأثر ، فإنه قادر على نقل تأثره للمتلقي بالصورة المعبرة الناطقة عن الوجدان ، بطريقة تفي الموقف حقه ٠

فالصورة الفنية إذن لها أثرها البارز في التأثير على المتلقي ، وإمتاعه ، وإيضاح العمل الفني ، وذلك لما تحويه من إمكانات في التعبير لا توجد في الكلام المجرد ، فالتشبيه – مثلاً – ينقل المتلقي من الخفي إلى الجلي ، بالإضافة إلى أنّ الصورة تمنح الكلام تلويناً وتنويعاً ، وتجعله يراوح بين الحقيقة والمجاز ، وبين الواقع والخيال ، وقد تتضمن محسنات بديعية ،

---

(١) . أصول النقد الأدبي :ص ٢٤٣ ٠

(٢) . انظر : المصدر نفسه :ص ٢٤٤

(٣) . العاطفة والإبداع الشعري : ص ٣٠٠

فيزداد جمال الأسلوب ٠

والمبالغة أحد آثار الصورة الفنية على العمل الأدبي ، حيث تمنح الكلام قوة وجلالاً ، فلا يقف معها التعبير على المعنى القليل ، بل يزداد ويتسع ، ويكون بذلك عاملاً مهماً من عوامل التأثير في المتلقي، ولا يمكن إنكار ما للتشخيص والتجسيم من دور يبرز الأمر المعنوي في صورة الجسم المحسوس ، ويبرز صورة غير العاقل في صورة العاقل ، يدرك إدراكه ، ويحس إحساسه [1]

وقد عاش أبو فراس في العصر الذي اعتمد على الصور الحسية ، من أوصاف وتشبيهات، يقول د. عبد الجليل حسن عبد المهدي " : وقد كان أبو فراس ابناً شرعياً لعصره ولمقاييسه النقدية ومن ثم غلب التشبيه على صوره الشعرية وجاءت أكثر صوره تقليدية ، وبخاصة في شعر ما قبل الأسر ، نهج فيها نهج سابقيه ، وغلبت فيها مصادر الصورة التراثية على مصادر صوره الواقعية ، وإن كان الأمر قد انعكس تماماً بعد أسره " [2] . ولكن الأمر قد لا يبدو مطابقاً لما أشار إليه د. عبدالمهدي ؛ فهناك صور للشاعر أخرى غير التي ذكرها ، كالعقلية أو المعنوية ، حتى وإن قلت في شعره ؛ فإن الظاهرة لا يمكن أن تطبق على أغراضه كافة ، فمثلاً يحتاج العتاب والشكوى ــ بطبعهما ــ إلى صور عقلية أو معنوية ؛ لتخدم معانيه ، وتوضح للمتلقي ما الفكرة ، لتقرب البعيد ، وتغوص بما هو طاف إلى الأعماق ، وخير ما يفصل في ذلك شعره في العتاب والشكوى ، بمحاوره المتعددة ، دون عزل مرحلة الأسر عن غيرها.

ومن الصور التي استخدمها الشاعر في عتابه وشكواه ، الكناية ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتجسيم ، والتجسيد ، وغيرها من صور ابتعدت عن التكلف، وذلك لطبيعة الغرض

---

(١) . انظر : الصورة الفنية في الشعر العربي مثال ونقد : ص ١٩ ، وما بعدها .

(٢) . أبو فراس الحمداني حياته وشعره : ص ٤٢٦ – ٤٢٧: د . عبدالجليل حسن عبدالمهدي ، ١٩٨١ م

الذي لا يتطلب الإسراف في البيان. فالشاعر – مثلاً – حين أحس بعظم الفاجعة على نفسه التي ألفت القيادة ، وحياة الأمراء ؛ أخذ يوغل في استحضار الصور الذهنية ، التي تلائم الموقف ، فهرب من الواقع إلى الماضي ،ليس هروباً من من أجل النسيان إنما ليوغل في استحضار الأسى ، ويبالغ في وصف الآلام التي يبلغ مداها إلى شعور المتلقي ، إذ أن الشاعر تفجع في أسلوب خبري ، دون أن يطرق أي أسلوب في الإنشاء وذلك لعظم الكارثة ، التي جعلته يذكر مفارقات الحياة في تلك اللحظات التي عاشها ، في مثل قوله[1]:

وأُسِـرْتُ فـي مَجْـرَى خُيـولِي غَازِيـاً، وَحُبِسْتُ فِيما أَشْعَلَتْ نِيرَانِي

فـ(مجرى خيولي) و(أشعلت نيراني) ،كناية عن بطولته السابقة التي اتخذت من خرشنة ميداناً فسيحاً لصولاته وجولاته، والكناية " أبلغ من الإفصاح"[2]، والتي ما لبث الزمان ، ودالت الأيام ؛ فأصبح فيها أسير حرب ، بعد أن كان أمير الحرب وقائدها الذي اعتاد أن يخط تلك الأرض بسيفه ، واعتادت خيوله أن تغير عليها ، فهي تعلم دربها جيدا ، من سهل ونجد ، إنها صورة توحي بالحركة ، وهي حسية من حيث اختياره لما يدل على الصوت والصورة ؛ فكأن المتلقي ينتقل معه إلى ذلك الماضي ، فيسمع صهيل الخيول ، و يرى اشتعال النيران ، ويرى شررها العظيم ، وهي تلتهم القصور والدور ، ثم يتنبه المتلقي إلى أنّ الفعل كان في الزمن الماضي (أشعلت) ، وكم بين الحاضر والماضي من بون شاسع ؟!

إذن فالصورة واقعية لا تحتاج إلى خيال يوضحها ، ولا إلى تشبيه يقربها ، إنما تكفيها الكناية ، واستخدام الأفعال التي توحي بالقيد النفسي والحسي ، الذي صاحبه أثناء الحديث عن ذلك الماضي ، من مثل : (أُسرت) ، (حُبست)

حقاً الأمر يحتاج لإيجاز القول ، والاستغناء عن ذكر الفاعل ، فما تلاه من كلام وضّح، و وكفّى و وفّى ...

---

(١) . الديوان : ٢/ ٤٠٨

(٢) . دلائل الإعجاز : ص ٧٠

وفي القصيدة نفسها ، شكا حاله ، وأبدى تأثره منها ، عن طريق الكناية ، وتجسيم الماضي، الذي كاد أن يقضي على حاضره ، يقول [1]:

أَصْـبَحْتُ مُمْتَنَـعَ الحَـرَاكِ ، وطَالمـا أَصْـــبَحْتُ مُمْتَنعـــاً علـــى الأَقْـــرَانِ

ولَطَالَمـا حَطّمْـتُ صَـدْرَ مُثَقَّـفٍ ، ولَطَالمـــا أَرْعَفْـــتُ أَنْـــفَ سِـــنَانِ

ولَطالمـا قُـدْتُ الجِيـادَ ، إلـى الـوَغَى قُـــبَّ البُطُـــونِ ، طَوِيَلَـــةَ الأَرْسَـــانِ

وَأَنَـــا الـــذِي مَـــلأَ البَســـيِطَة كُلَّهـــا نَـاري ، وَطَـنَّبَ فِـي السَّـمَاءِ دُخَـانِي

كَـانَ القَضَـاءُ فَلَـمْ تَكُـنْ لِـيَ حِيلَـةٌ غَلَـــبَ القَضَـــاءُ شَـــجَاعَةَ الشُّـــجْعَانِ

فلجوء الشاعر في أول شطر من الأبيات السابقة إلى وصف ضعف حاله ، في قوله (أصبحت ممتنع الحراك) ، قاده إلى عقد مقارنة سريعة بين الحاضر الذي استغرق شطراً واحداً ، وبين الماضي الذي جعله يموج في تفاصيله ، واستنطاقه .

وكم في مشهد الضعف الذي يعانيه الفارس من أشجان ، وحسرات لا تبرح صاحبها ، وبالأخص فيمن أحس بعجزه مع تزامن تذكره للماضي ، ولا يقدر على وصف ذلك المشهد إلا صاحبه ، فالموازنة بين الصورتين (أصبحت ممتنع الحراك) و (أصبحت ممتنعاً على الأقران) تبدي ذلك الفارق العظيم ، والبون الشاسع ، بين مكانتين تبوأهما الشاعر ، فهو يذكر الماضي ، و يفخر بامتناعه على الأقران ، فلم يكن ينازل إلا فارساً مثله ؛ و نفسه لا تقبل غير هذا ، وإن لم يكن كذلك فما فضل أبي فراس على فرسان الميدان ؟! و إنّ الفخر بالغلبة لا يتأتى إلا إذا نازل الشاعر فارساً قوياً وليس ضعيفاً خواراً، و قد طافت هذه الذكرى حينما تراءت له المفارقات ، و برز له في حياته ما كان يأباه فأحس بافتقاد ما كان يقيم حياته .

و إنّ قعوده عن الحركة وثوب للذاكرة ، التي لم تفتأ تقارن و تحلل و تلتمس لنفسها ما يُخرجها من وهدة سحقية هوى إليها ، فاستسلم لألمه و أطلق عنان فكره يهيم على

---

(١) . الديوان : ٢/ ٤٠٩

وجهه ليرجع إلى الوراء يقص أثره و يبكي طلله ، وهي أبيات تُذكّر بقصيدة مالك بن الريب [1] في رثائه لنفسه ، عندما أحس بدنو أجله ، وكان مماقاله :

فيا صاحبَي رحلي ! دنا الموتُ ، فَانزلا برابيَـــةٍ ، إنّـــى مُقـــيمٌ ليالِيـــا
أقيمـا علـيَّ اليـومَ ، أو بَعـضَ ليلـةٍ ، ولا تُعْجلانـــي قـــد تبـــيّنَ مابِيـــا
وقومـا، إذا مـا اسـتُلَ روحـي ، فهيّئـا لـيّ القبـرَ والأكفَـانَ، ثـم ابكيـا ليـا
وخَطّـا بـأَطْرافِ الأسِـنّةِ مضـجعي ورُدَا علـى عَيْنـيَّ فضـلّ ردائيـا
ولا تحسُـداني بـاركَ اللهُ فيكمـا، من الأرضِ ذاتِ العَرضِ أن توسعا ليا
خُـذاني ، فجُرَانـي ببُـردي إليكمـا، فقد كنتُ ، قبل اليوم صَعباَ قياديا
فقد كنتُ عطّافاً ، إذا الخيلُ أدْبَرَتْ، سَريعاً لدى الهْيجا ، إلى مَن دعانيا[٢]

فإن كان أبو فراس لم يرث نفسه كما فعل مالك بن الريب ، حين أحسَّ بدنو أجله ؛ فإنه لم يبتعد في المضمون كثيراً عن أبيات صاحبه ، فكلاهما تفجع على نفسه ، وأعقب تفجعه بتذكر الماضي ، فالأول يفخر بامتناعه على الأقران ، فهو لا يُنازل إلا فارساً مثله ،

---

(١) . هو مالك بن الريب بن حوط بن حِسْل بن ربيعة ، من تميم ،كان شاعراً فاتكاً لصَّاً ، نشأ في بادية بني تميم بالبصرة من شعراء الإسلام في أول أيام بني أمية وحين مضى سعيد بن عثمان بن عفان إلى خراسان ، ولقي مالك في الطريق وكان من أجمل الناس وجهاً ، وأحسنهم ثياباً ، فلما رآه سعيد أُعجب به ، وقال له : مالك ، ويحك تفسد نفسك بقطع الطريق ! وما يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العبث والفساد ، وفيك هذا الفضل ! قال : يدعوني إليه العجز عن المعالي ، ومساواة ذوي المروءات ، ومكافأة الإخوان ، قال : فإن أنا أغنيتك ، واستصحبتك، أتكف عما كنت تفعل ؟ قال : إي والله أيها الأمير ،أكفُّ كفاً لم يكفّ أحدا أحسن منه ، قال : فاستصحبه ، وأجرى له خمسمائة درهم في كل شهر .

وحين قفل سعيد بن عثمان من خراسان ، مرض مالك بن الريب في الطريق ، فلما أشرف على الموت تخلف معه مرة الكاتب ورجل آخر من قومه من بني تميم ، وهما اللذان نادهما في البيت السابق .

(انظر : الأغاني : مج ١١/ ج ٢٢ / ص ٤٦٤ ، ٤٧٤)

(٢) . جمهرة أشعار العرب : لأبي زيد القرشي ، شرح وضبط وتقديم : د.عمر فاروق الطباع، ص ٢٢٧ ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ، (ب . ط) ، بيروت – لبنان (ب . ت).

والآخر يرثي نفسه ، وهو يرى الموت يطوف بساحته ، وقد استسلم له ، بعد أن كان قوي الشكيمة ، صعب الانقياد قبل ذلك اليوم .

لقد لجأ أبوفراس إلى الكناية في (ممتنع الحراك) ؛ ليدل على شدة ضعفه ، ووهنه، وقلة حيلته ، وهذا أمر ذكره في موضع آخر ، حين أرسل إلى غلامه منصور أبياتاً ، ختمها بقوله[1] :

أَنــاَ أصــبحتُ لا أطِيــقُ حِرَاكــاً ؛ كَيْفَ أصبَحْتَ أَنْتَ يَا" مَنْصُورُ"؟

إذن ؛ فالتعبير عن عدم قدرته على الحركة ، كناية عن الضعف وقلة الحيلة، وذلك أمر نفسي تعلنه النفس ، حين تشعر أنها واهية ضعيفة ، تنوء بمشاق الدنيا وأعباء الحياة ، فتتوهم أنها بلغت من الخور والضعف ما يجعلها تفقد القدرة على الحركة ، أو ربما القدرة على الإحساس ؛ فهو ميت الأحياء ، وهذه صورة تنقل المتلقي إلى ذلك الجو الحزين الذي تغشاه الكآبة ، ويطوقه اليأس ، وتفتك الحسرات به من كل جانب .

وتبلغ روعة الصورة ، حين استخدم لذلك الماضي بعض الاستعارات التي تجسم عمق المعاناة التي تلظاها من جراء تذكره الماضي ، في ظل موازنته للحاضر ، مثل : (حطمت صدر مثقف) و (أرعفت أنف سنان) ؛ حيث جسم الرمح ، فجعل له صدرا، وأنفا ، وحذف المشبه به وهو الإنسان ، وأتى بشيء من لوازمه ، فهي صورة حسية تبين بأس الشاعر ، وشدته على عدوه الذي لم يُذكر صراحة في البيت ، بل أسقط على رمحه ما نكّل عدوه به ، فكأنه يتشفى من عدوه فيما أسقطه على الرمح ، الذي حطمه الشاعر، وأرعف أنفه [2] ، وربما كان اختيار الشاعر كلمة (صدر) ليس عشوائيا ؛ بل تأخذ المتلقي إلى زمن مضى من حياة الشاعر ، قبل أسره ، فيشهد حسن بلاء الشاعر الذي لا يبارز إلا مجابهة ، وضربات الصدور لا تخطئ أهدافها .

---

(١) . الديوان : ٢/ ٢٠٥

(٢) . يُقال للرماح الرواعف ، إما لتقدمها في الطعن ، وإما لسيلان الدم منها (انظر : لسان العرب : (رعف))

وفي استغراقه في وصف الجياد التي كان يسيرها إلى أرض المعارك ، مايدل على شدة حسرته ، على تلك الأيام التي تمثل عذاباً لحاضره الأليم ، وحين بلغ قوله [1]:

وأَنـــا الـــذي مـــلأَ البســـيطة كُلَّهـــا نَـاري ، وَطنّـب فـي السَّـمَاء دُخَـاني

بلغ درجة أشبه ما تكون بصوت العويل ، الذي انفجر فجأة بعد نحيب طويل ؛ ليسمو بنفسه سمواً لا يشفي غليله هذه المرة ؛ بل ليزيد من اشتعال الموقف ؛ لتصل حسرته على نفسه إلى درجة ، لا تقل عن درجة سموه بنفسه .

فكم تشير الألفاظ (أنا ، كلها ، طنّب ، السماء ، دخاني) إلى أبلغ درجات السمو والإحساس بالرفعة ، فهي توحي بترفعه وتميزه على من سواه من الورى ، وكنايته عن رفعته بالنار التي تضيء الأفق ، وتملأ الأرجاء بضوئها ودخانها ، كناية خدمت الموقف ، وتناسبت مع الشكوى والعتاب ، إذ جعلت شكواه تتردد في إيقاع صاخب يعبر عن عظم الفجيعة ، وعظم العتاب على قوم أضاعوه ، وأي فتى أضاعوا؟!

ثم تراه بعد هذه الثورة العنيفة ، وبعد هذه النبرة المرتفعة ، يعود إلى نفسه ويهون عليها المصاب ، بتذكره أنّ ما حصل كان قضاءً ، لا تقيه أرض ولا سماء !!

وقبل أن ينهي القصيدة ذكر الغرض الرئيس منها ، وهو تحذير قومه من خطر الروم المحدق بهم ، فبعد علمه بنوايا الدمستق وخروجه إلى الشام ، أخذ يوثب قومه ، ويحفزهم للوثوب إلى عدوهم ، عن طريق صورة تخيلها لجيش الروم ؛ فقد تخيل جيش العدو ، وهو ينزح إلى قومه بأعدادهم المهولة ، على أتم الأهبة والاستعداد ، وتخيل اللواء الذي يحملونه ، وهدفهم الذي يقاتلون لأجله ، إنه جيش يرفع لواء الصليب ، سيما البغي والظلم على وجوههم ، يقول [٢] :

هـــذي الجُيُـــوشُ ، تَجِـــيشُ نحـــوَ مَحفُوفـــةً بـــالكُفْرِ والصُّـــلبَانِ

---

(١) . الديوان : ٢ / ٤٠٩

(٢) . المصدر نفسه : ٢/ ٤١١

البَغْـــيُ أَكْثَـــرُ مـــا تُقِـــلُّ خُيُـــولُهُمْ والبَغْـــيُ شَـــرُّ مُصَـــاحِبِ الإنسَـــانِ

ليسُـوا يَنُـونَ ، فَـلاَ تَنُـوا فـي أَمْـرِكُمْ لا يَـنْهضُ الـوَانِي لَغيْـر الـوَاني

غَضَـباً لـدِينِ اللهِ أنْ لا تَغْضَـبُوا لـمْ يشـتهِرْ فـي نَصْـرِه سَـيْفَانِ

فربما لم يشاهد الشاعر ذلك المشهد ، إنما تخيله في صورة تنقل اهتماماته ؛ ليستنبط من ذلك غيرة الشاعر على دينه أولاً بدليل ذكره لأدق التفاصيل ؛ بل لأهمها ، فهي ليست حرب قبائل بين بني حمدان ، والقبائل المارقة ؛ إنما حرب دينية ، أي أن القتال فيها جهاد في سبيل الله ، ونصرة للدين ، وهذا ما يُحمس الهمم ويلهبها .

و لم تكن هذه الصورة التي تخيلها الشاعر بمنأى عن العتاب والشكوى ؛ بل هي متصلة بما ذكره سابقاً ، بخيوط دقيقة ، وبحيلة ذكية ، فالشاعر ليس حراً طليقاً مثل استنهاض لقيط بن عمرو الإيادي لقومه العرب حين علم بخطر كسرى عليهم ، وهو يتبوأ في أرض كسرى [1] ؛ بل كان شاعرنا أسيراً مخذولاً من قومه قاصيهم ودانيهم ، ليس في الأسر وحسب ؛ بل في جُل حياته ، وهو مع ذلك قدم لهم النصح والمشورة ، التي ربما كانت هلكته فيها ؛ ولكنه قدمها من باب الوفاء أولاً ، ثم من باب التبكيت والتقريع الخفي ، فخذلانهم له ، لم يردعه عن تقديم الواجب لهم ، حتى وإن لم يسارعوا بتقديم الفداء ، إذن هو أفضل منهم بلا منازع ؛ ولكن علمهم بذلك لا يزيدهم إلا جهلاً ! ! .

ولم يكن الشاعر مسرفاً في استخدام الصور في العتاب والشكوى إلا بما يخدم الغرض، دون أن يكون وبالاً عليه ، فالرقة في الشكوى أو العتاب تحتاج إلى رقة الصور وعذوبتها، والعكس فيما لو أراد الشاعر أن يشكو من أمر عظيم مثل الغربة أو العتاب على حساده من قومه .

فحين شكا لوعة الفراق ، تخير لها من الصور ما يلائم ذلك ، في مثل قوله [2] :

---

(١) . هو لقيط بن يعمر الإيادي ، شاعر جاهلي قديم مقل ، لا يُعرف له من شعره إلا القصيدة التي أرسلها إلى قومه يُحذرهم فيها من خطر كسرى عليهم ، و قطع من الشعر لطاف متفرقة .
(انظر : الأغاني : مج١١/ ج ٢٢ / ص ٥٠٩) .

(٢) الديوان : ٢ / ٢٢٠

إلـى اللهِ أشْـكُو مِـنْ فِرَاقِـكَ لَوْعَـةً ، طَوَيْـتُ لَهَـا ، مِنِّـي الضُّـلُوعَ ، عَلَـى

وحَسْــرَةَ مُرتَــاحٍ إذَا اشــتَاقَ قَلبُــهُ ، تَعَلَّـلَ بالشَّـكْوَى وَعَـادَ إلـى الصَّـبْرِ

فَعُدْ يا زَمانَ القُرْبِ ، في خَيْرِ عِيَشَةٍ ، وأَنْعَـم بـالٍ ، مـا بَـدَا كوكـبٌ دُرّي

فتشبيه الأشياء الباطنية ، من أدق الأشياء ، التي تحتاج إلى حذق ومهارة ؛ لكي تطبع ما في الوجدان دون أن تسلبه حقه ، فتصوير الجمر بين الضلوع ، تصوير دقيق ادخره ، ليشبه لوعته بعد فراق خليله بتلك الجمرة التي تتلظى داخل الأحشاء ، بين الجوانح.

إنها صورة عظيمة حين يتأملها المتلقي ، يدرك أنّ صاحب هذا القلب ، يعاني من لوعة عظيمة ، تفوق حدود تحمل البشر ، فإذا كان الإنسان لا يطيق تحمل القبض على الجمر ، ولو للحظات ، فكيف به ، وهو يحمل تلك الجمرة في داخل أحشائه !!

فلو كانت محسوسة ملموسة باليد ؛ لتمكن صاحبها من إخمادها بالماء قبل أن تترمد بيده ؛ ولكنّ الأدهى والأمر أن تكون في الوجدان ، فما الذي يُخمدها ؟!

وفي البيت الذي يليه شبه تشبثه بالشكوى ، بالصبي الذي يُعلل ليسكت ، وحذف المشبه به ، وأتى بشيء من لوازمه ، على سبيل الاستعارة المكنية ؛ لينقل لصاحبه ما خفي عنه ، عن طريق حسي .

وتابع الاستعارة في البيت الذي يليه ، فشخَّص الزمان في صورة إنسان يُدعى ، على سبيل الاستعارة المكنية التي صورت رقة الشاعر ، وفرط حنينه ، فهو ينادي الزمان ، ويطلب منه أن يعيد أيام القرب والوصال ، على كثرة سبه له ، وذمه لأهله ؛ إلا أن فرط الحنين جعله يتناسى كل صفة قبيحة خلعها على زمانه ، فشوقه لخليله ، جعله لا يطلب من الزمان أن يعيد نفسه وحسب !! بل أن ينعمهم بدوام القرب ، دون أن يفجعهم بالفراق، وكنى عن ذلك الدوام ، بقوله : (ما بدا كوكب دري) .

وللشاعر في تخير أصحابه فلسفة خاصة ، فهو يتخيرهم ، كما يتخير المشتري ما يُعجبه من السلع ، والأمر الطبيعي في البشر ، أن الشخص لا يُقدم على الشراء إلا إذا أعجبته السلعة، فإن أعجبته ؛ تمت البيعة ؛ ومن اشترى ما يُقنعه ، صعُب عليه التفريط به ، هذا

كله أجمله الشاعر في عتابه على خلان هذا الزمان ، فقد بذل لهم ما يبذله المشتري من نفيس أمواله للسلعة الثمينة ؛ ولكنه بعد التجربة ؛ أدرك أنها سلعة كاسدة ، لا تستحق ما بُذل لها من أموال ؛ فقال [1] :

لا أَشْـتري بَعْـدَ التَّجـرُّبَ صَـاحِباً إلا ودِدْتُ بـأنَّني لَـمْ أشْـرِهِ

مِـنْ كُـلِّ غَـدَّارٍ يُقـرُّ بِذَنْبِـهِ فيكُـونُ أَعْظَـمُ ذَنْبِـهِ فـي عُـذْرِهِ

ويجـيءُ طَـوْراً ، ضُـرُّهُ فـي نَفْعِـهِ ، جَهْـلاً ، وَطـوْراً ، نفعُـهُ فـي ضُـرِّهِ

فصـبرتُ لـمْ أَقْطَـعَ حَبَـالَ وِدَادِهِ وسـترتُ مِنـهُ ، مـا اسْـتَطَعْتُ ، بسَـتْرِهِ

فالاستعارة المكنية في البيت الأول بيّنت موقف الشاعر من الأصحاب ، وجسدت تلك المعاناة التي عاناها الشاعر ممن حسبهم أصدقاء ، والبيت الذي يليه ، صوّر فيه تلك المعاناة عن طريق صورة واقعية طريفة ، استقبح فيها عذر الصديق ، الذي لو اكتفى بذنبه ؛ لكان خيراً له .

والبيت الذي يليه خلع فيه على الصديق بعض أمارات الحماقة ، في صورة سخرية لاذعة ، فهو لا يعلم متى ينفع ، ومتى يضر !!

وأسند الشاعر في البيت الأخير كلمة (حبال) إلى (وداد) ، إسناداً مجازياً ، لأن الحبل يوحي بالتماسك ، والطول ، وهو أداة للربط ، وللحبل طرفان ؛ فإن تقطّع ؛ أصبح لذلك الحبل صورة جديدة ، ومغزى آخر ، ولا ينقطع الحبل دائماً إلا إذا وهن نسيجه ، ورقّ ، ويُلحظ لذلك علامات تنبئ بقطعه ، أما الشاعر ؛ فقد لاحظ العلامات التي تُنبئ بتمزق الحبال ؛ لكنه رتقها ، وحافظ على ذلك الصاحب الذي لا يستحق ما حُفظ له .

---

(١) . الديون : ٢/١٩٦-١٩٧

المبحث الخامس : الشاعر في ميزان النقد :

يتسع الأدب اتساع الحياة ، ومن الطبيعي أن تختلف اتجاهات الباحثين فيه حسب ثقافتهم وأمزجتهم ، ومن الطبيعي أيضاً أن تتمثل في العصر الحاضر تركة العصور الماضية- البعيدة والقريبة – في مذاهبها ومنازعها .

واختلاف آراء النقاد ، يتبع اختلاف اتجاهاتهم ؛ فالناقد التقريري يحاول أن يقيس الفن حسب أصول وقواعد ، والناقد التاريخي يجول بك في البيئة والعصر والجنس ، ويجعل الناقد السيكولوجي همه حياة الشاعر وبواعثه ومسالك شعره إلى النفوس ، والناقد الجمالي يصعد على سلم الفن إلى نظريات الذوق والجمال ، والناقد الانطباعي يهب نفسه للعمل الأدبي [1] .

و يرتكزالناقد الحديث على دعائم النقاد القدامى ، فتراه يؤيد ما نُقل عنهم ، ويحاول أن يدلل على ذلك ، ويعقب ، ويستدرك ما فاتهم ، وإما أن يُفند بعض الآراء، ويدلل على عدم دقتها بمقياس عصره ، أو عصر الشاعر ، أو عصر الناقد – إن كان متأخراً عن عصر الشاعر – وإما أن يكون له رأي نقدي خاص به ، فهو لا يفتأ يسوق الأدلة والبراهين التي تثبت صحة رأيه .

وقد حظي شعر أبي فراس بزخم نقدي هائل ، ومن نافلة القول أن أستعرض تلك الآراء ، التي تكاد أن تذكر في كل دراسة حول الشاعر وشعره ؛ ولكن الوقوف على بعض تلك الآراء له أهمية كبرى في تحديد بعض المظاهر التي اتضح بعضها ، وبعضها ما زال مدفوناً في ثنايا النص .

وممن وقف على آراء النقاد القدامى والمحدثين ، د . أحمد بدوي ، وناقش تلك الآراء

---

(١) . أنظر : من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده : ص ٣٦

وبيّن ما فيها من صواب أو خطأ أو مبالغة ، ومما وقف عليه ،قول الصاحب بن عباد [1] : " بدئ الشعر بملك ، وختم بملك "[2]يقصد امرأ القيس و أبافراس ؛ فاعترض د٠ بدوي على ذلك ؛ لوجود من جاء بعد الشاعر ، مثل الشريف الرضي ، وأبي العلاء ؛ ولكنه التمس عذراً للصاحب في أمرين : أحدهما : أن الصاحب لم يدرك نضج الشريف ، وأبي العلاء ، والآخر: إعجاب الصاحب الشديد بأبي فراس ؛ لقوة شخصيته بدليل ما ذكره صاحب اليتيمة من خبر يدل على ذلك يقول:" و حكى بديع الزمان الهمذاني قال: قال الصاحب أبو القاسم يوماً لجلسائه وأنا فيهم – وقد جرى ذكر أبي فراس – : لا يقدر أحد أن يزور على أبي فراس شعراً ، فقلت : ومن يقدر على ذلك وهو الذي يقول:

رويــدك لا تصــل يــدها بباعــك ولا تغــر الســباع إلــى رباعــك

ولا تعــن العــدو علــيّ ، إنــي يمــين إن قطعــت فمــن ذراعــك

فقال الصاحب : صدقت ، قلت : أيد الله مولانا قد فعلت " [3]

وقد استنبط د٠بدوي من الرواية أمرين ؛ الأمر الأول يُدّعم موقف الصاحب من إعجابه بالشاعر ، والأمر الآخر التشكيك في صحة هذه الرواية ؛ لعدة أسباب كان يراها ، السبب الأول أنّ مجالس الصاحب عُرفت بالهيبة و الإجلال ، و كان جلساؤه يلتمسون ما يرضيه ، ويصدقونه فيما يقول ، تصديقاً ربما لا يكون مبعثه الإيمان .

والسبب الثاني ، أنّ هذه القطعة بعيدة عن روح أبي فراس ، فهو لم يدع يوماً أعداءه ومنافسيه سباعاً ؛ بل كانوا في نظره صغاراً ، وذلك لا يخفى على فطنة الصاحب[4] !!

---

(١) . هو أبو القاسم إسماعيل بن أبي الحسن بن عباد بن العباس بن عباد بن أحمد بن إدريس الطالقاني ،كان نادرة الدهر ، وأعجوبة العصر في فضائله ومكارمه ، أخذ الأدب عن أحمد بن فارس اللغوي وعن ابن العميد ، وغيرهما ، نشأ في حجر الوزارة ، فتولى وزارة مؤيد الدولة بن بويه ، ووزارة فخر الدولة ، صنّف كتاباً في اللغة سماه المحيط ، اجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره ، ولد سنة ٣٢٦هـ ، وتوفى سنة ٣٨٥هـ .

(انظر : وفيات الأعيان : ١ / ٢٨٨ ، و مابعدها) .

(٢) . يتيمة الدهر : ٥٧/٢

(٣) . المصدر نفسه : ١١١/٢

(٤) . انظر : شاعر بني حمدان : ١٨١-١٨٢

والأمر الثالث ، أنّ البيتين الذين ذكرهما البديع ، ليسا بشاهدين لدعواه ، فليس فيهما ما ينفي قدرة أحد أن يدخل في شعر أبي فراس ما ليس منه ، فلِمَ لا تكون هذه الرواية من نسج بديع الزمان ، ورجّح د. بدوي أنّ البديع هو مُخترعها ؛ ليبين ما ادعاه من قوة البديهة .

وفي رأي الباحثة ما يحفظ للبديع حقوق قصته ، مبنية على ما اتضح من دراسة حياة الشاعر ، وشكواه من مُنافسيه وعتابه على حساده ، ولعل ما أذكره يُقارب بعض الصواب. فالرد على السبب الذي يعزو التشكيك في القصة ، إلى ما عُرف من هيبة مجالس الصاحب بن عباد ؛ فإنّ سيف الدولة كان أميراً أي أنَّ منزلته الاجتماعية كانت أسمى من الصاحب بن عباد ، وكان يعشق الأدب مثل صاحبه ، ويحضره الأدباء ، ويتبارون عنده؛ دون أن يجدوا في أنفسهم حرجاً ؛ بل يصل الأمر إلى الملاسنة وسيف الدولة حاضر ، وقد ذكر ابن خلكان أنّ للصاحب نوادر كثيرة ؛ فلِمَ لا تكون هذه إحداها ، ثم إنّ الشعراء يُدخلون نوعاً من الطرافة على مجالس الخلفاء ، وقد حفظ التاريخ كثيراً من ذلك ؛ بل نال بعضهم حظوته عند الخلفاء أو الأمراء أو الوزراء بسبب سرعة البديهة وحضور الرد و طرافة الموقف ، بالإضافة إلى ما تخلقه طبيعة الشعر الغنائية من مرونة .

والأمر الثاني أفاد من دراستي لعتاب الشاعر وشكواه ، حيث اتضح أنَّ علاقة الشاعر بمنافسيه وحساده في أكثر ما غلب عليه ، تميل إلى خوفه منهم ، وقد مرّ ذلك في مباحث سابقة ، فهو إنْ حقّر شأنهم ، ووصفهم بالضعف ؛ فإنه يخشاهم في قرارة نفسه و يخاف مكرهم وهذا ليس تجوزاً في سبر أغوار نفس الشاعر ؛ بل هناك دلائل واضحة في شعره تدل على تلاشي ثقته بالناس ولديه إحساس بالغربة منهم ، حتى من أقاربه ، ، وقد خالَ أنّ الكواكب ستنضم إلى زمرة حاسديه .

و كان خوفه من حساده و منافسيه ، أقرب دلالة من استحقاره لهم ، فهو إنّ عرّض

بهم ، ونال من رأيهم وعزيمتهم ، وذمهم بمثلبة الحسد والغدر ؛ فما السبب الذي دفعه أن

يُعلن رغبته في الارتحال عنهم و يُبدي ضجره منهم ؟! ولو كان الأمر يقتصر على استحقاره لهم ؛ لكان من الأولى أنْ ينبذهم ، ولا يحاول أن يدرأ عن نفسه أقاويلهم ، ولا أن يحاورهم ؛ بل يغضي عنهم ؛ ترفعاً وتسفيهاً ؟! بل هم سباع كما ذكر ، وهو طريدتهم !!

أما الأمر الثالث ؛ فقد يكون كما ذكر د. بدوي ؛ ولكن يبدو تحامله على بديع الزمان ، وما يهم في إيراد هذه القصة ؛ الاستدلال على أن طبيعة دراسة أغراض الشاعر أياً كانت؛ تفسر الآراء وتوضّحها وهذا هو المطلوب من الأديب " أن يكون له ميسم ذاتي، وطابع شخصي ، يدمغ به كل عمل يخرج من بين يديه ، فيلمسه القارئ في كل أعماله ، لا في طريقة تعبيره ، ولكن أولاً في طريقة شعوره " (١)

وممن اهتم بمنزلة الشاعر الشعرية صاحب اليتيمة ؛ ولا تكاد دراسة تخلو من الوقوف على آراء الثعالبي ، ورأيه في الشاعر ، وكان شديد الإعجاب بالشاعر ، وخصص له باباً في اليتيمة عرض فيه أشعاره وصنفها في أغراض مثل : الشكوى والعتاب سوى ما وقع في الروميات ، أوصافه وتشبيهاته ، الحكمة والموعظة ، الروميات من غرر أبي فراس ، من طرديات أبي فراس (٢) .

وربما كانت شدة إعجاب الثعالبي ، هي التي قادته إلى التماس العذر للمتنبي حين ترك مديح أبي فراس ، و قد أرجع الثعالبي ذلك إلى أنّ " المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز، ويتحامى جانبه فلا ينبري لمباراته ، ولا يجترئ على مجاراته ، وإنما لم يمدحه ومدح من آل حمدان تهيباً له وإجلالاً ، لا إغفالاً وإخلالاً " (٣) .

وهذا يدل على شدة إعجاب الثعالبي بالشاعر ، ومحاولة إخماد كل قول يحط من منزلة أبي

---

(١) . النقد الأدبي أصوله ومناهجه : ص ٢١

(٢) . انظر : يتيمة الدهر : ١/ من ص ٧٦ إلى ١١٢

(٣) . انظر : المصدر نفسه : ٥٧/١

فراس ، وعدم الخوض في تفاصيل ذلك .

وكان مما قاله في منزلة شعره" وشعره مشهور سائر بين الحسن والجودة ، والسهولة والجزالة ، والعذوبة والفخامة ، والحلاوة والمتانة ... إلى أن ذكر أنّ هذه الخلال لم تجتمع في شعر أحد قبله ، إلا في شعر عبد الله بن المعتز ، وفاقت منزلة الأول عن الآخر عند أهل الصنعة ونقدة الكلام .

وقد اهتم د. أحمد بدوي بجمع آراء النقاد الذين تلوا الثعالبي ، مثل ابن خلكان في وفيات الأعيان ، الذي انشغل بالجانب التاريخي عن الحديث عن شعره ، " ولم يظفر أبو فراس بعد ذلك بدراسة مفصلة إلى عصرنا الحاضر ، واكتفى مؤرخوه بدراسة بعض نواحي حياته ، كحديث أسره وموته ، وبأحكام عامة على شعره "[1] .

ثمّ ذكر أبرز الدراسات التي أجريت في العصر الحاضر ، وذكر أنّ كثيراً منهم ، كان يكرر ما جاء في اليتيمة ، وفي وفيات الأعيان ، وأضاف د . عبد الجليل حسن عبدالمهدي على ذلك ، ما استشهد الأدباء والنقاد القدامى من أشعار أبي فراس في كتبهم ، كما هو شأن العسكري في ديوان المعاني ، والأبشيهي في المستطرف ، وياقوت في معجم الأدباء ، والعزي في شرح المضمون [2] .

وربما كان السبب في أنّ هذه الدراسات لم تتغلغل في أعماق الشاعر ، وتسبر أغواره ؛ أنها تمثل معاجم ، ومجاميع شعرية ، لم يكن شاعرنا مقصدها الوحيد ؛ بل بلغت جهودهم مبالغ عظيمة ، حاولوا فيها أن يجمعوا للأدب أكبر قدر ممكن من الأدباء المشهورين والمغمورين ، ويسوقوا فرائد أدبهم ، وصوراً من حياتهم .

و قد بلغ الشاعر مع تطور الدراسات النقدية في العصر الحاضر مبالغ عظيمة في موازين النقد ، ما بين مُغال ، ومتوسط ، ومتغاض عن إيراد ذكر الشاعر من جملة من ذكرهم من شعراء ذلك القرن .

---

(١) . شاعر بني حمدان : ص ١٨٥

(٢) . انظر : أبو فراس الحمداني حياته وشعره : ص ٤٠٧

والدراسات السابقة الموجودة في بداية البحث ، أبرزت بعضها ، ولا يزال ميدان البحث

والنقد قائماً إلى اليوم ، وهناك جهود مبذولة ، حاولت جمع آراء النقاد العرب والمستشرقين ، وبيّنت هذه الدراسات المحاور النقدية التي انصرف النقاد إليها ، مثل أسر الشاعر ، والوقوف على عدد مرات أسره ، والعلاقة بين أبي الطيب وأبي فراس ، وذكروا من سمات شعره الفنية ، جودة لغته ، وحسن اختيار ألفاظه ، وجمال تعبيره ، وأنه أشعر المولدين في الحماسة ، و أنّ استسلامه إلى عواطفه ؛ ضيّق خياله [1]

ومهما يكن من أمر هذه الدراسات ؛ فإنها تُمثِل محاولات جادة للوقوف على شعر أبي فراس ، و يُلحظ الآن زيادة هذه الدراسات بكثرة ، واهتمامها المفرط بشعر الأسر ، الذي فجّر شاعريته ، و لا يُمكن بالطبع إنكار ما للأسر من أهمية بالغة ، ووجدانيات صادقة ؛ ولكن ثمة أمر يجب الوقوف عليه ، وهو ارتباط شاعريته في مرحلة الأسر بما قبلها وبعدها؛ فقد كانت هناك دلائل قبل الأسر تدل على ما بعدها ، و دلَّ عتاب وشكواه على ذلك ؛ فلم تكن استطالة الشاعر في العتاب على سيف الدولة – مثلاً – مفاجأة عظيمة ، أو أمراً غير متوقع منه ؛ لما عُرف من حب الشاعر الشديد لسيف الدولة وتقديره له ؛ بل إن التدقيق في شخصية الشاعر ، وتفحص عتابه وشكواه قبل الأسر ؛ ينبئ بذلك ، ويُمهّد لحصول ما هو أعظم .

وترتبط دراسة العتاب والشكوى في شعر أبي فراس ارتباطاً كبيراً ، بالدراسة النقدية لشعره ؛ والعلة في ذلك أنّ كلاً من العتاب والشكوى يُسهم بقدر كبير في غالبية أغراضه الأخرى ، وعن طريقهما تتضح معالم تفيد الدراسة النقدية ، وتكشف عن وظائف

---

(١) . انظر على سبيل المثال : شاعر بني حمدان ، فقد ذكر صاحبه علاوة على آراء القدامى آراء المحدثين ، مثل : جورجي زيدان ، وأفرم البستاني ، وكامل الكيلاني ، وسامي الكيالي ، والسيد العاملي ، وبطرس البستاني ، وعلي الجارم ، ومن المستشرقين : بروكلمان ، وبلاشير ، وفون كريمر، وإيوارت ، وكراتشكوفسكي . (انظر : شاعر بني حمدان : ص ١٨٥ ، وما بعدها)

اجتماعية للشعر " وعندما يهدف الشعر إلى جانب المنفعة المباشرة ، فإنه يثير في المتلقي انفعالات من شأنها أن تفضي إلى أفعال ، فيوجه سلوك المتلقي ومواقفه من وجهات خاصة تتفق والأغراض الاجتماعية المباشرة للشعر [1] .

و قد وضحت دراسة عتاب الشاعر وشكواه لوناً من قدراته الخفية على الإقناع ، وأمثلة ذلك في شعره كثيرة ، منها استغلال مناسبات تُثير الاهتمام لينفذ من خلالها إلى العتاب والشكوى ، فحين أراد استنهاض همم قومه للتصدي لخطر الروم الذي يتجه إليهم ، لم يبدأ مباشرة بالإنذار ؛ بل لجأ إلى مراده الذي لم يكن أقل أهمية عن الغرض الرئيس من القصيدة ؛ لذلك ادخر الغرض إلى نهاية القصيدة ، وابتدأ بمقدمة تقليدية، تمثل تمهيداُ لما يليها ، ثم شرع في شكوى مريرة ، وعتاب قوي يزلزل الفؤاد، ويطرد النوم عن الوسنان ، وبعد أن أفرغ ما بجعبته من عتاب وشكوى ، شرع في إخبار قومه بما كان يتربصهم .

وطريقة الشاعر في تناول هذا الموضوع ، طريقة ذكية ، فهو لم يبدأ بعد المقدمة بإخبار قومه ؛ بل أخّرها قليلاً ليضمن وقوع العتاب والشكوى في نفوسهم ، وليمكّنهم من استيعابها والتأثر لحاله ، ولو بدأ بإنذارهم ثم عتب عليهم لما أسرفوا في حقه ؛ لفتر عتابه ، وماتت شكواه ؛ ولكنّ الشاعر على ما يبدو كان مُدركاً أهمية ما يربط بين الشاعر والمتلقي.

و قد أجاد الشاعر في جذب العواطف عن طريق العاطفة والعقل ؛ لأنّ شعر العتاب والشكوى ليس عاطفياً محضاً ، يستند على استدرار العواطف عن طريق التهالك في إظهار الضعف والضيم ؛ بل يحتاج إلى إقناع ، وعلم بنفسية المعاتب أو المتلقي ، و قد فطن الشاعر إلى هذا الأمر على ما يبدو في شعره كثيراً ، وهذا يدل على أنّ الشاعر مهما كان وجدانياً ؛ فإنه يمتلك قدرة عقلية تُمَكنه من تقدير الأمور تقديراً ، يُفسح المجال لنفسه أن تُرتب للمتلقي ما يُثير انتباهه ، وتتصدر العاطفة في الشعر بشكل عام ، "متكئة على

---

(١) . النقد الأدبي (٢) الصورة الفنية : ص ٣٣٠

حقيقة تسندها وتبعث فيها الصدق والقوة والبناء " [1]

ومن الأمور التي أُخذت على أبي فراس وأبي الطيب ، الجرأة ، والثقة بالنفس ، وشدة التعالي ، وهذا أمر لا ينازع عليه منازع ، ووجوده في شعر أبي فراس بكثرة لا يعني أنّ الشاعر لا يعي مغبة أقواله ؛ بل كان في مكاشفة صريحة لأعماق ذاته ، التي تأبى التدليس أوالغش ، وقد كشف عتاب الشاعر وشكواه عن صور أبرزت عدم قدرته على كبح ما جمح من قوة العتاب والشكوى ، وهذا يدل على قوة شخصية الشاعر ، وذوبانها في شعره.

ومن الجدير بالذكر أنّ للشاعر اتجاهات ملحوظة في شعره ، مثل الرمزية ، التي وإن كانت حديثة الظهور إلا أنّ جذورها تضرب في الأعماق ، وهي تناسب العتاب والشكوى ؛ للتعريض والتعمية على المتلقي ، ولتحمل للمُعاتب بعض ما في نفس الشاعر بطرق خفية ، حتى وإن أغضبته ؛ فإنها ستظل أقل أثراً من المواجهة الصريحة ، إلى ما فيها من قيمة فنية ، ويدل اتجاه الشاعر إليها على حسه الفني وحذقه ووعيه ومهارته في جذب ما يخدم موضوعه ، فالرمزية قد تسعى إلى خلق حالة نفسية خاصة والإيحاء بتلك الحالة في غموض وإبهام ، بحيث لا نستطيع أن نُحلل عقلياً تفاصيل المعاني التي يعبر عنها ، وإن كنا نحس بالحالة النفسية التي صدر عنها ، و هي لا تستخدم الشعر للتعبير عن معان واضحة أو مشاعر محددة ، بل تكتفي بالإيحاء النفسي والتصوير العام عن طريق الرمز[٢].

إذن فالرابط النفسي الذي في الرمزية يربط بين الشاعر والمتلقي ربطاً ، ينفذ فيه الأخير إلى أعماق نفس الأول بدبيب ، في وسط مشهد ظلامي ، يُثيره وينفذ إلى عقله ووجدانه .

يقول د. أحمد مختار البرزة :" ويؤيد دعوى الرمز في الغزل بعض كبار الشعراء من غير

---

(١) . الأسلوب : ص ٦٣

(٢) . انظر : الأدب ومذاهبه : د. أحمد مندور ، ص ١٢١ ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، (ب . ط) ، القاهرة ، ١٩٩٨ .

البداة اتخذوا من الغزل التقليدي شكلاً تعبيرياً عن آلام وحقائق تغمر وجدانهم وأقوى الأدلة رومية لأبي فراس الحمداني اشتهرت مقدمتها الغزلية (٢٧ بيتاً) حتى صارت موضوع غناء عصري سائر ، ودار فيها عتاب شيق بين الشاعر وغادته ليس هو في حقيقته

إلا غـزلاً رمزيـاً ظـاهره الشـكوى واللوعـة والأشـواق الصـادرة عـن حرمـان الوصـل و هجـران الحبيب وصدوده ، وباطنه الشكوى من انصراف ابن عمه عنه وأصدقائه وإخوانه ومن أوجاع الأسر وهوانه" [١]

ومضى بعد ذلك في إيجاد ما يدل على مقاصد الشاعر ، وهذا أمر لا يمكن الجزم به ؛ ولكنه مُرجّح وجوده عند الشاعر ، وخصوصاً أنّ في نفسيته ما يدل على مثل ذلك ، وهذا مسلك بديع منه ، يدل على عدم رتابة مسالك العتاب والشكوى في شعره.

وقد عـاش الشـاعر علـى بطولـة فتيـة ، ربـط فيهـا بـين زهـو الفـتى وبطولـة المغـامر، وبـين اقتحـام الفـارس وانكسـار الأسـير ، وارتفـع بكـل هـذه المواقـف إلى مسـتوى النبـل والترفـع والعظمة ، فهو كما هو دائماً المنتصر باستمرار ، المغني بعفوية الشاعر الرومنسي كل آلامه وآماله ، على شيء من التعالي [٢] فاتجاه الشاعر إلى الرومانسية اتجاه مُبكر في وقت لم تصبح فيه بعد الرومانسية مذهباً أدبياً ؛ ولكنّ شخصية الشاعر وظروف حياته المختلفة، جعلتـه يتجـه إلى ذلـك ، وخصوصـاً أنّ الرومانسـية "تـرفض أن تتقيـد في فنهـا بأصـول أو أوضـاع" [٣] والشعر الغنائي فن ينبع من الذات ، التي تطلق أعنتها لتصل إلى غايتها التي تسعى إلى تحقيقها ، دون أن يلجمها مذهب من المذاهب و" لقد اتخذت الرومانسية من الشعر وسيلة للتعبير عن الذات " [٤]

وقد تضافرت عوامل عدة ألقت بظلالها على شعر أبي فراس ؛ لتجتاز حدود الزمان ،

---

(١) . الأسر والسجن في شعر العرب :ص ٥٦٨

(٢) . انظر : أبو فراس الحمداني فتوة رومنسية : ص ٦٤

(٣) . الأدب ومذاهبه : ٦٧

(٤) . المصدرنفسه : ص ٦٧

وتتخطى حواجز المذاهب ؛ لتصل إلى غايتها ، وقد ساعده على ذلك الغربة التي عاشها الشاعر بين ظهراني قومه ، وخلف أسوار الأسر ، والتهاب أوار الشوق والحنين بين جوانحه ، و هذه زينت لتلك الاتجاهات المبكرة بالبزوغ " ومن التعمل أن نقول أنه شاعر رومنسي ..

بالمعنى الفلسفي لهذه الكلمة .. كل ما نستطيع أن نقوله ، دون أن ننعت بالسخف ، أو الابتذال ، هو أن أبا فراس كان في بعض مواقفه ، وبعض خصائصه النفسية، ذا مزاج رومنسي " [1] .

ومهما يكن من أمر ؛ فإنّ محاولة الربط بين شعر أبي فراس والمذاهب الأدبية المختلفة ؛ أمر لا يُمكن حسمه ، ولا يُنكر وجوده ؛ لأنّ الشاعر أفسح المجال لنفسه أن تعبر كيف شاءت ، ولا أدل على ذلك من عتابه القوي ، الذي أرسله من عقاله دون أن يُفكر في عواقبه ، متجاهلاً الحد الذي من الممكن أن يُضرَّ به ، وهذا دليل على صدق تجربته ، التي ملّكها ناصية شعره .

فأبو فراس شاعر كغيره من الشعراء ، له من المحاسن وعليه من المآخذ ؛ ولكنه استطاع أن يثبت نفسه من خلال شعره ، كما أثبتها من خلال بطولته ، وقد حظي العتاب والشكوى بحظ وافر من شعره ، و جسّد نفسه المتمردة والثائرة حيناً ، والرقيقة الهيّنة حيناً آخر ، فاسحاً لنفسه المجال في تخيّر ما يناسبها ، دون أن يجُبرها على تكلف أو يُكرهها على ما يُخالف طبعها .

---

(١) . أبو فراس الحمداني فتوة رومنسية :ص ٧٠

الخاتمـــة

ينبع العتاب والشكوى من منبع واحد ، وهو عدم الرضا والشعور أنّ هناك خللاً أثّر على الشاعر ، و ولّد لديه الرغبة في الإفصاح عما بداخله ، أياً كانت الوسيلة ؛ فإنّ رغبته في إخراجها تظل جامحة ، تتمرد على نفسه ، إلى أن تخرج بعد معاناة وتجربة جعلته يُرسل آهاته إلى المتلقي ، أياً كان نوع هذه الآهات ، من شكوى مريرة ، أو مُحاسبة أعدها الشاعر ؛ ليحفظ الوداد ، ويُصلح ما فسد من أمر العلاقة ، قبل أن تتولد الضغائن .

وبالرغم من أنّ العتاب غرض مستقل بذاته عن الشكوى ؛ إلا أنّ هناك جامعاً كبيراً بينهما ، وقلما يخلو شعر العتاب من الشكوى .

وأبو فراس شاعر غمرته الأحداث ، وأحدقت به الخطوب ؛ التي استنطقت عتابه وشكواه ، ومزجتهما مزجاً يجعل تجزئتهما أمراً صعباً ؛ لتشابك أفنانهما ، والتقاء جذورهما – في الأغلب الأعم – في منبت واحد .

وقد ساعدت نفسيته الحساسة على تشكّل عوامل العتاب والشكوى في شعره ، التي اتسمت بالعبقرية والاعتداد بالنفس ، وضجره من أفعال أهل زمانه ؛ بعد أن ندد بالحسد والحساد ، وذمَّ الغدر وأهله ، وشكا الجفاة وعتب عليهم ، و لم يكن سلبياً في مجتمعه ؛ بل حاول إصلاح ما يُمكن إصلاحه ؛ لذلك لم تقتصر شكواه على التذمر ؛ بل كان في كثير من الأحيان ذلك المرشد الذي أهمه أمر مجتمعه ؛ فبذل النصح ، وغضّ الطرف ؛ تكرماً وإحساناً .

وفي صلته بسيف الدولة وهو في حضرته أو خارج بلاطه ، ما ساعد على إبراز فنون من العتاب والشكوى ، التي تُظهر الحب والود حيناً ، وتُبرز الغضب والجرأة حيناً آخر ؛ وذلك ما جعل سيف الدولة ما بين راض ، وساخط .

ويعتبر الأسر عاملاً من عوامل عتاب الشاعر وشكواه ؛ إذ ألقى بظلاله على شعر أبي فراس ، وطبع انفعالات أسير ، ضيّعه قومه في تخاذلهم عنه ، وكشف له عن حقائق كثيرة كان بعضها مما تحرّص بحدوثه ، وصدر بعضها دون سابق إنذار ، وكل ذلك أثر عليه ، وأرسله في شعره بالطريقة التي كانت تُناسبه .

و كانت للشاعر فلسفته الخاصة بالعتاب والشكوى ، فالعتاب له مزاياه الخاصة به ، ويُلمح في شعره ذلك الحذق في اختيار وسيلته ، واتخذ في شعره أنماطاً خاصة تُناسب كل مقام .

وللشكوى طبيعتها الخاصة بها ، كما أنّ لها جذوراً متغلغلة في نفسه ، والشيء الراسخ ، لا يُخرج إلا باسقاً ، ولها بواعثها التي أخرجتها من بواطن النفس.

وبناءً على ذلك نشأ التمازج بين العتاب والشكوى في شعره ، وقويت الصلة بينهما ، وتشابهت ملامحهما ، وقد اختلفت طرائق عتابه وشكواه من حيث القوة والضعف تبعاً لأهدافه ، وتغيّر نفسيته .

وقد حظي شعر العتاب والشكوى بخصائص فنية ، من حيث تمكن الشاعر من حسن أدائه في تخيّر لغة العتاب والشكوى المناسبة للموقف ، وفي تجربته الشعرية التي انبثقت من معاناته ، وانصهار ذاته في النص ، وفي موسيقاه التي أنطقت النص ، وساهمت بدور كبير في تبليغ مراد الشاعر ، كما أنّ الصورة الفنية ألقت بظلالها على عتابه وشكواه، ومكنته من تطويعها في شعره .

كما أنّ أبا فراس الشاعر الفارس وجد موضعاً له في موازين النقد القديمة والحديثة ، والوقوف على بعضها إن اتضح شيء يُفنّد أو يُصحح أو يُعقب ، أو يؤيد ؛ وهذا طبع في كل علم بشري أو دراسة .

وفيما يلي أهم نتائج البحث ، وأبرزها :

- أنّ العتاب والشكوى غرضان لهما أهمية كبرى ولهما قيمتهما الفنية في الشعر العربي ؛ ولكن تداخلهما في بقية الأغراض أغفل تخصيصهما بالدراسة ، إلا ما ندر .
- أنّ القوة الرابطة بين غرضي العتاب والشكوى رابطة قوية ، تجمعها أصول متقاربة .
- أنّ أبا فراس اعتنى بغرضي العتاب والشكوى ، وقصدهما لذاتهما ، بدليل ورودهما لفظاً في شعره ، و تُمثلهما في قصائد مستقلة بذاتها ، وأخرى في ثنايا قصائده ، وقد أحسن الربط فيها- فيما كان في ثنايا قصائده – بين الغرض الشعري الرئيس ، وبين عتابه وشكواه ، مما جعل ذلك أحياناً يقوده إلى الاستغراق في العتاب والشكوى ، حتى يُخال أنه لن يذكرغيرهما .
- أنّ الأسر ليس سيد الموقف في شعر أبي فراس – وبالأخص – في عتابه وشكواه؛ بل إنّ هناك جذوراً ممتدة كوّنتهما ، وأنّ لكل فن جميل ، جذراً عميقاً يُقيم صلب الشجرة ، وما تفرع من أغصانها .
- أنّ العتاب والشكوى يحتاجان إلى حذق كبير عند تخيّر أدواتهما ، وأنّ الشاعر قد فطن إلى ذلك ؛ وبذل له أسبابه .
- استنباط كثير من البواعث والأنماط التي أثبتت أنّ الشاعر لم يلج إلى بوابة العتاب والشكوى بطرق عشوائية ؛ بل يشير كثير منها إلى أنه أحكم خططاً مدروسة .
- أنّ الدراسة الفنية النقدية لشعر أبي فراس ، لا تعني بالضرورة أن تُعمّم على جميع أغراض شعره ، أو تقتصر على اتجاه واحد ؛ بل ربما كانت بحراً لا ساحل له ؛ تختلف بحسب اختلاف كل اتجاهات دراسة .

وثمة مقترحات تبينت ، من خلال هذه الدراسة ، من أبرزها :

- تكثيف دراسة العتاب والشكوى ، بكونهما غرضين مستقلين بذاتهما ، من الناحية الموضوعية والفنية .
- استنباط دوافع العتاب والشكوى في الشعر العربي في كل عصر ؛ وذلك بربطهما بالدراسة التاريخية ، والاجتماعية ، والنفسية .
- ألا يُنظر إلى شعر أبي فراس نظرة ، تجعل الدارس يُحجم عنها ؛ بذريعة كثرة الدراسات ، أو عزو أهمية ذلك إلى الأسر ، فحسب !! بل شأنه في ذلك شأن بقية الشعراء الذين لم تُرتج الأبواب خلفهم ، وقد أثبتت الدراسة أنّ أهمية عتابه وشكواه لم تنبثق من الأسر ؛ بل إنّ الأسر عامل من جملة عوامل .
- إنّ وَضْع الشاعر في ميزان النقد ، ليس بالضرورة أن يكون ذلك الميزان النقدي، الذي قاسه به نقاد عصره ، ومن أتى بعدهم من محدثين ؛ بل قد يجد صاحب النفس الرهيفة ، ما لم يجده غيره ، كما أنّ كثيراً من الدراسات ظلت تكرر وتعلق ، فكانوا كمن يدور حول الحمى .

فهرس المصادر والمراجع

الكتب :

(١) الإبـداع والعبقريـة : د عـادل الألوسـي ، دار الفكـر العـربي ، ط ١ ، القـاهرة ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

(٢) أبوحيان التوحيدي ... مغترباً : د . بركات محمد مراد (أُنظر الدوريات) .

(٣) أبـو فـراس الحمـداني حياتـه و شـعره : د . عبـدالجليل حسـن عبدالمهـدي ،(ب.ط) ١٩٨١م.

(٤) أبو فراس الحمداني شاعر الفروسية والوجدان : د. محمد محمود ، دار الفكراللبناني ، ط ١، بيروت ، ١٩٩٤ .

(٥) أبـو فـراس الحمـداني فتـوة رومنسـية : خليـل شـرف الـدين ، منشـورات دار ومكتبـة الهلال ، (ب . ط) ، بيروت ، ١٩٩٦م .

(٦) أبو فراس الحمداني الموقف و التشكيل الجمالي : د . النعمان القاضي ، دار الثقافة للنشر و التوزيع ،(ب.ط) ، ١٩٨٢م .

(٧) أبو فراس فارس بني حمدان وشاعرهم : د . عمر فروخ ، دار لبنان للطباعة والنشر ، ط ٢ ، بيروت ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

(٨) الاتجـاه الوجـداني في رومياـت أبي فـراس الحمـداني : إلهـام بنـت عبـد العزيـز الغنـام ، جامعة الملك فيصل . (رسالة مطبوعة) .

(٩) الاتجاهـات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية : د . مسعد بن عيد العطوي ، مكتبة التوبة ، ط ١ ، الرياض ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م . (رسالة مطبوعة) .

(١٠) أثـر الاغـتراب في شـعر أبي فـراس الحمـداني مظـاهره وسماتـه الفنيـة ، الجـوهرة عبـد العزيز المعيوف ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨ . (رسالة مخطوطة) .

(١١) أخبـار الـدول المنقطعـة : الشـيخ الإمـام جمـال الـدين أبـو الحسـن علـي بـن منصـور ظافر بن حسن الأزدي ، تحقيق : د . عصام هزايمة ، وآخرون ، مؤسسة حمادة ،

ودار الكندي للنشر ، ط١ ، إربد ، الأردن ، ١٩٩٩م .

(١٢)الأدب ومذاهبه : د . محمد مندور ، نهضة مصر ، (ب . ط) ، القاهرة ، ١٩٩٨

(١٣) الأسر والسجن في شعر العرب (تاريخ ودراسة) ، د ٠ أحمد مختار البرزة، مؤسسة علوم القرآن ، ط١ ، دمشق ، بيروت ، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م

(١٤) أسرار البلاغة : الشيخ أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، دار المدني ، جدة ، ط ١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م

(١٥)الأسس الفنية للإبداع الفني في الشعر خاصة ٠ د٠ مصطفى سويف ، دار المعارف ، ط ٣ ، مصر ، ١٩٥٩.

(١٦)الأسس النفسية للنقد الأدبي : د ٠ عبد الحميد يونس ، دار المعرفة ، ط٣، القاهرة ، ١٩٧٩ ٠

(١٧) أسس النقد الأدبي عند العرب : د٠ أحمد أحمد بدوي ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، (ب ٠ ط) ، القاهرة ، (ب ٠ ت) ٠

(١٨) الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ٠ د٠ احمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط١١ ، ٢٠٠٠ ٠

(١٩) الأسلوب دراسة لغوية إحصائية : د٠ سعد مصلوح ، عالم الكتب ، ط٣، القاهرة، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م ٠

(٢٠) أصوات النص الشعري : د٠ يوسف حسن نوفل ،مكتبة لبنان ، ط١ ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٥ ٠

(٢١) أصول النقد الأدبي : أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، ط١ ، القاهرة،٢٠٠٢م .

(٢٢) الأضداد في اللغة العربية : د٠ أحمد عبد التواب الفيومي ، كلية اللغةالعربية – قسم أصول اللغة ، ط١ ، القاهرة ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .

(٢٣) الأعلام : خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، ط ١٥ ، بيروت – لبنان، أيار – مايو ، ٢٠٠٢ ٠

(٢٤) الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين ، إعداد : مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي ، ط ١ ، بيروت – لبنان ، (ب ٠ ت) ٠
(٢٥) الاغـتراب في الشـعر العباسـي : د. سمـيرة سـلامي ، دار الينـابيع ، ط١، دمشـق ، ٢٠٠٠م .
(٢٦) الاغتراب والبطل القومي : صلاح نيازي ، مؤسسة الانتشار العربي ، ط١، لندن – بيروت ، ١٩٩٩ ٠
(٢٧) أنظمة إيقاعات الشعر العربي : د ٠ محمد مصلح الثمالي : جامعة أم القرى ، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م ٠
(٢٨) البلاغـة فنونها وأفنانها : علـم المعـاني : د . فضـل حسـن عبـاس ،دار الفرقـان للنشـر والتوزيع ، ط ٧ ، عمان – الأردن ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .
(٢٩) البيان والتبيين : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق : د ٠ درويش جويدي، المكتبة العصرية ،(ب.ط) ، صيدا – بيروت ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م –
(٣٠) تاريخ الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، اعتنى به : أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية ، (ب ٠ط) ، (ب ٠ ت) ٠
(٣١) تحول المثال دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي : صالح زامل ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٣م .
(٣٢) التفسير النفسي للأدب : د٠ عز الدين إسماعيل ، مكتبة غريب ، ط ٤، (ب ٠ ت)٠
(٣٣) التكرار في شعر الخنساء دراسة فنية : د . عبدالرحمن بن عثمان الهليل ، دار المؤيد ، ط١، ١٤١٩هـ. ١٩٩٩م .
(٣٤) تهذيب سيرة ابن هشام : عبد السلام هارون ، دار إحياء التراث العربي ، (ب .ط) بيروت – لبنان ، (ب ٠ ت)

(٣٥) تهذيب اللغة : أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري الهروي ، تحقيق : أحمد عبد الرحمن مخيمر ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٤ ، ١٤٢٥هـ ٠

(٣٦) التوافق الشخصي والاجتماعي : د٠ مصطفى فهمي ، مكتبة الخانجي ، ط١، القاهرة ، ١٩٧٩م ٠

(٣٧) ثلاث نونيات في الحنين للأوطان : د . سعاد عبدالوهاب العبدالرحمن . (أُنظر الدوريات) .

(٣٨) جمهرة أشعار العرب : لأبي زيد القرشي ، شرح وضبط وتقديم : د٠ عمر فاروق الطباع ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ، (ب ٠ ط) ، بيروت – لبنان ، (ب ٠ ت)٠

(٣٩) جمهرة الأمثال : لأبي هلال العسكري ، المكتبة العصرية ، ط١، صيدا ، بيروت ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م .

(٤٠) الجوانب الفنية في شعر محمد بن حمير الهمداني شاعر الدولة الرسولية في القرن السابع الهجري : مجدي خواجي ، مؤسسة الرسالة ، الإمارات العربية المتحدة، ط١ ، ١٤٢٢هـ– ٢٠٠١م ٠

(٤١) خزانة الأدب ولب لسان العرب : عبد القادر بن عمر البغدادي ، تحقيق: محمد نبيل طريفي ، إميل يعقوب ، دار الكتب العلمية ، (ب ٠ ط) ، بيروت ، ١٩٩٨م ٠

(٤٢) الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق :محمد علي النجار ، عالم الكتب ، (ب ، ط) ، بيروت، (ب.ت) .

(٤٣) الخيل في قصائد الجاهليين والإسلاميين : د. أحمد أبو يحي ، راجعة : د.ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية ، ط١ ، صيدا بيروت ، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م .

(٤٤) دراسات في سيكولوجية الاغتراب : د. عبداللطيف محمد خليفة ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع (ب.ط) ، القاهرة ، (ب.ت) .

(٤٥) دراسات في علم النفس الأدبي : حامد عبد القادر ، المطبعة النموذجية ، (ب ٠ط)،(ب٠ ت) ٠

(٤٦) دراسات في النقد الأدبي : وليد قصاب ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ط١ ، الرياض ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ ٠

(٤٧) دراسة الصوت اللغوي : د٠ أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، (ب ٠ ط) ، القاهرة ، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م ٠

(٤٨) دلائل الإعجاز : الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، دار المدني ، جدة ، ط٣ ، ١٤١٣هـ -١٩٩٢م ٠

(٤٩) ديوان ابن زيدون : شرح و تحقيق : كرم البستاني ، دار صادر ، ط٣ ، بيروت ، ١٤٢٤هـ _ ٢٠٠٣م .

(٥٠) ديوان ابن المعتز : شرحه : مجيد طراد ، دار الكتاب العربي، (ب ٠ ط) ، بيروت - لبنان ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م ٠

(٥١) ديوان أبي العتاهية : قدم له وشرحه : مجيد طراد ، دار الكتاب العربي ، ط٣ ، بيروت - لبنان ، ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م .

(٥٢) ديوان أبي فراس الحمداني : شرح : د . خليل الدويهي ، دار الكتاب العربي ، ط٥، بيروت — لبنان ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

(٥٣) ديوان أبي فراس الحمداني : عني بجمعه ونشره وتعليق حواشيه ووضع فهارسه : سامي الدهان ، المعهد الفرنسي بدمشق مجموعة النصوص الشرقية (ب.ط) ، بيروت ، ١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م ٠

(٥٤) ديوان أبي محجن الثقفي : صنعة أبي هلال الحسن بن عبدالله العسكري ، نشره وقدم له : د. صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد (ب.ط) ، بيروت ، (ب.ت) .

(٥٥) ديوان الأدب : أبو إبراهيم الفارابي ، ترتيب وتحقيق : عادل عبد الجبار الشاطي ،

مكتبة لبنان ، ط١ ، بيروت - لبنان ، ٢٠٠٣م ٠

(٥٦) ديوان الإمام الشافعي : جمع وتحقيق وشرح : اميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١١هـ- ١٩٩١م ٠

(٥٧) ديوان امرئ القيس : قدم له وشرحه ووضع فهارسه : د. صلاح الدين الهواري، دار ومكتبة الهلال ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٤م ٠

(٥٨) ديوان البردوني : دار العودة ، (ب . ط) ، بيروت ، ١٩٨٦م .

(٥٩) ديوان بشار بن برد : قرأه وقدم له :د٠ إحسان عباس ، دار صادر ، ط١ ، بيروت، ٢٠٠٠م ٠

(٦٠) ديوان جميل بثينة : تحقيق : اميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي، (ب ٠ط)، بيروت ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

(٦١) ديوان ديك الجن الحمصي : تحقيق وشرح : أنطوان محسن القوال ، دار الكتاب العربي ، ط٢ ، بيروت ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٤م ٠

(٦٢) ديوان السري الرفاء : تقديم وشرح : كرم البستاني ، دار صادر ، ط ٣ ، بيروت، ١٩٩٥م .

(٦٣) ديوان طرفه بن العبد : دار صادر ، (ب ٠ ط) ، بيروت ، (ب٠ ت) .

(٦٤) ديوان عمر بن أبي ربيعة : قدّم له وضع هوامش وفهارسة د.فايز محمد ، دار الكتاب العربي ، (ب.ط) ، بيروت — لبنان ، ١٤٢٥هـ -٢٠٠٤ م

(٦٥) ديوان عمرو بن كلثوم التغلبي : جمعه وحققه وشرحه : د ٠ اميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، ط٣ ، بيروت ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م٠

(٦٦) ديوان الفرزدق : قدم له وشرحه : مجيد طراد ، دار الكتاب العربي ،(ب . ط)، بيروت ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م ٠

(٦٧) ديوان لبيد بن ربيعة : شرح الطوسي ، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه : د٠ حنا نصر الحتي ، دار الكتاب العربي ، ط ٢ ، بيروت ، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م ٠

(٦٨) ديوان مجنون ليلى : شرح : د . يوسف فرحات ، دار الكتاب العربي، (ب . ط)

بيروت — لبنان ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م .

(٦٩) ديوان المعاني : تأليف : أبي هلال العسكري ، تحقيق : أحمد سليم غانم ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م ٠

(٧٠) . ديوان المعتمد بن عباد ملك أشبيلية ، جمع وتحقيق : د . رضا الحبيب السويسي ، الدار التونسية للنشر ، (ب ط) ،١٩٧٥م .

(٧١) . ديوان مهلهل بن ربيعة : دار صادر ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٦م .

(٧٢) رسائل أبي بكر الخوارزمي : أبو بكر الخوارزمي ، منشورات دار مكتبة الحياة ، (ب ٠ ط) ، بيروت ، ١٩٧٠م ٠

(٧٣) . رؤية نفسية لروائع مختارة من الشعر العربي : د. محمود محمد ميلاد ، دار عمار للنشر و التوزيع ، ط١ عمان ، ١٤٢٤هـ _ ٢٠٠٤م

(٧٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب : كمال الدين أبوالقاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم الحلبي الحنفي ، وضع حواشيه : خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت – لبنان ، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م٠

(٧٥) سيف الدولة الحمداني مملكة السيف ودولة الأقلام : د ٠ مصطفى الشكعة ، الدار المصرية اللبنانية ، ط٣ ، القاهرة ، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م٠

(٧٦) . شاعر بني حمدان : أحمد أحمد بدوي ، مكتبة الأنجلو ، ط٢ ، ١٩٥٢ ٠

(٧٧) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : لبهاء الدين عبدالله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري ، المكتبة العصرية ، (ب.ط) ، صيدا ، بيروت ، ١٤٢٣هـ. ٢٠٠٢م) .

(٧٨) شرح ديوان أبي تمام : الخطيب التبريزي ، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه : راجي الأسمر، دار الكتاب العربي ، (ب ٠ط) ، بيروت – لبنان ، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥م.

(٧٩) شرح ديوان حافظ إبراهيم : تهذيب وتعليق : يحي شامي ، دار الفكر العربي ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٨م – ١٤٠٩هـ ٠

(٨٠) شرح ديوان الخنساء : شرح وتحقيق : عبد السلام الحوفي ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت – لبنان ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م ٠

(٨١) شرح ديوان عنترة بن شداد : الخطيب التبريزي ، قدم له ، ووضع هوامشه وفهارسه : مجيد طراد ، دار الكتاب العربي ، (ب ٠ ط) ، بيروت – لبنان ، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م ٠

(٨٢) شرح المعلقات السبع : أبوعبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني ، دار الكتاب العربي ، ط ٦ ، بيروت ، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م ٠

(٨٣) شعر أبي فراس الحمداني دراسة فنية : ماجدولين وجيه بسيسو ، جامعة الملك سعود، ط١ ، الرياض ، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م . (رسالة مطبوعة) (٨٤) شعر أبي فراس الحمداني دلالته وخصائصه الفنية : عبد اللطيف عمران ، دار الينابيع، ط ١ ، دمشق ، ١٩٩٩ ٠

(٨٥) شعر الشريف الرضي ومنطلقاته الفكرية : د ٠ عبد اللطيف عمران ، دار الينابيع ، ط ١ ، دمشق ، ٢٠٠٠م .

(٨٦) شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ : د٠ نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الأقصى، (ب ٠ ط) ، عمان ، (ب ٠ ت) ٠

(٨٧) الشكوى في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري : د٠ ظافر بن عبد الله الشهري ، جامعة الملك فيصل ، مطابع الحسيني الحديثة ، ط١ ، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م (رسالة مطبوعة) .

(٨٨) الشكوى والعتاب وما وقع للخلان والأصحاب : لأبي منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي ، تحقيق : د . إلهام عبدالوهاب المفتي ،كلية التربية الأساسية ، قسم اللغة العربية ، ط١ ، الكويت ، ١٤٢١هـ. ٢٠٠٠م .

(٨٩) صبح الأعشى في صناعة الإنشا : القلقشندي أحمد بن علي بن احمد الغرازي ، تحقيق : عبد القادر رزكار ، وزارة الثقافة ، (ب ٠ ط) ، دمشق ، ١٩٨١م ٠

(٩٠) الصحة النفسية والعلاج النفسي : د٠ حامد عبد السلام زهران ، عالم الكتب ، ط٣ ، ١٩٩٧ ٠

(٩١) صحيح البخاري : الإمام أبوعبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري الجعفي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، (ب ٠ ط) ، ١٤٠١هـ-١٩٨١م .

(٩٢) صحيح مسلم : الإمام الحافظ أبوالحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، بيت الأفكار الدولية ، (ب ٠ ط) ، لبنان ، ٢٠٠٥م .

(٩٣) الصداقة والصديق : لأبي حيان التوحيدي ، شرح وتعليق : علي متولي صلاح، مكتبة الآداب ، (ب٠ ط) ، (ب ٠ ت) ٠

(٩٤) الصناعتين : لأبي هلال حسن بن عبدالله بن هلال العسكري ، حققه وضبط نصه : د.مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، ط٢ ، بيروت- لبنان ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م .

(٩٥) الصورة الفنية في الشعر العربي مثال ونقد : إبراهيم عبد الله الغنيم ، الشركة العربية للنشر والتوزيع ، ط١ ، القاهرة ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م ٠

(٩٦) طوق الحمامة : ابن حزم الأندلسي ، دار صادر ، ط١ ، بيروت ، ١٤٢٤هـ _ ٢٠٠٣م .

(٩٧) الطيف والخيال في الشعر العربي القديم : د ٠ حسن البنا عز الدين ، دار المناهل ، ط٣ ، بيروت - لبنان ، ١٩٩٤م- ١٤٢٥هـ

(٩٨) ظهر الإسلام : أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، ط ٥ ، بيروت – لبنان ، (ب ٠ ت)

(٩٩) العاطفة والإبداع الشعري دراسة في التراث النقدي عند العرب إلى نهاية القرن الرابع الهجري ، د٠ عيسى علي العاكوب ، دار الفكر ، ط١ ، دمشق ، سورية، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م ٠

(١٠٠) العالم الإسلامي في العصر العباسي : د . حسن أحمد حمود ، د . أحمد إبراهيم الشريف ، دار الفكر العربي ، (ب . ط) ، القاهرة ، (ب . ت) .

(١٠١) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب : الشيخ ناصيف اليازجي ، راجعه: د٠ يوسف فرج عاد ، دال الجيل ، (ب٠ ط) ، بيروت ، (ب ٠ت)٠

(١٠٢) عشائر الشام : أحمد وصفي زكريا ، دار الفكر ، ط ٢، دمشق ، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(١٠٣) عصر أبي فراس الحمداني : يوسف بكار ، مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ، ط١ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

(١٠٤) العقد الفريد : أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، تحقيق : محمد التونجي ، دار صادر ، ط١ ، بيروت - لبنان ، ٢٠٠١ م .

(١٠٥) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية ط١ ، صيدا ، بيروت ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .

(١٠٦) عيون الأخبار : ابن قتيبة الدينوري ، تحقيق د. محمد الإسكندراني ، دار الكتاب العربي ، ط٥ ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م .

(١٠٧) الغرباء الأولون : سلمان بن فهد العودة ، ص٢٣ ، دار ابن الجوزية ، ط١ ، الإصدار الثاني ، ١٤٢٦هـ .

(١٠٨) الغربة في الشعر الجاهلي : دراسة : عبدالرزاق الخشرم ، منشورات اتحاد الكتاب العربي ، (ب .ط) ، دمشق ، ١٩٨٢م .

(١٠٩) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي : فاطمة طحطح ، مطبعة النجاح الجديدة ، ط١ ، الدار البيضاء ، ١٩٩٣م .

(١١٠) فتح الباري شرح صحيح البخاري : أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، تحقيق : محب الدين الخطيب ، دار المعرفة ، (ب ٠ط) ، بيروت ، (ب ٠ ت)

(١١١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير : محمد بن علي الشوكاني ، دار الفكر العربي ، (ب٠ ط) ، بيروت ، (ب ٠ ت) ٠

(١١٢) الفروق اللغوية : أبو هلال العسكري ، تعليق : محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، ط ٢ ، بيروت — لبنان ، ٢٠٠٣م - ١٤٢٤هـ .

(١١٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : د .شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط١٢، القاهرة، (ب . ت)

(١١٤) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين : د ٠ مصطفى الشكعة ، مكتبة الأنجلو المصرية، (ب ٠ ط) ، (ب ٠ ت) .

(١١٥) في الشعر العباسي نحو منهج جديد : د٠ يوسف خليف ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، (ب ط) ، القاهرة ، (ب ٠ ت)٠

(١١٦) في النقد الأدبي : د ٠ شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط٨ ، القاهرة ، (ب٠ت)٠

(١١٧) قاموس علم النفس : يوسف ميخائيل أسعد ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، (ب ٠ ط) ،القاهرة ، (ب٠ ت) ٠

(١١٨) القرآن الكريم ٠

(١١٩) الكامل في التاريخ : عز الدين أبوالحسين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير ، تحقيق : الشيخ خليل مأمون شيما ، دار المعرفة ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م ٠

(١٢٠) كتاب الأضداد : لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت ، حققه : محمد عودة سلامة أبو جري ، مراجعة د . رمضان عبد التواب ، مكتبة الثقافة الدينية ، (ب . ط) ، بورسعيد ، (ب . ت) .

(١٢١) كتب وشخصيات : سيد قطب دار الكتب العربية ، (ب ٠ ط) ، بيروت ، (ب ٠ ت)٠

(١٢٢) الكليات : لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ، إعداد : د٠ عدنان درويش ، محمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ، بيروت – لبنان ، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م ٠

(١٢٣) لسان العرب : ابن منظور ، دار صادر ، ط٦ ، بيروت ، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م٠

(١٢٤) اللغة الكونية في جماليات الفكر الشعري في بائية ذي الرمة : جامعة أم القرى ، معهد البحوث العلمية مركز بحوث اللغة العربية وآدابها ، ط١ ، مكة المكرمة ، ١٤٢٣هـ

(١٢٥) الليل في الشعر الجاهلي : نوال مصطفى أحمد إبراهيم ، كلية الآداب – جامعة اليرموك . (رسالة مخطوطة).

(١٢٦) المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر : لضياء الدين بن نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن الأثير الجزري ، تحقيق و تعليق : الشيخ كامل محمد محمد عويضة ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت – لبنان ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

(١٢٧) المحاسن والأضداد : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري ، قدم له وشرحه ووضع فهارسه : د. صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية ، ط١ ، صيدا – بيروت ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م٠

(١٢٨) المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي : د. رمضان عبدالتواب ، مكتبة الخانجي، ط٢ ، القاهرة ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

(١٢٩) مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية :د٠ عبد الحليم حفني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (ب ٠ ط) ، (ب ٠ ت) ٠

(١٣٠) معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب : ياقوت الحموي الرومي ، تحقيق: د٠ إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، ط١ ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٣

(١٣١) معجم البلدان : ياقوت الحموي ، تحقيق : فريد عبد العزيز الجندي ، دار الكتب العلمية (ب٠ ط) ، بيروت ، (ب ٠ ت)

(١٣٢) معجم قبائل العرب القديمة والحديثة: عمر رضا كحالة ، مؤسسة الرسالة ، ط٨، بيروت ، ١٤١٨هـ -١٩٩٧م ٠

(١٣٣) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع : الوزير الفقيه : أبوعبيد ، عبد الله بن عبد العزيز البكري ، تحقيق : مصطفى السقا ، مكتبة الخانجي ، ط٣، القاهرة ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م٠

(١٣٤) معجم مقاييس اللغة : لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق و ضبط : عبدالسلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤٢٠هـ _ ١٩٩٩م .
(١٣٥) المقتضب : لأبي العباس محمد بن يزيد بن المبرد ، ت : محمد عبدالخالق عضيمة ، عالم الكتب ، (ب . ط) ، (ب . ت) .
(١٣٦) مقدمة في الصحة النفسية : د ٠ عبد السلام عبد الغفار ، دار النهضة العربية ، (ب٠ ط) ، (ب ٠ ت) ٠
(١٣٧) من تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني (القرن الرابع الهجري):طه حسين، دارا لعلم للملايين ، (ب ٠ ط) ، بيروت ، (ب٠ ت) ٠
(١٣٨) من السجون إلى الحرية : بيير داكو ، ترجمة : سامي علام ، دار الغربال ، ط١، دمشق ، ١٩٩٢ ٠
(١٣٩) من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده : محمد خلف الله احمد ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ط ٣ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ٠
(١٤٠) موسوعة موسيقى الشعر العربي عبر العصور والفنون ، د ٠ عبد العزيز نبوي، دار اقرأ للنشر والتوزيع ، ط١ ، القاهرة ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م ٠
(١٤١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : أحمد بن محمد المقري التلمساني ، تحقيق: إحسان عباس ، دار صادر ، (ب ٠ ط) ، بيروت ، ١٣٨٨هـ ٠
(١٤٢) النفس البشرية : د٠ سيد عبد الحميد مرسي ، دار التراث العربي ، ط١، القاهرة، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢ م ٠
(١٤٣) النفس و العبقرية : د. عادل الألوسي ، دار الفكر العربي ، ط١ ، القاهرة ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .
(١٤٤) النقد الأدبي : أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٣ ، القاهرة ، ١٩٦٣
(١٤٥) النقد الأدبي أصوله ومناهجه : سيد قطب ، دار العربية للطباعة والنشر،ط٤، بيروت ، ١٩٦٦ ٠

(١٤٦) النقد الأدبي الحديث : محمد غنيمي هلال ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، (ب٠ ط) ، القاهرة ، ٢٠٠٤ ٠
(١٤٧) النقد الأدبي (٢) الصورة الفنية : مجموعة أعمال جابر عصفور ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م
(١٤٨) نقد الشعر في القرن الرابع الهجري : د ٠ قاسم مومني ، دار الإصلاح للطباعة والنشر ، (ب٠ ط) ، الدمام ، (ب ٠ ت) ٠
(١٤٩) النقد العربي القديم (٢) قضايا نظرية ودراسات تطبيقية : د ٠ أحمد علي دهمان ، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية ، (ب ٠ ط) ، (ب ٠ت)٠
(١٥٠) الوافي بالوفيات : صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي، ط١ ، بيروت ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م ٠
(١٥١) وفيات الأعيان وأنباء الزمان : لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، تحقيق: د٠ إحسان عباس ، دار صادر ، (ب ٠ط) ، بيروت، (ب٠ ت)
(١٥٢) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر : لأبي منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري، تحقيق : د٠ مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت – لبنان ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م٠

المجلات والدوريات :

(١) أبوحيان التوحيدي ... مغترباً : الرسالة ١٥٢ ، الحولية الحادية والعشرون ، مجلس النشر العلمي ، جامعة الكويت ، ١٤٢١هـ -١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٠م - ٢٠٠١م .

(٢) ثلاث نونيات في الحنين للأوطان : حوليات الآداب و العلوم الاجتماعية ، دورية علمية محكمة ، الرسالة ١٨٤، الحولية الثانية والعشرون ، مجلس النشر العلمي ، جامعة الكويت، ١٤٢٢هـ - ١٤٢٣هـ .

(٣) دورة أبو فراس الحمداني ، الدورة السابعة ، الجزائر ، أكتوبر ٢٠٠٠م.

(٤) مجلة الأزهر: تصدرها مشيخة الأزهر : ج١ / مج١٧ ، محرم ، ١٣٦٥

(٥) المجلة العربية : ع ٩ ، السنة الثانية .

(٦) المجلة العربية : ع ١٠-١١ ، السنة الثانية .

(٧) المجلة العربية للعلوم الإنسانية : ع ٤٥ ، خريف ١٩٩٣ ، مجلة محكمة .

(٨) مجلة الفيصل : س ١٣ ، ع ١٥٣ ، ربيع الأول ، تشرين الأول (أكتوبر) .

(٩) مجلة الفيصل : ع ١٩٠ ، ربيع الثاني ، ١٤١٣هـ ، أكتوبر ، ١٩٩٢م .

(١٠) مجلة كلية الآداب : ع ١٣ ، ١٩٧٠م ، بغداد ، مطبعة المعارف .

(١١) محاضرات الموسم الثقافي : ج٤ ، ١٩٦١-١٩٦٢ ، مطبعة الوزارة ، دمشق .

ملخص البحث :

درس هذا البحث العتاب و الشكوى في شعر أبي فراس الحمداني ، و بيّن عواملهما، و مدى ارتباطهما بحياته ، و صلتهما الوثيقة بنفسيته و بالظروف التي أحاطت به في حياته ، و كانت من العوامل المؤثرة عليه مثل : جور الأقارب و تنكرهم له ، و أثر الأسر، الذي لم يكن العنصر الوحيد في حياة الشاعر و بالأخص في عتابه و شكواه ؛ لأنّ الدراسة استطاعت أنْ تُوجد الصلة القوية بين الغرضين قبل الأسر و بعده ، و أنّ جذورهما تضرب في الأعماق ، ولم يكن الأسر سوى عامل من العوامل و قد عجّت حياة الشاعر بالأحداث التي أبرزت الغرضين .

و وضحت الدراسة مدى تمازج الغرضين ، و ارتباطهما الوثيق ببعض ؛ نظراً لتشابههما، و تشابك أفنانهما ، كما بيّنت أهم محاورهما ، مثل : الأمير الفارس يُعاني ذل الأسر ، مرارة الغربة ، المرض ، الشوق و الحنين ، الخذلان .

و تناول البحث الخصائص الفنية لشعر العتاب و الشكوى ، فكشف عن بعض الخصائص اللغوية و الأُسلوبية التي نقلت ما كان يستعر في أحشائه بطريقة تُناسب الموقف ، فكانت جمرة يُلقيها على مُعَاتبه ، أو برداً يُريقه على كبده ، فلم تكن ألفاظه تضيق ذرعاً بالموقف، بل نقلت التجربة الشعرية و صاغتها في عبارات تلفظ الشدة والغضب ، أو تنساب منها الرقة والعذوبة ، كما وقف البحث على الموسيقى الشعرية و الصورة الفنية ، و هي وسيلته في الجذب و نقل المعنى ، كما وضعت هذه الدراسة الشاعر في ميزان النقد ، و بينت بعض آراء النقاد بما له و ما عليه .

Summary of the Research

This research placed particular emphasis on themes of blame and complaint in the poems of Abu Firas Alhamadani; the underlying causes and how deeply enshrined these issues were in his life were also studied. The research also considered in depth how these factors were interrelated and intertwined with his personality and the circumstances that have impacted and affected the poet's life, such as: the ill-treatment and disregard he received from his people; the time he spent in captivity was not the only profound factor – which many came to believe - in the poet's life that have influenced his resort to blame and complaint in his poems. This study found out that there were strong relationships between blame and complaint in the poems both before and after captivity. The study concluded that captivity was not the major factor that influenced his poems but rather one of the many factors that were deeply rooted and intertwined in the poet's life, blame and complaint have however protruded most.

The study found out that the two factors are perfectly mixed and interrelated because of the symmetries between them. The study disclosed the main themes of blame and complaint such as: a courageous prince facing captivity: the impact of alienation; sickness; longing to; and deep sadness; and being let-down.

The research analyzed the artistic attributes of the poetry of blame and complaint. The analysis also revealed how particular linguistic and style attributes adopted by the poet succeeded in conveying what he felt deep in his innersole. His linguistic talent and style enabled him to send a stink of fire to his critics and solace to himself. His chosen words did not show that he was sick of the situation he was in, but rather conveyed his poetic experience in such a way that reflected harshness and anger at one point as well as lenience and beauty at the other. The study also revealed the poets ability to reflect an artistic picture which was his successful method of attracting the readers and conveying the meaning. The study also placed the poet in the light of criticism, reviewed and elaborated further on other critics for and against the poems of Abu Firas Alhamadani.

I

Kingdom of Saudi Arabia

Ministry Of High Education
Riyadh university for girls
Faculty of education-arts department

Complaint and Reproach in the Poetry of Abu Firas Al-Hamdani (320-357AH): An Analytical and Technical Study

A Dissertation Submitted to the Arabic Language Department
Riyadh Unversity
In Fulfillment of the Requirements of the Degree of
Master of Arts in Ancient Poetry

Submitted by

Eman bint Mahmeeha bin Ali Al-Asmary
Teaching Assistant in Tabuk
(Faculty of Education – Arts department)
Arabic Language Department

Supervised by

Dr. Sabir Ahmed Abdulhafiz Ibrahim
Associate Professor
Distant Learning Centre
Ministry of Higher Education

٢٠٠٧م/١٤٢٨هـ